السيرة النبوية
عرض وقائع وتحليل أحداث
(دروس وعبر)

تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصلابي

الجزء الرابع

السيرة النبوية

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

المبحث الثَّاني

صلح الحديبية[(١)] وما ترتَّب عليه مِنْ أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرٍو لرسول الله (ص):

لما بلغ قريشاً أمر بيعة الرِّضوان ، وأدرك زعماؤها تصميم الرَّسول (ص) على القتال؛ أوفدوا سهيل بن عمرو في نفرٍ من رجالهم لمفاوضة النَّبيِّ (ص)[(٢)] ، ولما رأى رسول الله (ص) سهيلاً؛ قال: لقد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرَّجل[(٣)].

كان سهيل بن عمرٍو أحدَ زعماء قريشٍ البارزين الَّذين كانوا يُعْرَفون بالحنكة السِّياسيَّة، والدَّهاء، فهو خطيبٌ ماهرٌ، ذو عقلٍ راجحٍ، ورزانةٍ ، وأصالةٍ في الرَّأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصُّلح ، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وقد استعرض الفريقان النُّقاط الَّتي يجب أن تتضمَّنها معاهدة الصُّلح ، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا الَّتي كانت تشكِّل مثار الخلاف بينهما ، هذا وقد اتَّفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النُّقاط ، واختلفا على البعض الاخر ، وقد طال البحث ، والجدل ، والأخذ والرَّدُّ حول هذه البنود ، وبعد المراجعات ، والمفاوضات تقاربت وجهات النَّظر بين الفريقين.

وعند الشُّروع في وضع الصِّيغة النِّهائية للمعاهدة ، وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسميّاً حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط ، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقيَّة ، فعندما شرع النَّبيُّ (ص) في إملاء صيغة المعاهدة المتَّفق عليها؛ أمر الكاتب ، وهو الإمام عليُّ بن أبي طالبٍ بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» ، وهنا اعترض رئيس الوفدِ القرشيِّ سهيلُ بن عمرٍو قائلاً: لا أعرف الرَّحمن! اكتب: «باسمك اللَّهُمَّ» ، فضجَّ الصَّحابة على هذا الاعتراض ، قائلين: هو الرَّحمن ، ولا نكتب إلا الرَّحمن ، ولكنَّ النَّبيَّ (ص) تمشياً مع سياسة

الحكمة ، والمرونة ، والحلم ، قال للكاتب: «اكتب: باسمك اللَّهُمَّ»[(٤)] ، واستمرَّ في إملاء صيغة المعاهدة هذه ، فأمر الكاتب أن يكتب: «هذا ما اصطلح عليه رسول الله» ، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشيِّ على كلمة (رسول الله) قائلاً: لو أعلم أنَّك رسولُ الله ما خالفتُك ، واتَّبعتُك ، أفترغب عن اسمك ، واسم أبيك محمَّد بن عبد الله؟! اكتب اسمك ، واسم أبيك(١).

واعترض المسلمون على ذلك ، ولكن رسول الله (ص) بحكمته ، وتسامحه ، وبُعْدِ نظره حسم الخلاف ، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة ، فالتزم الصَّحابة الصَّمت ، والهدوء.

إنَّ النَّبيَّ (ص) وافق المشركين على ترك كتابة «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» وكتابة « باسمك اللَّهم» بدلاً عنها ، وكذا وافقهم على كتابة «محمَّد بن عبد الله» وترك كتابة «رسول الله (ص) » ، وكذا وافقهم على ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم ، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمَّة الحاصلة بالصُّلح ، مع أنَّه لا مفسدة في هذه الأمور ، أمَّا البسملة ، وباسمك اللَّهمَّ فمعناهما واحدٌ ، وكذا قوله «محمَّد بن عبد الله» هو أيضاً رسولُ الله (ص) ، وليس في ترك وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا الموضع بالرَّحمن الرَّحيم ما ينفي ذلك ، ولا في ترك وصف النَّبي (ص) بالرِّسالة ما ينفيها ، فلا ضرر ، ولا مفسدة فيما طلبوه ، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحلُّ من تعظيم الهتهم ، ونحو ذلك.

وأمَّا شرط ردِّ مَنْ جاء منهم ، وعدم ردِّ من ذهب إليهم ، فقد بيَّن النَّبيُّ (ص) تعليل ذلك ، والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله: «مَنْ ذهب منَّا إليهم فأبعده الله! ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ، ومخرجاً» ، ثمَّ كان كما قال (ص) . [سبق تخريجه][(٥)].

وتمَّ عقد هذه المعاهدة، وكانت صياغتُها من عشرة بنود جاءت على الشَّكل التَّالي:

١ ـ باسمك اللّهم.

٢ ـ هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

٣ ـ واصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضُهم عن بعضٍ.

٤ ـ على أنَّه مَنْ قدم مكَّة من أصحاب محمَّد حاجاً ، أو معتمراً ، أو يبتغي من فضل الله؛ فهو امنٌ على دمه ، وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر ، أو إلى الشَّام ، يبتغي من فضل الله؛ فهو امنٌ على دمه ، وماله.

٥ ـ على أنَّه مَنْ أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه؛ ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممَّن مع محمَّد ، لم يردُّوه عليه.

٦ ـ وأنَّ بيننا عَيبةً مكفوفةً ، وأنَّه لا إسلال ، ولا إغلال[(٦)].

٧ ـ وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عَقْدِ محمَّدٍ ، وعهده دخله ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريشٍ ، وعهدهم دخل فيه. (فتواثبت خزاعة ، فقالوا: نحن في عقد محمَّد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا: نحن في عقد قريشٍ ، وعهدهم).

٨ . وأنت ترجع عنَّا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكَّة ، وأنَّه إذا كان عام قابلٍ خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاحُ الرَّاكب ، السُّيوف في القُرُب ، ولا تدخلها بغيرها.

٩ . وعلى أنَّ هذا الهَدْيَ وما جئتنا به؛ فلا تقدمه علينا.

١٠ . وشهد على الصُّلح رجالٌ من المسلمين ، ورجالٌ من المشركين:

فمن المسلمين: أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقَّاص ، ومحمَّد بن مسلمة ، وعليٌّ بن أبي طالبٍ كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المشركين: مِكْرزَ بن حفص ، وسهيل بن عمرو[(٧)].

تُعَدُّ هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلاميَّة ، وأنموذجاً فريداً للمعاهدات الدَّوليَّة بما سبقها من مفاوضاتٍ ، وما حوته مِنْ شروطٍ ، وما تمثَّل بها من خلق النَّبيِّ (ص) في النُّزول عند رضا الطَّرف الاخر ، وفي كيفية الصِّياغة والالتزام. هذه المعاهدة سبقها مفاوضاتٌ من قبل المشركين ، والمسلمين ، وفشل بعض الممثِّلين في الوصول إلى اتفاق ، ودارت مشاوراتٌ شتَّى من الجانبين قبل الوصول إليه ، حتَّى توصل الفريقان إلى اتفاقٍ عن طريق ممثِّل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله (ص) على ملأ المسلمين.

عُقدت هذه المعاهدة في الوقت الَّذي كان فيه المسلمون بمركز القوَّة ، لا الضَّعف ، وكان باستطاعتهم ألاَّ يقبلوا شروطها الَّتي اغتاظ منها كثيرٌ من الصَّحابة ، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله (ص) الَّذي لا ينطق عن الهوى ، وقد تمادى رسول قريشٍ على رسول الله (ص) في مفاوضته ، وكان فرداً بين جيش المسلمين ، فلم ينله أذىً ، ولم يتمادَ عليه المسلمون بالقتل؛ «لأنَّ السُّفراء لا تُقتل» ، ولكنَّ رسول الله (ص) يرضيه ، ويسعه بالحلم ، واللِّين ، حتَّى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام ، وهي حقن الدِّماء ، وإحلال السَّلام ، ورجاء أن يعقل القوم الحقَّ ، وأن يراجعوا المواقف ، ويسمعوا كلام الله[(٨)] ، وتدخل الدَّعوة الإسلاميَّة طوراً جديداً بصورٍ أخرى في الانتشار والاتِّصال بالنَّاس ، وعندما نتأمَّل نصوص المعاهدة التي تمَّت في الحديبية فإننا نأخذ منها الاتي:

١ . أنَّ ديباجة المعاهدات الإسلاميَّة كانت تبدأ باسم الله ، أو باسمك اللّهمَّ ، والقانون الدَّولي في صياغة المعاهدات يقول: «تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتَّفق عليها طرفا التَّعاقد».

والَّذي يجب أن نلاحظه: أنَّ المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله تعالى؛ الَّذي تبدأ باسمه سبحانه ، حيث هو الرَّقيب ، والحسيب على ما في النَّوايا والقلوب ، واسم الله مقدَّسٌ في كلِّ قلبٍ يؤمن به ، حتَّى أولئك الذين فسدت عقائدُهم ، فإنَّهم لا ينكرون الله ، ولكنَّهم أفسدوا تصوُّرهم لذات الله ، وقد جرت أعراف بعض الَّذين يستهوون قلوب العامَّة بالشِّعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله: باسم الشَّعب ، أو باسم الأمَّة ، باعتبار قدسيَّة ما يبدؤون به كما يزعمون ، ولكنَّ الَّذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده ، ولذلك كانت البداية «باسمك اللَّهُمَّ».

٢ . ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الدِّيباجة) كما يسمِّيها القانون الدَّوليُّ ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام من أنَّه يذكر بعد الدِّيباجة أسماء الممثِّلين ، أو الدُّول الَّتي هي أطراف في عقد المعاهدة.

٣ . بواعث المعاهدة: فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصُّلح لأجل وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضهم عن بعضٍ ، وهذا ما عليه القانون الدَّولي العام كذلك.

٤ . الدُّخول في صلب المعاهدة ، وشروطها ، حيث ذكر رسول الله (ص) في هذه المعاهدة الشُّروط المتَّفق عليها بين الطَّرفين ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام.

٥ . في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام (رئيس الدَّولة الإسلاميَّة) بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقَّف ذلك على أن يكون ابتداء الطَّلب منهم[(٩)].

٦ . أنَّ مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزٌ للمصلحة الرَّاجحة ، ودفع ما هو شرٌّ منه ، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها[(١٠)].

٧ . أنَّ صلح الحديبية سمَّاه الله فتحاً؛ لأنَّ الفتح في اللُّغة هو فتح المغلق ، والصُّلح الَّذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله ، والصُّلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطَّرف الاخر.

لقد كانت الصُّورة الظَّاهرة في شروط الحديبية فيها ضيمٌ للمسلمين ، وهي في باطنها عزٌّ ، وفتحٌ ، ونصرٌ ، حيث كان رسول الله (ص) ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء سترٍ رقيقٍ ، وكان يعطي المشركين كلَّ ما سألوه من الشُّروط الَّتي لم يحتملها أكثر أصحابه ، ورؤوسهم ، وهو (ص) يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوبٍ[(١١)].

٨ . إنَّ المعاهدة قد تكون مفتوحةً لمن يحبُّ أن يدخل فيها من الأطراف ، أو الدُّول الأخرى، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ؛ حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحةً لمن يحبُّ الدُّخول فيها من الأطراف

الأخرى، فقد دخلت خزاعة ، وكنانة في الصُّلح الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والَّتي امتدَّت سنواتٍ عديدةً[(١٢)].

٩ . إنَّ المعاهدة لابدَّ لها من توقيع الأطراف ، والإشهاد عليها ، وتوقيع رسول الله (ص) وإشهاد أصحابه إنَّما هو بمثابة التَّوقيع على المعاهدة ، والتَّصديق عليها ، كما هو في القانون الدَّوليّ العامّ.

١٠ . إنَّ المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً ، أو طرفاً يقرِّب بين وجهات النَّظر ، كوساطة سيد الأحابيش (الحُلَيْس بن عَلْقَمَةَ) حليف قريش الأكبر ، حيث طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين ، وكان الحُلَيْسُ ذا عقلٍ راجحٍ ، وبصيرةٍ نافذةٍ ، وكان سيِّداً مطاعاً ، وكان رسول الله (ص) يعرفه ، ويعرف فيه التألُّه الشَّديد ، والتَّعظيم للحرم.

وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب ، ولما يتمتَّع به من تقديرٍ لدى النَّبيِّ (ص) تأثيرٌ على الرَّسول (ص) وأصحابه[(١٣)].

وهذا ما يقرُّه القانون الدَّوليُّ؛ حيث إنَّ المعاهدة قد تعقد بوساطة دولةٍ أخرى ليست طرفاً في النِّزاع ، أو أحد المبعوثين الَّذين لا علاقة لهم ، أو لدولتهم بالنِّزاع القائم بين طرفي التعاقد.

١١ . إن المعاهدة تُعَدُّ نافذة المفعول بمجرَّد الاتفاق على المعاهدة ، وشروطها ، حتَّى لو لم تكتب ، ولو لم يوقِّع عليها الطَّرفان ، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الَّذي ردَّه الرَّسول (ص) بموجب قبوله عليه السَّلام بالبند الخامس من المعاهدة ، والَّذي يقول: «على أنَّه من أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم...» ، فمنذ أعلن رسول الله (ص) التزامه بهذا الشَّرط أجراه ، ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد ، ولم يوقِّع عليها الطرفان.

١٢ . إنَّ المعاهدة تُكتب من نسختين ، ويأخذ كلُّ طرفٍ نسخةً طِبْقَ الأصل من المعاهدة؛ حيث إنَّه بعد أن تمَّت إجراءات الصُّلح النِّهائية في الحديبية؛ أخذ كلٌّ من الفريقين نسخةً من وثيقة الصُّلح التَّاريخيَّة ، وانصرف الوفد القرشيُّ راجعاً إلى مكَّة[(١٤)].

ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

إنَّ من أبلغ دروس صلح الحديبية درسَ الوفاء بالعهد ، والتَّقيُّد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات؛ الَّتي يقطعها المسلم على نفسه ، وقد ضرب رسول الله (ص) بنفسه أعلى مثلٍ في التَّاريخ القديم ، والحديث لاحترام كلمةٍ لم تكتب ، واحترام كلمةٍ تكتب كذلك ، وفي الجدِّ في عهوده ، وحبِّه للصَّراحة ، والواقعيَّة ، وبغضه التَّحايل ، والالتواء ، والكيد ، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن

عمرو) في الحديبية ، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال ، وقد فرَّ من مشركي مكَّة ، وكان أبوه يتفاوض مع الرَّسول (ص) ، وكان هذا الابن ممَّن امنوا بالإسلام وجاء مستصرخاً بالمسلمين ، وقد انفلت من أيدي المشركين.

فلمَّا رأى سهيلٌ ابنه؛ قام إليه وأخذه بتلابيبه ، وقال: يا محمد! لقد لجَّت القضيَّةُ بيني وبينك ـ أي: فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا ـ فقال رسول الله (ص) : صدقت ، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فلم يغنِ عنه ذلك شيئاً ، وردَّه رسول الله (ص) ، وقال لأبي جندل: إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهداً ، وإنَّا لا نغدر بهم. غير أنَّ النَّبيَّ (ص) إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصُّلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم ، طمأن أبا جندل وبشَّره بقرب الفرج له ، ولمن على شاكلته من المسلمين ، وقال له ـ وهو يواسيه ـ: «يا أبا جندل! اصبر ،

واحتسب ، فإنَّ الله جاعلٌ لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ، ومخرجاً» [سبق تخريجه][(١٥)].

وفي هذه الكلمات النَّبويَّة المشرقة العظيمة دلالةٌ ليس فوقها دلالةٌ على مقدار حرص رسول الله (ص) ، وتمسُّكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه ، وعواقبه فيما يبدو للنَّاس[(١٦)].

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ، ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد ، أثبت فيه الرَّسول (ص) والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم ، وحبس مشاعرهم ، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل ، وتأثَّروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه ، والدِّماء تنزف منه؛ ممَّا زاد في إيلامهم ، حتَّى إنَّ الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة ، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبُه بفظاظة الوثنيِّ الجلف ، ليعود به مرَّة أخرى إلى سجنه الرَّهيب في مكَّة.

وقد صبر أبو جندل ، واحتسب لمصابه في سبيل دينه ، وعقيدته ، وتحقَّق فيه قول الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا *} [الطلاق: ٢ ـ ٣].

فلم تمرَّ أقلُّ من سنة حتَّى تمكَّن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكَّة من الإفلات من سجون مكَّة ، وأصبحوا قوَّةً صار كفار مكَّة يخشونها بعد أن انضمُّوا إلى أبي بصير ، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الاتية من الشَّام[(١٧)]. وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى.

ثالثاً: احترام المعارضة النَّزيهة:

بعد الاتفاق على معاهدة الصُّلح ، وقبل تسجيل بنودها ظهرت بين المسلمين معارضةٌ شديدةٌ ، وقويَّةٌ لهذه الاتفاقيَّة ، وخاصَّةً في البندين اللَّذين يلتزم النَّبيُّ (ص) بموجبهما بردِّ من جاءه من المسلمين لاجئاً ، ولا تلتزم قريشٌ بردِّ مَنْ جاءها من المسلمين مرتدَّاً ، والبند الَّذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكَّة ذلك العام، وقد كان أشدَّ النَّاس معارضة لهذه الاتفاقيَّة، وانتقاداً لها عمر بن الخطَّاب، وأُسيد بن حضير سيِّد الأوس، وسعد بن عُبادة سيِّد الخزرج.

وقد ذكر المؤرِّخون: أنَّ عمر بن الخطَّاب أتى رسول الله (ص) مُعلناً معارضته لهذه الاتفاقيَّة ، وقال لرسول الله (ص) : ألست برسول الله؟ قال: «بلى!» قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى!»

قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى!» قال: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟! قال: «إنِّي رسولُ الله ، ولستُ أعصيه[(١٨)]».

وفي روايةٍ: «أنا عبد الله ، ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يُضيِّعني[(١٩)]» قلت: أوليس كنت تحدِّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى! فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا. قال: «فإنَّك اتيه ، ومطوِّفٌ به». قال عمر: فأتيت أبا بكرٍ ، فقلت له: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قلت: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر ـ ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ـ: الزم غرزه ـ أي: أمره ـ ، فإنِّي أشهد أنَّه رسول الله ، وأنَّ الحقَّ ما أمر به ، ولن يخالف أمر الله ، ولن يضيِّعه الله. [سبق تخريجه][(٢٠)].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثِّرة عاد الصَّحابة إلى تجديد المعارضة للصُّلح ، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله (ص) بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته ، وإعلان معارضتهم ، إلا أنَّ النَّبيَّ (ص) بما أعطاه الله من صبرٍ ، وحكمةٍ ، وحلمٍ ، وقوَّة حجَّةٍ استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصُّلح ، وأنَّه في صالح المسلمين ، وأنَّه نصرٌ لهم[(٢١)] ، وأنَّ الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ، ومخرجاً ، وقد تحقَّق ما أخبر به (ص) .

وبهذا يتبيَّن: أنَّ الرَّسول (ص) وضع قاعدة احترام المعارضة النَّزيهة ، حيث قرَّر ذلك بقوله ، وفعله ، وهو ـ والله أعلم ـ إنَّما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النَّزيهة؛ الَّتي تصدر من أتباعهم ، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الاراء السَّليمة؛ الَّتي تخدم المصلحة العامَّة[(٢٢)].

وهذا الهدي النَّبويُّ الكريم بيَّن: أنَّ حرِّيَّة الرأي مكفولةٌ في المجتمع الإسلاميِّ ، وأنَّ للفرد في المجتمع المسلم الحرِّيَّة في التَّعبير عن رأيه ، ولو كان هذا الرَّأي نقداً لموقف حاكم من الحكَّام ، أو خليفةٍ من

الخلفاء ، فمن حقِّ الفرد المسلم أن يبيِّن وجهة نظره في جوٍّ من الأمن ، والأمان دون إرهابٍ ، أو تسلُّط يخنق حرّية الكلمة ، والفكر.

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله (ص) : أنَّ المعارضة لرئيس الدَّولة في رأيٍ من الاراء ، وموقف من المواقف ليست جريمةً تستوجب العقاب ، ويُغَيَّب صاحبها في غياهب السُّجون[(٢٣)].

رابعاً: التَّحلُّل من العمرة ومشورة أمِّ سلمة رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله (ص) من قضية كتابة الصُّلح قال لأصحابه: «قوموا ، فانحروا ، ثمَّ احلقوا...» حتَّى قال ذلك ثلاث مرَّاتٍ ، فلمَّا لم يقم منهم أحدٌ؛ دخل على أمِّ سلمة ، فذكر لها ما لقي مِنَ النَّاس ، فقالت أمُّ سلمة: يا نبي الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرج ، ثمَّ لا تُكلِّم أحداً منهم كلمةً؛ حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج ، فلم يكلِّم أحداً منهم حتَّى فعل ذلك: نحر بُدْنه ، ودعا حالقه ، فلمَّا رأوا ذلك؛ قاموا ، فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتَّى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. [سبق تخريجه].

وقد حلق رجالٌ يوم الحديبية ، وقصَّر اخرون ، فقال رسول الله (ص) : «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: «والمقصرين». [البخاري (١٧٢٧) ، ومسلم (١٢٠١) ، عن ابن عمر ، وأحمد (١/٢١٦) عن ابن عباس][(٢٤)].

وكان في هدي النَّبيِّ (ص) في الحديبية جملٌ لأبي جهلٍ في رأسه بُرَةٌ[(٢٥)] من فضَّةٍ ، يغيظ بذلك المشركين. [أحمد (١/٢٣٤) ، وأبو داود (١٧٤٩) ، وابن ماجه (٣٠٧٦) ، والطبراني في المعجم الكبير (١١١٤٧ و١١١٤٨)][(٢٦)].

وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمورٌ فيها دروسٌ ، وعبرٌ منها:

١ ـ كان رأي أمِّ سلمة سديداً ، ومباركاً؛ حيث فهمت رضي الله عنها عن الصَّحابة: أنَّه وقع في أنفسهم أن يكون النَّبيُّ (ص) أمرهم بالتَّحلُّل أخذاً بالرُّخصة في حقِّهم، وأنَّه يستمرُّ على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حقِّ نفسه، فأشارت على النَّبيِّ (ص) أن يتحلَّل لينتفي عنهم هذا الاحتمال ، وعرف النَّبيُّ (ص) صواب ما أشارت به ، ففعله ، فلمَّا رأى الصَّحابة ذلك؛ بادروا إلى فعل ما أمرهم به ، فلم يبق بعد ذلك غايةٌ تُنتظر ، فكان ذلك رأياً سديداً ، ومشورةً مباركةً ، وفي ذلك دليلٌ على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرةٍ صائبةٍ ، ورأيٍ سديدٍ[(٢٧)] ، كما أنَّه لا فرق في الإسلام

بين أن تأتي المشورة من رجلٍ ، أو امرأةٍ ما دامت مشورةً صائبةً ، وهذا عين التَّكريم للمرأة الَّتي يزعم أعداء الإسلام: أنَّه غمطها حقَّها ، وتجاهل وجودها ، وهل
هناك اعترافٌ واحترامٌ لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبيٍّ مرسلٍ ، ويعمل النَّبيُّ (ص) بمشورتها لحلِّ مشكلة اصطدم بها ، وأغضبته؟![(٢٨)].

٢ ـ أهمِّيَّة القدوة العملية: فقد دعا رسول الله (ص) إلى أمر وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ ، وفيهم كبار الصَّحابة ، وشيوخهم ، ومع ذلك لم يستجب أحدٌ لدعوته ، فلمَّا قدم رسول الله (ص) على الخطوة العمليَّة؛ الَّتي أشارت بها أمُّ سلمة تحقَّق المراد ، فالقدوة العمليَّة في مثل هذه المواقف أجدى ، وأنفع[(٢٩)].

٣ ـ حكم الإحصار في العمرة والحجِّ: دلَّ عمل الرَّسول (ص) بعد الفراغ من أمر الصُّلح من التحلُّل ، والنَّحر ، والحلق على أنَّ المحصر يجوز له أن يتحلَّل ، وذلك بأن يذبح شاةً حيث أحصر ، أو ما يقوم مقامها ، ويحلق ، ثمَّ ينوي التَّحلُّل ممَّا كان قد أهلَّ به ، سواءٌ كان حجّاً ، أو عمرةً ، كما دلَّ على أنَّ المتحلِّل لا يُلزم بقضاء الحجِّ ، أو العمرة إذا كان متطوِّعاً ، وخالف الحنفيَّة ، فرأوا: أنَّ القضاء بعد المباشرة واجبٌ؛ بدليل أنَّ جميع الَّذين خرجوا معه (ص) في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء ، إلا مَنْ توفي ، أو استشهد منهم في غزوة خيبر[(٣٠)].

خامساً: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح:

ثمَّ انصرف رسول الله (ص) من الحديبية قاصداً المدينة ، حتَّى إذا كان بين مكَّة والمدينة نزلت سورة الفتح ، قال تعالى: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *} [الفتح: ١١] .

وقد عبَّر رسول الله (ص) عن عظيم فرحته بنزولها ، وقال: أُنزلت عليَّ الليلة سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس [البخاري (٤١٧٧) ، عن أسلم ، ومسلم (١٧٨٦) عن أنس] ، ثمَّ قرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً *} ، فقال أصحاب رسول الله (ص) : هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله:
{لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا *} [الفتح: ٥] [البخاري (٤١٧٢) عن أنس].

وقد أسرع النَّاس إلى رسول الله (ص) وهو واقفٌ على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: فقال رجل: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً *} رسول الله! أفتحٌ هو؟ قال: «نعم ، والذي نفسي بيده! إنَّه لفتح» [أبو داود (٢٧٣٦) ، والحاكم (١٣١/٢)] فانقلبت كابة المسلمين ، وحزنُهم إلى فرحٍ غامرٍ ،

وأدركوا: أنَّهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنَّتائج ، وأنَّ التَّسليم لأمر الله ، ورسوله فيه كلُّ الخير لهم ، ولدعوة الإسلام[(٣١)].

كان حديث القران الكريم عن هذا الحدث العظيم في سورة الفتح ، وكان القران الكريم له منهجُه الخاصُّ في عرضه لغزوة الحديبية ، فنجد في حديثه عن هذه الغزوة: أنَّه سمى الصُّلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال فتحاً مبيناً.

إنَّنا بالتَّأمُّل في أسباب النُّزول نجد: أنَّ سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النَّبيِّ (ص) من الصُّلح ، وهو عائدٌ إلى المدينة النَّبويَّة ، وبعد أن خاض النَّبيُّ (ص) ، والمؤمنون تلك التَّجارب العظيمة من الأمل في العمرة إلى مواجهة المشركين ، إلى بيعة الرِّضوان ، إلى الصُّلح الَّذي لم يكن بعض الصَّحابة راضين عنه ، ودارت في أنفسهم أشياء كثيرةٌ حول هذه الأحداث الجسام.

ينزل القران الكريم ويبيِّن للمسلمين: أنَّ هذا الصُّلح هو فتحٌ مبين ، ويؤكِّد: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان على صوابٍ في قبول الصُّلح؛ لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله (ص) حين يبشِّره الله على الملأ من الدُّنيا بأنَّ الله تعالى فتح بالصُّلح ليغفر له ما تقدَّم من ذنبه ، وما تأخَّر كرامةً منه سبحانه لرسوله ، ليزداد المسلمون ثقةً ، واطمئناناً بأنَّهم على الصَّواب ، وأن ما فعلوه هو الحقُّ ، وماله السَّعادة ، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ توفيق الله كان مع المؤمنين؛ فهو الَّذي وفَّقهم للصَّبر مع رسوله ، وموافقتهم أخيراً على ما جنح له من أمر الصُّلح ، وأنَّ ذلك كان بسبب إنزال السَّكينة في قلوبهم ، حتَّى على قلوب من أنكر بعض شروط الصُّلح ، واستسلم للأمر على مضضٍ ، فلم يحصل رفضٌ لهذا الصُّلح ، بل كلُّهم نزلوا على أمر رسوله (ص) بفضل السَّكينة؛ الَّتي أنزلها عليهم ، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *} [الفتح: ٤].

فالقران الكريم يبيِّن: أنَّ الله هو الَّذي أنزل السَّكينة عليهم ليتذكَّروا فضله ، ويداوموا على شكره ، وهذا الإعلام بإنزال السَّكينة ممَّا يتميَّز به حديث القران الكريم عن هذه الغزوة؛ إذ السَّكينة أمرٌ معنويٌّ لا يعلم نزوله إلا الله ، وأشار القران الكريم إلى بيعة الرِّضوان ، وهي مبايعة الصَّحابة للنَّبيِّ على الموت ، فأثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه البيعة ، وكتب لها الخلود في القران ، وقرَّر أنَّها مبايعةٌ لله ـ عزَّ وجلَّ

. ، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: ١٠].

وبهذا نرى ما يتميَّز به القران الكريم في حديثه عن الغزوات ، فهو يبيّن الحقائق ويصحّح

العقائد ، ويربِّي النُّفوس ، ويفضح المنافقين ، ويبشر المسلمين بغنائم قريبةٍ تحقَّقت في خيبر ، وبين أصحاب الأعذار ، فليس كلُّ مَنْ تخلَّف عن الجهاد يُعاتب ، وإنَّما هناك استثناء ، وهذا من كمال رحمته الإلهيَّة ، ثمَّ لما تمَّ صلح الحديبية ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، ولم يتحقَّق ما قصدوه من دخول مكَّة؛ أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الرُّؤيا الَّتي سبق أن راها النَّبيُّ (ص) وبشَّر بها أصحابه ، وبيَّن أنَّها رؤيا صِدْقٍ ، وأنَّها ستتحقَّق. قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا *} [الفتح: ٢٧].

ثمَّ خُتمتِ السُّورة الجليلةُ بصفات مدحٍ للنَّبيِّ (ص) ولأصحابه الكرام[(٣٢)].

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا *مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: ٢٨ ، ٢٩].

هذه الايات الكريمة وصفت أصحاب محمَّدٍ في أحلى ، وأجمل صورةٍ ، إنَّها صورةٌ عجيبةٌ يرسمها القران الكريم بأسلوبه البديع ، صورةٌ مؤلَّفةٌ من عدَّة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظَّاهرة ، والمضمرة.

فلقطةٌ: تُصوِّر حالتهم مع الكفَّار ، ومع أنفسهم: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ، أشدَّاء على الكفار ، وفيهم اباؤهم ، وإخوتهم ، وذوو قرابتهم ، وصحابتهم ، ولكنَّهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً وهم فقط إخوة {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ، فهي الشدَّة لله ، والرَّحمة لله.

اللَّقطة الثَّانية: والتَّعبير يوحي كأنَّما هذه هي هيئتهم الدَّائمة؛ الَّتي يراها الرَّائي حين {رُكَّعًا سُجَّدًا} ، ذلك: أنَّ هيئة الرُّكوع والسُّجود تمثِّل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصليَّة في حقيقة نفوسهم ، فعبَّر عنها تعبيراً يثبِّتها كذلك في زمانهم ، حتَّى لكأنهم يقضون زمانهم كلَّه ركَّعاً سجداً.

واللَّقطة الثَّالثة: مثلها ، ولكنَّها لقطةٌ لبواطن نفوسهم ، وأعماق سرائرهم فهذه هي صورة مشاعرهم الدَّائمة {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً} ، كلُّ ما يشغَل بَالَهُم ، كلُّ ما تتطلَّع إليه أشواقهم ، هو فضلُ الله ، ورضوانُه ، ولا شيء وراء الفضل والرِّضوان يتطلَّعون إليه ، ويشتغلون به.

واللَّقطة الرَّابعة: تثبت أثر العبادة الظَّاهرة ، والتَّطلُّع المضمر في ملامحهم ، ونضجها على سماتهم سيماهم في {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} من الإشراق ، والوضاءة ، والصَّفاء ، والشَّفافية ، وليست هذه السِّيما هي النُّكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذِّهن عند سماع قوله: فالمقصود بأثر السُّجود هو أثر {مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} ، واختار لفظ السُّجود؛ لأنَّه يمثِّل حالة الخشوع ، والخضوع والعبوديَّة لله في أكمل صورها ، فهو أثر هذا الخشوع ، أثره في ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء ، والكبرياء ، والفراهة ، ويحلُّ مكانها التَّواضع النَّبيل ، والشَّفافية الصَّافية ، والوضاءة الهادئة ، والذُّبول الخفيف؛ الَّذي يزيد وجه المؤمن وضاءةً ، وصباحةً ، ونُبلاً.

وهذه الصُّورة الوضيئة الَّتي تمثِّلها هذه اللَّقطات ليست مستحدثةً ، إنَّما هي ثابتةٌ لهم في لوحة القدر ، ومِنْ ثمَّ فهي قديمةٌ جاء ذكرها في التَّوراة: وصفتهم الَّتي عرفهم الله بها في كتاب {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} ، وبشَّر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها وصفهم في بشارته بمحمَّد ومن معه أنَّهم فهو زرعٌ تامٌّ قويٌّ يخرج فرخه من {وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} ، وخصوبته ، ولكنَّ هذا الفرخ لا يُضعف العود بل يشدُّه: وأنَّ العود ازر {فَآزَرَهُ} ، فشدَّه {فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} ، وضخمت ساقه ، وامتلأت {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} معوجّاً ، ولا منحنياً ، ولكن مستقيماً قويّاً سويّاً.

هذه صورته في ذاته ، فأمَّا وقعه في نفوس أهل الخبرة ، والزَّرع ، والعارفين ، منه النَّامي المثمر ، ومنه البائر ، فهو وقع البهجة والإعجاب: وهم {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ} الله وأصحابُه ، وأمَّا وقعه في نفوس الكفَّار؛ فعلى العكس ، فهو وقع الغيظ والكَمَد {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} ، وتعمُّد إغاظة الكفار يوحي بأنَّ هذه الزِّراعة زرعةُ الله أو زرعة رسولِه ، وأنَّهم ستارٌ لِقَدره ، وأداةٌ لإغاظة أعداء الله.

وهذا المثل ثابتٌ في الإنجيل في بشارته بمحمَّدٍ (ص) ومَنْ معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة ـ صحابة رسول الله ـ فتثبُت في صلب الوجود كلِّه ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يستمع إليها من بارأى الوجود ، وتبقى أنموذجاً للأجيال تحاول أن تحقِّقها ليتحقَّق معنى الإيمان في أعلى الدَّرجات.

وفوق هذا التكريم كلِّه وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: وهو وعدٌ يجيء في هذه الصِّيغة العامَّة بعدما تقدَّم من صفتهم الَّتي تجعلهم أوَّل الدَّاخلين في هذه الصِّيغة العامَّة {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا} ، وذلك التكريم وحده

حسبُهم ، وذلك الرِّضا وحدَه أجرٌ عظيمٌ ، ولكنَّه الفيض الإلهيُّ بلا حدودٍ ولا قيود ، والعطاء الإلهيُّ عطاءٌ غير مجذوذ[(٣٣)].

يقول سيِّد قطب رحمه الله: «... ومرةً أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجود هؤلاء الرِّجال السُّعداء ، وقلوبهم؛ وهم يتلقَّون هذا الفيض الإلهيَّ من الرِّضا ، والتَّكريم ، والوعد العظيم ، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله ، وفي ميزان الله ، وانظر إليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السُّورة ، وقد قرئت عليهم ، وهم يعيشون فيها بأرواحهم ، وقلوبهم ، ومشاعرهم ، وسماتهم ، وينظر بعضهم في وجوه بعضٍ ، فيرى أثر النِّعمة الَّتي يُحِسُّها وهو في كيانه»[(٣٤)]. لقد أيقن الصَّحابة الكرام أنّ الدَّعوة قد دخلت في طورٍ جديد ، وفتح أكيد ، وافاق أوسع ، وامتدادٍ أرحب ، وأنَّ من طبيعة هذا الدِّين أن ينمو ، وينتعش في أجواء السِّلم ، والأمن أكثر منه وقت الحرب ، ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية الَّتي كان من أهمِّها:

١ ـ اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدَّولة المسلمة ، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندَّين ، وكان لهذا الاعتراف أثرُه في نفوس القبائل المتأثِّرة بموقف قريشٍ الجحوديِّ؛ حيث كانوا يرون: أنَّها الإمام والقدوة.

٢ ـ دخلت المهابة في قلوب المشركين ، والمنافقين ، وتيقَّن الكثير منهم بغلبة الإسلام ، وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثيرٍ من صناديد قريش إلى الإسلام؛ مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، كما تجلَّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلُّفهم.

٣ ـ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام ، وتعريف النَّاس به ، ممَّا أدى إلى دخول كثيرٍ من القبائل فيه ، يقول الإمام الزُّهري: «فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه ، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلمَّا كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن النَّاس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث ، والمنازعة ، فلم يكلِّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السَّنتين مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك»[(٣٥)].

وعقَّب عليه ابن هشامٍ بقوله: والدَّليل على قول الزُّهريِّ: أنَّ رسول الله (ص) خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئةٍ في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[(٣٦)].

٤ ـ أمن المسلمون جانب قريش، فحوَّلوا ثقلهم على اليهود، ومَنْ كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

٥ ـ مفاوضات الصُّلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين، ويميلون إليه، فهذا الحُلَيْسُ بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبُّون؛ رجع إلى أصحابه، قال: لقد رأيت البُدْن قد قُلِّدَتْ، وأُشْعِرت، فما رأى أن يُصَدُّوا عن البيت.

٦ ـ مكَّن صلح الحديبية النَّبيَّ (ص) من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوةً جديدةً لنقل الدَّعوة الإسلاميَّة بأسلوبٍ آخر خارج الجزيرة العربيَّة.

٧ ـ ساعد صلح الحديبيَّة النَّبيَّ (ص) على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس، والرُّوم، والقط يدعوهم إلى الإسلام.

٨ ـ كان صلح الحديبيَّة سبباً ومقدِّمةً لفتحِ مكَّة، ويقول ابن القيِّم: «كانت الهدنةُ مقدِّمةً بين يدي الفتح الأعظم، الَّذي أعزَّ الله به رسوله، وجنده، ودخل النَّاسُ به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له، ومفتاحاً، ومؤذناً بين يديه، وهذه سُنَّةُ الله ـ سبحانه ـ في الأمور العظام الَّتي يقضيها قدراً، وشرعاً أن يوطِّئَ لها بين يديها مقدِّماتٍ، وتوطئاتٍ تُؤذنُ بها، وتدُلُّ عليها»[(٣٧)].

سادساً: أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات:

في أعقاب صلح الحديبية مباشرةً استطاع أبو بصير عُتْبَةُ بن أُسَيْدٍ أن يفرَّ بدينه من سجون الشِّرك في مكَّة المكرَّمة، وأن يلتحق برسول الله (ص) في المدينة، فبعثت قريش في إثره اثنين من رجالها إلى رسول الله (ص) ليرجعا به، تنفيذاً لشروط المعاهدة، فقال رسول الله (ص) لابي بصير: «يا أبا بصير! إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإنَّ الله جاعلٌ لك، ولمن معك من المستضعفين فرجاً، ومخرجاً، فانطلق إلى قومك» فقال أبو بصير: يا رسول الله! أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: «يا أبا بصير، انطلق؛ فإن الله سيجعل لك، ولمن معك من المستضعفين فرجاً، ومخرجاً» [أحمد (٤/٣٢٥)، وابن هشام (٣/٣٣١)].

فانطلق معهما، وقد شقَّ ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزنٍ إلى أخيهم في العقيدة، وهو يعود إلى سجنه بمكَّة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريشٍ ، ولكنَّ رسول الله (ص) كان يهتمُّ بالوفاء بالعهود

، والمواثيق ، ولم يكن عنده مجرَّد نظريةٍ مكتوبةٍ على الورق ، ولكنَّه كان سلوكاً عملياً في حياته ، وفي علاقته الدَّولية ، فقد أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوفاء بالعهود، وحذَّر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الايات القرانيَّة ، قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ *} [النحل: ٩١].

وقال جلَّ وعلا: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً *} [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدةً أصوليَّة من قواعد الدِّين الإسلاميِّ ، الَّتي يجب على كلِّ مسلمٍ أن يلتزم بها[(٣٦)].

لقد التزم رسول الله (ص) بعهده مع قريش ، وسلَّم أبا بصير إليهما ، وانطلق معهما ، فلمَّا كان بذي الحُليفة؛ قال لأحد صاحبيه: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم. قال: أنظر إليه؟ قال: انظر؛ إن شئت ، فاستلَّه أبو بصير ، ثم علاه به حتَّى قتله ، ففرَّ الاخر إلى رسول الله (ص) فقال: قتل صاحبُكم صاحبي ، فما لبث أبو بصير أن حضر ، متوشحاً السَّيف ، وقال: يا رسول الله! وفَت ذمَّتك ، وأدَّى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أُفتن فيه ، أو يُعْبَث بي[(٣٧)]. فقال النَّبيُّ (ص) : «ويل أمِّه! مسْعَرُ[(٣٨)] حربٍ. لو كان له أحدٌ!». [أحمد (٣٣١/٤)، والبخاري (٢٧٣٢) ، وأبو داود (٢٧٦٥)].

فلمَّا سمع ذلك عرف: أنَّه سيردُّه إليهم ، فخرج حتَّى أتى سيف البحر ، وقد فهم المستضعفون بمكَّة من عبارة الرَّسول (ص) أنَّ أبا بصير بحاجةٍ إلى الرِّجال ، فأخذوا يفرُّون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر ، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرٍو ، وغيره ، حتَّى اجتمع عند أبي بصير عصبةٌ قويَّةٌ ، فما يسمعون بعيرٍ لقريشٍ خرجت إلى الشَّام إلا اعترضوا طريقها ، وقتلوا مَنْ فيها ، وأخذوا الأموال التي كانوا يتَّجرون بها ، فأرسل المشركون إلى النَّبيِّ (ص) يناشدونه الله ، والرَّحم لمِا أرسل إلى أبي بصيرٍ ، ومن معه ، ومن أتاه منهم ، فهو امنٌ ، وتخلَّوا في ذلك عن أقسى شروطهم الَّتي صبُّوا فيها كؤوس كبريائهم ، فذلَّت قريشٌ من حيث طلبت العزَّ[(٣٩)].

فأرسل إليهم النَّبيُّ (ص) وهم بناحية العيص ، فقدموا عليه ، وكانوا قريباً من السِّتِّين ، أو

السَّبعين[(٤٠)] فاوى النَّبيُّ (ص) تلك العصبة المؤمنة الَّتي أقضَّت مضاجع قريشٍ ، وأرغمتها على إسقاط شرطها التَّعسُّفيِّ ، فزادت بهم قوَّة المسلمين ، وقويت بهم شوكتُهم ، واشتدَّ بأسهم ، غير أنَّ أبا بصيرٍ ، رأس تلك العصابة ، ومؤسِّسها لم يقدَّر له أن يكون معها ، فقد وافاه كتاب النَّبيِّ (ص) بالعودة

إلى المدينة وهو على فراش الموت ، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثَّغر ، وهواه في قلب المجتمع النَّبويِّ في المدينة[(٤١)].

إنَّ قصَّة أبي جندلٍ ، وأبي بصيرٍ ، وما احتملاه في سبيل العقيدة ، وما أبدياه من الثَّبات ، والإخلاص ، والعزيمة ، والجهاد؛ حتَّى مرَّغوا رؤوس المشركين بالتُّراب ، وجعلوهم يتوسَّلون للمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية ، هذه القصَّة نموذجٌ يُقتدى به في الثَّبات على العقيدة ، وبذل الجهد في نصرتها ، وفيها ما يشير إلى مبدأ: «قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة» ، فقد ألحق أبو بصير ، وجماعتُه الضَّرر بالمشركين في وقتٍ كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاءً بالصُّلح ، لكنَّ أبا بصير ، وأصحابَه خارجُ سلطة الدَّولة . ولو في ظاهر الحال . ولم يكن ما قام به أبو بصير ، والمستضعفون بمكَّة مجرَّد اجتهادٍ فرديٍّ لم يحظَ بإقرار الرَّسول (ص) حيث لم يأمر أبا بصير بالكفِّ عن قوافل المشركين ابتداءً ، أو بالعودة إلى مكَّة ، إنَّ ذلك لم يحدث ، فكان إقراراً له؛ إذ كان موقف أبي بصير ، وأصحابه في غاية الحكمة ، حيث لم يستكينوا لطغاة مكَّة يفتنونهم عن دينهم ، ويمنعونهم من اللَّحاق بالمدينة ، فاختاروا موقفاً فيه خلاصُهم ، وإسناد دولتهم بأعمالٍ تُضعِف اقتصاد مكَّة ، وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصُّلح ، بل يمكن القول بأن اتِّخاذ هذا الموقف كان بإشارةٍ ، وتشجيعٍ من النَّبيِّ (ص) حين وصف أبا بصير[(٤٢)] بأنَّه: «مِسْعَرُ حربٍ. لو كان معه أحدٌ!» [سبق تخريجه].

إنَّ المتأمِّل في هذه الأحداث يرى رعاية الله الَّتي أولاها لهؤلاء الصَّحابة الكرام ، ولا شكَّ: أنَّ هناك أسباباً بذلوها ، فأهَّلتهم لتلك الرِّعاية من الله سبحانه ، فقد بيَّن سبحانه في كتابه المؤهِّلات لرعايته وعنايته.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ *} [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *} [الأعراف: ٥٦].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا *} [الطلاق: ٢] ، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *} [العنكبوت: ٦٩].

فهذه الصِّفات قد توافرت في الصَّحابة رضي الله عنهم ، فنالوا تلك الرِّعاية والعناية من الله ، ومتى توافرت في شخصٍ ، أو أمَّةٍ في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ فإنَّ رعاية الله سوف تنزل عليهم؛ لأنَّ الله قد وعد بذلك ، ووعده الحقُّ[(٤٣)].

سابعاً: امتناع النَّبيّ (ص) عن ردِّ المهاجرات:

صمَّمت مجموعةٌ من النِّساء المستضعفات في مكَّة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدِّمة هؤلاء النِّساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط ، فقد هاجرت إلى رسول الله (ص) بعد صلح الحديبية ، فأراد كفار مكَّة أن يردُّوهن؛ فأنزل الله تعالى في حقِّهنَّ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [الممتحنة: ١٠]. [خبر رفض رسول الله (ص) إرجاع أم كلثوم؛ رواه ابن سعد (٨/٢٣٠ ـ ٢٣١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٢٩) ، ومجمع الزوائد (٧/١٢٣)].

ومعنى الايات الكريمة: قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} ، قال ابن عباس: كان امتحانهنَّ أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبد الله ورسولُه ، وقوله تعالى: هذه الاية هي الَّتي حرَّمت المسلمات على {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} ، قال القرطبيُّ: هذا أوَّل دليلٍ على أنَّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتُها[(٤٤)].

ثمَّ قال تعالى: {وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}

أي: أعطوا أزواج المهاجرات من المشركين الَّذي غرموه عليهنَّ من الأصدقة.

وقوله: قال ابن كثيرٍ: يعني: إذا {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} أصدقتهنَّ؛ فانكحوهنَّ؛ أي: تزوَّجوهنَّ بشرط: انقضاء العدَّة ، والوليِّ ، وغير ذلك[(٤٥)].

وفي قوله: العصم: جمع العصمة؛ وأصل العصمة: {وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} ، وكلُّ ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، والمراد بالعصمة هنا: النِّكاح ، الكوافر: جمع كافرة ، والمعنى: أنَّ الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر ، وأمرهم بفراقهنَّ ، وقد

طلَّق عمر بن الخطَّاب امرأتين كانتا له في الشِّرك لما نزلت هذه الاية. [البخاري (٣٧٣٢)].

وقوله: {وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *}

قال المفسِّرون: كان مَنْ ذهب من المسلمات مرتدَّاتٍ إلى الكفَّار من أهل العهد يقال للكفَّار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحدٌ من الكافرات مسلمةً مهاجرةً: ردُّوا إلى الكفار مهرها. وكان

ذلك نصفاً ، وعدلاً في الحالتين ، وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزّمان في تلك النّازلة خاصّةً بإجماع الأمّة قاله ابن العربيّ[(٤٦)].

قوله تعالى: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *}

يعني: إن لحقت امرأةٌ مؤمنةٌ بكفّار أهل مكّة ، وليس بينكم ، وبينهم عهدٌ ، ولها زوجٌ مسلمٌ قِبَلكُم ، فغنمتم ، فأعطوا هذا الزّوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمّس[(٤٧)]. وقال الزُّهريُّ: يُعطى من مال الفيء ، وعنه: يعطى من صداق مَنْ لحق بنا[(٤٨)].

وقال مجاهد: أصبتم غنيمةً {فَعَاقَبْتُمْ} قريشٍ ، أو غيرهم[(٤٩)].

قال أبو السُّعود: أي: فجاءت عقبتكم؛ أي: نوبتكم من أداء {فَعَاقَبْتُمْ} ، شبّه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارةً ، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمرٍ يتعاقبون فيه ، كما يتعاقب في الرُّكوب ، وغيره[(٥٠)].

وقوله: {فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *}

قال ابن كثير: فلو أنَّها ذهبت بعد هذه الاية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين؛ ردَّ المؤمنون إلى زوجها النَّفقة ، الَّتي أنفق عليها من العَقِب الَّذي بأيديهم؛ الذي أمروا أن يردُّوه على المشركين من نفقاتهم الَّتي أنفقوا على أزواجهم اللَّاتي امَنَّ ، وهاجرن ، ثمَّ رَدُّوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم[(٥١)].

وختم الاية الكريمة بقوله: أي احذروا أن تعتدوا {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *} أمرتم به.

قال الزُّهريُّ: وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدَّت بعد إيمانها [البخاري (٢٧٣٣)] ، وقال ابن حجر: أراد الزُّهريُّ بذلك الإشارة إلى أنَّ المعاقبة المذكورة بالنِّسبة إلى الجانبين إنَّما وقعت في الجانب الواحد؛ لأنَّه لم يُعرف أحدٌ من المؤمنات فرَّت من المسلمين إلى المشركين بخلاف عكسه[(٥٢)].

لقد حدث خلافٌ في فهم البند القائل: من أتى محمَّداً (ص) من قريش بغير إذن وليّه ردَّه عليهم، فالمشركون يرون: أنَّ النَّص يشمل الرِّجال، والنِّساء، والرَّسول (ص) يرى: أنَّ النَّص للرِّجال دون النِّساء؛ إذ النَّصُّ جاء بصيغة المذكَّر ، ولقد أيَّد الله رسوله (ص) فيما ذهب إليه ، فلم يُرجع مسلمةً هاجرت إلى المدينة فراراً بدينها ، بل امتحنها ، وقبلها بناءً على أمر ربِّه ـ سبحانه وتعالى ـ[(٥٣)].

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة تعقيباً على اية الامتحان: والاية تفهم مع الاستئناس بالرِّوايات المنسقة إجمالاً معها: أنَّ بعض المؤمنات الَّلاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصُّلح اغتنمن فرصةً فهاجرن خِلْسةً ، وأنَّ ذويهنَّ جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصُّلح ، فنزلت الاية تنهى عن إعادتهنَّ ، وتأمر بالتَّعويض على أزواجهنَّ ، وقد تعدَّدت الأقوال في حقيقة نصِّ وثيقة الصُّلح ، ومنها أنَّه كان مطلقاً ، وبصيغة التَّذكير ، فرأى المكِّيُّون: أنَّه شاملٌ للرِّجال ، والنساء معاً ، فجاؤوا يطالبون بالإعادة ، ورأى النَّبيُّ (ص) : أنَّه لا يشمل النِّساء ، فنزلت الاية حاسمةً للأمر ، وهذا هو المعقول[(٥٤)].

وقال الأستاذ الغزاليُّ: «وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردُّوا النِّسوة المهاجرات بدينهنَّ إلى أوليائهنَّ ، إمَّا لأنَّهم فهموا: أنَّ المعاهدة خاصَّةٌ بالرِّجال فحسب ، أو لأنَّهم خشوا على النِّساء الَّلاتي أسلمن أن يضعفن أمام التَّعذيب والإهانة ، وهنَّ لا يستطعن ضرباً في الأرض ، وردّاً للكيد ، كما فعل أبو جندل ، وأبو بصير ، وأضرابهما ، وأيّاً كان الأمر؛ فإنَّ احتجاز مَنْ أسلم من النِّساء تمَّ بتعليم القران»[(٥٥)].

* * *

المبحث الثَّالث

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد

كانت غزوة الحديبية غنيَّة بالدُّروس العقائديَّة، والفقهيَّة، والأصوليَّة، والتَّربويَّة... إلخ، وسوف أذكر منها بعض الدُّروس على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: أحكام تتعلَّق بالعقيدة:

١ ـ حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النَّبيِّ (ص) بالسَّيف ـ ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد ـ سنةٌ يقتدى بها عند قدوم رسل العدوِّ من إظهار العزِّ، والفخر، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنُّفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا النَّوع الَّذي ذمَّه النَّبيُّ (ص) بقوله: «مَنْ أحبَّ أن يتمثَّل له الرِّجال قياماً؛ فليتبوأ مقعده من النَّار». [أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥)].

كما أنَّ الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النَّوع المذموم في غيره[(٣٨)]، ويشبه هذا ما فعله أبو دجانة في غزوة أحدٍ، فكلُّ ما يدلُّ على التكبُّر، أو التجبُّر في المشي ممنوع شرعاً، ولكنَّه جائزٌ في حالة الحرب بخصوصها، بدليل قوله (ص) عن مشية أبي دُجانة: «إنَّها مشيةٌ يكرهها الله إلا في هذا الموضع». [الطبراني في المعجم الكبير (٦٥٠٨٥)، ومجمع الزوائد (١٠٩/٦)] [(٣٩)].

٢ ـ استحباب الفأل، وأنَّه مغاير للطِّيرة:

لما جاء سُهيل بن عمروٍ لمفاوضة رسول الله (ص)؛ قال رسول الله «سهَّل أمركم». [سبق تخريجه [(٤٠)]. ففي الحديث استحباب التفاؤل، وأنَّه ليس من الطِّيرة المكروهة[(٤١)].

وقد جاءت أحاديث عن النَّبيِّ (ص) تبيِّن معنى الفأل ، قال رسول الله (ص) : «لا طيرة، وخيرُها[(٥٦)] الفأل». قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟! قال: «الكلمة الصَّالحة يسمعُها أحدُكم» [البخاري (٥٧٥٤ و٥٧٥٥) ، ومسلم (٢٢٢٣/١١٠)].

والفرق بين الفأل ، والطِّيرة: أنَّ الفأل من طريق حسن الظَّنِّ بالله ، والطِّيرة لا تكون إلا في السُّوء ، فلذلك كُرِهَتْ[(٥٧)].

وقد ذُكِرَتِ الطِّيرة عند النَّبيِّ (ص) فقال: «أحسنها الفأل ، ولا تردُّ مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره؛ فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السَّيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوَّة إلا بك». [أبو داود (٣٩١٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٩/٨)].

٣ ـ بيان كفر من اعتقد: أنَّ للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:

قال خالدٌ الجهنيُّ رضي الله عنه: صلَّى لنا ـ أي: من أجلنا ، أو بنا ـ رسولُ الله (ص) صلاة الصُّبح بالحديبية ـ على أثر سماءٍ[(٥٨)] كانت من اللَّيلة ـ فلمَّا انصرف؛ أقبل على النَّاس ، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ، ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمنٌ بي ، وكافر ، فأمَّا مَنْ قال: مُطِرنا بفضل الله ، ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب ، وأمَّا مَنْ قال: بِنَوْءٍ[(٥٩)] كذا ، وكذا؛ فذلك كافرٌ بي ، ومؤمنٌ بالكوكب». [البخاري (٨٤٦) ، ومسلم (٧١)].

وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقاديِّ ، أو كفر النِّعمة بحسب حال القائل.

فمن قال: مُطرنا بنوء كذا معتقداً: أنَّ للكوكب فاعلية ، وتأثيراً في إيجاد المطر فهو كافرٌ كفراً مخرجاً من الملَّة ، قال الشَّافعيُّ: مَنْ قال: مطرنا بنوء كذا ، وكذا على ما كان أهل الجاهليَّة يعنون من إضافة المطر

إلى أنَّه بنوء كذا ، فذلك كفرٌ ، كما قال رسول الله (ص) ؛ لأنَّ النَّوء وقتٌ ، والوقت مخلوقٌ لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً ، ومن قال: مُطرنا بنوء كذا على معنى مُطرنا في وقت كذا؛ فلا يكون كفراً ، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه[(٦٠)].

فالشافعي يقصد هنا الكفر الاعتقاديَّ[(٦١)].

٤ . هل يجوز التبرُّك بفضلات الصَّالحين ، واثارهم؟

ففي حديث عروة بن مسعودٍ وهو يصف أصحاب رسول الله (ص) حوله؛ قال: فو الله ما تنخَّم رسول الله (ص) نخامةً إلا وقعت في كف رجلٍ منهم ، فدلك بها وجهه وجلدَه... وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه. [سبق تخريجه].

وقد علق الشَّاطبيُّ على هذا الحديث ، وأحاديث أخرى تماثله ، فقال: فالظَّاهر في مثل هذا النَّوع أن يكون مشروعاً في حقِّ مَنْ ثبتت ولايتُه ، واتِّباعه لسنَّة رسول الله (ص) وأن يُتبرَّك بفضل وضوئه ، ويُتدلَّك بنخامته ، ويُستشفى باثاره كلِّها ، إلا أنَّه عارضنا في ذلك أصلٌ مقطوعٌ به في متنه مشكلٌ في تنزيله، وهو أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع من أحدٍ منهم في شيءٍ من ذلك بالنِّسبة إلى مَنْ خَلَفَه؛ إذ لم يترك النَّبيُّ (ص) بعد موته ، أفضل من أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه ، فهو كان خليفتُه ، ولم يُفعل به شيءٌ من ذلك ، ولا عمر رضي الله عنه وهو كان أفضل الأمَّة بعده ، ثمَّ كذلك عثمان ، ثمَّ عليٌّ ، ثمَّ سائر الصحابة الَّذين لا أحد أفضل منهم في الأمَّة ، ثمَّ لم يثبت لواحدٍ منهم من طريقٍ صحيحٍ معروفٍ أنَّ متبرِّكاً تبرك به على أحد تلك الوجوه ، أو نحوها؛ بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال ، والأقوال ، والسِّير الَّتي اتَّبعوا فيها النَّبيَّ (ص) ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[(٦٢)].

وقد أخرج ابن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهابٍ؛ قال: حدَّثني رجلٌ[(٦٣)] من الأنصار: أنَّ رسول الله (ص) كان إذا توضَّأ ، أو تنخَّم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه ، ونخامته ، فشربوه ، ومسحوا به جلودهم ، فلمَّا راهم يصنعون ذلك؛ سألهم: «لم تفعلون هذا؟» قالوا: نلتمس الطَّهور ، والبركة بذلك. فقال رسول الله (ص) : «من كان منكم يحبُّ أن يحبَّه الله ، ورسولُه؛ فَلْيَصْدُقِ الحديث ، ولْيُؤَدِّ الأمانة ، ولا يؤذِ جاره». [عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٤٨) ، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٩٩٨)].

وهذا الحديث أفاد أنَّ الأَوْلى ترك التبرُّك مع رسول الله (ص) ، ولعلَّ سكوت النَّبيِّ (ص) عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروةُ بن مسعود رسولُ قريشٍ مدى تعلُّق الصَّحابة رضي الله عنهم بالنَّبي (ص) وحبِّهم له ، لا سيَّما وقد قال للنَّبيِّ (ص) : إِنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ، ويدعوك [سبق تخريجه].
هذه بعض المسائل العقائديَّة.

ثانياً: أحكام فقهيَّة وأصوليَّة:

١ ـ قصَّة كعب بن عجرة ، ونزول اية الفدية:

قال كعب بن عُجرة رضي الله عنه: وقف عليَّ رسول الله (ص) بالحديبية ، ورأسي يتهافت[(٦٤)] قملاً ، فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟»[(٦٥)] قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك». أو قال: «احلق» قال: فنزلت هذه الاية: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [البقرة: ١٩٦] فقال النَّبيُّ (ص) : «صم ثلاثة أيامٍ ، أو تصدَّق بفَرَقٍ بين ستَّةٍ ، أو انْسُكْ[(٦٦)] بما تيسَّر» [البخاري (١٨١٥) ، ومسلم (١٢٠١/٨٢)].

وفي رواية مسلمٍ: «أنَّ النَّبيَّ (ص) مرَّ به؛ وهو بالحديبية ، قبل أن يدخل مكَّة ، وهو مُحْرِمٌ ، وهو يُوقِدُ تحت قِدْرٍ ، والقملُ يتهافتُ على وجهه ، فقال: «أيؤذيك هوامُّك هذه؟» قال: نعم. قال: «فاحْلِقْ رأسَك ، وأطْعِمْ فَرَقاً بين سِتَّةِ مساكينَ . والفَرق: ثلاثةُ اصُعٍ ـ أو صُمْ ثلاثة أيامٍ ، أو انسُكْ نسيكة» [مسلم (١٢٠١/٨٣) ، والترمذي (٢٩٧٤)]. واية البقرة المذكورة تبيِّن حكم مَنْ كان محرماً وبه أذى من رأسه ، وهي نزلت في كعب بن عُجرة خاصَّة ، وأصبح لكلِّ مسلمٍ يمرُّ بالحالة نفسِها.

٢ ـ مشروعية الصَّلاة في الرِّحال:

روى ابن ماجه عن أبي المليح بن أسامة؛ قال: خرجت إلى المسجد في ليلةٍ مطيرةٍ تماماً ، فلمَّا رجعت استفتحتُ ، فقال أبي[(٦٧)]: مَنْ هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتُنا مع رسول الله (ص) يوم الحديبية وأصابتنا سماءٌ لم تبلَّ أسافل نعالنا ، فنادى منادي رسول الله (ص) : «صلُّوا في رحالكم» [أبو داود (١٠٥٩) ، والنسائي (١١١/٢) ، وابن ماجه (٩٣٦)]. وهذا الحديث صحيحٌ ، فسنده متَّصلٌ برواية الثِّقات ، وقد صحَّحه ابن حجر[(٦٨)].

٣ ـ انصراف المسلمين من الحديبية ، ونومهم عن صلاة الصُّبح:

كانت مدَّة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يوماً ، ويقال: عشرين ليلةً على قول الواقديِّ[(٦٩)] ، وابن سعدٍ[(٧٠)].

وعن ابن عائذٍ: أنَّ رسول الله (ص) أقام في غزوته هذه شهراً ونصفاً[(٧١)].

والَّذي يبدو: أنَّ الواقديَّ، وابن سعدٍ أرادا تحديد مدَّة إقامته (ص) في الحديبية، أما ابن عائذٍ فقصد الزَّمن الَّذي استغرقته غيبة النَّبيِّ (ص) منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها.

وبعد أن تحلَّل المسلمون من عمرتهم تلك؛ قفلوا راجعين إلى المدينة، فلمَّا كان من اللَّيل عدلوا عن الطَّريق للنَّوم، ووكَّلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلالٌ، ولم يوقظهم إلا حرُّ الشَّمس[(٧٢)]، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه؛ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله (ص) زمن الحديبية، فقال رسول الله (ص): «من يكلؤنا؟»[(٧٣)]. فقال بلالٌ: أنا. فناموا حتَّى طلعت الشَّمس، واستيقظ النَّبيُّ (ص)، فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون». قال: ففعلنا. قال: «فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي» [أبو داود (٤٤٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٠٢)، وأحمد (١/٣٨٦ و٣٩١)].

وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أنَّ قصَّة نومهم عن صلاة الصُّبح وقعت في غير الحديبية، وحاول بعض العلماء التَّوفيق بين هذه النُّصوص، وذهب الدُّكتور حافظ الحكمي إلى أنَّ ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصَّة الحديبية وغيره محمولٌ على تعدُّد القصَّة، كما رجَّح ذلك النَّوويُّ[(٧٤)]، وجنح إليه ابنُ كثيرٍ[(٧٥)]، وابن حجرٍ[(٧٦)]، والزُّرقانيُّ، بل قال السُّيوطيُّ: لا يجمع إلا بتعدُّد القصَّة[(٧٧)].

٤ ـ مشروعية الهدنة بين المسلمين، وأعدائهم، ومقدار المدَّة التي تجوز المهادنة عليها:

استدلَّ العلماء، والأئمَّة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنةٍ بين المسلمين، وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدَّةٍ معلومةٍ، سواءٌ أكان ذلك بعوضٍ يأخذونه منهم، أم بغير عوضٍ، أمَّا بدون عوض فلأنَّ هدنة المدينة كانت كذلك، وأما بعوضٍ فبقياس الأولى؛ لأنَّها إذا جازت بدون عوضٍ، فلأن تجوز بعوض أقرب، وأوجه.

وأمَّا إذا كانت المصالحة على مالٍ يبذله المسلمون، فهو غير جائزٍ عند جمهور المسلمين، لما فيه من الصَّغَار لهم؛ ولأنَّه لم يثبت دليلٌ من الكتاب، أو السُّنَّة على جواز ذلك، قالوا: إلا إنْ دعت إليه ضرورةٌ لا محيص عنها، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك، أو الأسر؛ فيجوز، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال.

وقد ذهب الشَّافعيُّ وأحمد رحمهم الله وكثير من الأئمَّة إلى أنَّ الصُّلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدَّةٍ معلومةٍ ، وأنَّه لا يجوز أن تزيد المدَّة على عشر سنواتٍ مهما طالت؛ لأنَّها هي المدَّة الَّتي صالح النَّبيُّ (ص) قريشاً عليها عام الحديبية[(٧٨)].

وذهب اخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة ، وهو قول أبي حنيفة[(٧٩)].

والتَّحقيق: أنَّ القول الأول هو الرَّاجح لظاهر الحديث ، وإنْ وُجِدت مصلحةٌ في الزيادة على العشر جدَّد العقد ، كما قال الشَّافعي[(٨٠)].

وقال بعض المتأخِّرين[(٨١)]: يجوز عقد صلحٍ مؤبَّد غير مؤقَّتٍ بمدَّةٍ معيَّنةٍ ، واستدل بقوله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً *} [النساء: ٩٠].

وهذا قولٌ مبنيٌّ على أنَّ الأصل في علاقة المسلمين بالكفَّار هي السَّلم ، لا الحرب[(٨٢)] ، وأنَّ الجهاد إنَّما شرع لمجرد الدِّفاع عن المسلمين ، فحسب(٥).

وهذا القول مردودٌ لما يلي:

أ ـ أنَّ صاحب هذا القول قد خرق الاتِّفاق بعد أن حكاه بنفسه؛ حيث قال: اتَّفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدوِّ لابدَّ من أن يكون مقدوراً بمدَّة معيَّنةٍ ، فلا تصح المهادنة مطلقةً إلى الأبد من غير تقديرٍ بمدَّة[(٨٣)].

ب ـ الاية الَّتي استدل بها منسوخةٌ بقوله تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ٥].

فقد نقل ذلك ابن جرير[(٨٤)] عن عكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وحكاه القرطبيُّ[(٨٥)] عن مجاهدٍ. ثمَّ قال: وهو أصحُّ شيءٍ في معنى الاية.

ج ـ الأصل الَّذي انبنى عليه هذا القول مردودٌ باية براءة السَّابقة ، وبواقع سيرة الرَّسول (ص) ، وخلفائه مع أعدائهم.

د ـ أمَّا فكرة: أنَّ الجهاد إنَّما شرع للدِّفاع عن المسلمين ، فهي فكرةٌ دخيلةٌ ، وقد تصدَّى لها سيِّد قطب[(٨٦)] رحمه الله ، ففنَّدها ، وبيَّن: أنَّ سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين ، وعدم الفهم لمرحليَّة الدَّعوة[(٨٧)].

٥ ـ المطْلَق يجري على إطلاقه:

هذه قاعدةٌ أصوليَّةٌ يؤيِّدها ما رواه ابن هشام عن أبي عبيد: أنَّه قال: إنَّ بعض من كان مع رسول الله (ص) قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله! إنَّك تدخل مكَّة امناً؟ قال: «بلى! أفقلتُ لكم من عامي هذا؟» قالوا: لا ، قال: «فهو كما قال لي جبريلُ عليه السلام». [ابن هشام (٣/٣٤١)][(٨٨)].

وفي هذا الأثر تبشير المؤمنين بفتح مكَّة في المستقبل ، وإيماءٌ بالوحي الصَّادق إلى ذلك النَّصر ، ولفتٌ لهم إلى وجوب التَّسليم لأمره بإطلاقٍ كلَّما ورد مطلقاً دون تحميله زياداتٍ وقيوداً تصرفه عن إطلاقه[(٨٩)].

٦ ـ وجوب طاعته (ص) ، والانقياد لأمره؛ وإن خالف ظاهر ذلك القياس ، أو كرهته النُّفوس:

جاء في قصَّة الحديبية: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وبعضَ الصَّحابة رضي الله عنهم كرهوا الصُّلح مع قريش(١)؛ لما رأوا في شروطها من الظُّلم ، والإجحاف في حقِّهم ، لكنَّهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ، ورأوا: أنَّهم وقعوا في حرجٍ؛ إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله (ص) ! وظلَّت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم ، وكانوا يحذِّرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرَّأي[(٩٠)] ، فكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول: (أيها النَّاس! اتهموا الرَّأي على الدِّين ، فلقد رأيتُني أردُّ أمر رسول الله (ص) برأيي

اجتهاداً ، فو الله! ما الو عن الحقِّ ، وذلك يوم أبي جندل) [البزار (١٨١٣) ، ومجمع الزوائد (٦/١٤٥ ـ ١٤٦)].

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: اتَّهموا رأيكم؛ رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله (ص) ؛ لرَدَدْتُه[(٩١)].

ولقد بقي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه برهةً من الزَّمن متخوفاً أن يُنزل الله به عقاباً لِلَّذي صنع يوم الحديبية ، فكان رضي الله عنه يتحدَّث عن قصَّته تلك ، ويقول: فما زلت أصوم ، وأتصدَّق ، وأعتق

مِنَ الَّذي صنعت مخافة كلامي الَّذي تكلَّمت به يومئذٍ؛ حتَّى رجوت أن يكون خيراً. [ابن هشام (٣/٣٣١)][(٩٢)].

قال ابن الديبع الشَّيباني تعليقاً على هذه الحادثة: قال العلماء: لا يخفى ما في هذه القصَّة من وجوب طاعته (ص) والانقياد لأمره؛ وإن خالف ظاهرُ ذلك مقتضى القياس ، أو كَرِهَتْهُ النُّفوس ، فيجب على كلِّ مكلَّفٍ أن يعتقد: أنَّ الخير فيما أمر به ، وأنَّه عين الصَّلاح المتضمِّن لسعادة الدُّنيا والاخرة ، وأنَّه جاء على أتمِّ الوجوه وأكملها ، غير أنَّ أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته ، وعاقبة أمره[(٩٣)].

ثالثاً: أنموذج من التَّربية النَّبويَّة:

في قول رسول الله (ص) : «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنيَّة ثَنيَّة المرَارِ؛ فإنَّه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل؟» [سبق تخريجه].

يظهر في هذا الحديث جانبٌ عظيمٌ من جوانب التَّربية النَّبويَّة يستحقُّ التأمُّل والتَّدبُّر، فرسول الله (ص) يشجِّع أصحابه على صعود الثَّنيَّة ، ثمَّ يخبرهم: أنَّ الذي يجتازها سينال مغفرةً من الله تعالى ، وحين نتأمَّل هذا الحديث تبرز لنا معانٍ عظيمةٌ منها:

١ ـ أنَّ رسول الله (ص) يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الاخر في كلِّ لحظةٍ من لحظات حياتهم.

٢ ـ أنَّه يريد لفت أنظارهم إلى أنَّ كلَّ حركةٍ يتحرَّكونها ، وكلَّ عملٍ يقومون به ـ حتَّى ما يرون: أنه من العادات أو من دواعي الغريزة ـ يجب استغلاله للتَّزوُّد لذلك اليوم ، وكان (ص) يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في نفوس الصَّحابة ، فنراه يقول في موطنٍ اخر: «وفي بُضْعِ أحدكم صدقةٌ» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدُنا شهوته؛ ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «أرأيتم لو

وضعها في حرامٍ؛ أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال؛ كان له أجرٌ». [أحمد (٥/١٦٧ و١٦٨) ، ومسلم (١٠٠٦) ، وأبو داود (٥٢٤٣) و(٥٢٤٤)].

ويقول في موطنٍ ثالث: «وإنَّك مهما أنفقت من نفقةٍ فإنَّها صدقةٌ ، حتَّى اللُّقمة الَّتي ترفعُها إلى في امْرَأتك». [البخاري (٢٧٤٢) ، ومسلم (١٦٢٨)].

إنَّ تلك المعاني ـ إذا تمكَّنت في قلب المسلم ـ لكَفِيْلةٌ بأن تصبُغَ حياته كلَّها بصبغة العبودية لله وحده ، وإذا شملت العبادة كلَّ نواحي حياة المسلم؛ فإنَّ لهذا الشُّمول اثاراً مباركةً سوف يشعر بها الفرد في نفسه ، ثم يلمسها فيمن حوله[(٩٤)].

ومن أبرز تلك الاثار أمران:

أ ـ أن يصبُغ حياة المسلم وأعماله بالصِّبغة الرَّبَّانيَّة ، ويجعله مشدوداً إلى الله في كلِّ ما يؤدِّيه ، فهو يقوم به بنيَّة العابد الخاشع ، وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كلِّ عملٍ نافعٍ ، وكلِّ إنتاجٍ صالحٍ ، وكلِّ ما ييسِّر له ، ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة ، على أمثل وجوهها ، فإنَّ ذلك يزيد رصيده من الحسنات ، والقربات عند الله تعالى ، كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدُّنيويِّ ، وتجويده ، وإتقانه ، ما دام يقدِّمه إلى ربِّه سبحانه ابتغاء رضوانه ، وحسنِ مثوبته.
ب ـ أنَّه يمنح المسلم وحدة الوُجهة ، ووحدة الغاية في حياته كلِّها ، فهو يرضى رباً واحداً في كلِّ ما يأتي ، ويدع ، ويتَّجه إلى هذا الرَّبِّ بسعيه كلِّه الدِّينيِّ والدُّنيويِّ ، لا انقسام ، ولا صراع ، ولا ازدواج في شخصيته ، ولا في حياته[(٩٥)].
ولقد عاش الصَّحابة الكرام تلك المعاني ، وحوَّلوها إلى حقائق ملموسةٍ في حياتهم كلِّها ، وما حفظ الله سيرتهم إلا لكي نقتديَ بهم في حياتنا ، وتكونَ حجَّةً على كلِّ مَنْ جاء بعدهم[(٩٦)].

* * *

الفصل الرَّابع عشر
أهم الأحداث ما بين الحديبية ، وفتح مكة

المبحث الأوَّل
غزوة خيبر

أولاً: تاريخها ، وأسبابها:
ذكر ابن إسحاق[(٩٧)]: أنَّها كانت في المحرَّم من السَّنة السَّابعة للهجرة ، وذكر الواقديُّ[(٩٨)] أنَّها كانت في صفر ، أو ربيع الأول من السَّنة السَّابعة للهجرة بعد العودة من غزوة الحديبية ، وذهب ابن

سعدٍ[(٩٩)] إلى أنَّها في جمادى الأولى سنة سبعٍ ، وقال الإمامان: الزُّهريُّ ، ومالكٌ: إنَّها في محرَّم من السَّنة السَّادسة[(١٠٠)] ، وظاهر الخلاف بين ابن إسحاق ، والواقديِّ يسيرٌ ، وهو نحو الشَّهرين ، وكذلك فإنَّ الخلاف بينهما ، وبين الإمامين الزُّهري ، ومالكٍ مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السَّنة الهجريَّة الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وقد رجَّح ابن حجر[(١٠١)] قول ابن إسحاق على قول الواقديِّ[(١٠٢)].

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتَّى نزل فيهم زعماء بني النَّضير؛ الَّذين حزَّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم ، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم ، فقد غادروا المدينة ومعهم

النِّساء ، والأبناء ، والأموال ، وخلفهم القيان يضربن الدُّفوف ، والمزامير بزهاءٍ ، وفخرٍ ما رئي مثله في حيٍّ من النَّاس في زمانهم[(١٠٣)].

وكان من أبرز زعماء بني النَّضير الذين نزلوا في خيبر سلاَّم بن أبي الحُقَيق ، وكِنانة بن أبي الحُقيق ، وحُيَيُّ بن أخطب ، فلمَّا نزلوا دان لهم أهلُها[(١٠٤)].

وكان تَزَعُّمُ هؤلاء ليهود خيبر كافياً في جرِّها إلى الصِّراع ، والتَّصدِّي ، والانتقام من المسلمين ، فقد كان يدفعهم حقدٌ دفينٌ ، ورغبةٌ قويَّةٌ في العودة إلى ديارهم داخل المدينة ، وكان أوَّل تحرُّكٍ قويٍّ ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النَّضير دورٌ كبيرٌ في حشد قريش ، والأعراب ضدَّ المسلمين ، وتسخير أموالهم في ذلك ، ثمَّ سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر ، والتَّعاون مع الأحزاب(٢) ، بل إنَّهم أنفقوا أموالهم ، واستغلُّوا علاقاتهم مع يهود بني قُريظة من أجل نُصرة الأحزاب وطَعْنِ المسلمين في ظهورهم[(١٠٥)] ، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطرٍ كبيرٍ على المسلمين ، ودولتهم النَّامية.

تفرَّغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الَّذي أصبح يهدِّد أمن المسلمين ، ولقد تضمَّنت سورة الفتح الَّتي نزلت بعد الحديبية وعداً إلهياً بفتح خيبر ، وحيازة أموالها غنيمةً(٣).

قال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا *وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا *} [الفتح: ١٨ ـ ٢١].

ثانياً: مسير الجيش الإسلاميِّ إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروحٍ إيمانيَّةٍ عاليةٍ ، على الرَّغم من علمهم بمنعة حصون خيبر ، وشدَّة بأس رجالها ، وعتادها الحربيّ ، وكانوا يكبِّرون ، ويهلِّلون بأصواتٍ مرتفعةٍ ، فطلب منهم النَّبيُّ (ص) أن يرفُقوا بأنفسهم قائلاً: «أيَّها النَّاس! اربَعُوا على أنفسكم ، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ، ولا غائباً ، ولكن تدعون سميعاً بصيراً» [البخاري (٦٣٨٤) ، ومسلم (٢٧٠٤)].

وكان سيره (ص) بالجنود ليلاً ، فقد قال سلمةُ بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النَّبي (ص) إلى خيبر ، فسرنا ليلاً ، وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ، ويقول:

اللّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ولاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اتَّقَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِيْنَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيْحَ بِنَا أتينا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فقال رسول الله (ص) : «مَنْ هذا السَّائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: «يرحمه الله!».

قال رجلٌ ـ هو عمر بن الخطَّاب .[(١٠٦)] مِنَ القومِ: وَجَبَت يا نبيَّ الله! لولا أمتعتنا به. [البخاري (٤١٩٦) ، ومسلم (١٨٠٢)].

وعندما وصل الجيش الإسلاميُّ بالصَّهباء ـ وهي من أدنى خيبر ـ صلَّى العصر ، ثمَّ دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا السَّويق ، فأمر به فثري ، فأكل ، وأكل معه الصَّحابة ، ثمَّ قام إلى المغرب ، فمضمض ثمَّ صلَّى بالصَّحابة ، ولم يتوضَّأ. [البخاري (٤١٩٥) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٢٠٠)][(١٠٧)].

وكان (ص) قد بعث عبَّاد بن بِشْرٍ رضي الله عنه في سريَّةٍ استطلاعيَّة يتلقَّط أخبار العدوِّ ، ويستطلع إن كان هناك كمائن ، فلقي في الطَّريق عيناً لليهود من أشجع ، فقال: من أنت؟ قال: باغٍ أبتغي أبعرة ضلَّت لي ، أنا على إثرها. قال عبَّاد: ألك علمٌ بخيبر؟ قال: عهدي بها حديثٌ ، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم ، كان كنانة بن أبي الحُقيق ، وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غَطَفان ، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنةً ، فجاؤوا مُعَدِّين ، مؤيَّدين بالكُراع والسِّلاح ، يقودهم عتبة بن بدرٍ ، ودخلوا معهم في حصونهم ، وفيهم عشرة الاف مقاتلٍ ، وهم أهل الحصون الَّتي لا ترام ، وسلاحٌ ، وطعامٌ كثيرٌ ، لو حُصِرُوا لسنين؛ لكفاهم ، وماءٌ يشربون في حصونهم ، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة ، فرفع عبَّاد بن بشرٍ السَّوط ، فضربه ضرباتٍ ، وقال: ما أنت إلا عينٌ لهم ، اصدقني ، وإلا ضربتُ

عنقك! فقال الأعرابيُّ: القوم مرعوبون منكم ، خائفون ، وَجِلون؛ لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطَّريق ، فإنهم لا يستنكرون مكانك ، واحزرهم لنا ، وادنُ منهم كالسَّائل لهم ما تقوى به ، ثمَّ ألقِ إليهم كثرة عددنا ، ومددنا ، فإنَّهم لن يدعوا سؤلك ، وعجِّل الرَّجعة إلينا بخبرهم[(١٠٨)].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر ، قال رسول الله (ص) لأصحابه: «قفوا». ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ ربَّ السَّموات ، وما أظْلَلْنَ ، وربَّ الأرضين ، وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشَّياطين ، وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرِّياح ، وما ذَرَيْن ، فإنَّا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرِّها ، وشرِّ أهلها ، وشرِّ ما فيها ، اقدموا باسم الله» [ابن حبان (٢٧٠٩) ، والحاكم (٢/١٠٠ ـ ١٠١) ، والنسائي في اليوم والليلة (٥٤٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/٢٥٢) ، وابن خزيمة (٥٦٥) ، والطبراني في الكبير (٧٢٩٩)]. وكان يقولها لكلِّ قرية دخلها.

ولما أدرك رسول الله (ص) اللَّيل أمر الجيش بالنَّوم على مشارف خيبر ، ثم استيقظوا مبكرين ، وضربوا خيامهم ، ومعسكرهم بوادي الرَّجيع ، وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان؛ حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان[(١٠٩)].

ولما أصبح الصُّبح خرجت اليهود بمساحيهم[(١١٠)] ، ومكاتلهم[(١١١)] ، فلمَّا رأوا جيش المسلمين قالوا: محمدٌ والله! محمدٌ والخَميس ، فقال النَّبيُّ (ص) : «الله أكبر! الله أكبر! خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ ، فساء صباحُ المنذرين» [البخاري (٦١٠) ، ومسلم (١٣٦٥/١٢٠)].

ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم ، وحاصرهم المسلمون ، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الاخر ، وكان أوَّل ما سقط من حصونهم ناعمٌ ، والصَّعب بمنطقة النَّطاة ، وأبو النِّزار بمنطقة الشِّقِّ ، وكانت هاتان المنطقتان في الشَّمال الشَّرقي من خيبر ، ثمَّ حصن القَمُوص المنيع في منطقة الكتيبة ، وهو حصن ابن أبي الحُقَيْق ، ثم أسقطوا حصني منطقة الوَطيح ، والسَّلالم[(١١٢)].

وقد واجه المسلمون مقاومةً شديدةً وصعوبةً كبيرةً عند فتح بعض هذه الحصون ، منها حصن ناعمٍ؛ الَّذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاريُّ ، حيث ألقى عليه مرحبُ رحىً مِنْ أعلى الحصن[(١١٣)] ، والَّذي استغرق فتحه عشرة أيام[(١١٤)] ، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصِّدِّيق ، ولم يفتح الله عليه ، وعندما جهَد النَّاس ، قال رسول الله (ص) : إنَّه سيدفع اللِّواء

غداً إلى رجلٍ يحبُّه الله ورسولُه ، ويحبُّ الله ورسولَه ، لا يرجع حتَّى يُفْتَح له ، فطابت نفوس المسلمين ، فلمَّا صلَّى فجر اليوم الثَّالث دعا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ودفع إليه اللِّواء ، فحمله ، فتمَّ فتح الحصن على يديه. [الحاكم (٣/٣٧)].

وكان عليٌّ يشتكي من رَمَدٍ في عينيه عندما دعاه الرَّسول (ص) ، فبصق رسول الله (ص) في عينيه ، ودعا له ، فبَرَأَ. [البخاري (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦)].

ولقد أوصى الرَّسول (ص) علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم ، وقال له: «فو الله! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حُمُرُ النَّعَمِ». [البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦)].

وعندما سأله عليٌّ رضي الله عنه: يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك؛ منعوا منك دماءهم ، وأموالَهم إلا بحقِّها ، وحسابهم على الله». [مسلم (٢٤٠٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٦٠)].

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيِّده ، وبطلُهم مِرْحَبٌ ، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع ، ثمَّ بارزه عليٌّ فقتله[(١١٥)] ، وقيل: قتله محمَّد بن مسلمة ، ممَّا أثر سلبياً في معنويات اليهود ، ومِنْ ثَمَّ هزيمتهم[(١١٦)].

ووردت مجموعةٌ من روايات تخبر بأن علياً رضي الله عنه تترَّس بباب عظيمٍ ، كان عند حصنِ ناعمٍ، بعد أن أسقط يهوديٌّ ترسه مِنْ يده. وكلُّها رواياتٌ ضعيفةٌ [أحمد (٦/٨)، والطبري في تاريخه (٣/٩٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢١٢) ، ومجمع الزوائد (٦/١٥٢)][(١١٧)] ، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوَّة عليٍّ ، وشجاعته ، فيكفيه ما ثبت في ذلك ، وهو كثيرٌ[(١١٨)].

توجَّه المسلمون إلى حصن الصَّعب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعمٍ ، وأبلى حامل رايتهم الحُباب بن المنذر بلاءً حسناً ، حتَّى افتتحوه بعد ثلاثة أيام ، ووجدوا فيه الكثير من الطَّعام والمتاع يوم كانوا في ضائقةٍ من قلَّة الطَّعام ، ثمَّ توجَّهوا بعده إلى حصن قلعة الزُّبير . الَّذي اجتمع فيه الفارُّون من حصن ناعمٍ ، والصَّعبِ ، وبقيَّةِ ما فتح من حصون يهود . فحاصروه ، وقطعوا عنه مجرى الماء الَّذي يغذِّيه ، فاضطروهم إلى النزول للقتال ، فهزموهم بعد ثلاثة أيَّامٍ ، وبذلك تمَّت السَّيطرة على اخر حصون منطقة النَّطاة؛ الَّتي كان فيها أشدُّ اليهود ، ثمَّ توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق وبدؤوا بحصن أُبَيٍّ ، فاقتحموه ، وأفلت بعضُ مقاتلته إلى حصن نزار ، وتوجَّه إليهم المسلمون فحاصروهم ، ثمَّ افتتحوا الحصن ، وفرَّ

بقيَّة أهل الشِّقِّ من حصونهم ، وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع ، وحصن الوَطِيح ، وحصن السَّلالم ، فحاصرهم
المسلمون لمدَّة أربعة عشر يوماً حتَّى طلبوا الصُّلح[(١١٩)].
وهكذا فُتحت خيبر عَنْوةً[(١٢٠)]؛ استناداً إلى النَّظر في مجريات الأحداث التي سقناها ، وما روى البخاريُّ[(١٢١)] ، ومسلمٌ [(١٣٦٥/١٢٠)] ، وأبو داود [(٣٠٠٩)][(١٢٢)] من أنَّ رسول الله (ص) غزا خيبر ، وافتتحها عَنْوةً[(١٢٣)].
وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين ، وسارع أهل فَدَك في شمال خيبر إلى طلب الصُّلح ، وطلبوا منه أن يحقن دماءهم ، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم [مسلم (١٥٥١) ، وأحمد (٤٥١/٢) ، وأبو داود (٣٠٠٦) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٧/٩ ـ ١٣٨)][(١٢٤)] فكانت فدك خالصةً لرسول الله (ص) ؛ لأنَّه لم يوجف عليها بخيلٍ ، ولا ركاب ، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعةُ قرى بين خيبر، وتيماء ليالي[(١٢٥)]، ثمَّ استسلمت ، فغنم المسلمون أموالاً كثيرةً ، وتركوا الأرض والنَّخل بيد اليهود ، وعاملهم عليها مثل خيبر ، وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ، ووادي القرى[(١٢٦)].
وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهوديَّة أمام قوَّات المسلمين ، وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثةً وتسعين رجلاً[(١٢٧)] ، وسبيت النِّساء والذَّراري ، منهنَّ صفيَّةُ بنت حُيَيٍّ بن أخطب ، فأعتقها رسولُ الله (ص) ، وتزوَّجها. [البخاري (٣٧١) ، ومسلم (١٣٦٥)].
واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[(١٢٨)] ، وخمسة عشرَ فيما ذكر الواقديُّ[(١٢٩)].
رابعاً: الأعرابيُّ الشَّهيد ، والرَّاعي الأسود ، وبطلٌ إلى النَّار:
١ ـ الأعرابيُّ الشَّهيد:
جاء رجلٌ من الأعراب إلى النَّبيِّ (ص) ، فامن به ، واتَّبعه ، فقال: أهاجر معك. فأوصى به
بعض أصحابه ، فلمَّا كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله (ص) شيئاً ، فقسمه ، وقسم للأعرابيِّ ، فأعطى أصحابه ما قسَم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلمَّا جاء؛ دفعوه إليه ، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمه لك رسولُ الله (ص) ، فأخذه فجاء به للنَّبيِّ (ص) ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟! قال: «قَسْمٌ قسمتُه لك». قال: ما على هذا اتبعتُك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهمٍ

فأموتَ ، فأدخلَ الجنَّة ، فقال: «إن تَصْدُقِ الله؛ يَصْدُقْكَ» ثم نهض إلى قتال العدوّ ، فأُتي به إلى النَّبيِّ (ص) ؛ وهو مقتولٌ ، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم.

قال: «صَدَقَ اللهَ ، فَصَدَقَهُ».

فكفَّنه النَّبيُّ (ص) في جُبَّته، ثمَّ قدَّمه، فصلَّى عليه ، وكان من دعائه له: «اللَّهُمَّ هذا عبدُك خرج مهاجراً في سبيلك، قُتِل شهيداً، وأنا عليه شهيدٌ». [النسائي (٤/٦٠ ـ ٦١) ، والحاكم (٣/٥٩٥ ـ ٥٩٦) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٢٢٢) ، وفي السنن الكبرى (٤/١٥ ـ ١٦)].

٢ ـ الرَّاعي الأسود:

وجاء عبدٌ أسودُ حبشيٌّ من أهل خيبر ، كان في غنمٍ لسيده ، فلمَّا رأى أهل خيبر قد أخذوا السِّلاح ، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الَّذي يزعم: أنَّه نبيٌّ. فوقع في نفسه ذكر النَّبيِّ ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله (ص) فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسول الله ، وألا تعبد إلا الله». قال العبد: فما لي إن شهدت ، وامنت بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، قال: «لك الجنَّة إنْ مِتَّ على ذلك. فأسلم ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هذه الغنم عندي أمانةٌ ، فقال رسول الله (ص) : «أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء)؛ فإنَّ الله سيؤدِّي عنك أمانتك». ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيِّدها ، فعلم اليهوديُّ: أنَّ غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله (ص) في النَّاس، فوعظهم، وحضَّهم على الجهاد، فلمَّا التقى المسلمون واليهود؛ قُتِلَ ـ فيمن قُتِلَ ـ العبدُ الأسود ، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم ، فأُدخل في الفسطاط ، فزعموا: أنَّ رسول الله (ص) اطَّلع في الفُسطاط ، ثمَّ أقبل على أصحابه ، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خيبر ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يُصَلِّ لله سجدةً قطُّ». [الحاكم (٢/١٣٦) ، والبيهقي في الكبرى (٩/١٤٣) ، وفي الدلائل (٤/٢١٩ ـ ٢٢٠)][(١٣٠)].

٣ ـ بطل لكنَّه إلى النَّار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجلٌ لا يدع للمشركين شاذَّةً ، ولا فاذَّةً[(١٣١)] إلا اتَّبعها يضربها بسيفه ، فقال رسول الله (ص) : «أما إنَّه من أهل النَّار». فقالوا: أيُّنا من أهل الجنَّة إن كان من أهل النَّار؟! فقال رجلٌ: والله لا يموت على هذه الحال أبداً ، فاتَّبعه حتَّى جرح ، فاشتدَّت جراحتُه ، واستعجل الموت ، فوضع سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثمَّ تحامل عليه ، فقتل نفسه ، فجاء رجلٌ إلى رسول الله (ص) فقال: أشهد إنَّك رسول الله! قال: «وما ذاك؟» فأخبره ، فقال النَّبيُّ (ص) : «إنَّ

الرَّجل ليعمل بعمل أهل الجنَّة فيما يبدو للناس ، وإنَّه من أهل النَّار ، وإنَّه ليعمل بعمل أهل النَّار فيما يبدو للنَّاس ، وإنَّه لمن أهل الجنَّة». [البخاري (٤٢٠٢ و٤٢٠٧) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٥٢/٤)].

خامساً: قدوم جعفر بن أبي طالبٍ ، ومَنْ معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالبٍ ، وصحبُه من مهاجري الحبشة على رسول الله (ص) يوم فتح خيبر ، فقبَّلَهُ رسول الله (ص) بين عينيه ، والتزمه ، وقال: «ما أدري بأيِّهما أنا أَسَرُّ بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر؟!» [الطبراني في الصغير (٣٠) ، وفي الأوسط (٢٠٢٤) ، وفي الكبير (١٤٧٠) ، وابن سعد (٣٥/٤) ، والحاكم (٤٠٨/٣ ـ ٤٠٩) ، والبيهقي في الكبرى (١٠١/٨) ، ومجمع الزوائد (٢٧١/٩ ـ ٢٧٢)].

وكان (ص) قد أرسل في طلبهم من النَّجاشيِّ عمرو بن أميَّة الضَّمريَّ ، فحملهم في سفينتين ، ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر ، وقد رافق جعفراً في قدومه أبو موسى الأشعريُّ ، ومن كان بصحبته من الأشعريِّين[(١٣٢)].

فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: بلغنا مَخْرَجُ النَّبيِّ (ص) ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ، أنا ، وأخوان لي ، أنا أصغرهم ، أحدُهم أبو بُرْدَةَ ، والاخر أبو رُهْمٍ ، إمَّا قال: في بضعٍ ، وإمَّا قال: في ثلاثةٍ وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينةً فألقتنا سفينتنا إلى النَّجاشيِّ بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالبٍ فأقمنا جميعاً ، فوافقنا النَّبيَّ (ص) حين افتتح خيبر. [البخاري (٤٢٣٠) ، ومسلم (٢٥٠٢)].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً ، نزل خلالها قرانٌ كثيرٌ ، ودارت معارك شتَّى مع الكفَّار ، وتقلَّب المسلمون قبل الهجرة العامَّة وبعدها في أطوارٍ متباينةٍ، حتَّى ظنَّ البعض أنَّ مهاجري الحبشة ـ وقد فاتهم هذا كلُّه ـ أقلُّ قدراً من غيرهم[(١٣٣)].

فعن أبي موسى: «.. كان أناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة ، ودخلت أسماء بنت عُمَيْسٍ على حفصة زوج النَّبيِّ زائرةً ـ وكانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر ـ فدخل عمر على حفصة؛ وأسماء عندها ، فقال حين رأى أسماء: من هذه ؟ قالت: أسماء بنت عُميس. قال

عمر: الحبشيَّة هذه؟ البحريَّة هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحقُّ برسول الله منكم! فغضبت ، وقالت: كلاَّ والله! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعظُ جاهلكم ، وكنَّا في أرض البُعَدَاء البُغضَاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله ، وايْمُ الله! لا أطعَم طعاماً ، ولا أشرب

شراباً حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله (ص) ، وأسأله ، والله! لا أكذب ، ولا أزيغ ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاءت النَّبيَّ (ص) ؛ قالت: كذا وكذا ، قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ، ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ ، ولكم أنتم ـ أهل السَّفينة ـ هجرتان». [سبق تخريجه].

فأخذت أسماء هذا الوسام ، ووزَّعته على جميع أعضاء الوفد؛ حيث كانوا[(١٣٤)] كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث ، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ ، ولا أعظم في نفوسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ (ص) . [سبق تخريجه].

وقد أشركهم النَّبيُّ (ص) في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصَّحابة رضي الله عنهم الَّذين شاركوا في فتحها[(١٣٥)].

سادساً: تقسيم الغنائم:

١ ـ كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرَّسول (ص) غنيمةً من حيث الأراضي ، والنَّخيل ، والثِّياب ، والأطعمة ، وغير ذلك ، ومن خلال وصف كتب السِّيرة نلاحظ: أنَّ الغنائم كانت تتكوَّن من:

أ ـ الطَّعام: فقد غنم المسلمون كثيراً من الأطعمة من حصون خيبر ، فقد وجدوا فيها الشَّحم ، والزَّيت ، والعسل ، والسَّمن وغير ذلك ، فأباح رسول الله (ص) الأكل من تلك الأطعمة ، ولم يخمِّسها[(١٣٦)].

ب ـ الثِّياب ، والأثاث ، والإبلُ ، والبقر ، والغنم: لقد أخذ رسول الله (ص) خمسها ووضعه فيما وضعه الله فيه ، ووزَّع أربعة أخماسها على المجاهدين.

ج ـ السَّبي: لقد سبى رسولُ الله (ص) كثيراً من نساء اليهود ، ووزَّع السَّبي على المسلمين ، فهو غنيمةٌ ، ويأخذ حكم الغنيمة.

د ـ أمَّا الأراضي ، والنَّخيل: فقد قسمها النَّبيُّ (ص) إلى ستَّةٍ وثلاثين سهماً ، جمع كلُّ سهم مئة سهم ، فكانت ثلاثة الاف وستمئة سهم ، فكان لرسول الله (ص) لنوائبه ، وما ينزل به من أمور

المسلمين وللمسلمين النِّصف من ذلك ، وهو ألفٌ وثمانمئة سهم ، ووزَّع النِّصف الاخر ، وهو ألف وثمانمئة سهم[(١٣٧)].

هـ وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدَّة صحفٍ من التَّوراة، فطلب اليهود ردَّها ، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع (ص) ما صنع الرُّومان حينما فتحوا أورشليم ، وأحرقوا الكتب المقدَّسة ،

وداسوها بأرجلهم ، ولا ما صنع النَّصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التَّوراة[(١٣٨)].

وقد أبقى رسولُ الله (ص) يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها ، وينفقوا عليها من أموالهم ، ولهم نصف ثمارها ، على أنَّ للمسلمين حقَّ إخراجهم منها متى أرادوا ، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النَّبيِّ (ص) ، وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم ، فوافق على ذلك بعد أن همَّ بإخراجهم منها. [أبو داود (٣٤١٠) ، وابن ماجه (١٨٢٠)][(١٣٩)].

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء ، وهنا تظهر براعةٌ سياسيَّةٌ جديدةٌ في عقد الشُّروط؛ فإنَّ بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفِّر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله ، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ اليهود هم أصحاب الأرض ، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم ، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرةً أكثر ، وأجود ، وبخاصَّةٍ: أنَّهم لن يأخذوا أجراً ، ولكنَّهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض، قلَّ ، أو كثر.

وقد ضمن الرَّسول (ص) . بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون . إخضاعهم وكسر شوكتهم؛ لأنَّهم يعلمون: أنَّهم إذا فعلوا شيئاً يضرُّ بالمسلمين سيطردونهم منها ، ولا يعودون إليها أبداً.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر ، ففدعوا[(١٤٠)] يديه من المرفقين ، وكانوا قبل ذلك في عهد الرَّسول (ص) اعتدوا على عبد الله بن سهل ، فقتلوه ، فلمَّا تحقَّق عمر من غدرهم، وخيانتهم؛ أمر بإجلائهم[(١٤١)]. وحاول يهود خيبر أن يُخفوا الفضَّة، والذَّهب، وغيبوا مَسْكاً[(١٤٢)] لحُيَيِّ بن أخطب ، وكان قد قتل مع بني قريظة ، وكان احتمله معه يوم بني النَّضير حين أجليت بنو النَّضير ، فسأل رسول الله (ص)

سَعْيَةَ عمَّ حُيَيِّ بن أخطب: «أين مَسْكُ حُيَيِّ بن أخطب؟» قال: أذهبته الحروب، والنَّفقات[(١٤٣)]. فقال رسولُ الله (ص) : العهد قريبٌ ، والمال أكثر من ذلك ، فدفعه رسولُ الله (ص) إلى الزُّبير بن العوَّام ، فمسَّه بعذابٍ ، وقد كان حُيي قبل ذلك دخل خربة ، فقال عمُّه: قد رأيت حُيياً يطوف في خربةٍ ها هنا، فذهبوا ، فطافوا ، فوجدوا المسك في الخربة[(١٤٤)].

وبعد الاتِّفاق الَّذي تمَّ بين رسول الله (ص) ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسولُ الله (ص) عبد الله بن رواحة يأتيهم كلَّ عامٍ ، فيخرصُها عليهم ، ثم يضمِّنهم الشَّطر. فشكوا إلى رسول الله (ص) شدَّة خَرْصِه[(١٤٥)] ، وأرادوا أن يَرْشُوه فقال: يا أعداء الله! تطعموني السُّحت؟ والله! لقد جئتكم

من عند أحبِّ النَّاس إليَّ ، ولأنتم أبغضُ النَّاس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير ، ولا يحملني بغضي إيَّاكم وحبِّي إيَّاه على ألاَّ أعدل عليكم! فقالوا: بهذا قامت السَّموات ، والأرض[(١٤٦)].

لقد أصبحت خيبر ملكاً للمسلمين ، وصارت مورداً مهمّاً لهم ، قال ابن عمر رضي الله عنه: «ما شبعنا حتَّى فُتِحَتْ خيبر» [البخاري (٤٢٤٣)] ، وقد تحسَّن الوضع الاقتصاديُّ بعد خيبر ، وردَّ المهاجرون المنائح الَّتي أعطاهم إيَّاها الأنصار من النَّخل[(١٤٧)].

سابعاً: زواج رسول الله (ص) من صفيَّة بنت حُيَيٍّ بن أخطب:

لما فتح المسلمون القَمُوص ـ حصن بني أبي الحُقيق ـ كانت صفيَّة في السَّبي ، فأعطاها لدحية الكلبي ، فجاء رجلٌ إلى النَّبيِّ (ص) فقال: يا رسول الله! أعطيت دحية صفيَّة بنت حُيَيٍّ سيدة قومها ، وهي ما تصلح إلا لك ، فاستحسن النَّبيُّ (ص) ما أشار به الرَّجل ، وقال لدحية: خذ جاريةً من السَّبي غيرها ، ثمَّ أخذها رسولُ الله (ص) وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها. [سبق تخريجه] ، ثمَّ تزوجها بعد أن طَهُرت من حَيْضَتها[(١٤٨)] وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النَّبيُّ (ص) من خيبر حتَّى طهرت صفيَّة من حيضها ، فحملها وراءه ، فلمَّا صار إلى منزلٍ على ستة أميالٍ من خيبر؛ مال يريد أن يعرِّس بها ، فأبت عليه ، فوجد في نفسه ، فلمَّا كان بالصَّهباء نزل بها هناك ، فمشطتها أمُّ سليم ، وعطَّرتها ، وزفَّتها إلى النَّبيِّ (ص) ، وبنى بها ، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النُّزول أوَّلاً؟» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود ، فعظمت في نفسه ، ومكث رسولُ الله (ص) بالصَّهباء ثلاثة أيام ، وأَوْلَمَ عليها ، ودعا المسلمين ، وما كان فيها من لحمٍ ، وإنَّما التَّمر ، والأَقِطُ ، والسَّمن ، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين ، أو ما ملكت يمينُه لها ، فلمَّا ارتحل وطَّأ لها خلفه ومدَّ عليها الحجاب ، فأيقنوا أنَّها إحدى أمَّهات المؤمنين. [سبق تخريجه][(١٤٩)].

وقد كانت أم المؤمنين صفيَّة بنت حُيَيٍّ قد رأت رؤيا ، فقد روى البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديثٍ طويلٍ قال: ورأى رسول الله (ص) بعين صفيَّة خضرةً ، فقال: يا صفيَّة! ما هذه الخضرة؟ فقالت: كان رأسي في حجر ابن حُقَيْقٍ ، وأنا نائمةٌ ، فرأيت كأنَّ قمراً وقع في حجري ، فأخبرتُه بذلك فلطمني ، وقال: تَمَنَّيْنَ ملك يثرب. [البيهقي في الكبرى (٩/١٣٨)].

وهكذا صدَّق الله رؤيا صفيَّة رضي الله عنها ، وأكرمها بالزَّواج من رسوله (ص) ، وأعتقها من النَّار ، وجعلها أماً للمؤمنين ، وزوجاً في الجنَّة لخاتم الأنبياء والمرسلين[(١٥٠)] ، وقد أكرمها رسول الله (ص)

غاية الإكرام ، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفيةُ رجلها على ركبته حتَّى تركب ، وقد بلغ من أدبها: أنَّها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته ، فكانت تضع ركبتها على ركبته ، وتركب. [البخاري (٢٢٣٥)].

وهذه صفيَّة رضي الله عنها تحدِّثنا عن خلق رسول الله (ص) ، فتقول: ما رأيت أحداً قطُّ أحسن خلقاً من رسول الله (ص) ؛ لقد رأيته ركب بي في خيبر ، وأنا على عجز ناقته ليلاً ، فجعلت أنعس ، فتضرب رأسي مؤخرة الرَّحل ، فيَمسُّني بيده ، ويقول: «يا هذه! مهلاً» [أبو يعلى (٧١٢٠) ، ومجمع الزوائد (٩/٢٥٢)][(١٥١)]. وعن صفيَّة رضي الله عنها: أنَّها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله (ص) من صفيَّة ، نحن أزواجه وبنات عمِّه ، فدخل عليها (ص) فأخبرته ، فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً منِّي؛ وزوجي محمَّد ، وأبي هارون ، وعمِّي موسى؟!». [الترمذي (٣٨٩٢) ، والحاكم (٤/٢٩)].

لقد تأثَّرت صفيَّة بأخلاق رسول الله (ص) ، وأصبح (ص) أحبَّ إليها من أبيها ، وزوجها السَّابق ، والنَّاس أجمعين ، بل أصبح أحبَّ إليها من نفسها ، تفديه بكلِّ ما تملك حتَّى نفسها ، وإذا ألمَّ به مرضٌ؛ تمنَّت أن يكون فيها ، وأن يكون رسول الله (ص) سليماً معافىً ، فقد أخرج ابن

سعد رحمه الله بإسنادٍ حسنٍ عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ، قال: اجتمع نساؤه (ص) في مرضه الَّذي تُوفِّي فيه ، فقالت صفيَّة رضي الله عنها: إنِّي والله يا نبيَّ الله لوددت أنَّ الَّذي بك بي! فغمز بها أزواجُه ، فأبصرهنَّ رسول الله (ص) فقال: «مَضْمِضْنَ» فقلن: من أيِّ شيء؟ فقال: «من تغامزكنَّ بها ، والله إنَّها لصادقة[(١٥٢)]!».

وممَّا له صلةٌ بزواج رسول الله (ص) بصفيَّة بنت حُيَيٍّ حراسة أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه لرسول الله (ص) يوم أن دخل بصفيَّة ، فعن ابن إسحاق: أنَّه قال: ولما أعرس رسول الله (ص) بصفيَّة بخيبر ، أو ببعض الطَّريق ، فبات بها رسول الله (ص) في قبَّةٍ له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بني النَّجار متوشِّحاً سيفه ، يحرس رسول الله (ص) ، ويَطيف بالقُبَّة؛ حتَّى أصبح رسولُ الله (ص) ، فلمَّا رأى مكانه؛ قال: «ما لك يا أبا أيوب؟!» قال: يا رسول الله! خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأةً قد قتَلْتَ أباها ، وزوجها ، وقومها ، وكانت حديثة عهدٍ بكفرٍ ، فخفتُها عليك[(١٥٣)] ، فسُرَّ رسول الله (ص) بعمله الَّذي ينبأى عن غاية الحبِّ ، والإيمان ، وقال: «اللَّهمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحرُسني!». [ابن هشام (٣/٣٥٤ ـ ٣٥٥)][(١٥٤)].

وكان زواجُ رسول الله (ص) بصفية فيه حكمةٌ عظيمةٌ ، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوةٍ ، أو إشباعاً للغريزة كما يزعم الأفَّاكون ، وإنما أراد إعزازها ، وتكريمها ، وصيانتها من أن تفترش لرجلٍ لا يعرف لها شرفها ، ونسبها في قومها ، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها؛ فقد قُتل أبوها من قبلُ ، وزوجُها ، وكثيرٌ من قومها ، ولم يكن هناك أجمل ممَّا صنعه الرَّسول (ص) معها ، كما أنَّ فيه رباط المصاهرة بين النَّبيّ (ص) واليهود؛ عسى أن يكون في هذا ما يخفِّف من عدائهم للإسلام، والانضواء تحت لوائه ، والحدِّ من مكرهم ، وسعيهم بالفساد[(١٥٥)].

وكانت أمُّ المؤمنين صفيَّة رضي الله عنها عاقلةً ، وحليمةً ، وصادقةً ، يروى: أنَّ جاريةً لها أتت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه فقالت: إنَّ صفية تحبُّ السَّبت ، وتصل اليهود ، فبعث إليها فسألها عن ذلك ، فقالت: أمَّا السَّبت فإنِّي لم أحبَّه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأما اليهود فإنَّ لي فيهم رحماً فأنا أصلُها ، فقبل منها ، ثمَّ قالت للجارية: ما حملك على هذا ؟ قالت: الشَّيطان ، فقالت لها: اذهبي فأنت حرَّة.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية ، وقيل: سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها ، وأرضاها[(١٥٦)].

ثامناً: محاولةٌ أثيمةٌ لليهود: الشَّاة المسمومة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لما فُتحت خيبر؛ أهديت لرسول الله (ص) شاةٌ فيها سُمٌّ ، فقال رسول الله (ص) : «اجمعوا لي مَنْ كان ها هنا من اليهود». فَجُمِعُوا له ، فقال لهم رسول الله (ص) : «إنِّي سائلُكُم عن شيءٍ؛ فهل أنتم صَادِقيَّ عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم!

فقال لهم رسول الله (ص) : «مَنْ أبوكم؟».

قالوا: فلان.

فقال رسول الله (ص) : «كذبتم ، بل أبوكم فلان».

فقالوا: صدقت.

فقال: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم! وإن كذبنا؛ عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

قال لهم رسول الله (ص) : «مَنْ أهل النَّار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيراً ، ثمَّ تخلفونا فيها.

فقال لهم رسول الله (ص) : «اخسؤوا فيها ، والله! لا نَخْلُفُكُم فيها أبداً».

ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.

فقال: «هل جعلتم في هذه الشَّاة سُماًّ؟».

فقالوا: نعم.

فقال: «ما حملكم على ذلك؟».

فقالوا: إن كنت كاذباً؛ نَسْتَرِحْ منك ، وإن كنت نبيّاً لم يضرَّك. [البخاري (٣١٦٩) ، وأحمد (٤٥١/٢)].

قال: صاحب بلوغ الأماني عن الشَّاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهوديَّة امرأة سلاَّم بن مشكم ، وكانت سألت: أيُّ عضوٍ من الشَّاة أحبُّ إليه؟ فقيل: الذِّراع ، فأكثرت فيها من السُّمِّ ، فلمَّا تناول الذِّراع؛ لاك منها مضغةً ، ولم يَسُغْها ، وأكل منها معه بِشْرُ بن البراء ، فأساغ لقمةً ، ومات منها[(١٥٧)].

وفي مغازي عروة: فتناول الذِّراع، فانتهش منها، وتناول بِشرُ عظماً اخر، فانتهش منه ، فلمَّا أرغم رسولُ الله (ص) ، أرغم بشرٌ ما في فيه ، فقال رسول الله (ص) : «ارفعوا أيديكم ، فإنَّ كتف الشَّاة تخبرني أنِّي قد بغيت فيها » فقال بِشْرُ بن البراء : والَّذي أكرمك! لقد وجدت ذلك في أكلتي؛ الَّتي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظَها إلا أنِّي كرهت أن أنغِّص طعامك، فلمَّا أَكَلْتَ ما في فيك؛ لم أرغبْ بنفسي عن نفسك، ورجوتُ ألاَّ تكون رغمتها، وفيها بغي. [الطبراني في الكبير (١٢٠٤)، ومجمع الزوائد (١٥٣/٦)][(١٥٨)].

وقال ابن القيِّم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله (ص) ، فقالت: أردت قتلك ، فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ عليَّ». قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» [مسلم (٢١٩٠)] . ولم يتعرَّض لها ، ولم يعاقبها ، واحتجم على الكاهل ، وأمر مَنْ أكل منها فاحتجم ، فمات بعضُهم[(١٥٩)].

وقد اختُلف في قتل المرأة ، والصَّحيح: أنَّه لما مات بشر؛ قتلها[(١٦٠)]. ولقد كان السُّمُّ الذي وضعته اليهودية قويّاً جدّاً؛ إذ مات بشر بن البراء فوراً ، وبقي رسول الله (ص) يعاوده ألم السُّمِّ حتَّى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة ، وتركها على المحجَّة البيضاء ، ليلُها كنهارها[(١٦١)]. وقد روى الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت:

كان النَّبيُّ (ص) يقول في مرض موته الَّذي مات فيه: «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الَّذي أكلت بخيبر ، فهذا أوانُ وجَدْتُ انقطاعَ أَبْهَرِي[(١٦٢)] من ذلك السُّمِّ». [البخاري (٤٤٢٨)][(١٦٣)].

تاسعاً: الحجَّاج بن عِلاط السُّلَمِيُّ ، وإرجاعُ أمواله من مكَّة:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لما افتتح رسول الله (ص) خيبر قال الحجَّاج بن عِلاَط: يا رسول الله! إنَّ لي بمكَّة مالاً ، وإنَّ لي بها أهلاً ، وإنِّي أريد أن أكتبهم ، فأنا في حلٍّ إن أنا نلت منك ، وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله (ص) أن يقول ما يشاء ، فأتى امرأته حين قدم ، فقال: اجمعي لي ما كان عندك ، فإنِّي أريد أن أشتري من غنائم محمَّد وأصحابه ، فإنَّهم قد استبيحوا ، أو أصبت أموالهم ، قال: ففشا ذلك في مكَّة فانقمع المسلمون ، وأظهر المشركون فرحاً ، وسروراً ، قال: وبلغ الخبر العبَّاس رضي الله عنه فعَقِر ، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزريُّ عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله (ص) يقال له: قُثَم ، فاستلقى ، فوضعه على صدره ، وهو يقول:

حُبِّي قُثَم حُبِّي قُثَم شَبِيْهُ ذِي الأَنْفِ الأَشَم
نَبِيُّ رَبِّ ذِي النِّعَمْ بِرَغْمِ أَنْفِ مَن رَغم

قال ثابت بن أنسٍ: ثمَّ أرسل غلاماً له إلى الحجَّاج ، فقال له: ويلك! ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خيرٌ ممَّا جئت به ، قال: فقال الحجَّاج بن عِلاَط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السَّلام ، وقل له: فليخلُ لي في بعض بيوته لاتيه ، فإنَّ الخبر على ما يسرُّه ، فجاءه غلامُه ، فلمَّا بلغ باب الدَّار قال: أبشر يا أبا الفضل! قال: فوثب العبَّاس فَرِحاً ، حتَّى قبَّل بين عينيه ، فأخبره بما قال الحجَّاج ، فأعتقه ، قال: ثمَّ جاء الحجَّاج فأخبره: أنَّ رسول الله (ص) قد افتتح خيبر ، وغنم أموالهم ، وجرت سهام الله في أموالهم ، واصطفى رسول الله (ص) صفيَّة بنت حُيَيٍّ ، فأخذها لنفسه، وخيَّرها أن يعتقها ، وتكون زوجته[(١٦٤)] ، ولكنِّي جئت لمالي ، وإنِّي استأذنت النَّبيَّ (ص) ، فأذن لي ، فأخفِ عليَّ يا أبا الفضل ثلاثاً ، ثمَّ اذكُر ما شئت[(١٦٥)] ، فجمعت امرأته ما كان عندها من حليٍّ ، ومتاع ، فجمعه ، فَدَفَعَتْهُ إليه ، ثمَّ انشمر به ، فلما كان بعد ثلاثٍ أتى العباس امرأة الحجَّاج ، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته: أنَّه ذهب يوم كذا وكذا ، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل! لقد شقَّ علينا الَّذي بلغك ، قال: أجل ، لا يخزيني الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا ، فتح الله خيبر على رسول الله (ص) ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله (ص) صفيَّة بنت حُيَيٍّ لنفسه ، فإن كانت لك

حاجة في زوجك فالحقي به ، قالت: أظنُّك والله صادقاً ، قال: فإنِّي صادقٌ ، الأمر على ما أخبرتك ، فقال: ثمَّ ذهب حتَّى أتى مجالس قريش ، وهم يقولون إذا مرَّ بهم: لا يصيبك إلا خيرٌ يا أبا الفضل! قال لهم: لم يصبني إلا خيرٌ بحمد الله ، قد أخبرني الحجَّاج بن عِلاَط أنَّ خيبر قد فتحها الله على رسوله (ص) ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى صفيَّة لنفسه ، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً ، وإنَّما جاء ليأخذ ماله ، وما كان له من شيءٍ ها هنا ، ثمَّ يذهب. قال: فرد الله الكابة الَّتي كانت بالمسلمين على المشركين ، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتَّى أتوا العباس ، فأخبرهم الخبر فسُرَّ المسلمون ، وردَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ما كان من كابةٍ ، أو غيظٍ ، أو حزنٍ على المشركين. [أحمد (١٣٨/٣ ـ ١٣٩) ، والبزار (١٨١٦) ، وأبو يعلى (٣٤٧٩) ، والطبراني في الكبير (٣١٩٦) ، والبيهقي في الكبرى (١٥١/٩) ، وعبد الرزاق في المصنف (٤٦٦/٥ ـ ٤٦٩)].

وفي هذا الخبر فقهٌ غزيرٌ؛ منه: جواز كذب الإنسان على نفسه ، وعلى غيره؛ إذا لم يتضمَّن ضرر ذلك الغير إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقِّه ، كما كذب الحجَّاج بن عِلاَط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكَّة من غير مضرَّة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأمَّا ما نال مَنْ بمكَّة من المسلمين من الأذى ، والحزن بمفسدة؛ فيسيرٌ في جنب المصلحة الَّتي حصلت بالكذب ، ولا سيما تكميل الفرح والسُّرور ، وزيادة الإيمان الَّذي حصل بالخبر الصَّادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الرَّاجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهيَّة المتعلِّقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكامٌ شرعيَّةٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ تحريم أكل لحوم الحُمُرِ الأهليَّة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله (ص) نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهليَّة. [البخاري (٤٢١٨) ، ومسلم (٥٦١)][(١٦٦)].

٢ ـ حرمة وطء السَّبايا الحوامل:

قال رسول الله (ص) : «من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يَسْقِ ماءه زَرْعَ غيره». [أبو داود (٢١٥٨) ، والترمذي (١١٣١)][(١٦٧)].

٣ ـ حرمة وطء السَّبايا غير الحوامل قبل استبراء الرَّحم:

قال رسول الله (ص) : «لا يحل لامرأى يؤمن بالله واليوم الاخر أن يقع على امرأةٍ من السَّبي حتَّى يستبرئها». [أحمد (٤/١٠٨) ، وأبو داود (٢١٥٨) و(٢١٥٩) ، والبيهقي في الكبرى (٩/١٢٤)][(١٦٨)].

والاستبراء إنَّما يكون بأن تطهر من حيضةٍ واحدةٍ فقط ، ولا تجب عليها العدَّة؛ وإن كانت متزوّجة من كافرٍ ، سواءٌ مات ، أو بقي حيّاً؛ لأنَّ العدَّة وفاءٌ للزَّوج الميّت ، وحداد عليه ، ولا يُحَدُّ على الكافر كما علمت[(١٦٩)].

٤ . حرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيدٍ الخدريّ، وأبي هريرة رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله (ص) استعمل رجلاً على خيبر ، فجاءه بتمرٍ جنيبٍ ، فقال رسول الله (ص) : «كلُّ تمرِ خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله! إنَّا لنأخذ الصَّاع من هذا بالصَّاعين، والثلاثة. فقال: «لا تفعل! بعِ الجمع بالدَّراهم، ثمَّ ابتع بالدَّراهم جنيباً». [البخاري (٤٢٤٤)، ومسلم (١٥٩٣)].

فالتَّفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل؛ إذا اشترى صاعاً بأكثر من صاعٍ ، فالزِّيادة هنا هي الرِّبا ، وهذا محرَّمٌ كما رأيت؛ إذ نهى النَّبيُّ (ص) عن ذلك ، وأرشد إلى الحلِّ السَّليم بأن يبيع ما لديه من تمرٍ ثمَّ يشتري بما لديه من نقودٍ ما يشتهي من تمرٍ؛ لأنَّ الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الرِّبا[(١٧٠)].

٥ . حرمة بيع الذَّهب بالذَّهب العَيْن ، وتبر الفضَّة بالوَرِق العَيْن:

روي عن عبادة بن الصَّامت: أنَّه قال: نهانا رسول الله (ص) يوم خيبر أن نبيع ، أو نبتاع تِبْرَ الذَّهب بالذَّهب العَيْن ، وتِبْرَ الفِضَّة بالوَرِق العَيْن ، وقال: «ابتاعوا تبر الذَّهب بالوَرِق العَيْن ، وتبر الفضَّة بالذَّهب العَيْن». [ابن هشام (٣/٣٤٦)].

والمراد من الحديث: أن يباع الذَّهب بالذَّهب مثلاً بمثلٍ ، والفضَّة بالفضَّة مثلاً بمثلٍ ، بلا زيادةٍ ، ولا نقصٍ؛ وعندما يُقابل الذَّهب بالفضة لا تشترك المماثلة ، كما هو معلومٌ ، وثابتٌ في الصِّحاح[(١٧١)].

٦ . مشروعية المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال: أعطى النَّبيُّ (ص) خيبر لليهود أن يعملوها ، ويزرعوها ، ولهم شطرُ ما يخرج منها. [سبق تخريجه].

وقد تساءل بعض الباحثين: لم جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر؟ وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشَّيخ محمَّد أبو زهرة على هذا ، فقال: إنَّ فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنِّسبة للعلاقات الماليَّة الَّتي يجري في ظلِّها التَّبادل الماليُّ ، فكانت فيها شرعيَّة المزارعة ، والمساقاة ، ولم تكن تجري كثيراً في يثرب[(١٧٢)].

٧ ـ حلُّ أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله (ص) يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر ، ورخَّص في الخيل. [البخاري (٥٥٢٠) ، ومسلم (١٩٤١/٣٦ و٣٧)].

٨ ـ تحريم المتعة:

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله (ص) نهى عن متعة النِّساء يوم خيبر ، وعن أكل لحوم الحمر الإنسيَّة. [البخاري (٥٥٢٣) ، ومسلم (١٤٠٧)].

٩ ـ مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أميَّة بنت أبي الصَّلت عن امرأةٍ من بني غفار؛ قالت: أتيت رسول الله (ص) في نسوةٍ من بني غفار ، فقلن: يا رسول الله! قد أردنا أن نخرجَ معك إلى وجهك هذا ـ وهو السَّير إلى خيبر ـ فنداويَ الجرحى ، ونعينَ المسلمين بما استطعنا. فقال: «على بركة الله». قالت: فخرجنا معه ، قالت: فو الله لنزَلَ رسولُ الله (ص) إلى الصُّبح ، ونزلتُ عن حقيبة رَحْلِهِ ، قالت: وإذا بها دم منِّي ـ وكانت أوَّل حيضةٍ حضتها ـ قالت: فتقبَّضْتُ إلى النَّاقة ، واستحييت. فلمَّا رأى رسول الله (ص) ما بي ، ورأى الدَّم قال: «ما لك؟ لعلَّك نُفِسْتِ؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نَفْسِك ، ثمَّ خذي إناءً من ماءٍ ، فاطْرَحي فيه ملحاً ، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدَّم ، ثم عودي لِمَرْكَبِكِ» قالت: فلمَّا فتح الله خيبر؛ رضخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القلادة الَّتي تَرَيْنَ في عنقي ، فأعطانيها ، وعلَّقها بيده في عنقي ، فو الله لا تفارقني أبداً[(١٧٣)] ، وكانت في عنقها حتَّى ماتت ، ثمَّ أوصت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضها ، إلا جعلت في طهرها ملحاً ، وأوصت به أن يجعل في غُسْلها حين ماتت. [أحمد (٣٨٠/٦) ، والبيهقي في الكبرى (٤٠٧/٢) ، وابن سعد (٢١٤/٨) ، وابن كثير في البداية والنهاية (٢٠٤/٤) ، وابن هشام (٣٥٧/٣)].

وهي صورةٌ حيَّةٌ أمام كلِّ فتاةٍ مسلمةٍ ، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين[(١٧٤)].

وهكذا كانت حياة الرَّسول (ص) تعليماً ، وتربيةً للأمَّة في السِّلم ، والحرب على معاني العقيدة ، وحقيقة العبادة ، وهذا غيضٌ من فيضٍ ، وجزءٌ من كلٍّ.

هذا وقد أحدث فتحُ خيبر ، وَفَدَك ، ووادي القرى ، وتيماء دويّاً هائلاً في الجزيرة العربيَّة بين مختلف القبائل ، وقد أصيبت قريش بالغيظ ، والكابة؛ إذ لم تكن تتوقَّع ذلك ، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر ، وكثرة مقاتليهم ، ووفرة سلاحهم ، ومؤونتهم ، ومتاعهم[(١٧٥)].

أمَّا القبائل العربيَّة الأخرى المناصرة لقريش؛ فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر ، وخذلها انتصار المسلمين السَّاحق ، ولذلك فإنَّها جنحت إلى مسالمة المسلمين ، وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم ، ممَّا فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربيَّة ، بعد أن تعزَّزت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقَّق لهم مِنْ خيرٍ ، وتعزيزٍ لوضعهم الاقتصاديِّ[(١٧٦)].

واستمرَّت حركة السَّرايا بعد خيبر، وكانت كثيرةً، وأمَّرَ عليها (ص) كبار الصَّحابة، وكان في بعضها قتالٌ ، ولم يكن في بعضها قتال[(١٧٧)].

* * *

المبحث الثَّاني

دعوة الملوك والأمراء[(١٧٨)]

أولاً: كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المدِّ الإسلاميِّ:

فقد انساح هذا المدُّ إلى أطراف الجزيرة العربيَّة ، بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربيَّة ، فمنذ أن عقد الرَّسول (ص) صلح الحديبية مع قريشٍ ، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر ، ووادي القرى ، وتيماء ، وفَدَك إلى سيادة الإسلام؛ فإنَّ الرَّسول (ص) لم يألُ جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز ، وكذلك خارج حدود الجزيرة العربيَّة ، وقد عبَّر (ص) عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرُّسل ، والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربيَّة ، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربيَّة.

وتُعَدُّ هذه الخُطوة نقطة تحوُّلٍ مهمَّةٍ في تاريخ العرب ، والإسلام ، ليس لأنَّ الرَّسول (ص) سوف يوحِّد عرب الجزيرة العربيَّة تحت راية الإسلام ، فحسب ، ولكن لأنَّ هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام ، وتمثَّلوا رسالة السَّماء أنيط بهم حمل الدَّعوة الإسلاميَّة إلى البشريَّة كافَّةً[(١٧٩)].

ويشير المنهج النَّبويُّ في دعوة الزُّعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدَّعوة ، فإلى جانب دعوة الأمراء ، والشُّعوب اختار الرَّسول (ص) أسلوباً جديداً من أساليب الدَّعوة ، وهو مراسلة الملوك ، ورؤساء القبائل ، وكان لأسلوب إرسال الرَّسائل إلى الملوك ، والأمراء أثرٌ بارزٌ في دخول بعضهم الإسلام ، وإظهار الودِّ من البعض الاخر ، كما كشفت هذه الرَّسائل مواقف بعض الملوك ، والأمراء من الدَّعوة الإسلامية ، ودولتها في المدينة ، وبذلك حقَّقت هذه الرَّسائل نتائج كثيرةً ، واستطاعت الدَّولة الإسلاميَّة من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرَّسائل أن تنتهج نهجاً سياسيّاً ، وعسكريّاً واضحاً ، ومتميِّزاً[(١٨٠)] ، وإليك أهم هذه الرَّسائل:

١ ـ فقد وردت روايةٌ صحيحةٌ ، تضمَّنت نصَّ كتاب النَّبيِّ (ص) الَّذي بعثه مع دحية الكلبيِّ إلى هرقل عظيم الرُّوم[(١٨١)] وذلك في مدة هدنة الحديبية ، وهو كما يلي:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى: أمَّا بعد: فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمْ؛ تسلم ، يؤتك الله أجرك مرَّتين ، فإنْ تولَّيت؛ فعليك إثم الأَرِيْسيِّينَ {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *} [آل عمران: ٦٤]. [البخاري (٤٥٥٣) ، ومسلم (١٧٧٣)].

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النَّبيِّ (ص) ودقَّق في الأمر كما في الحديث الطَّويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المرويِّ في الصَّحيحين حين سأله عن أحوال النَّبي (ص) ، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: (إن كان ما تقول حقاً؛ فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم: أنَّه خارج ، ولم أكن أظنُّه منكم ، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه؛ لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده؛ لغسلت عن قدميه). [انظر تخريج الحديث السابق].

٢ ـ أرسل النَّبيُّ (ص) بكتابٍ إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسيَّة ، مع عبد الله بن حُذافة السَّهميِّ ، «أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[(١٨٢)] ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلمَّا قرأه؛ مزَّقه ، فدعا عليهم رسول الله (ص) أن يُمَزَّقوا كُلَّ ممزَّق» [أحمد (١/٢٤٣) ، والبخاري (٤٤٢٤) ، والبيهقي

في دلائل النبوة (٣٨٧/٤)][(١٨٣)] ، ونصُّ الرِّسالة كما أوردها الطَّبريُّ كالتَّالي: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على مَنِ اتَّبع الهُدى ، وامن بالله ، ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً؛ لينذر من كان حيّاً ، أسلم؛ تسلم ، فإن أبيت؛ فعليك إثمُ المجوس». [تاريخ الطبري (٦٥٤/٢ ـ ٦٥٥)].

٣ ـ أمَّا كتاب النَّبيِّ (ص) إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، فقد أرسله مع عمرو بن أميَّة الضَّمْريِّ ، وقد جاء في الكتاب:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّدٍ رسول الله ، إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو الملكُ ، القدُّوس ، السَّلامُ ، المؤمنُ ، المهيمنُ ، وأشهد أنَّ عيسى ابنَ مريم روحُ الله ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول الطَّيبة الحصينة ، فحملت به ، فخلقه من روحه ، ونفخه كما خلق ادم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك

له ، والموالاة في طاعته ، وأن تتَّبعني ، وتؤمن بالَّذي جاءني ، فإنِّي رسول الله ، وإنِّي أدعوك ، وجنودَك إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقد بلَّغتُ ، ونصحتُ ، فاقبلوا نصيحتي ، والسَّلام على من اتَّبع الهُدى». [نصب الراية للزيلعي (٤٢١/٤)].

٤ ـ أمَّا كتاب النَّبيِّ (ص) إلى المقوقس حاكمِ مصر[(١٨٤)] ، وكذلك ردُّ المقوقس إليه[(١٨٥)]؛ فلم يثبت من طرقٍ صحيحةٍ ، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه ، كما أنَّ ذلك لا يعني الطَّعن بصحة النُّصوص من النَّاحية التاريخيَّة ، فربما تكون صحيحةً من حيث الشَّكل ، والمضمون ، غير أنَّها لا يمكن أن يحتجَّ بها في السِّياسة الشَّرعيَّة[(١٨٦)] ، فلقد أورد محمَّد بن سعد في طبقاته[(١٨٧)]: أنَّ النَّبيَّ (ص) بعث إلى المقوقس ، جُريج بن مينا ملك الإسكندريّة وعظيم القبط ، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللَّخميِّ ، وأنَّه قال خيراً ، وقارب الأمر ، غير أنَّه لم يسلم ، وأهدى إلى النَّبيِّ (ص) عدَّة هدايا كان بينها مارية القبطيَّة، وأنَّه لما ورد جواب المقوقس إلى النَّبيِّ (ص) قال: «ضَنَّ الخبيث بمُلْكِه ، ولا بقاء لِمُلْكِهِ». [الزيلعي في نصب الراية (٤٢٢/٤)][(١٨٨)].

٥ ـ وبعث رسول الله (ص) شجاع بن وهب ، أخا بني أسد بن خُزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني صاحب دمشق[(١٨٩)] ، حين عودته والمسلمين من الحديبية ، وقد تضمَّن نصُّ الرِّسالة قوله: «سلامٌ على من اتَّبع الهُدى ، وامن به ، إنِّي أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحدَه لا شريك له ، يُبْقي لك ملكك». [الزيلعي في نصب الراية (٤٢٤/٤) ، والطبري في تاريخه (٦٥٢/٢)].

٦ ـ وأرسل رسول الله (ص) سُلَيطَ بن عمرٍو العامريَّ بكتابٍ إلى هَوْذَةَ بن عليٍّ الحنفي[(١٩٠)] عند مقدمه من الحديبية ، وقد اشترط هَوْذَةُ الحنفيُّ على الرسول (ص) بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه ، فرفض النَّبيُّ (ص) أن يقبل ذلك. [الزيلعي في نصب الراية (٤/٤٢٥) ، وابن طولون في إعلام السائلين (١٠٥ ، ١٠٧)].

٧ ـ وأرسل (ص) أبا العلاء الحضرميَّ[(١٩١)] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبديِّ ، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية ، ونقلت المصادر التَّاريخيَّة: أنَّ المنذر قد استجاب لكتاب النَّبيِّ (ص) ، فأسلم ، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين ، فأمَّا أهل البلاد من اليهود ، والمجوس فإنَّهم صالحوا العلاء ، والمنذر على الجزية من كلِّ حالمٍ دينار [الزيلعي في نصب الراية (٤/٤٢٠)] (أي: على كلِّ بالغٍ دينار) ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي (ص) إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزُّبير ، وجاء فيه: «سلام أنت ، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو ، أمَّا بعد فإنَّ مَنْ صلَّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الَّذي له ذمَّة الله ، وذمَّة الرَّسول ، فمن أحبَّ ذلك من المجوس؛ فإنَّه امنٌ ، ومن أبى؛ فإن الجزية عليه». [أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٠ برقم ٥٠)].

وفي ذي القعدة سنة (٨ هـ) بعث النَّبيُّ (ص) عمرو بن العاص بكتابه إلى جَيفر وعبدٍ ابني الجُلُنْدَى الأزديَّين بِعُمَان[(١٩٢)] ، وقد جاء فيه: «من محمَّدٍ النَّبيِّ رسول الله لعباد الله الأزديِّين ملوك عُمان ، وأسد عمان ، ومن كان منهم بالبحرين؛ إنَّهم إن امنوا ، وأقاموا الصَّلاة ، واتوا الزَّكاة ، وأطاعوا الله ، ورسوله ، وأعطَوا حقَّ النَّبيِّ (ص) ، ونسكوا نسك المؤمنين ، فإنَّهم امنون وأنَّ لهم ما أسلموا عليه ، غير أنَّ مال بيت النَّار ثُنْياً لله ورسولِه ، وأنَّ عشور التَّمْرِ صدقةٌ ، ونصفُ عشور الحبِّ ، وأنَّ للمسلمين نصرهم ، ونصحَهم ، وأنَّ لهم على المسلمين مثل ذلك ، وأنَّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاؤوا». [أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٠ ـ ٣١ برقم ٥٢)].

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من النَّاحية الحديثيَّة[(١٩٣)].

ثانياً: مواصفاتُ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة:

قام اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطَّاب بجمع الرَّسائل ، وتحدَّث عن الرُّسل في كتابه الفريد «سفراء النَّبيِّ (ص) » استنبط من خلالها شروطَ ومواصفاتِ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة ، ومن أهم تلك الشُّروط ، والمواصفات:

١ ـ الإسلام ، والدَّعوة إليه:

قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف: ١٠٨].

وإذا كان المسلمون كلُّهم دعاةً إلى الله تعالى؛ فرسل النَّبيِّ (ص) إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة[(١٩٤)].

٢ ـ الفصاحة والوضوح:

الفصاحة ، وجزالة اللَّفظ ، والدقَّة في توصيل المعاني إلى السَّامعين شرطٌ أساسيٌّ في الرَّجل الَّذي يتصدَّى للمهمَّة الدِّبلوماسيَّة ، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي *هَارُونَ أَخِي *اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي *} [طه: ٢٩ ـ ٣١] وقد اختار الرَّسول (ص) كلَّ سفرائه ، ومبعوثيه من العرب الَّذين تربَّوا في الجزيرة العربيَّة ومع البدو أحياناً ، فقد كانوا أصحاب نقاوةٍ ، لم تتكدَّر باختلاط الأعاجم بعد ، فقد كانوا على قدرٍ كبيرٍ من الفصاحة ، والوضوح.

٣ ـ حسن الخلق:

أخلاق السَّفير النَّبويِّ هي أخلاق الإسلام الَّتي بيَّنها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القران الكريم ، وفصَّلها رسول الله (ص) في سنَّته ، وأهمُّها في السَّفير: الصِّدقُ ، والتَّواضع[(١٩٥)].

٤ ـ العلم:

لا نريد هنا أن نبيِّن منزلة العلم؛ لأنَّ الكلام على هذه المسألة طويلٌ ، ولكنَّنا نؤكِّد هنا: أنَّ العلم بالشَّيء هو وسيلة نقل الفكرة ، والمبدأ ، لذا عندما تنظر إلى جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو يحاور النَّجاشيَّ ، ثم يقرأ عليه سورة: تتيقَّن من دقَّة الاختيار {كهيعص *} ، ونصاعة خطاب العالِم ، ودقَّة اختياره للألفاظ ، والعبارات[(١٩٦)].

٥ ـ الصَّبر:

قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ *} [الأحقاف: ٣٥] والحقيقة: أن الصبر هو عدَّة الدَّاعية، وزاده المستمر، ولو تصفَّحت سيرة الرَّسول (ص) وسيرة صحابته الأجلاَّء؛ لوجدتها حافلةً بالصَّبر على الدَّعوة ، وموقفُ الطَّائف شاهدٌ على ذلك.

٦ . الشَّجاعة:

وقد تحدَّث التَّاريخ الإسلاميُّ عن شجاعة السُّفراء ، والَّذين أرسلهم الرَّسول (ص) إلى الملوك ، وأنَّهم كانوا لا يخافون لومة لائم.

٧ . الحكمة:

وقد كان سفراء الرَّسول (ص) يتَّصفون بالحكمة ، فهذا عمرو بن العاص كان مُسدَّداً في أقواله ، وأفعاله ، قيل لعمرو: ما العاقل؟ قال: (الإصابة بالظَّنِّ ، ومعرفة ما يكون بما قد كان) ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشَّرِّ ، إنَّما العاقل الذي يعرف خير الشَّرَّيْنِ[(١٩٧)].

٨ . سعة الحيلة:

يجب أن يكون السَّفير مدركاً لأبعاد المناورة السِّياسيَّة ، متأنِّياً كتوماً. وسعةُ الحيلة الَّتي ترتكز أوَّلاً ، وقبل كلِّ شيءٍ على الذَّكاء من أهم سمات السَّفير ، وقد كان سفراء الرَّسول (ص) يتَّصفون بالذَّكاء ، والدَّهاء ، وتوقُّع الأحداث ، والحساب لكلِّ ما يمكن أن يحدث ، وهذه مقوِّمات سعة الحيلة.

٩ . المظهر:

تميَّز سفراء النَّبيِّ (ص) بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر ، وقد حرص النَّبيُّ (ص) على اختيار سفرائه من بين أصحابه الَّذين تتوافر فيهم صفاتٌ شكليَّة جميلةٌ إلى جانب سماتهم العقليَّة ، والنفسيَّة سالفة الذِّكر[(١٩٨)].

هذه أهم الصِّفات الَّتي استخلصها اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطاب من خلال دراسته القيِّمة لسفراء النَّبيِّ (ص) والَّتي ينبغي للسَّفير المسلم أن يتحلَّى بها ، وتكون للدَّولة الإسلاميَّة مقياساً في اختيار مَنْ ترشِّحه لهذا المنصب الخطير.

ثالثاً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ . الأَرِيْسِيُّون:

وردت كلمة (الأَرِيْسيِّين) أو (اليَرِيْسِيِّين) . على اختلاف الرِّوايات . في الكتاب الَّذي وُجِّه إلى (هرقل) وحدَه ، ولم ترد في كتابٍ من الكتب الَّتي أرسلت إلى غيره ، واختلف علماء
الحديث واللُّغة في مدلول هذه الكلمة ، فالقول المشهور: أن (الأريسيِّين) جمع (أريسي) وهم الخول ، والخدم ، والأَكَّارون[(١٩٩)].

وذهب العلامة أبو الحسن النَّدويُّ إلى أنَّ المراد بالأريسيِّين هم أتباع (أريوس) المصري ، وهو مؤسِّس فرقةٍ مسيحيَّةٍ كان لها دورٌ كبير في تاريخ العقائد المسيحيَّة والإصلاح الدِّيني ، وقد شغلت الدَّولة البيزنطيَّة، والكنيسة المسيحيَّة زمناً طويلاً ، و(أريوس) هو الَّذي نادى بالتَّوحيد ، والتَّمييز بين الخالق، والمخلوق، والأب، والابن ـ على حدِّ تعبير المسيحيين ـ لعدَّة قرون[(٢٠٠)].

ودامت عقيدة (أريوس) ودعوته تصارعان الدَّعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح ، وتسويته بالإله الواحد الصَّمد ، وكانت الحرب سجالاً ، وقد دان بهذه العقيدة عددٌ كبيرٌ من النَّصارى في الولايات الشَّرقية من المملكة البيزنطيَّة إلى أن عقد تيوسورس الكبير مَجْمعاً مسيحيّاً في القسطنطينية ، قضى بألوهيَّة المسيح ، وإبنيَّته ، وقضى هذا الإعلان على العقيدة الَّتي دعا إليها (أريوس) واختفت ، ولكنَّها عاشت بعد ذلك ، ودانت بها طائفةٌ من النَّصارى ، اشتهرت بالفرقة الأريسيَّة ، أو الأريسيِّين ، فَمِنَ المرجَّح المعقول: أنَّ النَّبيَّ (ص) إنَّما عنى هذه الفرقة بقوله: «فإن تولَّيت ، فإنَّما عليك إثم الأَرِيْسيِّين» فإنَّها هي القائمة بالتَّوحيد النِّسبي في العالم المسيحي الَّذي تتزعمُه الدولة البيزنطيَّة العظمى ، الَّتي كان على رأسها (هرقل)[(٢٠١)].

وقد تحدَّث الإمام أبو جعفر الطَّحاويُّ عن هذه الفرقة ، فقال: وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني: أنَّ في رهط هرقل فرقةً تعرف بالأروسية ، توحِّد الله ، وتعترف بعبودية المسيح لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولا تقول شيئاً ممَّا يقول النَّصارى في ربوبيته ، وتؤمن بنبوَّته ، فإنَّها تُمسِك بدين المسيح مؤمنةً ، بما في إنجيله ، جاحدةً لما يقوله النَّصارى سوى ذلك ، وإذا كان ذلك كذلك؛ جاز أن يقال لهذه الفرقة (الأريسيُّون) في الرَّفع و(الأريسيين) في النَّصب والجر ، كما ذهب إليه أصحاب الحديث[(٢٠٢)].

٢ ـ اعتبارات حكيمة خاصَّة بالملوك:

في رسائل رسول الله (ص) للملوك فوارقُ دقيقةٌ مؤسَّسةٌ على حكمة الدَّعوة ، روعي فيها
ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد الَّتي يدينون بها ، و(الخلفيَّات) الَّتي يمتازون بها ، فلمّا كان هرقل ، والمقوقس يدينان بألوهيَّة المسيح كلِّيّاً ، أو جزئيّاً ، وكونه ابنُ الله ، جاءت في الكتابَيْن اللَّذين وُجِّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النَّبيِّ (ص) صاحب هاتين الرِّسالتين ، فيبتدأى الكتابان بعد التَّسمية بقوله: «من محمَّدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم» وبقوله: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القِبْط» بخلاف ما جاء في كتابه (ص) إلى كسرى أبرويز ، فاكتفى بقوله: «من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس» وجاءت كذلك اية: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *} [آل عمران: ٦٤] في هذين الكتابين ، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز؛ لأنَّ الاية تخاطب أهل الكتاب؛ الَّذين دانوا بألوهيَّة المسيح ، واتَّخذوا أحبارهم ، ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وقد كان هرقل إمبراطور الدَّولة البيزنطيَّة ، والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيَّين ، وزعيمين دينيَّين كبيرين للعالم المسيحي ، مع اختلافٍ يسيرٍ في الاعتقاد في المسيح: «هل له طبيعةٌ أم طبيعتان؟»[(٢٠٣)].

ولما كان كسرى أبرويز وقومُه يعبدون الشَّمس والنَّار ، ويدينون بوجود إلهين: أحدهما يمثِّل الخير ، وهو: يزدان ، والثَّاني يمثِّل الشَّرَّ وهو: إهرمن ، وكانوا بعيدين عن مفهوم النُّبوَّة ، والتَّصوُّر الصَّحيح للرِّسالة السَّماوية ، جاءت في الكتاب الَّذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة: «وأنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً لينذر من كان حيّاً»[(٢٠٤)].

وقد كان تلقِّي الملوك لهذه الرَّسائل يختلف: فأمَّا هرقل ، والنَّجاشيُّ ، والمقوقس؛ فتأدَّبوا ، وتلطَّفوا في جوابهم ، وأكرم النّجاشيُّ ، والمقوقس رُسُلَ رسولِ الله (ص) ، وأرسل المقوقس هدايا؛ منها جاريتان كانت أحدَهما ماريةُ أمُّ إبراهيم (ابن رسول الله) ، وأمَّا كسرى أبرويز؛ فلما قُرأى عليه الكتاب مزَّقه ، وقال: «يكتب إليَّ هذا؛ وهو عبدي؟!» فبلغ ذلك رسول الله (ص) فقال: «مزَّق الله ملكه!» [سبق تخريجه].

وأمر كسرى باذان ـ وهو حاكمه على اليمن ـ بإحضاره ، فأرسل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فأخبره رسول الله (ص) بأنَّ الله سلَّط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله[(٢٠٥)].

وقد تحقَّق ما أنبا به رسول الله (ص) بكلِّ دقَّة ، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ (شرويه) وقُتِل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعازٍ منه سنة (٦٢٨ م) ، وقد تمزَّق ملكُه بعد وفاته ،

وأصبح لعبةً في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة ، فلم يعش (شرويه) إلا ستَّة أشهرٍ ، وتوالى على عرشه في مدَّة أربع سنوات عشرة ملوكٍ ، واضطرب حبل الدَّولة إلى أن اجتمع النَّاس على (يزدجرد) وهو اخر ملوك بني ساسان ، وهو الَّذي واجه الزَّحف الإسلاميَّ؛ الَّذي أدَّى إلى انقراض الدَّولة السَّاسانيَّة؛ الَّتي دامت ، وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلِّيَّاً ، وكان ذلك في سنة (٦٣٧ م) ، وهكذا تحقَّقت هذه النُّبوءة في ظرف ثماني سنين[(٢٠٦)].

٣ ـ الوصف العام لرسائل الرَّسول (ص):

ويلاحظ الباحث: أنَّ الوصف العام لكتب الرَّسول (ص) إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً ، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التَّالية:

أ ـ نلاحظ أنَّ جميع كتب الرَّسول (ص) الَّتي أرسلها إلى الملوك ، والرُّؤساء يفتتحها (ص) بالبسملة ، والبسملة اية من كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي تصدير الكتاب بها أمورٌ مهمَّةٌ؛ كاستحباب بدء الكتب بـ «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» اقتداءً برسولنا محمَّد (ص) ، فقد واظب عليها في كتبه (ص) ، كما أنَّ فيها جواز كتابة ايةٍ من القران الكريم في كتاب ، وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين ، وفيها جواز قراءة الكافر لايةٍ ، أو أكثر من القران الكريم؛ لأنَّ كتب رسول الله (ص) تضمَّنت البسملة ، وغيرها ، وفيها جواز قراءة الجنب لايةٍ ، أو أكثر من القران الكريم؛ لأنَّ هذا الكافر الَّذي أرسلت إليه الرِّسالة ، وتضمَّنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة ، والنَّجاسة ، فيقرأ الرِّسالة؛ التي اشتملت على اياتٍ من القران الكريم؛ وهو جنبٌ.

ب ـ ونستنبط من رسائل رسول الله (ص) إلى الملوك والأمراء الاتي:

* مشروعيَّة إرسال السُّفراء المسلمين إلى زعماء الكفر؛ لأنَّ كلَّ كتابٍ كان يكتبه الرَّسول (ص) يكلِّف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل إليه.

* مشروعية الكتابة إلى الكفَّار في أمر الدِّين ، والدُّنيا.

* ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المرْسِل ، والمرْسَل إليه ، وموضوع الكتاب ، وهو واحدٌ في جميع الكتب ، ويتلخَّص في دعوتهم إلى الإسلام.

* عدم بدء الكافر بتحيَّة الإسلام ، وهي السَّلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته؛ ذلك لأنَّ النَّبيَّ (ص) لم يطرح السَّلام في كتبه على ملكٍ من ملوك الكفر ، بل كان يصدِّر كتبه بقوله: السَّلام على من اتَّبع الهدى ، أي: امن بالإسلام. ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحيَّة الإسلام.

* اتخاذ الخاتم: فقد كان رسول الله (ص) يختم رسائله بعد كتابتها بخاتمه ، وقد كُتب عليه ثلاث كلمات:

محمَّد رسولُ الله

[البخاري (٦٥) ، ومسلم (٢٠٩٢)][(٢٠٧)].

فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: لما أراد النَّبيُّ (ص) أن يكتب إلى الرُّوم؛ قيل له: إنَّهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتَّخذَ خاتماً مِنْ فضَّة ، فكأنِّي أنظر إلى بَيَاضِه في يده ، ونقش فيه محمَّدٌ رسول الله. [البخاري (٢٩٣٨)].

٤ ـ تقدير الرِّجال:

لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله (ص) ، بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه ، حين رأى فيه الإداريَّ النَّاجح ، والحاكم المناسب ، ممَّا يُدلِّل على أنَّ الرَّسول (ص) يقدِّر الكفاءات في الرِّجال ، ويضع الرَّجل المناسب في المكان المناسب ، ومن الجدير بالذِّكر: أنَّ الرَّسول (ص) قد ولَّى ولده ـ أي: ولد باذان ـ شهراً أميراً على اليمن بعد موت أبيه[(٢٠٨)].

٥ ـ جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم استخرج من كتاب النَّبي (ص) الَّذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يحدِّد فيه الموقف من اليهود ، والمجوس؛ إذ ورد فيه: «ومن أقام على يهوديَّته ، أو مجوسيَّته؛ فعليه الجزية»[(٢٠٩)].

وقد ذهب ابن القيِّم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كلِّ إنسان يبذلُها ، سواءٌ أكان كتابيّاً أم غير كتابيٍّ؛ كعبدة الأوثان من العرب ، وغيرهم ، فقد جاء في زاد المعاد: «وقد قالت طائفةٌ في الأمم كلِّها إذا بذلوا الجزية؛ قبلت منهم؛ أهل الكتابين بالقران ، والمجوس بالسُّنَّة ، ومن عداهم ملحقٌ بهم؛ لأنَّ المجوس أهل شركٍ لا كتاب لهم ، فأخذُها منهم دليلٌ على أخذها من جميع المشركين ، وإنَّما لم يأخذها (ص) من عبدة الأوثان من العرب؛ لأنَّهم أسلموا قبل نزول اية الجزية ، فإنَّها نزلت بعد تبوك»[(٢١٠)].

٦ ـ جواز أخذ هدية الكافر:

لقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر ـ وهو كافرٌ ـ مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة هديةً تشتمل على جاريتين ، وكسوةٍ للرَّسول (ص) ، وبغلةٍ يركبها ، فقبلها رسولُ الله (ص) ، وإحدى هاتين الجاريتين ماريةُ القبطيَّة[(٢١١)].

٧ ـ من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء:

أظهر الرَّسول (ص) في سياسته الخارجيَّة درايةً سياسيَّةً فاقت التَّصوُّر ، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء ، كما أظهر (ص) قوَّةً ، وشجاعةً فائقتين ، فلو كان غير رسول الله (ص) ؛ لخشي عاقبة ذلك الأمر ، لا سيَّما وأنَّ بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوكٍ أقوياء على تخوم بلاده؛ كهرقل ،

وكسرى ، والمقوقس ، ولكنَّ حرص رسول الله (ص) ، وعزيمته على إبلاغ دعوة الله ، وإيمانه المطلق بتأييد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، كلُّ ذلك دفعه لأن يُقْدِم على ما أقدم عليه ، وقد حقَّقت هذه السِّياسة النتائج الاتية:

أ ـ وطَّد الرَّسول (ص) بهذه السِّياسة أسلوباً جديداً في التَّعامل الدَّوليّ لم تكن تعرفه البشريَّة من قبلُ.

ب ـ أصبحت الدَّولة الإسلاميَّة لها مكانَتُها ، وقوَّتُها ، وفرضت وجودها على الخريطة الدَّوليَّة لذلك الزَّمان.

ج ـ كشفت للرَّسول (ص) نوايا الملوك ، والأمراء ، وسياستهم نحوه ، وحكمهم على دعوته.

د ـ كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عمليّاً على عالمية الدَّعوة الإسلاميَّة ، تلك العالميَّة الَّتي أوضحتْها اياتٌ نزلت في العهد المكِّي ، مثل قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء: ١٠٧].

وهكذا ، فإنَّ رسائل النَّبيِّ (ص) إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تُعَدُّ نقطة تحوُّلٍ في سياسة دولة الرَّسول الخارجيَّة ، فعظم شأنُها ، وأصبحت لها مكانةٌ دينيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ بين الدُّول ، وذلك قبل فتح مكة ، كما أنَّ هذه السياسة مهَّدت لتوحيد الرَّسول (ص) لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود[(٢١٢)].

* * *

المبحث الثَّالث

عمرة القضاء[(٢١٣)]

وفي ذي القعدة في السَّنة السَّابعة من الهجرة خرج الرَّسول (ص) إلى مكَّة قاصداً العمرة ، كما اتَّفق مع قريشٍ في صلح الحديبية ، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النِّساء ، والصِّبيان ، ولم يتخلَّف من أهل الحديبية إلا مَنِ استُشْهِدَ في خيبر ، أو مات قبل عمرة القضاء[(٢١٤)].

وقد اتَّجه رسولُ الله (ص) وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكَّة المكرَّمة في موكبٍ مهيبٍ يشقُّ طريقه عبر القرى ، والبوادي ، وكان كلَّما مرَّ الموكب النَّبويُّ بمنازل قومٍ من الذين يسكنون على جانبي الطَّريق بين مكَّة والمدينة؛ خرجوا ، وشاهدوا منظراً لم يألفوه مِنْ قبلُ ، حيث كان المسلمون بزيٍّ واحدٍ من الإحرام ، وهم يرفعون أصواتهم بالتَّلبية ، ويسوقون هديهم في علاماته ، وقلائده ، في مظهرٍ بهيٍّ لم تشهد المنطقة له مثيلاً[(٢١٥)].

أولاً: الحيطة والحذر من غدر قريش:

اصطحب النَّبيُّ (ص) معه السِّلاح الكامل ، ولم يقتصر على السُّيوف ، تحسُّباً لكلِّ طارأى قد يقع ، خاصَّةً وأنَّ المشركين في الغالب لا يحافظون على عهدٍ قطعوه ، ولا عَقْدٍ عقدوه[(٢١٦)].

وما إن وصل خبر مسير النَّبيِّ (ص) ، ومعه هذا العدد الضَّخم ، وهذه الأسلحة المتنوِّعة ، وفي مقدِّمة القافلة مئتا فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة ، حتَّى أرسلت قريش إلى رسول الله (ص) مكرز بن حفص في نفرٍ من قريش؛ ليستوضحوا حقيقة الأمر ، فقابلوه في بطن يأجُج[(٢١٧)] بمرِّ الظَّهران فقالوا له: يا محمد! والله ما عرفناك صغيراً ، ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسِّلاح الحرم

على قومك ، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد ، وأنَّه لن يدخل الحرم غير السُّيوف في أغمادها ، فقال رسول الله (ص) : «لا ندخلها إلا كذلك» ثمَّ رجع مكْرَزُ مسرعاً بأصحابه إلى مكَّة ، فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح ، وهو على الشَّرط؛ الَّذي شرط لكم. [البيهقي في دلائل النبوة (٣٢١/٤) ، والواقدي في المغازي (٧٣٤/٣) ، وابن سعد في الطبقات (١٢١/٢)].

ووضع رسول الله (ص) السِّلاح خارج الحرم قريباً منه تحسُّباً لكلِّ طارأى ، وأبقى عنده مئتي فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة يحرسونه ، وينتظرون أمر الرَّسول (ص) ليتحرَّكوا في أيِّ جهةٍ ، وينفِّذوا أيَّ أمرٍ ، ويقاتلوا متى دعتِ الضَّرورة لذلك[(٢١٨)].

إنَّ النَّبيَّ (ص) لم يأمن غدر مشركي قريش ، وخيانتهم ، فقد تُسوِّل لهم أنفسُهم أن ينصبوا كميناً ، أو أكثر للمسلمين ، ويشنُّوا عليهم هجوماً مباغتاً ، ولذلك احتاط ، وأخذ الحذر ، ووفَّى بعهده ، ووعده لقريش ، وعلَّم الأمَّة لكي تحذر من أعدائها[(٢١٩)] ، وفي بقاء كوكبةٍ من الصَّحابة في حراسة الأسلحة ، والعتاد؛ لكي يراقبوا الموقف بدقَّةٍ ، وتحفُّزٍ معنىً من معاني العبادة في هذا الدِّين[(٢٢٠)].

ثانياً: دخول مكَّة ، والطَّواف ، والسَّعي:

ومن بطن يأجج تابع رسولُ الله (ص) سيره نحو مكَّة على راحلته القصواء ، فدخلها من الثَّنيَّة الَّتي تطلعه على الحجون ، والمسلمون حوله متوشِّحون سيوفهم ، محدقون به من كلِّ جانب، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيءٍ ، وأصواتهم تعجُّ بالتَّلبية لله العليِّ الكبير[(٢٢١)].

هذه التَّلبية الجماعيَّة الَّتي تعجُّ أصوات المسلمين بها ، والَّتي لم تنقطع منذ أن أحرموا ، واستمرَّت حتَّى دخلوا مكَّة ، فقد كان للتَّلبية مغزىً ومعنىً ، فهي تعلن التَّوحيد ، وترفع شعاره ، وتعني إبطال الشِّرك ، وإسقاط رايته ، وتعلن الحمد ، والثَّناء على الله الَّذي مكَّنهم من أداء هذا النُّسك[(٢٢٢)]. فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله: لبيك اللّهُمَّ لبَّيك ، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك ، إنَّ الحمد ، والنِّعمة لكَ والملك ، لا شريك لك.

وكان عبد الله بن رواحة اخذاً بزمام راحلته ، وهو يرتجز بشعره:

خَلُّوا بَنِي الكُفّارِ عَنْ سَبِيْلِهِ   خَلُّوا فكلُّ الخَيْرِ في رَسُوْلِهِ

يَا رَبِّ إِنِّ مؤمنٌ بِقِيْلِهِ   أَعْرِفُ حقَّ اللهِ في قَبُوْلِهِ

ضَرْباً يُزِيْلُ الهَامَ عَنْ مَقِيْلِهِ   وَيُذْهِلُ الخَلِيْلَ عَنْ خَلِيْلِهِ

[البيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٢٣) ، والترمذي (٢٨٤٧) ، والنسائي (٥/٢٠٢)][(٢٢٣)].

وكان مظهراً دعويّاً مؤثِّراً عندما بدأ الموكب النَّبويُّ الكريم يقترب من بيوت مكَّة المكرَّمة ، وأبنيتها ، شاقّاً طريقه باتِّجاه الكعبة المشرَّفة ، وهم في مظهرهم المهِيْب ، وأصواتُهم تشقُّ عَنان السَّماء بالتَّلبية ، فقد ذكرت معظم كتب السِّير ، والمغازي: أنَّ قسماً من أهالي مكَّة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية ، والقسم الأكبر وقف عند دار النَّدوة المجاورة للكعبة الشَّريفة انذاك؛ ليشاهدوا رسول الله (ص) ، وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكَّة المكرَّمة ، وبيت الله الحرام[(٢٢٤)].

وكان المشركون قد أطلقوا شائعةً ضدَّ المسلمين مفادها: أنَّهم وهنتهم[(٢٢٥)] حُمَّى يثرب ، فأمر النَّبيُّ (ص) أصحابه أن يرمُلوا في الأشواط الثَّلاثة ، وأن يمشوا ما بين الرُّكنين [البخاري (٤٢٥٦) ، ومسلم (١٢٦٦)] ؛ لكي يرى المشركون قوَّتهم ، ودخل رسول الله (ص) البيت الحرام ، واضطبع[(٢٢٦)] بردائه فأخرج عضده اليُمنى وشرع في الطَّواف ، وأصحابه يتابعونه ، ويقتدون به ، ولما رأى المشركون ذلك؛ قالوا: هؤلاء الَّذين زعمتم أنَّ الحمَّى قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلد مِنْ كذا ، وكذا! [مسلم (١٢٦٦)][(٢٢٧)].

وقد قصد رسول الله (ص) بهذه الطَّريقة الَّتي فعلها عند دخوله المسجد الحرام ، وهي الاضطباع ، والهرولة ، ورفع الأصوات بالتَّلبية أن يُرهِب قريشاً ، وأن يُظهر لها قوَّة المسلمين ، وعزيمتهم ، وتمسُّكهم بدينهم ، ومناعة جبهتهم.

وقد أثَّر هذا الأسلوب في نفوس المشركين[(٢٢٨)] وبهذا الأسلوب النَّبويِّ الكريم أغاظ الرَّسول (ص) المشركين ، وكايدهم ، فقد كان (ص) يتقرَّب إلى الله بمكايدتهم ، وإغاظتهم ، ففي غزوة أحد أذن (ص) لأبي دُجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لإظهار عزَّة المؤمن؛ ولأنَّ ذلك يَغِيْظُ المشركين ، وزيادةً في إغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرَّسول (ص) ذلك. وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله (ص) في الهدي جمل أبي جهل الَّذي غنمه في بدرٍ؛ ليراه المشركون ، فيزدادوا غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم ، وذلَّ أسراهم ، وها هو ذا (ص) يأمر

المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التَّجلُّد ، والهرولة؛ لإغاظتهم ، ومكايدتهم ، وردِّ كيدهم في نحورهم[(٢٢٩)] ، وقد ذكر ابن القيِّم: «أنَّ رسول الله (ص) كان يكيد المشركين بكلِّ ما يستطيع»[(٢٣٠)].

فهذه حربٌ نفسيَّةٌ شنَّها رسول الله (ص) على المشركين ، وقد اتت أُكُلَها ، ولقد أقام الرَّسول (ص) في مكَّة ثلاثة أيام ، ومعه المسلمون يرفعون راية التَّوحيد ، ويطوفون بالبيت العتيق ، ويرفعون الأذان ، ويقيمون الصَّلاة ، ويصلِّي بهم رسول الله (ص) الصَّلوات الخمس في جماعة، وكان بلالُ بن رباح رضي الله عنه بصوته النَّديِّ يرفع الأذان من فوق ظهر الكعبة ، فكان وقعه على المشركين كالصَّاعقة[(٢٣١)].

ولم ينسَ (ص) مجموعة الحراسة الَّتي كانت تحرس الأسلحة ، والعتاد بأن يرسل من يقوم بمهمَّتهم ممَّن طاف ، وسعى مكانهم ويأتي هؤلاء ليؤدُّوا النُّسك ، فقد كان (ص) يتعامل مع نفوسٍ يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام ، وما جاءت للمرَّة الثانية ، وقطعت هذه المسافة الشَّاسعة إلا لتنال هذا الشَّرف ، وتَبُلَّ هذا الظَّمأ ، فتطوف مع الطَّائفين، وتسعى مع السَّاعين، فعمل (ص) على مراعاة النُّفوس، وساعدها ولبَّى مطالبها من أجل إصلاحها والرُّقيِّ بها؛ إنَّه من منهج النُّبوَّة في التَّربية[(٢٣٢)].

ثالثاً: زواجه من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

كانت ميمونة أختُ أمِّ الفضل زوجةِ العبَّاس بن عبد المطلب فتاةً في السَّادسة والعشرين ، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبي رُهْم بن عبد العزَّى إلى أختِها أمِّ الفضل ، فجعلته أمُّ الفضل إلى زوجها

العبَّاس ، فزوَّجها العباس من ابن أخيه النَّبيِّ (ص) ، وأصدقها عنه أربعمئة درهم[(٢٣٣)] ، وهي خالة عبد الله بن عبَّاس ، وخالد بن الوليد ، ولما انقضت الثَّلاثة أيَّام؛ الَّتي نصَّ عليها عهد الحديبية؛ أراد النَّبيُّ (ص) أن يتَّخذ من زواجه من ميمونة وسيلةً لزيادة التَّفاهم بينه وبين قريش ، فجاءه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزَّى مُوْفَدَين من نفرٍ من قريشٍ ، فقالوا: إنَّه قد انقضى أجلُك ، فاخرج عنَّا ، فقال النَّبيُّ (ص) كما ذكر ابن إسحاق: «وما عليكم لو تركتموني ، فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً ، فحضرتموه؟!». قالوا: لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا. فخرج ، وخلَّف أبا رافعٍ مولاه على ميمونة حتَّى أتاه بها بِسَرِفٍ

(موضع قرب التَّنعيم) فبنى بها هناك [ابن هشام (١٤/٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣٣٠/٤)] ، وهي اخر مَنْ تزوَّج الرَّسول (ص) من نسائه ، واخر من مات من نسائه بعده ، وأنَّها ماتت ، ودفنت بِسَرِفٍ ، فمكان عرسها هو مكان دفنها رضي الله عنها ، وأرضاها[(٢٣٤)].

وفي زواج رسول الله (ص) بميمونة مسألةٌ فقهيَّةٌ اختلف الفقهاء فيها ، وهي: هل تزوَّج (ص) بميمونة وهو محرمٌ «عقد نكاحه عليها فقط» أو عقد عليها بعد التَّحلُّل؟[(٢٣٥)] وقد أجاد الفقهاء في تفصيلها.

رابعاً: التحاق بنتِ حمزة بن عبد المطَّلب بركب المسلمين:

لقد تغيَّرت النُّفوس ، والعقول بتأثير الإسلام تغيُّراً عظيماً ، فعادت البنت ـ التي كان يتعيَّر بها أشراف العرب ، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل فراراً من العار ، وزهداً في البنات ـ حبيبةً يتنافس في تربيتها المسلمون ، وكانوا سواسيةً ، لا يرجع بعضُهم على بعضٍ إلا بفضلٍ ، أو حقٍّ[(٢٣٦)] ، فلمَّا أراد النَّبيُّ (ص) الخروج من مكَّة ، تبعته ابنة حمزة تنادي يا عمّ ! يا عمّ ! فتناولها عليٌّ رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السَّلام: دونك ابنةَ عمِّك ، فاختصم فيها عليٌّ ، وزيدٌ ، وجعفرٌ.

قال علي: أنا أخذتُها ، وهي بنت عمِّي. وقال جعفر: هي ابنة عمِّي ، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النَّبيّ (ص) لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». وقال لعليّ: «أنت منِّي، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي، وخُلُقي». وقال لزيد: «أنت أخونا، ومولانا» [البخاري (٢٧٠٠) و(٤٢٥١) ، والترمذي (١٩٠٤)].

وقال عليٌّ رضي الله عنه للنَّبيِّ (ص) : ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال (ص) : «إنَّها ابنة أخي من الرَّضاعة». [البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء ، ومسلم (١٤٤٦) عن علي].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، وأحكامٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ الخالة بمنزلة الأمِّ.

٢ ـ الخالة تُقدَّم على غيرها في الحضانة؛ إذا لم يوجد الأبوان.

٣ ـ تزكية رسول الله (ص) لجعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، ووصفه له بقوله: «أشبهت خلقي ، وخُلقي».

٤ ـ منقبة عليٍّ رضي الله عنه: تأمَّل قوله (ص) : «أنت منِّي وأنا منك» والمعنى: أنت منِّي وأنا منك في النَّسب والصِّهر ، والسَّابقة ، والمحبَّة.

٥ ـ منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرَّسول (ص) : «أنت أخونا ، ومولانا» لأنَّه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب ، فقد اخى الرَّسول (ص) بينهما ، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشَّقيق من واجباتٍ ، والواجب هنا أن يكون وليّاً على بنت حمزة رضي الله عنه.

٦ ـ الخالة تُقدَّم على العمَّة في الحضانة: لقد حكم النَّبيُّ (ص) لزوجة جعفر بالحضانة؛ وعمَّتها صفيَّة بنت عبد المطلب حيَّةٌ موجودةٌ.

٧ ـ زواج المرأة لا يُسقط حقَّها في الحضانة: فقد حكم الرَّسول (ص) بالحضانة لخالة بنت حمزة؛ وهي متزوِّجة من جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

٨ ـ لابدَّ من موافقة الزَّوج على حضانة زوجته لابنة أختها؛ لأنَّ الزَّوجة محتبَسةٌ لمصلحته ، ومنفعته ، والحضانة قد تفوِّت هذه المصلحة جزئيّاً ، فلابدَّ من استئذانه ، ونلاحظ هنا أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ قد طالب بحضانة بنت عمِّه حمزة لخالتها وهي زوجةٌ له ، فدلَّ على رضاه بذلك.

٩ ـ إنَّ الطِّفل إذا رضع مع عمِّه يصبح أخاً له في الرَّضاعة ، وتصبح بناتُه كلُّهن بنات أخيه من الرَّضاعة ، فيحرم عليه نكاحهنَّ[(٢٣٧)].

خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة ، وإسلام خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة:

لقد كان تأثير هذه العمرة على قريشٍ ، وعلى عرب الجزيرة تأثيراً بالغاً ، فقد حملت في مضمونها ، مهمَّةً دعويَّةً عظيمةً ، ولقد تأثر أهل مكَّة من هذه العمرة السِّلميَّة.

يقول اللِّواء محمود شيت خطَّاب: أثَّرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريشٍ تأثيراً كبيراً ، فقد وقف الكثير من قريش عند دار النَّدوة بمكَّة ، كما عسكر اخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا

دخول الرَّسول (ص) وأصحابه ، فلمَّا دخل رسول الله (ص) المسجد؛ اضطبع بردائه ، وأخرج عضده اليُمنى ، ثمَّ قال: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوَّةً» [سبق تخريجه]. ثمَّ استلم الرُّكن ، وأخذ يهرول ، وأصحابه معه ، فلم يكد يترك الرَّسول (ص) مكَّة حتَّى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش: لقد استبان لكلِّ ذي عقلٍ: أنَّ محمَّداً ليس بساحرٍ،

ولا شاعرٍ ، وأنَّ كلامه من كلام ربِّ العالمين ، فحقَّ لكلِّ ذي لُبٍّ أن يتَّبعه. وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد ، فبعث في طلبه ، وسأله عن صحَّة ما سمع ، فأكَّد له خالدٌ صحَّته ، فاندفع أبو سفيان إلى خالدٍ في غضبه ، فحجزه عنه عكرمة ، وكان حاضراً ، وقال: مهلاً يا أبا سفيان! فو الله! خِفْتُ لِلَّذي خِفْتُ أن أقول مثل ما قال خالد ، وأكون على دينه ، أنتم تقتلون خالداً على رأيٍ راه ، وهذه قريش كلُّها تبايعت عليه ، والله! لقد خفت ألا يحول الحول حتَّى يتَّبعه أهل مكَّة كلُّهم.

وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل وظهر الإسلام في كلِّ بيت من قريش سراً وعلانيةً ، وبهذه النتيجة الطَّيِّبة يمكننا القول بأنَّ عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكَّة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكَّة نفسها[(٢٣٨)].

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «وحسبُك: أنَّ عمرة القضاء هذه قد جمعت في اثارها من أسباب الإقناع بالدَّعوة المحمَّدية ما أقنع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وهما في رجاحة العقل ، والخُلُق مثلان متكافئان ، يُحتذى بهما»[(٢٣٩)].

١ ـ إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه:

ونترك عمرو بن العاص يحدِّثنا عن إسلامه؛ حيث قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعت رجالاً من قريش؛ كانوا يرون رأيي ، ويسمعون منِّي ، فقلت لهم: تعلمون والله! أنِّي أرى أمر محمَّدٍ يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنِّي قد رأيت أمراً ، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنَّجاشي ، فنكون عنده ، فإن ظهر محمَّدٌ على قومنا؛ كنَّا عند النَّجاشيِّ ، فإنَّا أن نكون تحت يديه أحبَّ إلينا من أن نكون تحت يَدَيْ محمَّدٍ ، وإن ظهر قومنا ، فنحن مَنْ قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا: إنَّ هذا الرَّأي! قلت: فأجمعوا لنا ما نهديه له ، وكان أحبَّ ما يهدى إليه من أرضنا الأدم[(٢٤٠)] ، فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثمَّ خرجنا حتَّى قدمنا عليه ، فو الله إنَّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أميَّة الضَّمْرِيُّ ، وكان رسول الله (ص) قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، قال: فدخل عليه ، ثمَّ خرج من عنده ، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ ، لو دخلت على النَّجاشيِّ ،

وسألته إيَّاه ، فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنِّي أجزأت عنها[(٢٤١)]؛ حيث قتلت رسول محمَّدٍ. قال: فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال: مرحباً صديقي ، أهديت إلي من بلادك

شيئاً؟ قال: قلت: نعم ، أيها الملك! قد أهديت إليك أدماً كثيراً ، قال: ثمَّ قربته إليه فأعجبه ، واشتهاه ، ثمَّ قلت له: أيُّها الملك! إنِّي قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجلٍ عدوٍّ لنا ، فأعطنيه لأقتله؛ فإنَّه قد أصاب من أشرافنا ، وخيارنا ، قال: فغضب ، ثمَّ مدَّ يده ، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنَّه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض؛ لدخلت فيها فَرَقاً منه ، ثمَّ قلت له: أيها الملك! والله! لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتُكَهُ ، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه النَّاموس الأكبر الَّذي كان يأتي موسى لِقَتْلِهِ؟! قال: قلت: أيُّها الملك! أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتَّبعه ، فإنَّه والله لعلى الحقِّ ، وليَظْهَرَنَّ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم ، فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثمَّ خرجت إلى أصحابي ، وقد حال رأيي عمَّا كان عليه ، وكتمت على أصحابي إسلامي ، ثمَّ خرجت عامداً إلى رسول الله؛ لأسلم ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبلٌ من مكَّة ، فقلت: أين يا أبا سليمان؟! قال: والله لقد استقام المَنْسِمُ[(٢٤٢)] ، وإن الرَّجل لنبيٌّ ، أذهب والله! فأسلم ، فحتَّى متى؟! قال: قلت: والله! ما جئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله (ص) ، فتقدَّم خالد بن الوليد ، فأسلم ، وبايع ، ثمَّ دنوت ، فقلت: يا رسول الله ! إنِّي أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدَّم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخَّر. قال: فقال رسول الله (ص) : «يا عمرو! بايع؛ فإنَّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإنَّ الهجرة تجبُّ ما كان قبلها» قال: فبايعته ، ثمَّ انصرفت. [أحمد (٤/١٩٨ ـ ١٩٩) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٣٤٣ ـ ٣٤٨) ، وابن هشام (٣/٢٨٩ ـ ٢٩١)][(٢٤٣)].

وفي روايةٍ قال: (... فلمَّا جعل الله الإسلام في قلبي؛ أتيت النَّبيَّ (ص) فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه ، قال: فقبضت يدي ، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفرَ لي. قال: «أما علمت: أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحجَّ يهدم ما كان قبله؟»). [مسلم (١٢١) ، وأحمد (٤/٢٠٥) ، وابن خزيمة (٢٥١٥)].

٢ ـ إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وهذا خالد بن الوليد يحدِّثنا عن قصَّة إسلامه ، فيقول: ... لما أراد الله بي من الخير ما أراد؛ قذف في قلبي حُبَّ الإسلام وحضرني رشدي ، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّدٍ ، فليس موطنٌ أشهده إلاَّ أنصرف ، وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ ،
وأنَّ محمَّداً سيظهر ، فلمَّا خرج رسول الله (ص) إلى الحديبية؛ خرجت في خيل المشركين ، فلقيت رسول الله (ص) في أصحابه بعُسْفان ، فقمت بإزائه ، وتعرَّضت له ، فصلَّى بأصحابه الظُّهر امناً منا ، فهمَمْنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزَم لنا . وكانت فيه خيرة . فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهموم ، فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منِّي موقعاً ، وقلت: الرَّجل ممنوعٌ! وافترقنا ، وعدل عن سَنن خيلنا وأخذ ذات اليمين ، فلمَّا صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعته قريش بالرَّواح؛ قلت في نفسي: أيُّ شيءٍ بقي؟ أين المذهب؟ إلى النَّجاشيّ! فقد اتَّبع محمداً ، وأصحابُه امنون عنده ، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانيَّةٍ ، أو يهوديَّةٍ ، فأقيم مع عجم تابعاً ، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك؛ إذ دخل رسول الله (ص) عُمرة القضيَّة ، فتغيَّبتُ ، فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النَّبيِّ (ص) في عُمرة القضية ، فطلبني ، فلم يجدني ، فكتب إليَّ كتاباً ، فإذا فيه: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، أمَّا بعد: فإنِّي لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعَقْلُك عَقْلُك! ومثلُ الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألني رسول الله (ص) عنك ، فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به! فقال: «ما مِثْلَهُ جَهِلَ الإسلامَ! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره» فاستدرك يا أخي! ما فاتك ، فقد فاتتك مواطنُ صالحةٌ.

قال: فلمَّا جاءني كتابه؛ نَشِطْتُ للخروج ، وزادني رغبةً في الإسلام ، وسرَّتني مقالةُ رسول الله (ص) . قال خالد: وأرى في النَّوم كأني في بلادٍ ضيِّقةٍ جديبةٍ ، فخرجت إلى بلدٍ أخضرَ واسعٍ ، فقلت: إنَّ هذه لرؤيا ، فلمَّا قدمت المدينة؛ قلت: لأذكرنَّها لأبي بكرٍ ، قال: فذكرتها ، فقال: هو مخرجُك الَّذي هداك الله للإسلام ، والضِّيق الَّذي كنت فيه من الشِّرك ، فلمَّا أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أميَّة ، فقلت: يا أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟ إنَّما نحن أكلَةُ رأس[(٢٤٤)] ، وقد ظهر محمَّدٌ على العرب ، والعجم ، فلو قدمنا على محمَّدٍ فاتَّبعناه؛ فإنَّ شرف محمَّدٍ على العرب.

فأبى أشدَّ الإباء ، وقال: لو لم يبقَ غيري من قرِيشٍ ما اتَّبعته أبداً! فافترقنا ، وقلت: هذا رجلٌ موتور يطلب وِتْراً ، قد قُتل أبوه ، وأخوه ببدرٍ. فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل الَّذي قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان ، قلت: فاطوِ ما ذكرت مَنْ قُتل من ابائه ، فكرهتُ أذكِّره ، ثمَّ قلت: وما عليَّ وأنِّي راحلٌ من ساعتي ، فلقيت عثمان بن طلحة فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت: إنَّما نحن بمنزلة ثعلب في جُحرٍ ، لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ[(٢٤٥)] من ماءٍ؛ لخرج.

قال: وقلت له نحواً ممَّا قلت لصاحبيه ، فأسرع في الإجابة ، وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي بضحٍ مُنَاخةٌ. قال: فاتَّعدت أنا وهو بيأجج ، إن سبقني؛ أقام ، وإن سبقته؛ أقمت عليه.

قال: فادَّلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتَّى التقينا بيأجج ، فغدونا حتَّى انتهينا إلى الهَدَّة ، فنجد عمرو بن العاص بها ، فقال: مرحباً بالقوم! فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدُّخول في الإسلام ، واتِّباع محمَّد (ص) . قال: وذلك الَّذي أقدمني.

قال: فاصطحبنا جميعاً حتَّى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرَّة ركابنا ، فأُخبر بنا رسول الله (ص) فَسُرَّ بنا ، فَلبِسْتُ من صالح ثيابي ، ثمَّ عمدت إلى رسول الله (ص) ، فلقيني أخي ، فقال: أسرع فإنَّ رسول الله (ص) قد أُخبر بك فَسُرَّ بقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعت المشي ، فطلعت عليه ، فما زال يتبسَّم إليَّ حتَّى وقفتُ عليه ، فسلمت عليه بالنُّبوَّة ، فرد عليَّ السَّلام بوجهٍ طَلْقٍ ، فقلت: إنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله. فقال: «الحمد لله الَّذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير». قلت: يا رسول الله! قد رأيتَ ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحقِّ ، فادع الله أن يغفرها لي! فقال رسول الله (ص) : «الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله». قلت: يا رسول الله! على ذلك؟ فقال: «اللَّهم! اغفر لخالدٍ كلَّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك». قال خالد: وتقدَّم عمرو ، وعثمانُ ، فبايعا رسول الله (ص) ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ ، فو الله! ما كان رسول الله (ص) من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه. [البيهقي في دلائل النبوة (٣٤٩/٤ ـ ٣٥٢)][(٢٤٦)].

وفي إسلام عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما دروسٌ ، ولطائف ، وعبرٌ ، منها:

أ ـ غضبة النَّجاشيِ تدلُّ على صدق إيمانه ، وحبِّه لرسول الله (ص) ، وحبُّه للمسلمين ، وصِدْق النَّجاشيِّ كان له أثرٌ في إيمان عمرو بن العاص ، ودخوله في الإسلام ، وبذلك نال النَّجاشيُّ أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش[(٢٤٧)].

ب ـ كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام ، والمسلمين ، فلقد سخَّر عقله الكبير ، ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام ، وخسر الكفار بإسلامه خسارةً كبيرةً؛ لأنَّهم كانوا
يُعِدُّونه لعظائم الأمور؛ الَّتي تحتاج إلى دهاءٍ ، ومقدرةٍ على التأثير ، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بعدائهم مع المسلمين[(٢٤٨)].

ج ـ أدرك خالد بن الوليد: أنَّ العاقبة لرسول الله (ص) ، وتأمَّل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّد ، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف؛ وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ ، وأن محمَّداً سيظهر[(٢٤٩)]. وفي هذا عبرةٌ لكلِّ الَّذين يحاربون الإسلام[(٢٥٠)].

د ـ الاهتمام بالبشر طريقٌ من طرق التأثير عليهم ، وكسبهم إلى الصَّفِّ المؤمن ، ولذلك قال رسول الله (ص) للوليد بن الوليد: «ما مِثْل خالدٍ يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره»[(٢٥١)]. فكان لهذه الكلمات البليغة أعظمُ الأثر في تحوُّل قلب خالدٍ ، وتوجُّهه نحو الإسلام ، وقد كان رسول الله (ص) عليماً في مخاطبة النُّفوس ، والتَّأثير عليها ، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة ، والزَّعامة ، فوعد بتمكينه من ذلك ، وتقديمه على غيره في هذا المضمار ، ومدح (ص) سداد رأيه ، ورجاحة عقله ، ونُضْجَ فكره ، فانتزع (ص) بهذه الكلمات كلَّ الجوانب الَّتي تجعل خالداً يظلُّ على الشِّرك الَّذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادةٍ وتصدُّرٍ ، فلمَّا كان ما هيَّأه له المشركون سيحصل له؛ إذا دخل في الإسلام ، واطمأنَّ بأنَّه لو أسلم؛ لن يكون في اخر القائمة ، ولن يكون مهملاً ، شجَّعه ذلك على التغلُّب على وساوس إبليس ، ورجَّح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام ، فعزم على الدُّخول فيه.

لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوَّةً للإسلام ، وضعفاً للشِّرك ، وكتب الله على أيديهما صفحاتٍ مشرقةً من تاريخ المسلمين الجهاديِّ أصبحت باقيةً في ذاكرة الأمَّة ، وتاريخها المجيد على مرِّ الدُّهور ، وكرِّ العصور ، وتوالي الأزمان[(٢٥٢)].

* * *

المبحث الرابع

سريَّة مؤتة (٨ هـ)[(٢٥٣)]

أولاً: أسبابها ، وتاريخها:

أشعل عرب الشَّام فتيل الصِّراع بين المسلمين والبيزنطيِّين ، فقد دأبت قبيلة كلب من قُضاعة؛ الَّتي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين ، وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصاديِّ عن طريق إيذائها للتُّجار الَّذين كانوا يحملون السِّلع الضَّرورية من الشَّام إلى المدينة ، ولذلك غزا رسول الله (ص) قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥ هـ) ، لكنَّه وجدهم قد تفرَّقوا ، كما أنَّ رجالاً من جُذام ، ولخْم قطعوا الطَّريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بحِسْمَى بعد إنجازه لمهمَّةٍ أناطها به رسول الله (ص) واستلبوا كلَّ ما معه ، فكانت سَرِيَّة زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في سنة (٦ هـ)، ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قبيلتا مذحج ، وقُضاعة من اعتداءٍ على زيد بن حارثة ، وصحبه في العام المذكور (٦ هـ) ، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثةٍ بغرض الدَّعوة إلى الله.

وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدوانيُّ يأخذ منحنىً أكثر خطورةً[(٢٥٤)] ، بعد مقتل الحارث بن عُميرٍ الأزدي رسول رسول الله (ص) إلى حاكم (بُصرى) التَّابع لحاكم الرُّوم ، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغسَّاني بضرب عنق رسولِ رسولِ الله ، ولم تجر العادة بقتل الرُّسل والسُّفراء ، كما أنَّ الحارث بن أبي شمر الغسَّاني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله ، وهدَّد بإعلان الحرب على المدينة.

ثمَّ حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري؛ ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له: (ذات أطلاح) ، فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام ، وأحاطوا بالدُّعاة من كلِّ مكانٍ ، وقاتلوهم حتَّى قتلوهم جميعاً ، إلا أميرهم كان جريحاً فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة ، فأخبر رسول الله (ص)[(٢٥٥)] .

وقد قام نصارى الشَّام بزعامة الإمبراطورية الرومانيَّة بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام ، أو يفكِّر في ذلك ، فقد قتلوا والي مَعَانَ حين أسلم ، وقتل والي الشَّام من أسلم من عرب الشَّام[(٢٥٦)].

كانت هذه الأحداث المؤلمة . وبخاصَّةٍ مقتل سفير رسول الله (ص) الحارث بن عُمير الأزدي . محركةً لنفوس المسلمين ، وباعثاً لهم ليضعوا حدّاً لهذه التصرُّفات النَّصرانيَّة العدوانيَّة ، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة ، الذين سُفِكَت دماؤهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ونبيُّنا محمَّد رسول الله[(٢٥٧)] ، كما أنَّ تأديب عرب الشام التابعين للدَّولة الرُّومانيَّة ، والَّذين دأبوا على استفزاز المسلمين ، وتحدِّيهم ، وارتكاب الجرائم ضدَّ دعاتهم أصبح هدفاً مهمّاً؛ لأنَّ تحقيق هذا الهدف معناه: فرض هيبة الدَّولة الإسلاميَّة في تلك المناطق ، بحيث لا تتكرَّر مثل هذه الجرائم في المستقبل ، وبحيث يأمن الدُّعاة المسلمون على أنفسهم ، ويأمن التُّجار المتردِّدون بين الشَّام والمدينة من كلِّ أذىً يحول دون وصول السِّلع الضَّرورية إلى المدينة[(٢٥٨)].

وفي سنة (٨ هـ) أمر رسول الله (ص) المسلمين بالتَّجهُّز للقتال ، فاستجابوا للأمر النَّبويِّ ، وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السَّريَّة ثلاثة الاف مقاتل، واختار النَّبيُّ (ص) للقيادة ثلاثة أمراء على التَّوالي: زيد بن حارثة ، ثمَّ جعفر بن أبي طالب ، ثمَّ عبد الله بن رواحة[(٢٥٩)] ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أمَّر رسول الله (ص) في غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله (ص) : إن قُتل زيدٌ؛ فجعفرٌ ، وإن قُتل جعفرٌ فعبد الله بن رواحة. [البخاري (٤٢٦١)].

وقد أمر رسول الله (ص) الجيش الإسلاميَّ أن يأتوا المكان الَّذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزديُّ رضي الله عنه ، وأن يَدْعوا من كان هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا؛ فبها ، ونعمت ، وإن أبوا؛ استعينوا بالله عليهم ، وقاتلوهم[(٢٦٠)]. وقد زوَّد الرَّسول (ص) الجيش في هذه السَّريَّة ، وغيرها من السَّرايا بوصايا تتضمَّن اداب القتال في الإسلام[(٢٦١)] ، فقد أوصى رسول الله (ص) أصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزو باسم الله في سبيل

الله مَنْ كفر بالله ، لا تغدِروا ، ولا تقتُلوا وليداً ، ولا امرأةً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعةٍ ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناءً ، وإذا لقيتم عدوَّكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإمَّا الإسلام ، وإمَّا الجزية ، وإمَّا الحرب»[(٢٦٢)].

ثانياً: وداع الجيش الإسلامي:

لما تجهز الجيش الإسلاميُّ ، وأتمَّ استعداده؛ توجَّه رسول الله (ص) والمسلمون يودِّعون الجيش ، ويرفعون أكفَّ الضَّراعة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن ينصر إخوانهم المجاهدين ، لقد سلَّموا عليهم ، وودَّعوهم بهذا الدُّعاء: دفع الله عنكم ، وردَّكم صالحين غانمين[(٢٦٣)]!

ولما ودَّع النَّاس عبد الله بن رواحة ، وسلَّموا عليه ، بكى ، وانهمرت الدُّموع من عينيه ساخنةً غزيرةً ، فتعجَّب النَّاس من ذلك ، وقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة؟! فقال: والله ما بي حبُّ الدُّنيا ، ولا صَبَابَةٌ بكم ، ولكنِّي سمعت رسول الله (ص) يقرأ اية من كتاب الله يذكر فيها النَّار: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *} [مريم: ٧١] ، فلست أدري كيف بي بالصَّدرِ بعد الوُرود؟! فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردَّكم إلينا صالحين! فقال عبد الله بن رواحة:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمنَ مَغْفِرَةً ... وَضْرَبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأَحْشَاءَ والْكَبِدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي ... أَرْشَدَهُ الله مِنْ غازٍ وَقَدْ رَشَدَا

[ابن هشام (٤/١٥ ـ ١٦) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٣٥٩)].

وودَّع رسولُ الله (ص) عبد الله بن رواحة، فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله (ص) :

يُثْبِتُ الله ما اتاكَ مِنْ حَسَنٍ ... تَثْبِيْتَ مُوْسَى وَنَصْراً كالَّذِي نُصِرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيْكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً ... فِرَاسَةً خَالَفْتُهُم فِي الَّذي نَظَرُوا
أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ ... والوَجْهُ مِنْهُ فَقَدْ أَزْرَى بِهِ القَدَرُ

[البيهقي في الدلائل (٤/٣٥٩ ـ ٣٦٠) ، وابن هشام (٤/١٦)][(٢٦٤)].

ثالثاً: الجيش يصل إلى مَعَان واستشهاد الأمراء الثلاثة:

لما وصل الجيش الإسلاميُّ إلى مَعَان من أرض الشَّام ـ وهي الان محافظةٌ من محافظات الأردن ـ بلغه: أنَّ النَّصارى الصَّليبيّين مِنْ عربٍ ، وعجمٍ قد حشدوا حشوداً ضخمةً لقتالهم؛ إذ

حشدت القبائل العربيَّة مئة ألف صليبي من لَخْمٍ ، وجُذَام وبَهَراء وبَلِيٍّ ، وعيَّنت لهم قائداً ، هو مالك بن رافلة ، وحشد هرقل مئة ألف نصرانيٍّ صليبيٍّ من الرُّوم ، فبلغ جيشهم مئتي ألف مقاتلٍ ، مزوَّدين بالسِّلاح الكافي ، يرفلون في الدِّيباج لينبهر المسلمون بهم ، وبقوَّتهم[(٢٦٥)] ، ولقد قام المسلمون في مَعَان يومين يتشاورون في التَّصدِّي لهذا الحشد الضَّخم ، فقال بعضهم: نرسل إلى رسول الله (ص) في المدينة نخبره بحشود العدوِّ ، فإن شاء أمدَّنا بالمدد ، وإن شاء أمرنا بالقتال[(٢٦٦)] ، وقال بعضُهم

لزيد بن حارثة قائد الجيش: وقد وطئت البلاد ، وأخفت أهلها ، فانصرف ، فإنَّه لا يعدل العافية شيءٌ[(٢٦٧)] ، ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: يا قوم! والله إنَّ الذي تكرهون للَّذي خرجتم تطلبون الشَّهادة! وما نقاتل النَّاس بعددٍ ، ولا قوَّةٍ ، ولا كثرةٍ ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الَّذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا؛ فإنَّما هي إحدى الحسنيين: إمَّا ظهورٌ ، وإمَّا شهادةٌ! فألهبت كلماتُه مشاعر المجاهدين ، واندفع زيد بن حارثة بالنَّاس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث اثر الاصطدام بالرُّوم هناك ، فكانت ملحمةٌ سجَّل فيها القادة الثلاثة بطولةً عظيمةً انتهت باستشهادهم[(٢٦٨)] ، فقد استبسل زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وتوغَّل في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله (ص) حتَّى شاط (أي: سال دمه) في رماح القوم. [الطبراني في الكبير (٤٦٥٥) ، وابن هشام (١٩/٤) ، ومجمع الزوائد (١٥٩/٦)].

ثمَّ أخذ الرَّاية جعفر ، وانبرى يتصدَّى لجموع المشركين الصَّليبيِّين ، فكثَّفوا حملاتهم عليه ، وأحاطوا به إحاطة السِّوار بالمعصم ، فلم تلن له قناةٌ ، ولم تهن له عزيمةٌ؛ بل استمرَّ في القتال وزيادةً في الإقدام نزل عن فرسه، وعقرها، وأخذ ينشد:

يا حَبَّذا الجَنَّةُ واقْتِرَابُهَا طَيِّبَةً وَبَارِداً شَرَابُهَا

والرُّومُ رُوْمٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بِعَيْدَةٌ أَنْسَابُهَا

عَلَيَّ إذ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

[انظر تخريج الحديث السابق].

لقد أخذ رضي الله عنه اللِّواء بيده اليمنى ، فقطعت ، فأخذه بشماله ، فقطعت ، فاحتضنه بعضديه ، وانحنى عليه حتَّى استُشْهِد وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، ولقد أُثْخِنَ رضي الله عنه بالجراح؛ إذ بلغ عدد جراحه تسعين ، بين طعنةٍ برمحٍ ، أو ضربةٍ بسيفٍ ، أو رميةٍ بسهمٍ ، وليس
من بينهما جرح في ظهره ، بل كلُّها في صدره[(٢٦٩)].

روى الإمام البُخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما قال: كنت في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب ، فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنةٍ ، أو رميةٍ. [البخاري (٤٢٦١) ، والبيهقي في الدلائل (٣٦١/٤)].

ولقد عوَّض الله ـ تبارك وتعالى ـ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأكرمه على شجاعته ، وتضحيته بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنَّة حيث يشاء ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى

عامرٍ؛ قال: كان ابن عمر إذا حَيّا ابن جعفر؛ قال: السَّلام عليك يا بن ذي الجناحين. [البخاري (٤٢٦٤) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٣٧٢)].

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه تسلَّم الرَّاية عبد الله بن رواحة الأنصاريُّ رضي الله عنه وامتطى جواده ، وهو يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ

إِنْ أَجْلَبَ[(٢٧٠)] النَّاسُ وشَدُّوا الرَّنَّةْ[(٢٧١)] مَالِيْ أَرَاكِ تَكْرَهِيْنَ الْجَنَّةْ

قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ هَلْ أَنْتِ إِلا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ

يَا نَفْسُ إِلا تُقْتَلِيْ تَمُوْتِي هَذا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيْتِ

ومَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيْتِ إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيْتِ

[البيهقي في الدلائل (٤/٣٦٣ . ٣٦٤) ، وابن هشام (٤/٢١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٥٩)].

ويُذكر: أنَّ ابن عمٍّ لعبد الله بن رواحة قد قدَّم له قطعةً من لحمٍ ، وقال له: شدَّ بهذا صُلبك ، فإنَّك لقيت في أيَّامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، ثمَّ انتهش منه نهشةً ، ثمَّ سمع جلبةً ، وزخاماً في جبهة القتال ، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدُّنيا! ثمَّ ألقى قطعة اللَّحم من يده ، وتقدَّم يقاتل العدو حتَّى استُشْهِد رضي الله عنه وكان ذلك في اخر النَّهار[(٢٧٢)].

رابعاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً:

ولما استُشْهِد عبدُ الله بن رواحة رضي الله عنه ، وسقطت الرَّاية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عديّ بن العجلان البلويُّ الأنصاريُّ وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على

رجلٍ منكم ، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل! فاصطلح النَّاس على خالد بن الوليد[(٢٧٣)] ، وجاء في (إمتاع الأسماع): أنَّ ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد ، فقال: خذ اللِّواء يا أبا سليمان! فقال: لا اخذه ، أنت أحقُّ به ، أنت رجلٌ لك سنٌّ ، فقد شهدت بدراً ، فقال ثابت: خذه أيُّها الرَّجل ، فو الله ما أخذته إلا لك!

فأخذه خالد بن الوليد رضي الله عنه[(٢٧٤)] ، وأصبحت الخطَّة الأساسيَّة المنوطة بخالدٍ في تلك السَّاعة العصيبة من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعيِّ ، فبعد أن قدَّر الموقف واحتمالاته المختلفة تقديراً دقيقاً ، ودرس ظروف المعركة دراسةً وافيةً ، وتوقَّع نتائجها اقتنع بأنَّ الانسحاب بأقلِّ

خسارةٍ ممكنةٍ هو الحلُّ الأفضل ، فقوَّة العدوِّ تبلغ (٦٦) ضعفاً لقوة المسلمين ، فلم يبقَ أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظَّم ، وعلى هذا الأساس وضع خالدٌ الخطَّة التالية:

أ ـ الحؤول بين جيش الرُّوم وجيش المسلمين؛ ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب ـ لبلوغ هذا الهدف لابدَّ من تضليل العدوِّ بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين ، فيخفِّف من ضغطه ، وهجماته ، ويتمكَّن المسلمون من الانسحاب ، وصمد خالدٌ حتَّى المساء عملاً بهذه الخطَّة ، وغيَّر في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه ، فاستبدل الميمنة بالميسرة ، ومقدِّمة القلب بالمؤخِّرة ، وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجَّة صاخبةً ، وجلبةً قويَّةً ، ثمَّ حمل على العدوِّ ، عند الفجر ، بهجماتٍ سريعةٍ متتالية ، وقويَّة؛ ليُدخل في رُوعِه: أنَّ إمدادات كثيرةً وصلت إلى المسلمين[(٢٧٥)].

ونجحت الخطَّة؛ إذ بدا للعدوِّ صباحاً: أنَّ الوجوه والرَّايات الَّتي تواجهه جديدةٌ لم يرها من قبل، وأنَّ المسلمين يقومون بهجماتٍ عنيفةٍ، فأيقن: أنَّهم تلقَّوا إمدادات، وأنَّ جيشاً جديداً نزل إلى الميدان ، وكان البلاء الحسن الَّذي أبلاه المسلمون قد فتَّ في عضد الرُّوم ، وحلفائهم ، فأدركوا أنَّ إحراز نصرٍ حاسمٍ ونهائيٍّ على المسلمين أمرٌ مستحيلٌ ، فتخاذلوا ، وتقاعسوا عن متابعة الهجوم ، وضعف نشاطهم واندفاعهم ، فخفَّ الضَّغط عن جيش المسلمين ، وانتهز خالدٌ الفرصة ، فباشر الانسحاب ، وكانت عملية التَّراجع الَّتي قام بها خالدٌ في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليَّات في التاريخ العسكريِّ مهارةً ونجاحاً ، بل إنَّها تتَّفق وتتلاءم مع التَّكتيك الحديث للانسحاب ، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب ، ولما أصبح الجناحان بمنأىً عن العدوِّ وفي مأمنٍ عنه؛ عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين ، إلى أن

تمكَّن ، وضمن سلامة الانسحاب كُلِّيّاً[(٢٧٦)] ، ويقول المؤرِّخون: إنَّ خسارة المسلمين لم تتعدَّ الاثني عشر قتيلاً في هذه المعركة ، وإنَّ خالداً قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيَّة». [البخاري (٤٢٦٥) ، والبيهقي في الدلائل (٣٧٣/٤)].

ويمكن القول بأنَّ خالداً بخطَّته تلك ، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمةٍ ماحقةٍ، وقتلٍ محقَّقٍ ، وأنَّ انسحابه كان قمَّة النَّصر بالنِّسبة لظروف المعركة؛ حيث يكون الانسحاب في ظروفٍ مماثلةٍ أصعب حركات القتال ، بل أجداها ، وأنفعها[(٢٧٧)].

خامساً: معجزةُ الرَّسول (ص) ، وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزةٌ للرَّسول (ص) في أمر هذه السَّريَّة ، فقد نعى إلى المسلمين في المدينة زيداً ، وجعفراً ، وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم ، وحزن رسول الله (ص) لما وقع للسَّريَّة ، وذرفت عيناه الدُّموع ، ثمَّ أخبرهم بتسلُّم خالدٍ للرَّاية ، وبشَّرهم بالفتح على يديه ، وأسماه: سيفَ الله[(٢٧٨)] ، وبعد ذلك قدِم من أخبرهم بأخبار السَّريَّة ، ولم يزد عمَّا أخبرهم به النَّبيُّ (ص)[(٢٧٩)] .

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقَّاهم رسول الله (ص) ، والمسلمون ، ولقيهم الصِّبيان يشتدُّون ، ورسولُ الله (ص) مقبلٌ مع القوم على دابةٍ ، فقال: خذوا الصِّبيان ، واحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر ، فأتي بعبد الله ، فأخذه ، فحمله على يديه ، وجعل النَّاس يحثون على الجيش التُّراب ، ويقولون: يا فُرَّار! أفررتم من سبيل الله! ويقول رسول الله (ص) : «ليسوا بالفُرَّار ، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى». [البيهقي في الدلائل (٤/٣٧٤) ، وابن هشام (٤/٢٤)][(٢٨٠)].

وإنَّ الإنسان ليعجب من هذه التَّربية النَّبويَّة الَّتي صنعت من الأطفال الصِّغار ، رجالاً وأبطالاً يرون العودة من المعركة دون شهادةٍ في سبيل الله فراراً من سبيل الله ، لا يكافَؤُون عليه إلا بحثوِ التُّراب في وجوههم ، فأين شبابنا المتسكِّعون في الشَّوارع ، من هذه النماذج الرَّفيعة من الرجولة الفذَّة المبكِّرة؟! ولن تستطيع الأمَّة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النَّبيلة ، والقِمم الشَّوامخ إلا بالتَّربية الإسلاميَّة الجادَّة القائمة على المنهاج النَّبويِّ الكريم[(٢٨١)].

سادساً: دروس ، وعبر ، وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروسٌ ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ أهمِّيَّة هذه المعركة:

تُعَدُّ هذه المعركة من أهمِّ المعارك الَّتي وقعت بين المسلمين والنَّصارى الصَّليبيِّين من عربٍ ، وعجمٍ؛ لأنَّها أوَّل صدامٍ مسلَّحٍ ذي بالٍ بين الفريقين ، وأثَّرت تلك المعركة على مستقبل الدَّولة الرُّومانيَّة ، فقد كانت مقدمةً لفتح بلاد الشَّام ، وتحريرها من الرُّومان ، ونستطيع أن نقول: إنَّ تلك الغزوة هي خطوةٌ عمليَّةٌ قام بها النَّبيُّ (ص) للقضاء على دولة الرُّوم المتجبِّرة في بلاد الشَّام ، فقد هزَّ هيبتها في قلوب العرب ، وأعطت فكرة عن الرُّوح المعنويَّة العالية عند المسلمين ، كما أظهرت ضعف الرُّوح المعنوية في القتال عند الجنديِّ الصَّليبيِّ النَّصرانيِّ[(٢٨٢)] ، وأعطت فرصةً للمسلمين للتَّعرُّف على حقيقة قوات الرُّوم ، ومعرفة أساليبهم في القتال.

٢ ـ حبُّ الشَّهادة باعثٌ للتَّضحية:

إنَّ الصَّبر ، والثَّبات ، والتَّضحية الَّتي تجلَّت من كلِّ واحدٍ من الأمراء الثَّلاثة ، وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين ، والرَّغبة في نيل الشَّهادة؛ لكي يكرمهم الله برفقة النَّبيِّين ، والصِّدِّيقين ، والشُّهداء ، والصَّالحين ، ويدخلوا جنَّات الله الواسعة ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

٣ ـ تميُّز هذه المعركة عن سائر المعارك:

فهي الوحيدة الَّتي جاء خبرها من السَّماء؛ إذ نعى النَّبيُّ (ص) استشهاد الأبطال الثَّلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة ، بل وأخبر النَّبيُّ (ص) عن أحداثها ، وتمتاز أيضاً عن غيرها بأنَّها الوقعة الوحيدة الَّتي اختار النَّبيُّ (ص) لها ثلاثة أمراء على التَّرتيب هم: زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالبٍ ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم[(٢٨٣)].

٤ ـ إكرام النَّبيِّ (ص) لال جعفر:

لما أصيب جعفر دخل رسول الله (ص) على أسماء بنت عُمَيْسٍ فقال: «ائتني ببني جعفرٍ» ، فأتت بهم ، فشمَّهم ، وقبَّلهم ، وذرفت عيناه ، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر ، وأصحابه شيءٌ؟ قال: «نعم ، أصيبوا هذا اليوم!» فجعلت تصيح ، وتولول ، فقال النَّبيُّ (ص) : «لا تغفُلوا عن ال جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنَّهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم». [أحمد (٦/٣٨٠) ، وابن ماجه

(١٦١١) ، ومجمع الزوائد (٦/١٦١) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٣٧٠) ، وابن هشام (٤/٢٢)] ، ونلحظ في هذا الخبر عدَّة أمورٍ؛ منها:

أ ـ جواز بكاء المرأة على زوجها المتَوَفَّى:

أُخِذ هذا مِنْ فعل أسماء بنت عُمَيْسٍ رضي الله عنها حينما نعى النَّبيُّ (ص) زوجها ، ومن معه ، فبكت ، وصاحت ، فلم ينكر عليها النَّبيُّ (ص) ، ولم ينهها عن ذلك ، ولو كان ممنوعاً؛ لنهاها عن ذلك ، والبكاء الَّذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائداً عند أهل الجاهليَّة من النُّواح ، واللَّطم ، وشقِّ الجيوب ، والتَّبرُّم بقضاء الله ، وقدَرِه ، وما إلى ذلك ممَّا يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه.

ب ـ استحباب صنع الطَّعام لأهل الميت:

وقد ندب الرَّسول (ص) النَّاس أن يصنعوا طعاماً لال جعفر ، وهذا فيه مواساةٌ لأهل المتَوَفَّى ، وتخفيفُ مُصابهم ، وفي الوقت نفسه تكافلٌ بينهم ، وهذه السُّنَّة خالفتها بعض الشُّعوب الإسلاميَّة ، وأصبح أهل الميت يصنعون الطَّعام للقادمين ، وهذا أمر قبيحٌ ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون[(٢٨٤)].

هذا وقد نهى رسولُ الله (ص) عن البكاء بعد ثلاثٍ ، فقد دخل على أسماء ، وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم ، ادعو لي بني أخي» ، فجيء بهم كأنَّهم أَفْرُخ فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسهم [أحمد (٢٠٤/١) ، وأبو داود (٤١٩٢) ، والنسائي (١٨٢/٨)] ، ثمَّ قال: أمَّا محمَّد فشبيه عمِّنا أبي طالب ، وأما عبد الله فشبيه خَلْقِي ، وخُلُقِي ، ثمَّ أخذ بيمين عبد الله ، وقال: «اللَّهُمَّ! اخلُف جعفراً في أهله ، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاثاً[(٢٨٥)]. ولما ذَكَرَتْ له أمُّهم يُتْمَهم ، وضعفهم؛ قال لها: «العَيْلةَ تخافين عليهم؛ وأنا وليُّهم في الدُّنيا والاخرة؟!» [أحمد (٢٠٤/١)][(٢٨٦)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ خطَّه رسولُ الله (ص) لرعاية ، وتكريم أبناء الشُّهداء؛ لكي تسير الأمَّة على نهجه الميمون[(٢٨٧)].

ج ـ زواج أبي بكرٍ الصِّدِّيق من أسماء بنت عميس:

وبعد أن انقضت عدَّة أسماء بنتِ عُمَيْسٍ ، خطبها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ،

فتزوَّجها ، وولدت له محمَّد بن أبي بكرٍ ، وبعدما توفي الصِّدِّيق تزوَّجها بعده عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، وولدت له أولاداً رضي الله عنه ، وعنهم أجمعين[(٢٨٨)].

وقد ذكر ابن كثيرٍ: أنَّ أسماء بنتَ عُمَيْسٍ رَثَتْ زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدةٍ تقول فيها:

فَآلَيْتُ لاَ تَنْفَكُّ نَفْسِي حَزِيْنَةً عَلَيْكَ وَلاَ يَنْفَكُّ جِلْدِي أَغْبَرَا

فَلِلَّهِ عَيْنا مَنْ رأَى مِثْلَهُ فَتَىً أَكَرَّ وأَحْمَرَ في الهِيَاجِ وأَصْبَرَا[(٢٨٩)]

٥ ـ مِنْ فقه القيادة:

إنَّه درسٌ عظيمٌ يقدِّمه لنا الصَّحابيُّ الجليل ثابت بنُ أقرم العجلانيُّ عندما أخذ اللِّواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه اخرِ الأمراء ، وذلك أداءً منه للواجب؛ لأنَّ وقوع الرَّاية معناه: هزيمةُ الجيش ، ثمَّ نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً ، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعلٍ ، فاصطلح النَّاس على خالدٍ.

وفي روايةٍ: أنَّ ثابتاً مشى باللِّواء إلى خالدٍ ، فقال خالدٌ: لا اخذه منك ، أنت أحقُّ به ، فقال: والله! ما أخذته إلا لك.

إنَّ مضمون كلتا الرِّوايتين واحدٌ ، وهو أنَّ ثابتاً جمع المسلمين أوَّلاً ، وأعطى القوس باريها ، فأعطى الرَّاية أبا سليمان خالد بن الوليد[(٢٩٠)] ، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا؛ ذلك: أنَّه يرى فيهم

مَنْ هو أكفأ منه لهذا العمل ، وحينما يتولَّى العمل مَنْ ليس له بأهلٍ ، فإنَّ الفساد متوقَّعٌ ، والعمل حينما يكون للهِ تعالى ، لا يكون فيه أثرٌ لحبِّ الشُّهرة ، أو حظِّ النَّفس.

إنَّ ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين . وهو ممَّن حضر بدراً . ولكنَّه رأى من الظُّلم أن يتولَّى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه ، حتَّى ولو لم يمضِ على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأنَّ الغاية هي السَّعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن ، والطريقة المثْلَى[(٢٩١)].

إنَّ كثيراً ممَّن يتزعَّمون قيادة الدَّعوة الإسلاميَّة اليوم يضعون العراقيل أمام الطَّاقات الجديدة ، والقُدرات الفذَّة ، خوفاً على مكانتهم القياديَّة ، وامتيازاتهم الشَّخصية ، وأطماعهم الدُّنيوية ، فعلى أولئك القادة أن يتَّعظوا من هذا الدَّرس البليغ لمن كان له قلب ، أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

٦ . درس نبوي في احترام القيادة:

قال عوف بن مالكٍ الأشجعيُّ رضي الله عنه: خرجت مع مَنْ خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، ورافقني مَدَدِيٌّ من اليمن[(٢٩٢)].... ومضينا ، فلقينا جموع الرُّوم ، فيهم رجلٌ على فرسٍ له أشقر ، عليه سرجٌ مذهَّب ، وله سلاحٌ مذهَّب ، فجعل الرُّومي يضرب المسلمين ، فقعد له المَدَدِيُّ خلف صخرةٍ ، فمرَّ به الرُّومي فعرقب فرسه بسيفه ، وفر الرُّومي ، فعلاه بسيفه ، فقتله ، وحاز فرسه ، وسلاحه ، فلمَّا فتح الله للمسلمين؛ بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السَّلب ، قال عوف: فأتيت خالداً ، وقلت له: أما علمت: أنَّ رسول الله (ص) قضى بالسَّلب للقاتل؟ قال: بلى! ولكني استكثرتُه ، قلت: لتردَّنها إليه ، أو لأعرفنكها عند رسول الله (ص) ، فأبى أن يردَّ عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ، فقصصت عليه قصَّة المدديِّ وما فعل خالدٌ ، فقال رسول الله (ص) : «يا خالد! ما حملك على ما صنعت؟» قال: استكثرته ، فقال: «ردَّ عليه الَّذي أخذتَ منه».

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد! ألم أوف لك؟ فقال رسول الله (ص) : «وما ذلك؟» فأخبرتُه ، قال: فغضب رسول الله (ص) ، وقال: «يا خالد لا تردَّ عليه ، هل أنتم تاركون لي أُمَرَائِي؟ لكم صَفْوَةُ أمرهم ، وعليهم كَدَرُه». [أحمد (٦/٢٧) ، ومسلم (١٧٥٣) ، وأبو داود (٢٧١٩ و٢٧٢٠)].

هذا موقفٌ عظيمٌ من النَّبيِّ (ص) في حماية القادة ، والأمراء من أن يتعرَّضوا للإهانة بسبب الأخطاء الَّتي قد تقع منهم ، فهم بشر معرَّضون للخطأ ، فينبغي السَّعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّصٍ ، ولا إهانةٍ ، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه ، وإنَّما اجتهد ، فغلَّب جانب المصلحة العامَّة؛ حيث استكثر ذلك السَّلَب على فردٍ واحد ، ورأى: أنَّه إذا دخل في الغنيمة العامَّة؛

نفع عدداً أكبر من المجاهدين ، وعوف بن مالكٍ أدَّى مهمَّته في الإنكار على خالدٍ ، ثمَّ رفع الأمر إلى رسول الله (ص) حينما لم يقبل خالد قوله ، وكان المفترض أن تكون مهمَّته قد انتهت بذلك؛ لأنَّه ـ والحال هذه ـ قد دخل في أمرٍ من أوامر الإصلاح ، وقد تمَّ الإصلاح على يده ، ولكنَّه تجاوز هذه المهمَّة حيث حوَّل القضيَّة من قضيةٍ إصلاحيَّةٍ إلى قضيَّةٍ شخصيَّةٍ ، فأظهر شيئاً من التَّشفِّي من خالدٍ ، ولم يقرَّه النَّبيُّ (ص) على ذلك ، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً ، وبيَّن حقَّ الولاة على جنودهم ، وكون النَّبيِّ (ص) أمر خالداً بعدم ردِّ السَّلب على صاحبه لا يعني أنَّ حقَّ ذلك المجاهد قد ضاع؛ لأنَّه لا يمكن أن يأخذ رسول الله (ص) إنساناً بجريرة

غيره ، فلابدَّ: أنَّ ذلك المجاهد قد حصل منه الرِّضا ، إمَّا بتعويضٍ عن ذلك السَّلَب ، أو بتنازلٍ منه ، أو غير ذلك فيما لم يُذكر تفصيلُه في الخبر[(٢٩٣)].

إنَّ الأمَّة الَّتي لا تقدِّر رجالها ، ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظامٌ ، إنَّ التَّربية النَّبويَّة استطاعت بناء هذه الأمَّة بناءً سليماً ، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسانٍ في مكانه ، وأن يُحترم ، ويُقدَّر بمقدار ما يقدِّم لهذا الدِّين! ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العامِّ الَّذي وصف الله به المؤمنين: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *} [المائدة: ٥٤].

وفي قوله (ص) : «هل أنتم تاركون لي أُمَرَائِي؟!» وسامٌ اخرُ يُضاف إلى خالدٍ رضي الله عنه ، حيث عُدَّ من أمراء الرَّسول (ص) ، وهذا من المنهاج النَّبويِّ الكريم في تقدير الرِّجال[(٢٩٤)].

٧ ـ مقاييس الإيمان ، وأثرها في المعارك:

توقَّف الجيشُ الإسلاميُّ في مَعَان يناقش كثرة جيش العدوِّ ، وكانت المقاييس المادِّيَّة لا تشجعهم على خوض المعركة ، ومع ذلك تابعوا طريقهم ، ودخلوا بمقاييس إيمانيَّة ، فهم قد خرجوا يطلبون الشَّهادة ، فلماذا إذاً يفرُّون ممَّا خرجوا لطلبه؟!

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره ، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حقيبة رَحْلِهِ ، فوالله: إنَّه ليسير ليلةً؛ إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وَجَاءَ المسْلِمُونَ وَغَادَرُونِيْ   بأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهَى الثَّوَاءِ

فلمَّا سمعتُها منه بَكَيْتُ ، قال: فخفقني بالدِّرَّةِ ، وقال: وما عليك يا لُكَعُ أن يرزقني الله الشَّهادة ، وترجعَ بين شُعْبَتَي الرَّحل![(٢٩٥)].

إنَّ التأمُّل بعمقٍ في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النَّفسيَّة والرُّوحيَّة؛ الَّتي تمرُّ بها الأمَّة ، وإقامة الحجَّة على القائلين بأنَّ سبب هزيمتنا التفوُّق التِّكنولوجي لدى الأعداء ، لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة ، وقال: «.... هذا عظيمٌ جدّاً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدِّين؛ أحدُهما ، وهو الفئة الَّتي تقاتل في سبيل الله، عدَّتها ثلاثةُ الافٍ ، وأخرى كافرةٌ وعدَّتها مئتا ألف مقاتلٍ ، من الرَّوم مئة ألف ، ومن نصارى العرب مئة ألفٍ ، يتبارزون ، ويتصاولون ، ثمَّ مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلاَّ اثنا عشر رجلاً ، وقد قتل من المشركين

خلقٌ كثيرٌ ، هذا خالدٌ وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيةٌ ، فيا ترى كم قتل بهذه الأسياف كلِّها؟! دع غيره من الأبطال والشُّجعان من حملة القران، وقد تحكَّموا في عبدة الصُّلبان عليهم لعائن الله في ذلك الزَّمان، وفي كلِّ أوان»[(٢٩٦)].

٨ ـ من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة:

حيث قال:

فِيْ لَيْلَةٍ ورَدَتْ عَلَيَّ هُمُومُهَا ... طَوْراً أحِنُّ[(٢٩٧)] وتَارَةً أَتَمَلْمَلُ[(٢٩٨)]
واعْتَادَنِي حُزنٌ فَبِتُّ كأَنَّنِي ... بِبَنَاتِ نَعْشٍ والسِّمَاكِ مُوَكَّلُ[(٢٩٩)]
وكأنَّمَا بَيْنَ الجَوَانِحِ والحَشَى ... مِمَّا تأوَّبَنِي شِهَابٌ مُدْخَلُ[(٣٠٠)]
وَجْداً عَلى النَّفَرِ الَّذِين تَتَابَعُوا ... يَوْمَاً بِمُؤْتَةَ أُسْنِدُوا لَمْ يُنْقَلُوا
صَلَّى الإله عَلَيْهِمُ مِنْ فِتْيَةٍ ... وَسَقَى عِظَامَهُمُ الغَمَامُ المسْبِلُ[(٣٠١)]
صَبَرُوا بِمُؤْتَةَ للإلهِ نُفُوسَهُمْ ... حَذَرَ الرَّدى ومَخافَةً أن يَنْكُلُوا[(٣٠٢)]
فَمَضَوْا أمَامَ المسْلِمِيْنَ كأَنَّهُمْ ... فُنُقٌ[(٣٠٣)] عَلَيْهِنَّ الحَدِيْدُ المرْفَلُ[(٣٠٤)]
إِذْ يَهْتَدُوْنَ بِجَعْفَرٍ وَلِوَائِهِ ... قُدَّامَ أَوَّلِهِمْ فَنِعْمَ الأَوَّلُ
حَتَّى تَفَرَّجَتِ الصُّفُوفُ وَجَعْفَرٌ ... حَيْث الْتَقَى وَعْثُ الصُّفُوفِ مُجَدَّلُ
فَتغَيَّر القَمَرُ المنِيْرُ لِفَقْدِهِ ... والشَّمْسُ قَدْ كَسَفَتْ وَكَادَتْ تأْفِلُ[(٣٠٥)]

هذه بعض الأبيات التي بكى بها مالك بن كعب شهداء مؤتة ، ولم يتغيَّب حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة ، وبكاء جعفر بن أبي طالبٍ ، وزيدِ بن حارثة ، وعبد الله بن

رواحة ، فقد كانت المؤسَّسة الإعلاميَّة تقوم بدورها بتفوُّقٍ وجدارةٍ ، وتتعبَّد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بما خصَّها به من مَلَكَاتٍ ومواهبَ شعريَّةٍ فذَّةٍ.

* * *

المبحث الخامس

سريَّة ذات السَّلاسل

لَمْ تَمضِ سوى أيَّامٍ على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة حتَّى جهَّز النَّبيُّ (ص) جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السَّلاسل؛ وذلك لتأديب قُضاعة التي غرَّها ما حدث في مؤتة ، والَّتي اشتركت فيها إلى جانب الرُّوم ، فتجمَّعت تريد الدُّنوَّ من المدينة ، فتقدَّم عمرو بن العاص في ديارها ، ومعه ثلاثمئةٍ من المهاجرين والأنصار ، ولما وصل إلى مكان تجمُّع الأعداء بلغه: أنَّ لهم جموعاً كثيرة ، فأرسل إلى رسول الله (ص) يطلب المدد ، فجاءه مددٌ بقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح[(٣٠٦)] ، وقاتل المسلمون الكفَّار ، وتوغَّل عمرو في ديار قُضاعة الَّتي هربت ، وتفرقت ، وانهزمت ، ونجح عمرو في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشَّام ، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى ، ودخول قبائل أخرى في حلف المسلمين وإسلام الكثيرين من بني عبس ، وبني مُرَّة ، وبني ذبيان ، وكذلك فزارة وسيِّدها عيينة بن حصن في حلفٍ مع المسلمين ، وتبعها بنو سُلَيم ، وعلى رأسهم العبَّاس بن مرداس ، وبنو أشجع ، وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب؛ وإن لم يكن في بلاد العرب جميعِها[(٣٠٧)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وحكَمٌ:

وفي هذه السرية دروس وعبر وحكم منها:

١ ـ إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص: بعث إليَّ رسول الله (ص) فقال: «خُذْ عليك ثيابك ، وسلاحَك ، ثمَّ ائتني» فأتيتُه ، وهو يتوضَّأ ، فصعَّد فيَّ النَّظر ، ثمَّ طأطأ ، فقال: «إنِّي أريد أن أبعثك على جيشٍ[(٣٠٨)] ،

فيسلِّمك اللهُ ، ويغنمك ، وأرغب لك في المال رغبةً صالحة» ، قال: قلت: يا رسول الله! ما أسلمتُ من أجل المال ، ولكنِّي أسلمتُ رغبةً في الإسلام ، وأن أكون مع
رسول الله (ص) ، فقال رسول الله (ص) : «يا عمرو! نعم المال الصَّالح للمرء الصَّالح». [أحمد (١٩٧/٤) ، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) ، وابن حبان (٣٢١١) ، والحاكم (٢/٢) و(٢٣٦/٢)].
فهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمان ، وصدق ، وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله (ص) ، وقد بيَّن له رسولُ الله (ص) : أنَّ المال الحلال نعمةٌ إذا وقع بيد الرَّجل الصَّالح؛ لأنه يبتغي به وجه الله ، ويصرفه في وجوه الخير ، ويَعِفُّ به نفسه ، وأسرته[(٣٠٩)].
٢ ـ الاتِّحاد قوَّةٌ ، والتَّنازع ضعفٌ:
عندما وصل المدد الَّذي بعثه رسول الله (ص) بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السَّلاسل ، أراد أبو عبيدة أن يؤمَّ الناس ، ويتقدَّم عَمْراً ، فقال له عمرو: إنَّما قَدِمْتَ عليَّ مدداً لي ، وليس لك أن تؤمَّني ، وأنا الأمير ، وإنَّما أرسلك النَّبيُّ (ص) إليَّ مدداً ، فقال المهاجرون: كلاَّ ، بل أنت أمير أصحابك ، وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو: لا ، بل أنتم مددٌ لنا ، فلمَّا رأى أبو عبيدة الاختلاف ـ وكان حَسَنَ الخلق ، ليِّن الطَّبع ـ قال: لتطمئنَّ يا عمرو! ولتعلمنَّ: أنَّ اخر ما عهد إليَّ رسول الله (ص) أن قال: «إذا قدمت على صاحبك ، فتطاوعا ، ولا تختلفا» ، وإنَّك والله إن عصيتني؛ لأطيعنَّك ، فأطاع أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلِّي بالنَّاس[(٣١٠)].
لقد أدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أنَّ أيَّ اختلافٍ بين المسلمين في سريَّة ذات السَّلاسل يؤدِّي إلى الفشل ، ومِنْ ثَمَّ تغلُّب العدو عليهم ، ولهذا سارع إلى قطع النِّزاع، وانضمَّ جنديّاً تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرَّسول (ص) : «لا تختلفا»[(٣١١)].
٣ ـ حرص عمرو بن العاص على سلامة قوَّاته:
ظهرت عبقرية عمرو العسكريَّة في ذات السَّلاسل في حرصه على وحدة الصَّفِّ ، وفي حرصه على سلامة قوَّته ، ويتجلَّى ذلك في عدَّة صورٍ؛ منها:
أ ـ أنَّه كان يسير ليلاً ، ويختفي نهاراً:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره ، وبُعْد نظره: أنَّ العدوَّ يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما ، فيستعدَّ للقاء جيش المسلمين ، ولهذا رأى عمرو رضي الله عنه أن السَّير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قوَّاته ، وحقَّق بذلك أمرين مُهَمَّين:

* إخفاء تحرُّكاته عن عدوِّه ، وبذلك يضمن سلامة قوَّاته.

* حماية الجند من شدَّة الحرِّ ، وحتَّى يبقى لهم نشاطُهم ، فيَصِلُون إلى مكان المواجهة؛ وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

ب ـ عدم السَّماح للجند بإيقاد النَّار:

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النَّار لحاجتهم الماسَّة إلى التَّدفئة؛ منعهم من ذلك؛ معتمداً في ذلك على خبرته الحربيَّة ، وعمق فكره العسكريِّ ، وخوفاً من وقوع مفسدةٍ أعظم من تلك المصلحة ، وهي أن يمتدَّ الضَّوء ، فيكشف المسلمين ـ وهم قلَّة ـ لأعدائهم ، فيهجموا عليهم ، ويتجلَّى هذا الفقه في حزمه الشديد مع أصحابه عندما كلَّمه أبو بكر في ذلك ، فقال: لا يوقد أحدٌ منهم ناراً إلا قذفته فيها ، فلمَّا رجعوا إلى المدينة ، ذكروا ذلك لرسول الله (ص) ، فسأله رسول الله (ص) ، فقال: كرهت أن اذن لهم أن يوقدوا ناراً ، فيرى عدوُّهم قلَّتهم[(٣١٢)].

فأقرَّه النَّبيُّ (ص) على فعله.

ج ـ منع الجند من مطاردة أعدائهم:

عندما هزم المسلمون أعداءهم؛ طمعوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم ، وتتبُّع فلولهم، ولكنَّ قائد السَّريَّة منع جنده من ذلك؛ لئلا يترتَّب على هذه المطاردة مفسدةٌ أعظم منها ، وهي أن يقع المسلمون في كمين ، ويتجلَّى هذا الفقه في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه للرَّسول (ص) : وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد[(٣١٣)] ، فأقرَّه النَّبيُّ (ص) على هذا التَّصرُّف الحكيم؛ الَّذي حقَّق للجيش الأمن والحماية[(٣١٤)].

٤ ـ من فقه عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: احتلمت في ليلةٍ باردةٍ في غزوة ذات السَّلاسل ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيمَّمت ، ثمَّ صلَّيت بأصحابي الصُّبح ، فذكروا ذلك للنَّبيِّ (ص) فقال: يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب؟! فأخبرته بالَّذي منعني من الاغتسال ، وقلت: إنِّي سمعت الله

يقول: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا *} [النساء: ٢٩] ، فضحك رسول الله (ص) ولم يقل شيئاً. [أحمد (٤/٢٠٣ . ٢٠٤) وأبو داود (٣٣٤)][(٣١٥)].

وقد استنبط بعض الأحكام من هذه القصَّة:

أ . التَّيمُّم يقوم مقام الغُسل بالنِّسبة للجُنُبِ مع وجود الماء؛ إذا خشي أن يؤدِّي استخدامُ الماء إلى الضَّرر ، فلقد تيمَّم عمرو بن العاص لما أصبح جنباً مع وجود الماء عنده ، وصلَّى وأقرَّه الرَّسول (ص) ، ولم ينكر عليه.

ب . يجوز الاجتهاد في عهده (ص) : فقد اجتهد عمرو بن العاص ، فتوضَّأ ، واغتسل ، وصلَّى ، وقد احتلم في تلك اللَّيلة الباردة اعتماداً على قوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا *} [النساء: ٢٩] فلم ينكر عليه الرَّسول (ص) اجتهاده؛ بل أقرَّه على أمرين: الأوَّل: جواز الاجتهاد. والثَّاني: تصحيح اجتهاده.

ج . من الأسباب المبيحة للتَّيمُّم تعذُّر استخدام الماء . وإنْ وجد . للبرد الشَّديد.

د . تجوز إمامة المتيمِّم بالمتوضِّأى: فقد صلى عمرو بن العاص؛ وهو مُتيَمِّمٌ إماماً بخمسمئة صحابي قد توضَّؤوا ، وأقرَّه الرَّسول (ص) على ذلك ولم ينكر عليه.

هـ اجتهاد عمرو بن العاص يدلُّ على فقهه ، ووفور عقله ، ودقَّة استنباطه الحكم من دليله[(٣١٦)]؛ ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرِّعون عليها الأحكام ، فإنَّ الَّذي يستوقفنا[(٣١٧)] في السِّيرة منها تلك السُّرعة في أخذ عمرو للقران ، وصلته به؛ حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الايات ، وهو لم يمضِ على إسلامه أربعة أشهر ، إنَّه الحرص على الفقه في دين الله ، وقد يكون عمرو . وهذا احتمال واردٌ . على صلةٍ بالقران قبل إسلامه يتتبَّع ما يستطيع الوصول إليه ، وحينئذٍ نكون أمام مثالٍ اخر من عظمة هذا القران الَّذي لوى أعناق الكافرين ، وجعلهم وهم في أشدِّ حالات العداوة لهذا الدِّين يحاولون استماع هذا القران ، كما رأينا ذلك في العهد المكِّيِّ ، ويؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقران حينما طلب من النَّجاشيِّ أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى عليه السلام[(٣١٨)].

٥ . من نتائج سرايا رسول الله (ص) في الشَّمال:

اتَّجهت حملات المسلمين العسكريَّة بعد صلح الحديبية نحو الشَّمال ، وأصبح غرب الجزيرة وجنوبها الغربيُّ حيث تقبع مكَّة امنةً في ظلال الصُّلح[(٣١٩)] ، وحقَّقت سرايا رسول الله (ص) ، أهدافها ،

ومقاصدها في شمال الجزيرة ، فوصلت إلى حدود الرُّوم ، فأمَّنت حدود الدَّولة الإسلاميَّة ، وبسطت هيبتها ، وأفشلت محاولات الإغارة على المدينة ، وبذلك حقَّقت سياسة النَّبيّ (ص) في حركة السَّرايا هدفين عظيمين هما:

١ ـ تأمين حماية الدِّين الإسلاميّ في الدَّاخل.

٢ ـ حمايته في الخارج[(٣٢٠)].

وما مِنْ شكٍّ في أنَّ المتتبّع لأحداث السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفة ، والمطَّلع على تفاصيلها ، ودقائقها بإمعانٍ يجد بحقٍّ أنَّ صلح الحديبية هو من أهم المكاسب السِّياسيَّة ، والعسكرية ، والإعلاميَّة ، بل هو حصيلة كسبٍ لأعظم معركةٍ دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي ، من حيث النتائج الإيجابيَّة التي رسَّخت دعائم الإسلام من جهةٍ؛ وصدَّعت بفعلها قواعد الشِّرك ، والوثنيَّة من جهةٍ أخرى ، وما حدث في خيبر من فتوحٍ ، وفي مؤتة من نصرٍ ، وفي ذات السَّلاسل من توسيع هيبة الدولة الإسلاميَّة إلا نتائج تابعةٌ لصلح الحديبية[(٣٢١)] ، وبسبب القدرة الفائقة في تعامل النَّبيّ (ص) مع سنن الله في المجتمعات ، والشُّعوب ، وبناء الدُّول.

* * *

الفصل الخامس عشر

غزوة فتح مكَّة (٨ هـ)[(٣٢٢)]

المبحث الأوَّل

أسبابها ، والاستعداد للخروج والشُّروع فيه

أوَّلاً: أسبابها:

١ . ارتكبت قريش خطأً فادحاً عندما أعانت حلفاءها بني بكرٍ على خُزاعة حليفة المسلمين بالخيل ، والسِّلاح ، والرِّجال ، وهجم بنو بكرٍ ، وحلفاؤهم على قبيلة خُزاعة عند ماءٍ يقال له: الوَتير ، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[(٣٢٣)] ، ولما لجأت خُزاعة إلى الحرم الامن ، ولم تكن متجهِّزةً للقتال ، لتمنع بني بكرٍ منه؛ قالت لقائدهم: يا نوفل! إنَّا قد دخلنا الحرم ، إلهك ، إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم ، يا بني بكر! أصيبوا ثأركم[(٣٢٤)] ، عندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخُزاعيُّ في أربعين من خُزاعة ، حتَّى قدموا على رسول الله (ص) في المدينة ، وأخبروه بما كان من بني بكرٍ ، وبمن أصيب منهم ، وبمناصرة قريشٍ بني بكرٍ عليهم ، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله (ص) وهو جالسٌ في المسجد بين ظهراني النَّاس ، فقال:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدا حِلْفَ أَبِيْنَا وأَبِيْهِ الأَتْلَدَا

قَدْ كُنْتُم وُلْداً ، وَكُنَّا وَالِدا ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يدا[(٣٢٥)]

فانْصُرْ هَدَاكَ الله نَصْراً أَعْتَدَا واذْعُ عِبَادَ الله يأْتُوا مَدَدَا

فِيْهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدا إِنْ سِيْم خَسْفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا

فِيْ فَيْلَقٍ كالبَحْرِ يَجْرِي مُزبِدَا إِنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ الموْعِدَا

ونقَضُوا مِيْثَاقَك المؤَكَّدا وجَعَلُوا لي في (كَدَاءٍ) رُصَّدا

وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أدْعُو أحدَا وَهُمْ أَذَلُّ وأَقَلُّ عَدَدَا

هُمْ بَيَّتُونَا بالوَتِيْرِ هُجَّدَا وقَتَلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدَا

فقال النبي (ص) : «نُصرتَ يا عمرو بن سالم! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب!» ولما عرَض السَّحاب مِنَ السَّماء؛ قال: «إنَّ هذه السَّحابة لتستهلُّ بنصر بني كعبٍ». [البيهقي في الكبرى (٢٣٣/٩ . ٢٣٤) ، وفي الدلائل (٦/٥ . ٧) ، وابن هشام (٣٦/٤ . ٣٧) ، وابن كثير في البداية والنهاية (٢٧٨/٤)].

وجاء في روايةٍ: أنَّ رسول الله (ص) بعد أن سمع ، وتأكَّد من الخبر؛ أرسل إلى قريش ، فقال لهم: «أما بعد: فإنَّكم إنْ تبرؤوا من حلف بني بكرٍ ، أتُدوا خُزاعة[(٣٢٦)] ، وإلا أوذنكم بحربٍ ، فقال قرظة بن عبد عمروٍ بن نوفل بن عبد منافٍ صهر معاوية: إنَّ بني بكرٍ قومٌ مشائيم ، فلا ندري ما قتلوا لنا سبَدَ ، ولا لَبَد[(٣٢٧)] ، ولا نبرأ من حلفهم ، فلم يبقَ على ديننا أحدٌ غيرهم ، ولكن نؤذنه بحربٍ[(٣٢٨)].

وفي هذا دليل على أن رسول الله (ص) لم يفاجأى قريشاً بالحرب ، وإنَّما خيَّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[(٣٢٩)].

٢ ـ أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصُّلح ، وإطالة أمده ، وعندما وصل إلى المدينة ، ودخل على رسول الله (ص) يعرض حاجته؛ أعرض عنه النَّبيُّ (ص) ، ولم يجبه ، فاستعان بكبار الصَّحابة أمثال أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ، وعليٍّ؛ حتَّى يتوسطوا بينه وبين رسول الله (ص) ، فأبوا جميعاً ، فعاد أبو سفيان إلى مكَّة من غير أن يحظى بأيِّ اتفاقٍ ، أو عهدٍ[(٣٣٠)] ، وممَّا يذكر عند نزوله في المدينة أنَّه لما دخل على ابنته أمِّ حبيبة ـ أمِّ المؤمنين ـ وأراد أن يجلس على فراش رسول الله (ص) ؛ طوته عنه ، فقال: يا بنية! ما أدري ، أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنِّي؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله (ص) ، وأنت مشركٌ نجس! قال: والله! لقد أصابك بعدي شرٌّ[(٣٣١)].

وهذا الموقف لا يستغرب من أمِّ حبيبة ، فهي ممَّن هاجر الهجرتين ، وقد قطعت صِلاتِها

بالجاهليَّة منذ أمدٍ بعيد ، إنَّها لم ترَ أباها منذ ستَّ عشرة سنة ، فلمَّا رأته لم تر فيه الوالد الَّذي ينبغي أن يُقدَّر ، ويُحترم ، وإنَّما رأت فيه رأس الكفر الَّذي وقف في وجه الإسلام ، وحارب رسوله (ص) تلك السَّنوات الطَّويلة[(٣٣٢)] ، وهذا ما كان يتَّصف به الصَّحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء ، والبراء ، وإعزاز الإسلام ، والمسلمين.

وفي مخاطبة أمِّ حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب ـ مع كونه أباها ، ومع مكانته العالية في قومه ، وعند العرب ـ دليلٌ على قوَّة إيمانها ، ورسوخ يقينها ، لقد كان في سلوك أمِّ حبيبة مظهرٌ من اجتهاد الصَّحابة البالغ في إظهار أمرٍ له أهمِّيَّته البالغة في المحافظة على شخصيَّة المسلم ، ودفع معنويَّته إلى النَّماء ، والحيويَّة[(٣٣٣)].

وأمام نقض قريشٍ للعهود والمواثيق مع المسلمين ، فقد عزم رسولُ الله (ص) على فتح مكَّة ، وتأديب كفَّارها ، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله عدَّة أسبابٍ؛ منها:

أ ـ قوَّة جبهة المسلمين الدَّاخليَّة في المدينة ، وتماسكها ، فقد تخلَّصت الدَّولة الإسلامية من غدر اليهود ، وتمَّ القضاء على يهود بني قينقاع ، وبني النَّضير ، وبني قريظة ، ويهود خيبر.

ب ـ ضعف جبهة الأعداء في الدَّاخل؛ وفي مقدَّمة هؤلاء: المنافقون؛ الَّذين فقدوا الركن الرَّكين لهم ، وهو يهود المدينة ، فهم أساتذتهم الَّذين يوجِّهونهم ، ويشيرون عليهم.

ج ـ اهتمَّ رسول الله (ص) بتطوير القوَّة العسكريَّة، وإرسال السَّرايا في فترة الصُّلح، وبذلك أصبحت متفوِّقةً على قوَّة مشركي قريش ، حيث العدد والعُدَّة ، والرُّوح المعنويَّة.

د ـ كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصاديّاً ، وبعد أن قويت الدَّولة الإسلاميَّة اقتصاديّاً ، فقد فتح المسلمون خيبر ، وغنموا منها أموالاً كثيرةً.

هـ انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة ، وهذا يطمئن القيادة حين تتَّخذ قرارها العسكري بنقل قوَّاتها ، ومهاجمة أعدائها.

و ـ قيام السبب الجوهريِّ ، والقانونيّ لغزو مكَّة ، وهو نقض قريش للعهد ، والعقد[(٣٣٤)] ، ونلحظ: أنَّ النَّبيَّ (ص) لم يضيّع قانون الفرصة ، وتعامَلَ معه بحكمةٍ بالغةٍ ، فكان فتح خيبر ، وذلك بعد صلح الحديبية ، والان تُتاح فرصةٌ أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها ، وتغيَّرت موازين القوى في المنطقة ، فكان لابدَّ من الاستفادة من المعْطيات الجديدة ، فأعدَّ (ص) جيشاً لم
تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل ، فقد وصلتْ عدَّته إلى عشرة الاف رجلٍ[(٣٣٥)].

ثانياً: الاستعداد للخروج:

إنَّ حركة النَّبيِّ (ص) في بناء الدَّولة، وتربية المجتمع، وإرسال السَّرايا ، وخروجه في الغزوات تعلِّمنا كيفيَّة التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، سواءً كانت تلك الأسباب مادِّيَّة أو معنويَّةً ، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السُّنَّة واضحةً في هديه (ص) ، فعندما قرَّر (ص) السَّير لفتح مكة؛ حرص على كتمان هذا الأمر حتَّى لا يصل الخبر إلى قريش ، فتعد العدَّة لمجابهته ، وتصدُّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه ، وشرع في الأخذ بالأسباب الاتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

١ ـ أنَّه كتم أمره حتَّى على أقرب النَّاس إليه:

فقد أخذ النَّبيُّ (ص) بمبدأ السِّرِّيَّة المطلقة ، والكتمان الشَّديد حتَّى عن أقرب النَّاس إليه ، وهو أبو بكر رضي الله عنه أقربُ أصحابه إلى نفسه ، وزوجتُه عائشة رضي الله عنها أحبُّ نسائه إليه ، فلم يعرف أحدٌ شيئاً عن أهدافه الحقيقية ، ولا اتِّجاه حركته ، ولا العدوِّ الَّذي ينوي قتاله ، بدليل أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مَقْصَدِ الرسول (ص) قالت له: ما سمَّى لنا شيئاً ، وكانت أحياناً تصمت ، وكلا الأمرين يدلاَّن على أنَّها لم تعلم شيئاً عن مقاصده (ص)[(٣٣٦)] .

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنَّه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهنَّ ربما يُذِعْنَ شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نيَّةٍ ، فتتناقلها الألسن حتَّى تصير سبباً في حدوث كارثةٍ عظيمةٍ[(٣٣٧)].

٢ ـ أنه بعث سريَّةً بقيادة أبي قتادة إلى بطن إِضَم:

بعث النَّبيُّ (ص) قبل مسيره إلى مكَّة سَرِيَّةً مكوَّنةً من ثمانية رجال ، وذلك لإسدال السِّتار على نياته الحقيقيَّة ، وفي ذلك يقول ابن سعد: «لما همَّ رسول الله (ص) بغزو أهل مكَّة بعث أبا قتادة بن ربْعِي في ثمانية نفرٍ سَرِيَّةً إلى بطن إِضَم[(٣٣٨)] ، لِيَظُنَّ الظَّانُّ: أنَّ رسول الله (ص) توجَّه إلى تلك النَّاحية ، فمضوا ، ولم يلقوا جمعاً ، فانصرفوا حتَّى انتهوا إلى ذي خُشُب[(٣٣٩)] ، فبلغهم: أنَّ رسول الله (ص) قد توجَّه إلى مكَّة ، فأخذوا على (بيبن) حتَّى لقُوا النَّبيَّ (ص) بالسُّقيا[(٣٤٠)]»[(٣٤١)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر ، وسلوك ما يمكن من أساليب التَّضليل على الأعداء والإيهام ، الَّتي من شأنها صرف أنظار النَّاس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلاميَّة الَّتي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله ، حتى تُحقِّق أهدافها ، وتَسْلَم من كيد أعدائها[(٣٤٢)].

٣ ـ أنَّه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بثَّ (ص) رجال استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة داخل المدينة ، وخارجها؛ حتَّى لا تنتقلَ أخبارُه إلى قريشٍ، وأخذ رسول الله (ص) بالأنقاب[(٣٤٣)]، فكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم ، فيقول: لا تَدَعُوا أحداً يمرُّ بكم تنكرونه إلا رددتموه ، إلا مَنْ سلك إلى مكَّة فإنَّه يُتَحفَّظ به ، ويُسأل عنه ، أو ناحية مكَّة[(٣٤٤)].

إنَّ جَمْعَ المعلومات سلاحٌ ذو حدَّين ، وقد استفاد الرَّسول (ص) من حدِّه النافع لصالح المسلمين ، وأبطل مفعول الحدِّ الاخر باتباعه السِّرِّيَّة ، واتخاذها أساساً لتحرُّكاته ، واستعداداته؛ ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوَّة المناسبة[(٣٤٥)].

٤ ـ دعاؤه (ص) بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله (ص) بالأسباب البشريَّة الَّتي في استطاعته؛ توجَّه إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالدُّعاء والتَّضرُّع قائلاً: «اللَّهُمَّ! خذ على أسماعهم ، وأبصارهم فلا يَرَوننا إلا بغتةً ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة». [البيهقي في الدلائل (٥/١١)][(٣٤٦)].

وهذا شأن النَّبيِّ (ص) في أموره يأخذ بجميع الأسباب البشريَّة ، ولا ينسى التَّضرُّع، والدُّعاء لربِّ البريَّة؛ ليستمدَّ منه التَّوفيق والسَّداد.

٥ ـ إحباط محاولة تجسُّس حاطبٍ لصالح قريش:

عندما أكمل النَّبيُّ (ص) استعداده للسير إلى فتح مكة ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكَّة يخبرهم فيه نبأ تحرك النَّبيِّ (ص) إليهم ، ولكنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أطلع نبيَّه (ص) عن طريق الوحي على هذه الرِّسالة ، فقضى (ص) على هذه المحاولة وهي في مهدها ، فأرسل النَّبيُّ (ص) عليّاً ، والزُّبير ، والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخٍ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة ، وهدَّدوها أن يفتِّشوها إن لم تُخرِجِ الكتاب؛ فسلَّمته لهم ، ثمَّ استدعى حاطباً رضي الله عنه للتَّحقيق ، فقال: يا رسول الله! لا تعجل عليَّ ، إنِّي كنت امرأً مُلصَقاً في قريشٍ ـ يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفُسِها ، وكان مَنْ معك من المهاجرين مَنْ لهم قراباتٌ يحمون بها أهليهم ، وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن أتَّخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله (ص) : «أما إنَّه قد صدقكم».

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق! فقال (ص) : «إنَّه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على مَنْ شهد بدراً ، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم[(٣٤٧)]». [أحمد (١/٧٩ ـ ٨٠) ، والبخاري (٣٩٨٣) ، ومسلم (٢٤٩٤)].

فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي

وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ *} [الممتحنة: ١].

إنَّ الاية السَّابقة رسمت منهجاً للمسلمين في تعاملهم مع الكافرين ، فمعنى قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ}

قال القرطبيُّ: السُّورة أصلٌ في النَّهي عن موالاة الكفار(١) ، والمراد بهم: المشركون ، والكفَّار الذين هم محاربون لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين الَّذين شرع الله عداوتهم ، ومصارمتهم ، ونهى أن يُتَّخذوا أولياء ، وأصدقاء[(٣٤٨)].

وقوله تعالى: أي: تخبرونهم بسرائر {تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} ، وتنصحون لهم ، وهم كافرون بنبيِّكم ، وبقرانكم الَّذي أنزله الله عليكم بالحقِّ الواضح.

وقوله تعالى: قال {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} كثير: هذا مع ما قبله من التَّهييج على عداوتهم ، وعدم موالاتهم؛ لأنَّهم أخرجوا الرَّسول (ص) وأصحابه من بين أظهركم

كراهةً لما هم عليه من التَّوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحدَه ، ولهذا قال تعالى: {أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ} أي: لم يكن لكم عندهم ذنبٌ إلا إيمانكم بالله ربِّ العالمين

وقوله تعالى: أي: إن كنتم كذلك فلا تتَّخذوهم {إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي} ، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم؛ فلا توالوا أعدائي ، وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم ، وأموالكم حَنَقاً عليكم ، وسُخطاً لدينكم[(٣٤٩)].

وقوله تعالى: أي: تُسِرُّون إليهم {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ}

قال ابن كثير: أي: تفعلون ذلك ؛ وأنا العالم بالسَّرائر، والضَّمائر، والظواهر[(٣٥٠)].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله: أي: مَنْ يُسِرُّ لهم ويكاتِبُهم منكم فقد أخطأ قَصْدَ الطريق

يقول أستاذي ، وشيخي الدكتور محمَّد بن بكر ال عابد: هذه الاية الكريمة نجدها تمهيداً بين يدي فتح مكَّة حيث حثَّ الله المسلمين على عدم موالاة الكفار ، حتى لا يتأثَّر المهاجرون بروابط الرَّحم ، والقربى ، والمصلحة المادِّيَّة التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكَّة[(٣٥١)].

ويقول الأستاذ سيِّد قطب: على الرَّغم من كلِّ ما ذاق المهاجرون من العنت ، والأذى من قريش؛ فقد ظلَّت بعض النُّفوس تودُّ لو وقعت بينهم وبين أهل مكَّة المحاسنة ، والمودَّة ، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية الَّتي تكلِّفهم قتال أهليهم ، وذوي قرابتهم ، وتقطع ما بينهم ، وبينهم من صلاتٍ ،

وكأنَّ الله يريد استقصاء هذه النُّفوس ، واستخلاصها من كلِّ هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه ، وعقيدته ، ومنهجه... فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه النَّاجع البالغ؛ بالأحداث ، وبالتَّعقيب على الأحداث؛ ليكون العلاج على مسرح الأحداث ، وليكون الطَّرْقُ؛ والحديدُ ساخنٌ[(٣٥٢)].

إنَّ ما قام به حاطبٌ أمرٌ عظيمٌ ، ولذلك نزل القران الكريم يوجِّه المجتمع المسلم نحو ما يجب عليهم فعلُه نحو أعداء دينهم ، كما أنَّ النَّبيَّ (ص) عامل حاطباً معاملةً رحيمةً تدلُّ على

حرصه الشَّديد على الوفاء لأصحابه ، وإقالة عثرات ذوي السَّوابق الحسنة منهم ، لقد جعل (ص) من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه.

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ ، فلم ينظر النَّبيُّ (ص) إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب ، وإن كانت كبيرةً ، وإنَّما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وإعزاز دينه ، فوجد: أنَّه قد شهد بدراً ، وفي هذا توجيهٌ للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرةً متكاملةً ، وذلك بأن ينظروا فيما قدَّموه لأمَّتهم من أعمالٍ صالحةٍ في مجال الدَّعوة ، والجهاد ، والعلم ، والتَّربية ، فإنَّ الَّذي يساهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمَّة يستحقُّ التَّقدير ، والاحترام ، وإن بدرت منه بعض الأخطاء ، هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأً محضاً ، وزلَّة قدمٍ ، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأياً علميّاً ناتجاً عن الاجتهاد؛ وهم أهلٌ لذلك؟!

إنَّ بعض طلاَّب العلم في عصرنا هذا يتسرَّعون في نقد العلماء ، والدُّعاة بسبب اراء اجتهاديَّةٍ يرى بعض العلماء أنَّهم أخطؤوا فيها، وقد يصل النَّقد إلى حدِّ السُّخريَّة، والاستهزاء بهم ، وترى هؤلاء الطُّلاب يُجسِّمون أخطاء هؤلاء الكبار ، ويبرزونها بشكلٍ يوحي للسَّامعين ، والقرَّاء: أنَّ أولئك الَّذين تعرَّض إنتاجهم للنَّقد ليس لهم أيُّ رصيدٍ في خدمة الإسلام والمسلمين ، والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسنات هؤلاء أوَّلاً ، ويعرَّف المسلمون بجهادهم ، وبلائهم في الإسلام ، وجهودهم في مجال العلم، والدَّعوة ، ثمَّ تُذكر الأمور ، الَّتي يراها المنتقدون أخطاء، وما يرونه من الصَّواب في ذلك من لزوم الأدب في النَّقد العلميِّ، والبعد عن أسلوب السُّخرية ، والتَّنقيص ، هذا شيءٌ مما يرشدنا له أسلوب النَّبيِّ (ص) في مواجهة هذا الخطأ الكبير الَّذي ارتكبه حاطبُ بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، إنَّ تاريخ حاطب الكبير في الجهاد في سبيل الله شفع له عند رسول الله (ص) ، ولذلك لم يتعرَّض للإدانة، أو للعقوبة ، بل كان مانعاً له ممَّا هو أقلُّ من ذلك ، حيث لم يُسمَع من مسلمٍ كلمةٌ واحدةٌ في نقده ، والإساءة إليه بعد قول النَّبيِّ (ص) : «ولا تقولوا له إلا خيراً». [سبق تخريجه][(٣٥٣)].

ومن الحوار الَّذي تمَّ بين الرَّسول (ص) ، وعُمر بن الخطَّاب في شأن حاطبٍ يمكن أن نستخرج بعض الدُّروس ، والعبر:

١ . حكم الجاسوس القتل: فقد أخبر عمر بذلك ، ولم ينكر عليه الرَّسول (ص) ولكن منع مِنْ إيقاع العقوبة كونُه بدريّاً.

٢ . شدَّة عمر في الحقِّ: لقد ظهرت هذه الشدة في الحقِّ ، وغيرتُه على الدِّين حينما طالب بضرب عنق حاطبٍ.

٣ . الكبيرة لا تسلُبُ الإيمان: إنَّ ما ارتكبه حاطبٌ كبيرةٌ ، وهي التجسُّس؛ ومع هذا ظلَّ مؤمناً.

٤ . لقد أطلق عمر على حاطبٍ صفة النِّفاق بالمعنى اللُّغويِّ لا بالمعنى الاصطلاحي في عهده رضي الله عنه؛ إذ النِّفاق: إبطانُ الكفر ، والتَّظاهر بالإسلام ، وإنَّما الَّذي أراده عمر: أنَّه أبطن خلاف ما أظهر؛ إذ أرسل كتابه الَّذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله ، ويبذل دمه في سبيله[(٣٥٤)].

٥ . تأثُّر عمر من ردِّ الرَّسول (ص) ، فتحوَّل في لحظاتٍ من رجلٍ غاضبٍ ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطبٍ إلى رجلٍ يبكي من الخشية، والتأثير، ويقول: الله، ورسولُه أعلم؛ ذلك لأنَّ غضبه كان لله ، ولرسوله ، فلمَّا تبيَّن له أنَّ الَّذي يُرْضي الله تعالى ، ورسوله (ص) هو غضُّ النَّظر عن ذلك الخطأ ، ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد؛ استجاب لذلك[(٣٥٥)].

٦ . لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطبٍ؛ ذهب لهذا الرأي الدُّكتور عبد الكريم زيدان؛ حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطبٍ في العفو عمَّن يعمل عمله؛ لأن العفو عنه كان لِعِلَّةٍ لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصَّحابة وهو كونه شهد بدراً ، فعلى الجَمَاعة أن تفقه ذلك ، وهذا ما فقهه الإمام مالك؛ إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطبٌ ، أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقُّه[(٣٥٦)]. وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيِّم ، وذكر أقوال الأئمَّة الأربعة ، ثم قال: والصَّحيح: أنَّ قتله راجعٌ إلى رأي الإمام ، فإن رأى في قتله مصلحةً للمسلمين؛ قتله ، وإن كان استبقاؤه أصلحَ؛ استبقاه[(٣٥٧)].

ثالثاً: الشُّروع في الخروج ، وأحداثٌ في الطَّريق:

١ . خرج رسول الله (ص) قاصداً مكَّة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة[(٣٥٨)] ،

واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ ، كلثوم بن حُصَيْن بن عُتبة بن خلف الغفاريَّ[(٣٥٩)] ، وكان عدد الجيش عشرة الاف ، فيهم المهاجرون ، والأنصار الَّذين لم يتخلَّف منهم أحدٌ ، فلمَّا وصل الجيش الكُدَيْدَ ـ الماء الذي بين قديد وعُسفان ـ أفطر رسول الله (ص) وأفطر النَّاس معه. [البخاري (٤٢٧٥) ، ومسلم (١١١٣)].

وفي الجحفة لقيه العبَّاس بن عبد المطلب عمُّه وقد خرج مهاجراً بعياله ، فسُرَّ (ص)[(٣٦٠)] ، وفي خروج العبَّاس بأهله ، وأولاده من مكَّة وكان بها بمثابة المراسل العسكريِّ ، أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أنَّ مهمَّته فيها قد انتهت ، وخاصَّةً إذا لاحظنا أنَّ بقاءه في مكَّة كان بأمر الرَّسول (ص)[(٣٦١)] .

٢ ـ إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية:

خرج أبو سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أميَّة بن المغيرة من مكَّة ، فلقيا رسول الله (ص) بثنية العقاب فيما بين مكَّة والمدينة ، فالتمسا الدُّخول عليه ، فكلَّمته أمُّ سلمة ، فقالت: يا رسول الله! ابن عمِّك ، وابن عمَّتك ، وصهرُك ، فقال: «لا حاجة لي فيهما، أمَّا ابن عمِّي؛ فهتك عرضي ، وأما ابن عمَّتي ، وصهري ، فهو الذي قال لي بمكة ما قال». فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بن الحارث ابنٌ له ، فقال: واللهِ! ليأذننَّ رسولُ الله (ص) ، أو لاخذنَّ بيد ابني هذا ، ثمَّ لنذهبنَّ في الأرض حتَّى نموت عطشاً ، أو جوعاً ، فلمَّا بلغ ذلك رسول الله (ص) رقَّ لهما ، فدخلا عليه ، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه ، واعتذاره ممَّا كان مضى فيه ، فقال:

لَعَمْرُكَ إِنِّيْ يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً ... لِتَغلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لكالمدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ ... فَهَذا أَوَانُ الحَقِّ أُهْدَى وأَهْتَدِي
فَقُلْ لِثَقِيْفٍ لاَ أُرِيْدُ قِتَالَكُمْ ... وَقُلْ لِثَقِيْفٍ تِلْكَ عِنْدِي فأَوْعِدِي
هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَدَلَّنِي ... عَلَى اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ
أَفِرُّ سَرِيْعاً جَاهِداً عَنْ مُحَمَّدٍ ... وأُدْعَى وَإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ لِمُحَمَّدِ
هُمُ عُصْبَةٌ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَوَاهُمُ ... وإِن كان ذا رأْيٍ يُلَمْ ويُفَنَّدِ
أُرِيْدُ لأَرْضِيَهُمْ وَلَسْتُ بِلائطٍ ... مَعَ القَوْمِ مَا لَمْ أُهْدَ فِي كُلِّ مَقْعَدِ
فَمَا كُنْتُ فِي الجَيْشِ الَّذي نَالَ عَامِراً ... ومَا كانَ عَنْ غَيْرِ لِسَانِي ولاَ يَدِي

قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلاَدٍ بَعِيْدةٍ ... تَوَابِعُ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدَدِ

وإِنَّ الَّذي أَخْرَجْتُمُ وَشَتَمْتُمُ		سَيَسْعَى لَكُمْ سَعْيَ امْرِأِى غَيْرَ مُقْدَدِ[(٣٦٢)]

قال: فلمَّا أنشد رسولَ اللهِ (ص) : على الله مَنْ طَرَّدْتَ كُلَّ مُطَرَّدٍ ، ضرب رسول الله (ص) في صدره ، فقال: «أنت طَرَّدْتَنِي كلَّ مُطَرَّد». [ابن سعد (٤/٤٩ ـ ٥٠) ، والطبراني في الكبير (٧٢٦٤) ، والطبري في تاريخه (٣/١١٤ ـ ١١٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٧ ـ ٢٨) ، وابن هشام (٤/٤٣ ـ ٤٤) ، ومجمع الزوائد (٦/١٦٥)].

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله (ص) كثيراً ، وأمَّا عبد الله بن أميَّة ؛ فقد قال لرسول الله (ص) : فوالله ! لا أؤمِنُ بك حتَّى تتَّخذَ إلى السَّماء سُلَّماً ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر إليك حتَّى تأتيها ، ثمَّ تأتي بصكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك، كما تقول ، ثمَّ وايم الله! لو فعلتَ ذلك ما ظننت أنِّي أصدِّقك[(٣٦٣)].

ومع فداحة جرمهما فإنَّ النَّبيَّ (ص) عفا عنهما ، وقبل عذرهما ، وهذا مثالٌ عالٍ في الرَّحمة ، والعفو ، والتَّسامح ، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السَّابقة بهذه القصيدة البليغة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ (ص) وبيان اهتدائه به ، ولقد حسُن إسلامه ، وكان له موقفٌ مشرِّفٌ في الجهاد مع رسول الله (ص) في معركة حُنَين[(٣٦٤)].

٣ ـ النُّزول بمرِّ الظَّهران وإسلام أبي سفيان بن حربٍ سيِّد قريش:

وتابع رسول الله (ص) سيره حتى أتى مَرَّ الظَّهْران[(٣٦٥)]، فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيش، فأوقدوا النِّيران ، فأُوُقِدَت عشرةُ الاف نارٍ ، وجعل رسولُ الله (ص) على الحرس عمرَ بن الخطَّاب[(٣٦٦)].

قال العبَّاس: فقلت: واصباح قريش! والله! لئن دخل رسول الله (ص) مكَّة عَنْوَةً قبل أن يأتوه ، فيستأمنوه: إنَّه لهلاك قريش إلى اخر الدَّهر! وركب بغلة رسول الله (ص) ، وخرج يلتمس مَنْ يوصل الخبر إلى مكَّة؛ ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عَنْوَةً ، وكان أبو سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبُدَيْل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار ، فلمَّا رأوا النِّيران؛ قال أبو سفيان: ما رأيت كاللَّيلة نيراناً قطُّ ، ولا عسكراً ، فقال بُدَيْل: هذه والله خُزاعة حَمَشَتْها[(٣٦٧)] الحربُ ، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلُّ ، وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها ،

وعسكرها! وسمع العباس أصواتهم ، فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم ، قال: مَالَك؟ فداك أبي وأمي! قال العبَّاس: قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسولُ الله (ص) في النَّاس واصباح قريشٍ واللهِ! قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي! قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك ،

فاركب في عجز هذه البغلة حتَّى اتي بك رسول الله ، فأستأمنه لك ، قال: فركب خلفي ، ورجع صاحباه ، فجئت به ، كلَّما مررت بنارٍ من نيران المسلمين قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله (ص) وأنا عليها؛ قالوا: عمُّ رسولِ الله على بغلته ، حتَّى مررت بنار عمر بن الخطَّاب فقال: مَنْ هذا؟ وقام إليَّ فلمَّا رأى أبا سفيان على عجز الدَّابة قال: أبو سفيان عدوُّ الله! الحمد لله الَّذي أمكن منك بغير عَقْدٍ، ولا عهدٍ ، ثمَّ خرج يشتدُّ نحو رسول الله (ص) ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله! هذا أبو سفيان ، قد أمكن الله منه بغير عَقْدٍ، ولا عهدٍ ، فدعني فلأضرب عنقه ، قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي قد أجرته.

فلما أكثر عمر في شأنه؛ قلت: مهلاً يا عمر! فوالله! أن لو كان من بني عديٍّ ما قلت هذا ، ولكنَّك قد عرفت أنَّه من رجال بني عبد مناف ، فقال: مهلاً يا عباس ! فوالله لإسلامُك يوم أسلمت كان أحبَّ إلي من إسلام الخطَّاب لو أسلم ، وما بي إلا أنِّي قد عرفت أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله (ص) من إسلام الخطَّاب لو أسلم ، فقال (ص) : «اذهب به يا عباس! إلى رحلك ، فإذا أصبحت؛ فائتني به».

فلمَّا أصبح؛ غدوت به ، فلمَّا راه رسولُ الله (ص) ، قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أنَّه لا إله إلا الله؟!» قال: بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمَك ، وأوصلَك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عنِّي بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنِّي رسولُ الله ؟!».

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك ، وأكرمَك ، وأوصلَك ! أمَّا هذه والله! فإنَّ في النَّفس منها حتَّى الان شيئاً. فقال له العبَّاس: ويحك! أسلم قبل أن تُضْرَب عنقُك ، قال: فشهد شهادة الحقِّ ، فأسلم.

قال العبَّاس: قلت: يا رسول الله! إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو امن ، ومن أغلق عليه بابه فهو امنٌ ، ومن دخل المسجد فهو امنٌ» فلمَّا ذهب لينصرف قال رسول الله (ص) : «يا عباس! احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل ، حتَّى تمرَّ به جنود الله ، فيراها».

قال: فخرجت حتَّى حبستُه حيث أمرني رسول الله (ص) ومرَّت القبائل على راياتها ، كلَّما مرَّت قبيلةٌ ؛ قال: يا عباس! مَنْ هذه؟ فأقول: سُليم. فيقول: مالي ، ولسُليم! ثمَّ تمرُّ به القبيلة ، فيقول: يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ فأقول: مُزينة ، فيقول: مالي ولمزينة!... حتَّى مرَّ به

رسول الله (ص) في كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون، والأنصار ، لا يُرى منهم إلا الْحَدَقُ من الحديد ، قال: سبحان الله يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله (ص) في المهاجرين ، والأنصار. قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ، ولا طاقةٌ ! ثمَّ قال: والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، قال: قلت: يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة. قال: فنعم إذاً، قال: قلت: النَّجاءَ إلى قومك. [البخاري (٤٢٨٠) وعبد الرزاق في المصنف (٣٧٤/٥ ـ ٣٧٨)، وابن سعد (١٣٤/٢ ـ ١٣٧)، والبيهقي في الدلائل (٣٢/٥ ـ ٣٥)، والمطالب العالية (٢٤٤/٤ ـ ٢٤٦) ، ومجمع الزوائد (١٦٤/٦ ـ ١٦٧) ، وابن هشام (٤٤/٤ ـ ٤٧)][(٣٦٨)].

إنَّ في هذه القصَّة دروساً ، وعبراً ، وحِكَماً في كيفيَّة معاملة رسول الله (ص) للنُّفوس البشريَّة ، ومن أهم هذه الدُّروس:

١ ـ عندما أصبح أبو سفيان رهينةً بيد المسلمين ، وأصبح رهن إشارة النَّبيِّ (ص) ، وَهَمَّ به عمر ، وأجاره العبَّاس ، ثمَّ جاء في صبيحة اليوم الثاني لِيَمْثُلَ بين يدي رسول الله (ص) ، وكانت المفاجأة الصَّاعقة له بدل التَّوبيخ ، والتَّهديد ، والإذلال أن يُدْعى إلى الإسلام ، فتأثَّر بهذا الموقف ، واهتزَّ كيانُه ، فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمِّي يا محمد! ما أحلمَك ، وأكرمَك ، وأوصلَك! إنَّه يفدي رسول الله (ص) بأبيه وأمِّه ، ويُثْني عليه الخير كلَّه: ما أحلمَك ، وأكرمَك ، وأوصلَك[(٣٦٩)]! وعندما قال العبَّاس للنَّبيِّ (ص) : إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر ، فاجعل له شيئاً ، فقال النَّبيُّ (ص) : «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو امنٌ..» ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيءُ يُشْبع ما تتطلَّع إليه نفس أبي سفيان ، وفي هذا تثبيتٌ له على الإسلام ، وتقويةٌ لإيمانه[(٣٧٠)] ، وكان هذا الأسلوب النَّبويُّ الكريم عاملاً على امتصاص الحِقْدِ من قلب أبي سفيان ، وبرهن له بأنَّ المكانة الَّتي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام؛ إنْ هو أخلص له ، وبذل في سبيله[(٣٧١)] ، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ على العلماء ، والدُّعاة إلى الله أن يستوعبوه ، ويعملوا به في تعاملهم مع النَّاس.

٢ ـ وفي قول رسول الله (ص) لعمِّه العبَّاس عن أبي سفيان: «احبِسْه بمضيق الوادي ، حتَّى تمرَّ به جنود الله ، فيراها[(٣٧٢)]» ففعل العبَّاس ، وكان (ص) يريد أن يشنَّ حرباً نفسيَّةً للتَّأثير على معنويَّات قريش ، حتى يتسنَّى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكَّة ، وحتَّى يرى أبو سفيان بِعَيْنَيْ رأسه مدى قوَّة ما وصل إليه الجيش الإسلاميُّ من تسليحٍ ، وتنظيمٍ ، وحسن طاعةٍ ، وانضباطٍ ، وبذلك تتحطَّم أيُّ فكرةٍ في نفوس المكِّيِّين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل

مكَّة لتحريرها من براثن الشِّرك ، والوثنيَّة[(٣٧٣)] ، وبالفعل تمَّ ما رسمه رسولُ الله (ص) ، وأدرك أبو سفيان قوَّة المسلمين ، وأنَّه لا قِبَل لقريشٍ بهم ، حتَّى إذا مرَّت به كتيبة المهاجرين ، والأنصار؛ قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله (ص) في المهاجرين ، والأنصار. قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ، ولا طاقةٌ! والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال: قلت: يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة. قال: فنعم إذاً...»[(٣٧٤)].

إنَّها النُّبوَّة ، تلك هي الكلمة الَّتي أدارتها الحكمة الإلهيَّة على لسان العبَّاس ، حتَّى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كلِّ مَنْ يتوهَّم، أو يوهم أنَّ دعوة النَّبيِّ (ص) إنَّما كانت ابتغاء ملكٍ ، أو زعامةٍ ، أو إحياء قوميَّةٍ ، أو عصبيَّةٍ ، وهي كلمةٌ جاءت عنواناً لحياة رسول الله (ص) من أوَّلها إلى اخرها ، فقد كانت ساعاتُ عمره ، ومراحلُها كلُّها دليلاً ناطقاً على أنَّه بُعِث لتبليغ رسالة الله إلى النَّاس ، لا لإشادة ملكٍ لنفسه في الأرض[(٣٧٥)].

لقد تعمَّد النَّبيُّ (ص) شنَّ الحرب النَّفسيَّة على أعدائه أثناء سيره لفتح مكَّة ، حيث أمر رسولُ الله (ص) بإيقاد النِّيران ، فأوقدوا عشرة الاف نارٍ في ليلةٍ واحدةٍ حتَّى ملأت الأفق ، فكان لمعسكرهم منظرٌ مهيبٌ ، كادت تنخلع قلوب القرشيِّين من شدَّة هوله[(٣٧٦)] ، وقد قصد النَّبيُّ (ص) من ذلك تحطيم نفسيَّات أعدائه ، والقضاء على معنويَّاتهم حتَّى لا يفكروا في أيَّة مقاومة ، وإجبارهم على الاستسلام؛ لكي يتمَّ له تحقيق هدفه دون إراقة دماءٍ ، وبتطبيق هذا الأسلوب تمَّ له (ص) ما أراد ، ولقد كان اهتمامُ النَّبيِّ (ص) بمعنويات المقاتل ونفسيَّته سبقاً عسكريّاً ، بدليل أنَّ المدارس العسكريَّة الَّتي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية ، والاهتمام من النَّاحية العسكريَّة[(٣٧٧)].

* * *

المبحث الثَّاني

خُطَّة النَّبيِّ (ص) لدخول مكَّة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصَّحابة:

عندما وصل النَّبيُّ (ص) إلى ذي طُوى[(٣٧٨)]؛ وزَّع المهام ، فجعل خالد بن الوليد على المجَنَّبة اليُمنى ، وجعل الزُّبير على المجَنَّبة اليُسرى ، وجعل أبا عبيدة على البَيَاذِقَةِ[(٣٧٩)] ، وبطن الوادي ، فقال: «يا أبا هريرة! ادعُ لي الأنصار» فدعاهم ، فجاؤوا يهرولون ، فقال: يا معشر الأنصار! هل ترون أوباش قريش؟! قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً ، وأخفى بيده ، ووضع يمينه على شماله ، وقال: «موعدكم الصَّفا». [مسلم (١٧٨٠)].

وبعث رسول الله (ص) الزُّبير بن العوَّام على المهاجرين ، وخيلهم ، وأمره أن يدخل من كَداء مِنْ أعلى مكَّة ، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتَّى يأتيه ، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة ، وسليم ، وغيرهم ، وأمره أن يدخل من أسفل مكَّة ، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدِّمة رسول الله (ص) ، وأمرهم أن يكفُّوا أيديهم ، ولا يقاتلوا إلا مَنْ قاتلهم[(٣٨٠)] ، وبهذا كانت المسؤوليَّات واضحةً ، وكلٌّ قد عرف ما أُسندِ إليه من مهام ، والطَّريق الذي ينبغي أن يسير فيه[(٣٨١)].

ودخلت قوَّات المسلمين مكَّة من جهاتها الأربع في انٍ واحدٍ ، ولم تلقَ تلك القوات مقاومةً ، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربةٌ قاضيةٌ لفلول المشركين؛ حيث عجزت عن التَّجمُّع وضاعت منها فرصة المقاومة ، وهذا من التدابير الحربيَّة الحكيمة الَّتي لجأ إليها رسول الله (ص) عندما أصبح في مركز القوَّة في العدد والعتاد ، ونجحت خطَّة الرَّسول (ص) فلم يستطع المشركون المقاومة ، ولا الصُّمود أمام الجيش الزَّاحف ، إلى أمّ

القُرى ، فاحتلَّ كلُّ فيلقٍ منطقته الَّتي وُجِّه إليها ، في سلمٍ ، واستسلامٍ؛ إلا ما كان من المنطقة الَّتي توجَّه إليها خالد[(٣٨٢)] ، فقد تجمَّع متطرفو قريشٍ؛ ومنهم: صفوان بن أميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وغيرهم ، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخَنْدَمَة) ، وتصدَّوا للقوَّات المتقدِّمة بالسِّهام ، وصمَّموا على القتال؛ فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم ، وما هي إلا لحظات حتَّى قضى على تلك القوَّة الضَّعيفة ، وشتَّت شمل أفرادها ، وبذلك أكمل الجيش السَّيطرة على مكَّة المكرَّمة[(٣٨٣)] ، وقد حدَّثتنا كتب السِّيرة ، والتَّاريخ عن قصَّة حِمَاس بن قيس بن خالدٍ من قبيلة بني بكرٍ ، فقد أعدَّ سلاحاً لمقاتلة المسلمين ، وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ، ويتعهَّدُه ،

تسأله: لماذا تُعِدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمَّد ، وأصحابه ، وقالت امرأته له يوماً: والله! ما أرى أنَّه يقوم لمحمَّدٍ وصحبه شيءٌ! فقال: إنِّي والله لأرجو أن أُخْدمَكِ بعضهم ، ثمُ قال:

إن يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِيْ عِلَّةٌ   هَذَا سِلاَحٌ كَامِلٌ وأَلَّةٌ[(٣٨٤)]

وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّة

فلمَّا جاء يوم الفتح ناوش حِمَاسٌ هذا شيئاً من قتالٍ مع رجال عكرمة ، ثمَّ أحس بالمشركين يتطايرون مِنْ حوله أمام جيش خالدٍ ، فخرج منهزماً حتَّى بلغ بيته ، فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب.

فقالت المرأة لفارسها: فأين ما كنت تقول؟!

فقال يعتذر لها:

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ   إِذْ فرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ

أبُو يَزِيْدَ قَائِمٌ كالمؤتمَهْ[(٣٨٥)]   واسْتَقْبَلَتْهُمْ بالسُّيُوفِ المسْلِمَهْ

يقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ   ضَرْباً فَلاَ يُسْمَعُ إِلاَّ غَمْغَمَهْ

لَهُمْ نَهِيتٌ[(٣٨٦)] خَلفَنَا وَهَمْهَمَهْ   لا تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ[(٣٨٧)]

لقد أُعْلِنَ في مكَّة قُبيل دخول جيش المسلمين أسلوبَ منع التجوُّل؛ لكي يتمكَّنوا من دخول مكَّة بأقلِّ قدرٍ من الاشتباكات ، والاستفزازات ، وإراقة الدِّماء ، وكان الشعار المرفوع: «من دخل دار أبي سفيان فهو امن ، ومن أغلق عليه بابه فهو امن ، ومن دخل المسجد فهو امن» ، وجعل (ص) لدار أبي سفيان مكانةً خاصَّةً كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيِّين بالسِّلم ، والهدوء ، ويستخدمه كمفتاح أمانٍ يفتتح أمامه الطَّريق إلى مكَّة دون إراقة دماء ، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر؛ الَّتي يحبُّها أبو سفيان ، حتَّى يتمكَّن الإيمان في قلبه[(٣٨٨)].

لقد دخل أبو سفيان إلى مكَّة مسرعاً ، ونادى بأعلى صوته:

يا معشر قريش! هذا محمَّدٌ جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو امن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت: اقتلوا الحَمِيْتَ الدَّسِمَ الأحْمَس . تشبِّهه بالزِّقِّ لسمنه . قُبِّحَ مِنْ طليعة قومٍ! قال: ويلكم! لا تَغُرَّنَّكُمْ هذه مِنْ أنفسكم ، فإنَّه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به ، فَمَنْ دخل دار أبي سفيان فهو امن قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو امن ، ومن دخل المسجد فهو امن. وتفرَّق النَّاس إلى دورهم ، وإلى المسجد[(٣٨٩)].

وحرص النَّبيُّ (ص) أن يدخل الكَدَاء الَّتي بأعلى مكَّة[(٣٩٠)] تحقيقاً لقول صاحبه الشَّاعر المبدع حسَّان بن ثابت حين هجا قريشاً ، وأخبرهم بأنَّ خيل الله تعالى ستدخل من كَدَاء ، وتُعتبر هذه القصيدة من أروع ما قال حسَّان؛ حيث قال:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا　　تُثِيْرُ النَّقْعَ[(٣٩١)] مَوْعِدُهَا كَدَاءُ

يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْعِيَاتٍ　　عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ　　يُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ

فإمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنا　　وكانَ الفَتْحُ وانْكَشَفَ الغِطَاءُ

وإلا فاصْبِرُوا لجِلاَدِ يَومٍ　　يُعِزُّ[(٣٩٢)] اللهُ فِيْهِ مَنْ يَشَاءُ

وَجِبْرِيْلُ رسُولُ الله فِيْنَا　　وَرُوْحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

وَقَالَ الله قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدَاً　　يَقُوْلُ الحقَّ فِي ذَاكَ البَلاَءُ

شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ　　فَقُلْتُم لا نَقُوْمُ وَلاَ نَشَاءُ

وقال اللهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْداً　　هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقاءُ

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ　　سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنُحْكِمُ بالقَوَافِي مَنْ هَجَانَا　　وَنَضْرِبُ حِيْنَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ

أَلاَ بَلِّغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي　　مُغَلْغَلَةً[(٣٩٣)] فقد بَرِحَ الخَفَاءُ

بأنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْداً　　وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ

هَجَوْتَ مُحَمَّداً فأجبْتُ عَنْهُ　　وَعِنْدَ اللهِ فِي ذاكَ الجَزَاءُ

أَتَهْجُوْهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ　　فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

هَجَوتَ مُبَارَكاً بَرّاً حَنِيْفاً　　أَمِيْنَ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفاءُ

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ　　وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُه سَوَاءُ

فإنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي　　لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

لسَانِيْ صَارِمٌ لا عَيْبَ فِيْهِ　　وبَحْرِي لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ[(٣٩٤)]

وممَّا يؤيِّد حرص النَّبيِّ (ص) على دخوله من كَدَاء ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله (ص) عام الفتح رأى النِّساء يَلْطِمْنَ وجوه الخَيْلِ بالخُمُر[(٣٩٥)] ، فتبسَّم إلى أبي بكرٍ ، فقال: يا أبا بكر! كيف قال حسَّان ؟ فأنشده قوله:

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمطِّرَاتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ[(٣٩٦)]

ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ:

دخل رسول الله (ص) يوم فتح مكة وعليه عمامةٌ سوداءُ بغير إحرامٍ ، [أحمد (٣٦٣/١) ومسلم (١٣٥٨) ، وأبو داود (٤٠٧٦) ، والترمذي (١٧٣٥) ، والنسائي (٢٠١/٥) ، وابن ماجه (٢٨٢٢)] ، وهو واضعٌ رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتَّى إنَّ ذقنه ليكاد يَمَسُّ واسطة الرَّحل. [البيهقي في الدلائل (٦٨/٥) ، والحاكم (٤٧/٣) ، وأبو يعلى (٣٣٩٣) ، ومجمع الزوائد (١٦٩/٦)]. ودخل وهو يقرأ سورة الفتح. [البخاري (٤٢٨١) ، ومسلم (٢٣٨/٧٩٤)] مستشعراً نعمة الفتح ، وغفران الذُّنوب ، وإفاضة النَّصر العزيز[(٣٩٧)] ، وعندما دخل مكَّة فاتحاً . وهي قلبُ جزيرة العرب ، ومركزُها الرُّوحيُّ ، والسِّياسيُّ . رفعَ كلَّ شعارٍ من شعائر العدل والمساواة ، والتَّواضع ، والخضوع ، فأردف أسامة بن زيدٍ ، [البخاري (٤٢٨٩)]؛ وهو ابن مولى رسول الله (ص) ، ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم ، وأبناء أشراف قريشٍ ، وهم كثير ، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلةٍ خلت من رمضان ، سنة ثمانٍ من الهجرة[(٣٩٨)].

يقول محمَّد الغزالي في وصف دخول النَّبيّ (ص) لمكَّة:

على حين كان الجيش الزَّاحف يتقدَّم ، ورسول الله (ص) على ناقته تُتَوِّج هامته عمامةٌ سوداء ، ورأسُه خفيض من شدَّة التَّخشُّع لله ، لقد انحنى على رحله ، وبدا عليه التَّواضع الجمُّ ، إنَّ الموكب الفخم المهيب الَّذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والفيلق الدَّارع الَّذي يحفُّ به ينتظر إشارةً منه فلا يبقى بمكَّة شيءٌ امنٌ ، إنَّ هذا الفتح المبين ليذكِّره بماضٍ طويل الفصول كيف خرج مطارَداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيَّداً ، وأيّ كرامةٍ عظمى حفَّه الله بها هذا الصَّباح الميمون ، وكلَّما استشعر هذه النَّعماء ، ازداد للهِ على راحلته خشوعاً وانحناءً[(٣٩٩)].

هذا وقد حرص النَّبيُّ (ص) على تأمين الجبهة الدَّاخلية في مكَّة عند دخوله يوم الفتح ، ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحلُّ الكعبة ، قال (ص) : «هذا يوم يُعظِّم الله فيه الكعبة ، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة» [البخاري (٤٢٨٠) ، والبيهقي في الدلائل (٣٨/٥) ، والطبري في تاريخه (١١٨/٣)]. وأخذ الراية من سعد بن عبادة ، وسلَّمها لابنه قيس بن سعدٍ ، وبهذا التَّصرُّف الحكيم حال دون أيِّ احتمالٍ لمعركةٍ جانبيَّةٍ هُمْ في غنىً عنها ، وفي الوقت نفسه

لم يُثِرْه ، ولا اثَار الأنصارَ ، فهو لم يأخذ الرَّاية من أنصاري ويسلِّمها لمهاجرٍ؛ بل أخذها من أنصاريٍّ وسلمها لابنه ، ومن طبيعة البشر ألاَّ يرضى الإنسان بأن يكون أحدٌ أفضَل منه إلا ابنه[(٤٠٠)].

ولما نزل رسولُ الله (ص) بمكَّة ، واطمأن النَّاس ، خرج حتَّى جاء البيت ، فطاف به ، وفي يده قوسٌ ، وحول البيت وعليه ثلاثمئةٍ وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا *} [الإسراء: ٨١] ، {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ *} [سبأ: ٤٩] ، والأصنام تتساقط على وجوهها[(٤٠١)] ، وإنَّه لمظهر رائعٌ لنصر الله ، وعظيم تأييده لرسوله (ص) ؛ إذ كان يطعن تلك الالهة الزَّائفة المنثورة حول الكعبة بعصاً معه ، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه ، حتَّى ينكفأى على وجهه ، أو ينقلب على ظهره جُذاذاً[(٤٠٢)] ، ورأى في الكعبة الصُّور ، والتَّماثيل؛ فأمر بالصُّور ، وبالتَّماثيل فكسرت[(٤٠٣)] ، وأبَى أن يدخل جوف الكعبة حتَّى أخرجت الصُّور ، وكان فيها صورةٌ يزعمون: أنَّها صورة إبراهيم ، وإسماعيل ، وفي أيديهما من الأزلام ، فقال النَّبيُّ (ص) : «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قطُّ». [أحمد (١/٣٦٥) ، والبخاري (٤٢٨٨)].

ثم دخل البيت ، وكبَّر في نواحيه ، ثمَّ صلَّى ، فقد روى ابن عمر: أنَّ رسول الله (ص) دخل الكعبة هو ، وأسامة ، وبلال ، وعثمان بن طلحة ، فأغلقها عليه ، ثم مكث فيها ، قال ابن عمر: فسألت بلالاً حين خرج: ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه . وكان البيت يومئذٍ على ستَّة أعمدة . ثمَّ صلَّى. [مسلم (١٣٢٩) ، وأبو داود (٢٠٢٣) ، والنسائي (٢/٦٣) ، وبنحوه البخاري (٥٠٥)][(٤٠٤)].

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة ، قبل أن يسلم ، فأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السِّقاية ، لكن النَّبي (ص) دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ، وردَّه إليه قائلاً: «اليوم يوم برٍّ ووفاء» [الطبراني في الكبير (٨٣٩٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٨٣ ـ ٨٤) ، ومجمع الزوائد (٦/١٧٧)][(٤٠٥)] ، وكان (ص) قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه ، فحلم عنه ، وقال: «يا عثمان! لعلَّك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي ، أضعه حيث شئت». فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ ، وذلَّت ، فقال: «بل عَمَرَتْ ، وعزَّتْ يومئذٍ» ووقعت كلمتُه من عثمان بن طلحة موقعاً ، وظنَّ: أنَّ الأمر سيصير إلى ما قال[(٤٠٦)] ، ولقد أعطى له رسول الله (ص) مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء»

[سبق تجريحه][(٤٠٧)] ، «خذوها خالدةً ، تالدةً ، لا ينزعها منكم إلا ظالمٌ[(٤٠٨)]». وهكذا لم يشأ النَّبيُّ (ص) أن يستبدَّ بمفتاح الكعبة ، بل لم يشأ أن يضعه في أحدٍ من بني هاشم ، وقد تطاول لأخذه رجالٌ منهم ، لما في ذلك من الإثارة أوّلاً ، ولما به من مظاهر السَّيطرة ، وبسط النُّفوذ ، وليست هذه من مهام النُّبوَّة بإطلاق ،... هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله (ص) ؛ البرُّ ، والوفاء حتَّى للذين غدروا ، ومكروا ، وتطاولوا[(٤٠٩)].

هذا وقد أمر النَّبي (ص) بلالاً رضي الله عنه أن يصعد فوق ظهر الكعبة ، فيؤذِّن بالصَّلاة ، فصعد بلال ، وأذَّن بالصَّلاة ، وأنصت أهل مكَّة للنِّداء الجديد على اذانهم كأنَّهم في حُلْمٍ ، إنَّ

هذه الكلمات تقصف في الجوِّ ، فتقذف بالرُّعب في أفئدة الشَّياطين ، فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولُّوا هاربين ، أو يعودوا مؤمنين: الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر[(٤١٠)].

ذلك الصَّوت الَّذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أَحَد! أحَد! أحَد! هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله ، محمَّدٌ رسولُ الله!؛ والكلُّ خاشعٌ مُنْصِتٌ خاضع[(٤١١)].

ثالثاً: إعلان العفو العام:

١ ـ نال أهل مكَّة عفواً عامّاً برغم أنواع الأذى الَّتي ألحقوها بالرَّسول (ص) ودعوته ، ورغم قدرة الجيش الإسلاميِّ على إبادتهم ، وقد جاء إعلان العفو عنهم؛ وهم مجتمعون قرب الكعبة ، ينتظرون حكم الرَّسول (ص) فيهم ، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟!» فقالوا: خيراً ، أخٌ كريم ، وابن أخٍ كريم ، فقال: «لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم!». [البيهقي في الكبرى (٩/١١٨) ، وفي الدلائل (٥/٥٨) ، وابن سعد (٢/١٤١ ـ ١٤٢)][(٤١٢)].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل ، أو السَّبي ، وإبقاء الأموال المنقولة ، والأراضي بيد أصحابها ، وعدم فرض الخراج عليها ، فلم تُعامل مكَّة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عَنْوَةً لقدسيَّتها ، وحرمتها؛ فإنَّها دار النُّسك ، ومتعبَّد الخلق ، وحرم الرَّبِّ تعالى ، لذلك ذهب جمهور الأئمَّة من السَّلف ، والخلف إلى أنَّه لا يجوز بيع أراضي مكَّة ، ولا إجارة بيوتها ، فهي مناخٌ لمن سبق ، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها ، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجَّاج ، والمعتمرين ، والعبَّاد القاصدين. وذهب اخرون إلى جواز بيع أراضي مكَّة ، وإجارة بيوتها ، وأدلَّتهم قويَّةٌ في حين أنَّ أدلة المانعين مرسلةٌ ، وموقوفةٌ[(٤١٣)].

٢ ـ إهدار النَّبيِّ (ص) لبعض الدِّماء:

إلى جانب ذلك الصَّفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الَّذي لابدَّ أن تتَّصف به القيادة الحكيمة الرَّشيدة ، ولذلك استثنى قرار العفو الشَّامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم . وإن وجدوا متعلِّقين بأستار الكعبة .؛ لأنَّه عظمت جرائمُهم في حقِّ الله ورسوله ، وحقِّ الإسلام ، ولما كان
يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين النَّاس بعد الفتح[(٤١٤)].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جَمَعْت أسماءهم مِنْ متفرّقات الأخبار ، وهم: عبد العُزَّى بن خَطَل ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وعِكْرِمَة بن أبي جهل ، والحويرث بن نُقَيْدٍ . مصغراً . ، ومِقْيَس بن صُبَابة ، وهَبَّار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل «فَرْتَنَى ، وقُرَيْبَة» كانتا تغنيان بهجو النَّبي (ص) ، وسارة مولاة بني عبد المطلب ، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارثَ بن طُلاَطِل الخزاعيَّ ، وذكر الحاكم: أنَّ فيمن أُهْدِرَ دمه كعبَ بن زُهَيْرٍ ، ووحشيَّ بْنَ حَرْبٍ ، وَهِنْدَ بنتَ عُتْبَة[(٤١٥)].

وَمِنْ هؤلاء مَنْ قُتِل ، ومنهم مَنْ جاء مسلماً تائباً ، فعفا عنه الرَّسول (ص) ، وحسن إسلامُه[(٤١٦)].

٣ . خطبةُ النَّبيِّ (ص) غداة الفتح ، وإسلامُ أهل مكَّة:

وفي غداة الفتح بلغ النَّبيَّ (ص) : أنَّ خزاعة حلفاءه عدت على رجلٍ من هذيلٍ ، فقتلوه ، وهو مشركٌ برجلٍ قتل في الجاهليَّة ، فغضب ، وقام بين النَّاس خطيباً ، فقال: «يا أيُّها النَّاس! إنَّ الله قد حرم مكَّة يوم خلق السَّموات ، والأرض ، فهي حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحلُّ لامرأى يؤمن بالله واليوم الاخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يَعْضِدَ . يقطع . فيها شجراً ، لم تَحلَّ لأحدٍ كان قبلي ، ولا تَحِلُّ لأحدٍ يكون بعدي ، ولم تَحِلَّ لي إلا هذه السَّاعة غضباً على أهلها ، ثمَّ قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلِّغ الشَّاهدُ منكم الغائب ، فمن قال لكم: إن رسول الله (ص) قد قاتل فيها ، فقولوا: إنَّ الله قد أحلَّها لرسوله ، ولم يُحِلَّها لكم».

«يا معشر خزاعة! ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القَتْلُ إنْ نفع ، لقد قتلتُم قتيلاً لأدِيَنَّه ، فمن قتل بعد مقامي هذا ، فأهله بخير النَّظرين ، إن شاؤوا فَدَمُ قاتله ، وإن شاؤوا فَعَقْلُه». [أبو داود (٤٥٠٤) ، والترمذي (١٤٠٦) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٨٣ . ٨٤)][(٤١٧)].

كان من أثر عفو النَّبيِّ (ص) الشَّامل عن أهل مكَّة ، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهلُ مكَّة رجالاً ، ونساءً ، وأحراراً ، وموالي في دين الله طواعيةً ، واختياراً ، وبدخول مكَّة تحت راية

الإسلام دخل النَّاس في دين الله أفواجاً ، وتمَّت النِّعمة ووجب الشُّكر[(٤١٨)] ، وبايع رسول الله (ص) النَّاس جميعاً ، الرِّجالَ ، والنِّسَاءَ ، والكبارَ ، والصِّغار ، وبدأ بمبايعة الرِّجال ،

فقد جلس لهم على الصَّفا ، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام ، والسَّمع ، والطَّاعة لله ، ولرسوله فيما استطاعوا ، وجاء مُجَاشِعٌ بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح ، فقال لرسول الله (ص) : جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة ، فقال (ص) : «ذهب أهل الهجرة بما فيها» فقال: على أيِّ شيءٍ تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام ، والإيمان ، والجهاد». [أحمد (٣/٤٦٩) ، والبخاري (٤٣٠٥ و٤٣٠٦) ، ومسلم (١٨٦٣)].

وقد روى البخاريُّ: أنَّ رسول الله (ص) قال يوم الفتح: «لا هجرةَ بعد الفتح ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ ، وإذا استُنْفِرْتم ، فانفروا» [البخاري (١٨٣٤) ، ومسلم (١٣٥٣)] ، والمراد: أنَّ الهجرة الَّتي كانت واجبةً من مكَّة قد انتهت بفتح مكة ، فقد عزَّ الإسلامُ ، وثبتت أركانُه ودعائمهُ ، ودخل النَّاس فيه أفواجاً ، أمَّا الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أو من بلدٍ لا يَقْدِرُ أن يقيم فيه دينَه ، ويظهر شعائرَه إلى بلدٍ يتمكَّن فيه من ذلك ، فهي باقيةٌ إلى يوم القيامة ، ولكن هذه دون تلك ، فقد تكون واجبةً ، وقد تكون غير واجبةٍ ، كما أنَّ الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروعٌ وباقٍ إلى يوم القيامة ، ولكنَّه ليس كالإنفاق ، ولا الجهاد قبل فتح مكَّة.

قال عزَّ شأنه[(٤١٩)]: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *} [الحديد: ١٠].

ولما فرغ رسول الله (ص) من بيعة الرِّجال؛ بايع النِّساء ـ وفيهنَّ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ متنكِّرةً ، خوفاً من رسول الله (ص) أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة ـ على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يَسْرِقْنَ ، ولا يَزْنِيْنَ ، ولا يقتلن أولادهنَّ ، ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ ، وأرجلهنَّ ، ولا يعصين في معروفٍ ، ولما قال النَّبيُّ (ص) : «ولا يَسْرِقْنَ» قالت هند: يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني ، ويكفي بنيَّ ، فهل عليَّ مِنْ حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها (ص) : «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف» ، ولما قال: «ولا يزنين» قالت هند: وهل تزني الحرَّة؟! ولما عرفها رسولُ الله (ص) قال لها: «وإنك لهند بنت عُتْبَة؟» قالت: نعم ، فاعف عمَّا سلف عفا الله عنك.

وقد بايعن رسول الله (ص) من غير مصافحةٍ ، فقد كان لا يصافح النِّساء ، ولا يَمَسُّ يد امرأةٍ إلا امرأةً أحلَّها الله له ، أو ذات محرمٍ منه ، وفي الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنَّها قالت: لا والله! ما مسَّت يد رسول الله يد امرأةٍ قطُّ. [البخاري (٥٢٨٨) ، ومسلم (١٨٦٦)] وفي
روايةٍ: ما كان يبايعهنَّ إلا كلاماً ، ويقول: «إنَّما قولي لامرأةٍ واحدةٍ كقولي لمئة امرأةٍ»[(٤٢٠)].

رابعاً: بَعْثُ خالدِ بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ:

بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ داعياً إلى الإسلام ، وكان ذلك في شهر شوَّال من السَّنة الثَّامنة للهجرة[(٤٢١)] قَبْلَ حنين، ومعه جنودٌ من بني سُلَيْم ، ومُدْلَج ، والأنصار ، والمهاجرين ، كان تعدادُهم حوالي ثلاثمئةٍ وخمسين رجلاً ، فلمَّا رأى بنو جَذِيْمَةَ الجيش بقيادة خالدٍ ، أخذوا السِّلاح ، فقال لهم خالدٌ: ضعوا السِّلاح فإنَّ النَّاس قد أسلموا ، فقام رجلٌ منهم يسمَّى جحدراً ، فقال: ويلكم يا بني جَذِيْمَةَ! إنَّه خالد؛ والله! ما بعد وضع السِّلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق ، والله! لا أضع سلاحي أبداً ، فلم يزالوا به حتَّى وضع سلاحه ، فلمَّا وضع السِّلاح أمر بهم خالد فكُتِّفُوا ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا ، فجعلوا يقولون: صبأنا ، صبأنا ، وخالد يأخذ فيهم أسراً ، وقتلاً ، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك ، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه ، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالدٌ أن يقتل كلُّ واحد أسيره ، فامتثل البعض ، وامتنع عبد الله بن عمر ، وامتنع معه اخرون من قَتْلِ أسراهم ، فلمَّا قَدِموا على رسول الله (ص) ، أخبروه، فغضب ، ورفع يديه إلى السَّماء قائلاً: اللَّهُمْ إِنِّي أَبْرَأُ إليك ممَّا صنع خالدٌ. [أحمد (٢/١٥٠ ـ ١٥١)، والبخاري (٤٣٣٩)، والنسائي (٨/٢٣٧)، وابن سعد (٢/١٤٧ ـ ١٤٨)]][(٤٢٢)].

ودار كلام بين خالدٍ ، وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتَّى كان بينهم شرٌّ ، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالدٍ ثأراً لعمِّه الفاكه بن المغيرة الَّذي قتله جَذِيْمَةُ في الجاهليَّة ، ولعلَّ هذا الذي وقع بينهم هو ما أشار إليه الحديث المرويُّ عند مسلمٍ، وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيءٌ ، فسبَّه خالدٌ ، فقال رسول الله (ص) : «لا تسبوا أحداً من أصحابي ، فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهباً؛ ما أدرك مُدَّ أحدهم ، ولا نصيفه» [البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١)][(٤٢٣)].

وبعث رسولُ الله (ص) عليّاً ، فودى لهم قتلاهم ، وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم ، وبراءةً من دمائهم[(٤٢٤)] ، وبهذا التَّصرُّف النَّبويِّ الحكيم واسى النَّبيُّ (ص) بني جَذِيْمَة ، وأزال ما في

نفوسهم مِنْ أسى ، وحزن[(٤٢٥)] ، وكان قتل خالد لبني جَذِيْمَةَ تأوُّلاً منه ، واجتهاداً خاطئاً ، وذلك بدليل أنَّ الرَّسول (ص) لم يعاقبه على فعله[(٤٢٦)].

خامساً: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طُهِّرَ البيتُ الحرامُ من الأوثان الَّتي كانت فيه ، كان لابدَّ من هدم البيوت الَّتي أقيمت للأوثان ، فكانت معالم للجاهليَّة ردحاً طويلاً من الزَّمن[(٤٢٧)] ، فكانت سرايا رسول الله تترى؛ لتطهير الجزيرة؛ منها:

١ . سرية خالد بن الوليد إلى العزَّى:

توجَّهت سريةٌ قوَّتها ثلاثون فارساً ، بقيادة خالد بن الوليد إلى الطَّاغوت الأعظم منزلةً ، ومكانةً عند قريش وسائر العرب (العُزَّى) لإزالته من الوجود نهائيّاً ، وعندما وصلت السَّرِيَّة إلى العزَّى بمنطقة نخلة قام إليها خالدٌ: فقطع السَّمُرَاتِ ، وهدم البيت الَّذي كان عليه[(٤٢٨)] ، وهو يردِّد:

كفرانك لا سبحانك إنِّي رأيتُ الله قد أهانك

[الطبراني في الكبير (٣٨١١) ، ومجمع الزوائد (٦/١٧٦)][(٤٢٩)].

ثمَّ رجع خالدٌ وأصحابه إلى رسول الله (ص) وقدَّم تقريره بإنجاز المهمَّة ، ولكنَّ النبي (ص) استدرك على قائد السَّرِيَّة ، وقال له: «هل رأيت شيئاً؟» قال: لا[(٤٣٠)] ، فقال: «ارجع فإنَّك لم تصنع شيئاً»[(٤٣١)] ، فرجع خالد متغيظاً حَنِقاً على عدم إنهاء مهمَّته على الوجه المطلوب ، فلمَّا وصل إليها ، ونظرت السَّدنة إليه ، عرفوا: أنَّه جاء هذه المرَّة ليكمل ما فاته في المرَّة السَّابقة ، فهربوا إلى الجبل ، وهم يصيحون: يا عزَّى خَبِّليه ، يا عزَّى عوِّريه ، فأتاه خالد ، فإذا امرأةٌ عُرْيانةٌ ناشرةٌ شعرها تحثو التُّراب على رأسها ، فتقدَّم إليها خالدٌ رضي الله عنه بشجاعته المعروفة ، وضربها بالسَّيف حتَّى قتلها ، ثمَّ رجع إلى رسول الله (ص) فأخبره بذلك ، فقال: «تلك هي العزَّى». [أبو يعلى (٩٠٢) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٧٧) ، ومجمع الزوائد (٦/١٧٦)][(٤٣٢)].

٢ . سرية سعد بن زيدٍ الأشهليُّ إلى مَناة:

مناة اسم صَنَمٍ كانت على ساحل البحر الأحمر ممَّا يلي قديداً[(٤٣٣)] ، في منطقة تُعْرَف بالمشَلَّل[(٤٣٤)] ، وكانت للأوس ، والخزرج ، وغسَّان ومن دان بدينهم ، يعبدونها ويعظِّمونها في الجاهليَّة ، ويهلُّون منها للحجِّ ، وقد بلغ من تعظيمهم إيَّاها: أنَّهم كانوا لا يطوفون بين الصَّفا والمروة تحرُّجاً ، وتعظيماً لها ، حيث كان ذلك سُنَّةً في ابائهم ، مَنْ أحرم لمناة لَمْ يطُفْ بين الصَّفا

والمروة[(٤٣٥)] ، ولم تزل هذه عادتُهم حتَّى أسلموا ، فلمَّا قدموا مع النَّبيّ (ص) للحجّ ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الاية[(٤٣٦)] ، قال تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ١٥٨].

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، ومبتدع الأوثان ، محرِّف الحنيفيَّة دين إبراهيم عليه السلام عمرُو بن لحي الخُزاعيُّ[(٤٣٧)] ، فلمَّا فتح الله على المسلمين مكَّة بعث رسول الله (ص) إلى مناة رجلاً من أهلها سابقاً الَّذين كانوا يعظِّمونها في الجاهليَّة ، وهو سعد بن زيد الأشهليُّ رضي الله عنه على رأس سِريَّةٍ قوَّتها عشرون فارساً ، وكان واجب السَّرِيَّة هو إزالة مناة من الوجود نهائيّاً(٣).

انطلق زيدٌ ومن معه في مسيرٍ اقترابيّ سريعٍ لإنجاز المهمَّة المحدَّدة ، حتَّى وصل إليها ، فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد؟ قال: هدم مَناة ، قال: أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشي إليها ، وتخرج إليه امرأةٌ عُرْيَانةٌ سوداء ثائرة الرَّأس تدعو بالوَيْل ، وتضرب صَدْرها[(٤٣٨)]، فصاح بها السَّادن صيحة الواثق: مَناةُ دُونَك بعضَ عُصَاتك(٤)، ولكن صيحته ذهبت أدراج الرِّياح ، فلم يأبه سعدٌ رضي الله عنه بكلِّ ذلك ، وضربها ضربةً قاتلةً قضت عليها ، ثمَّ أقبل مع أصحابه على الصَّنم (فهدموه ، ولم يجدوا في خزانتها شيئاً ، وانصرف راجعاً إلى رسول الله (ص))[(٤٣٩)].

٣ ـ سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

قال تعالى مخبراً عن قوم نوح: {وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا *} [نوح: ٢٣].

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنمٍ كان لقوم نوحٍ عليه السَّلام ، ثمَّ صار بعد ذلك لقبيلة هُذَيْلٍ المضريَّة[(٤٤٠)] ، وظلَّ هذا الوثن منصوباً تعبده هُذيل وتعظِّمه حتَّى إنَّهم كانوا يحجُّون إليه[(٤٤١)] ، حتَّى فتحت مكَّة ، ودخل هذيلٌ فيمن دخل في دين الله أفواجاً ، فبعث رسول الله (ص) سريةً بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع ، ويحدِّثنا قائد السَّريَّة عن مهمَّته ، فيقول: «فانتهيت إليه ، وعنده السَّادن ، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله (ص) أن أهدمَه ، قال: لا تقدر على ذلك ، قلتُ: لِمَ؟ قالت: تُمْنَعُ ، قلت: حتَّى الان أنت في الباطل ، ويحك! هل يسمع ، أو يبصر؟! قال: فدنوت منه فكسرتُه ، وأمرت أصحابي ، فهدموا بيت خزانته ، فلم يجدوا شيئاً ، ثمَّ قلت للسَّادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ لله[(٤٤٢)].

ونستفيد من حركة السَّرايا الَّتي أرسلها رسولُ الله (ص) للقضاء على الأصنام ، والأوثان: أنَّه لا يجوز إبقاءِ مواضع الشِّرك ، والطَّواغيت بعد القدرة على هدمها ، وإبطالها يوماً واحداً ، فإنَّها شعائر الكفر ، والشِّرك ، وهي أعظمُ المنكرات ، فلا يجوز الإقرارُ عليها مع القدرة ألبتَّة.

وهذا حكمُ المشَاهدِ الَّتي بُنيت على القبُور الَّتي اتخذت أوثاناً ، وطواغيت تُعْبَد من دون الله ، والأحجار الَّتي تُقصد للتَّعظيم ، والتَّبرُّك ، والنَّذر ، والتَّقبيل ، لا يجوز إبقاء شيءٍ منها على وجه الأرض عند القدرة على إزالتها ، وكثيرٌ منها بمنزلة اللاَّت ، والعزَّى ، ومناة الثَّالثة الأخرى ، أو أعظم شركاً عندها ، وبها[(٤٤٣)].

* * *

المبحث الثَّالث

دروس وعبر وفوائد

أولاً: تفسير سورة النَّصر ، وكونُها علامةً على أجَل رسولِ الله (ص):

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله (ص) يكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه» قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر مِنْ قول: «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه!» فقال: خبَّرني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي فإذا رأيتُها أكثرت من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» فقد رأيتُها: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا *فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا *} [النصر: ١ . ٣]». [مسلم (٤٨٤/٢٢٠)].

قال القرطبيُّ: وذلك لما فُتِحتْ مكَّةُ؛ قالت العرب: أما إذا ظَفِر محمَّد بأهل الحرم ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان (أي: طاقة) فكانوا يُسْلمون أفواجاً: أمَّةً أمَّةً[(٤٤٤)] ، وكان عمرو بن سلمة يقول: كنَّا بماءٍ ممرِّ النَّاس وكان يمرُّ بنا الرُّكبان ، فنسألهم: ما للنَّاس؟ ما للنَّاس؟ ما هذا الرَّجل؟ فيقولون: يزعم أنَّ الله أرسله ، أُوحي إليه ، أو: أوحى الله بكذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، وكأنَّما يَقِرُّ في صدري ، وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فيقولون: اتركوه وقومه ، فإنَّه إن ظهر عليهم؛ فهو نبيٌّ صادق؛ فلمَّا كانت وقعة أهل مكَّة؛ بادر كلُّ قوم بإسلامهم.

وهذه السُّورة تسمَّى سورة التَّوديع: حيث جاءت مخبرةً بقرب أجل المصطفى (ص)[(٤٤٥)] ، فعن ابن عباسٍ ، قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدرٍ ، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه ، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟! ، فقال عمر: إنَّه ممَّن قد علمتم. فدعاني ذات يومٍ ، فأدخلني معهم ، فما رأيت أنَّه دعاني يومئذ إلا ليريهم منِّي! قال: ما تقولون في قوله تعالى: حتَّى ختم السُّورة؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَد {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *} ، ونستغفره إذا

نصرنا ، وفتح علينا ، وسكت بعضُهم ، فلم يقل شيئاً ، فقال لي: أكذاك تقول يَا بْنَ عباسٍ؟! فقلت: لا ، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله (ص) ، أعلمه له ، قال: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *} وذلك علامة أجلك . فقال عمر: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا *} أعلم منها إلا ما تقول. [البخاري (٤٣٩٤)].

ويقول سيِّد قطب في بيان بعض ما يستفاد من هذه السُّورة: في مطلع السُّورة إيحاءٌ معيَّنٌ لإنشاء تصوُّرٍ خاصٍّ عن حقيقة ما يجرى في هذه الكون من أحداثٍ ، وما يقع في هذه الحياة من حوادثَ ، وعن دور الرَّسول (ص) ، ودور المؤمنين في هذه الدَّعوة ، وحدِّهم الَّذي ينتهون إليه في هذا الأمر.... هذا الإيحاء يتمثَّل في قوله: فهو نصرٌ يجيء به الله في الوقت المناسب الَّذي يقدِّره في الصُّورة الَّتي {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *} ، للغاية الَّتي يرسمُها ، وليس للنَّبيِّ ، ولا لأصحابه من أمره شيءٌ ، وليس لهم في هذا النَّصر يدٌ ، وليس لأصحابه فيه كسبٌ ، وليس لذواتهم منه نصيبٌ ، وليس لنفوسهم منه حظٌّ ، إنَّما هو أمر الله يحقِّقه بهم ، أو بدونهم ، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حُرَّاساً ، ويجعلهم عليه أمناء ، هذا هو كلُّ حظِّهم من النَّصر ، والفتح ، ومن دخول النَّاس في دين الله أفواجاً[(٤٤٦)].

وهذا معنىً إيمانيٌّ عميقٌ ، حرص القران على تثبيته في نفوس المؤمنين ، ألا وهو: أنَّ التَّمكين بيد الله تعالى ، فهو الَّذي يختار الزَّمان ، والمكان ، والأشخاص الَّذين يريد أن يُجرِيَ على أيديهم نصره ، وفتحه . سبحانه وتعالى . ، وهو كرمٌ وفضلٌ من الله محضٌ خصَّ به الصَّادقين مِنْ عباده.

ثانياً: مواقفُ دعويَّةٌ وقدرةٌ رفيعةٌ في التَّعامل مع النُّفوس:

١ . إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله (ص) مكَّة ، وظهر ، انقحمت[(٤٤٧)] بيتي وأغلقتُ عليَّ بابي ، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل: أن اطْلُبْ لي جواراً من محمَّدٍ ، وإنِّي لا امن مِنْ أن أُقتل ، وجعلت أتذكَّر أثري عند محمَّدٍ ، وأصحابه ، فليس أحدٌ أسوأ أثراً منِّي ، وأنِّي لقيتُ رسولَ الله (ص) يوم الحديبية بما لم يلحقه أحدٌ ، وكنت الذي كاتبتُه ، مع حضوري بدراً ، وأحداً ، وكلَّما تحرَّكتْ قريشٌ؛ كنت فيها ، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ، فقال: يا رسول الله! تؤمِّنه؟ فقال: «نعم ، هو امنٌ بأمان الله ، فليظهر!» ثمَّ قال رسول الله (ص) لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدَّ النَّظر إليه ، فليخرج فلعمري! إنَّ سهيلاً له عقلٌ ،

وشرفٌ ، وما مثل سهيل جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه: أنَّه لم يكن له بنافع!» فخرج عبد الله إلى أبيه ، فقال سُهيل: كان والله بَرّاً ، صغيراً ، وكبيراً! فكان سهيل يقبل ، ويدبر ، وخرج إلى حنين مع النَّبيِّ (ص) وهو على شركه حتَّى أسلم بالجِعِرَّانة. [الحاكم (٣/٢٨١)][(٤٤٨)].

لقد كانت لهذه الكلمات التَّربويَّة الأثر الكبير على سهيل بن عمروٍ؛ حيث أثنى على رسول الله (ص) بالبرِّ طوال عمره ، ثمَّ دخل في الإسلام بعد ذلك ، وقد حسُن إسلامه ، وكان مكثراً من الأعمال الصَّالحة[(٤٤٩)] ، يقول الزُّبير بن بكَّار: كان سهيل بعدُ كثير الصَّلاة والصَّوم والصَّدقة ، خرج بجماعته إلى الشَّام مجاهداً ، ويقال: إنَّه صام ، وتهجَّد حتى شحب لونُه ، وتغيَّر ، وكان كثير البُكاء إذا سمع القران ، وكان أميراً على كُرْدُوسَةٍ[(٤٥٠)] يوم اليرموك[(٤٥١)].

٢ . إسلام صفوان بن أميَّة:

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه: ... وأمَّا صفوان بن أميَّة فهرب حتَّى أتى الشُّعَيبة[(٤٥٢)] ، وجعل يقول لغلامه يسار . وليس معه غيره .: ويحك! انظر مَنْ ترى ، قال: هذا عُمَيرُ بن وهبٍ ، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي! قد ظاهر محمداً عليَّ. فلحقه فقال: يا عُمَيْرَ! ما كفاك ما صنعت بي؟ حمَّلتني دَيْنَك وعيالك ، ثمَّ جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك!

جئتك من عند أبرِّ النَّاس ، وأوصل النَّاس ، وقد كان عُمير قال لرسول الله (ص) : يا رسول الله! سيِّد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر ، وخاف ألا تُؤمِّنه فداك أبي ، وأمي! قال رسول الله (ص) : «قد أمنته» فخرج في أثره ، فقال: إنَّ رسول الله (ص) قد أمَّنك. فقال صفوان: لا والله! لا أرجع معك حتَّى تأتيني بعلامةٍ أعرفها ، فرجع إلى رسول الله (ص) ، فقال: يا رسول الله! جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه ، فأخبرته بما أمَّنْتَه فقال: لا أرجع حتَّى تأتي بعلامةٍ أعرفها ، فقال رسول الله (ص) : «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها ، وهو البُرْدُ الَّذي دخل فيه رسول الله (ص) يومئذٍ مُعتجراً[(٤٥٣)] به ، بُرد حَبِرة[(٤٥٤)] ، فخرج عمير في طلبه ثانيةً حتَّى جاء بالبُرْد ، فقال: أبا وهب! جئتك من عند خير النَّاس ، وأوصل النَّاس ، وأبرِّ الناس ، وأحلم النَّاس ، مَجْده مَجْدُك ، وعزُّه عزُّك ، ومُلكُه مُلكُك ، ابن أمِّك وأبيك ، اذكرِ الله في نفسك.

قال له: أخاف أن أُقتل ، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام ، فإن رضيت وإلا سيَّرك شهرين ، فهو أوفى النَّاس ، وأبرُّهم ، وقد بعث إليك ببرده الَّذي دخل فيه معتجراً ، تعرفه؟ قال: نعم ، فأخرجه ، فقال: نعم ، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله (ص) يُصلِّي بالمسلمين العصر بالمسجد ، فوقفا. فقال صفوان: كم تُصَلُّون في اليوم واللَّيلة؟ قال: خمس صلوات ، قال: يُصلِّي بهم محمَّد؟ قال: نعم. فلمَّا سلَّم؛ صاح صفوان: يا محمد! إنَّ عمير بن وهب جاءني ببردك ، وزعم: أنَّك دعوتني إلى القدوم عليك ، فإن رضيت أمراً ، وإلاَّ سيرتني شهرين. قال: انزل أبا وهب. قال: لا والله! حتى تبيِّن لي ، قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر ، فنزل صفوان. [البيهقي في الدلائل (٥/٤٦) ، وابن هشام (٤/٦٠)].

وخرج رسول الله (ص) قِبَلَ هوازن ، وخرج معه صفوان ، وهو كافرٌ ، وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مئة درعٍ بأداتها ، فقال: طوعاً ، أو كرهاً؟ قال رسول الله (ص) : «عاريةٌ مُؤَدَّاةٌ» [أحمد (٣/٤٠١ و٦/٤٦٥) ، وأبو داود (٣٥٦٢) ، والحاكم (٣/٤٩) ، والبيهقي في الكبرى (٦/٨٩)] ، فأعاره ، فأمره رسول الله (ص) فحملها إلى حنين ، فشهد حنُيناً ، والطَّائف ، ثمَّ رجع رسول الله (ص) إلى الجِعِرَّانة ، فبينما رسول الله (ص) يسير في الغنائم ينظر إليها ، ومعه صفوان بن أميَّة؛ جعل صفوان ينظر إلى شعْبٍ مُلأى نَعَماً ، وشاءً ، ورِعَاءً ، فأدام إليه النَّظر ورسول الله (ص) يرمقُه فقال: «أبا وهب ، يعجِبُك هذا الشِّعب؟» قال: نعم ، قال: «هو لك وما فيه». فقال صفوان عند ذلك: ما

طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفسُ نبيٍّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ، وأسلم مكانه. [الواقدي في المغازي (٨٥٣/٢ ـ ٨٥٥) ، وكنز العمال (٣٠١٧٠)].

ونلاحظ في هذا الخبر أنَّ النَّبيَّ (ص) حاول أن يتألَّف صفوان بن أميَّة إلى الإسلام حتَّى أسلم ، وذلك بإعطائه الأمان ، ثمَّ بتخييره في الأمر أربعة أشهر ، ثمَّ بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسانٍ عاديٍّ ، فأعطاه أولاً مئةً من الإبل مع عددٍ من زعماء مكَّة ، ثمَّ أعطاه ما في أحد الشِّعاب من الإبل ، والغنم ، فقال: ما طابت نفس أحدٍ بهذا إلا نفس نبيٍّ ، ثمَّ أسلم مكانه[(٤٥٥)] ، وقد وصف لنا صفوان بن أميَّة عطاء النَّبيِّ (ص) فقال: والله! لقد أعطاني رسول الله (ص)

ما أعطاني ، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ. [مسلم (٢٣١٣)].

٣ ـ إسلام عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ:

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه: قالت أمُّ حكيمٍ امرأة عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنها: يا رسول الله! قد هرب عكرمة منك إلى اليمن ، وخاف أن تقتله؛ فأَمِّنْهُ! فقال رسول الله (ص) : «هو امن» فخرجت أمُّ حكيمٍ في طلبه ، ومعها غلامٌ لها روميٌّ ، فراودها عن نفسها ، فجعلت تُمَنِّيه حتَّى قدمت على حَيٍّ مِنْ عَكٍّ[(٤٥٦)] ، فاستغاثتهم عليه ، فأوثقوه رباطاً ، وأدركت عكرمةَ وقد انتهى إلى ساحلٍ من سواحلِ تهامة ، فركب البحر ، فجعل نُوتيُّ السَّفينة يقول له: أخلص! فقال: أيُّ شيءٍ أقول: قال: قل: لا إله إلا الله ، قال عكرمة: ما هربت إلا مِنْ هذا ، فجاءت أمُّ حكيم على هذا الكلام ، فجعلت تلحُّ عليه ، وتقول: يا بن عم! جئتك من عند أوصل النَّاس ، وأبرِّ النَّاس، وخير النَّاس، لا تُهلِكْ نَفْسَكَ! فوقف لها حتَّى أدركته ، فقالت: إنِّي قد استأمنت لك محمَّداً رسول الله (ص) ، قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم ، أنا كلَّمتُه ، فأمَّنك ، فرجع معها وقال: ما لقيت من غلامك الرُّوميِّ؟ فخبَّرته خبره ، فقتله عكرمةُ ، وهو يومئذٍ لم يُسلم ، فلمَّا دنا من مكَّة؛ قال رسول الله (ص) لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تَسُبُّوا أباه ، فإنَّ سبَّ الميِّت يؤذي الحيَّ ، ولا يبلغ الميِّت».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها ، فتأبى عليه ، وتقول: إنَّك كافرٌ ، وأنا مسلمةٌ ، فيقول: إنَّ أمراً منعك منِّي لأمرٌ كبير ، فلمَّا رأى النَّبيُّ (ص) عكرمة؛ وثب إليه ـ وما على النَّبيِّ (ص) رداءٌ ـ فرحاً بعكرمة ، ثمَّ جلس رسولُ الله (ص) فوقف بين يديه ، وزوجتُه مُتنقبةٌ ، فقال: يا محمد! إن هذه أخبرتني أنَّك أمَّنتني.

فقال رسول الله (ص) : «صَدَقَتْ، فأنت امن!» فقال عكرمة: فإلامَ تدعو يا محمد؟! قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله ، وأن تقيم الصَّلاة وتؤتي الزَّكاة ، وتفعل ، وتفعل»، حتَّى عدَّ خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله! ما دعوتَ إلا إلى الحقِّ ، وأمرٍ حسنٍ جميلٍ ، قد كنت والله! فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه ، وأنت أصدقُنا حديثاً، وأبرُّنا برّاً! ثمَّ قال عكرمة: فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ، فسُرَّ بذلك رسولُ الله (ص) ، ثمَّ قال: يا رسول الله! علِّمني خيرَ شيءٍ أقوله. قال: «تقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمَّداً عبده ورسوله» قال عكرمة: ثُمَّ ماذا؟ قال رسول الله (ص) : «تقول: أُشْهِدُ الله وأُشْهد مَنْ حضر أنِّي مسلمٌ مهاجرٌ ، ومجاهدٌ». فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله (ص) : «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتُكَه» فقال عكرمة: فإنِّي أسألك أن تستغفر لي كلَّ عداوةٍ عاديتُكها ، أو مسيرٍ وُضعتُ فيه ، أو مقام لقيتُك فيه ، أو كلام قلتُه في وجهك ، أو وأنت غائبٌ عنه ، فقال رسول الله (ص) : «اللَّهمَّ! اغفر له كلَّ عداوةٍ عادانيها ، وكلَّ مسير سار فيه إلى موضعٍ يريد بذلك المسير إطفاء نورك ، فاغفر له ما نال منِّي مِنْ عرضٍ في وجهي ، أو أنا غائبٌ عنه!» فقال عكرمة: رضيتُ يا رسول الله! لا أدع نفقةً كنت أنفقُها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً كنتُ أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليتُ ضعفه في سبيل الله ، ثمَّ اجتهد في القتال حتَّى قتل شهيداً[(٤٥٧)].

وبعد أن أسلم رد رسول الله (ص) امرأته له بذلك النكاح الأول. [ابن هشام (٤/٦١)][(٤٥٨)].

كان سلوك النَّبيِّ (ص) في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً ، يكفي وحدَه لاجتذابه إلى الإسلام ، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه ، وابتسم له ، ورحَّب به ، وفي روايةٍ: قال له: «مرحباً بالر اكب المهاجر!» [الترمذي (٢٧٣٥) ، والطبراني في الكبير (٧/٣٧٣ ـ ٣٧٤) ، ومجمع الزوائد (٩/٣٨٥)].

فتأثَّر عكرمة من ذلك الموقف ، فاهتزَّت مشاعره ، وتحرَّكت أحاسيسه ، فأسلم ، كما كان لموقف أمِّ حكيم بنت الحارث بن هشام أثرٌ في إسلام زوجها ، فقد أخذت له الأمان من رسول الله (ص) ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعلَّ الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه ، وعندما أرادها زوجها ، امتنعت عنه ، وعلَّلت ذلك بأنَّه كافرٌ وهي مسلمةٌ ، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنَّه أمام دين عظيمٍ ، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التَّفكير في الإسلام ، ثمَّ تُوِّج بإسلامه بين يدي رسول الله (ص) ، وكان صادقاً في إسلامه ، فلم يطلب من رسول الله (ص) دنيا؛ وإنَّما سأله أن يغفر الله

تعالى له كلَّ ما وقع فيه من ذنوبٍ ماضية ، ثمَّ أقسم أمام النَّبيِّ (ص) بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية ، وأن يُبليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية ، ولقد بَرَّ بوعده ، فكان من أشجع المجاهدين ، والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردَّة ، ثمَّ في فتوح الشام، حتَّى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه ، وماله في سبيل الله[(٤٥٩)].

٤ ـ مثلٌ من تواضع النَّبيِّ (ص): إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصِّديق رضي الله عنها: لما دخل رسول الله (ص) مكَّة ، ودخل المسجد؛ أتى أبو بكر بأبيه يقودُه ، فلمَّا راه رسول الله (ص) قال: «هلاَّ تركت الشيخ في بيته حتَّى

أكون أنا اتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ، قالت: فأجلسه بين يديه ، ثمَّ مسح صدره ، ثمَّ قال له: «أسلم» ، فأسلم ، قالت: فدخل به أبو بكر ، وكأنَّ رأسه ثغامةٌ ، فقال رسول الله (ص) : «غيِّروا هذا من شعره» [أحمد (٦/٣٤٩ ـ ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (٢٤/٨٨ ـ ٨٩) برقم (٢٣٦) ، وابن حبان (٧٢٠٨) ، والحاكم (٣/٤٦ ـ ٤٧) ، ومجمع الزوائد (٦/١٧٣ ـ ١٧٤)][(٤٦٠)] ، ويروى: أنَّ رسول الله (ص) هنَّأ أبا بكرٍ بإسلام أبيه[(٤٦١)].

وفي هذا الخبر منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنَّه النَّبيُّ (ص) في توقير كبار السِّنِّ واحترامهم، ويؤكِّد ذلك قوله (ص) : «ليس منَّا من لم يوقِّر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا» [أحمد (١/٢٥٧) ، والترمذي (١٩٢١) ، وابن حبان (٤٥٩)].

وقوله (ص) : «إنَّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشَّيبة المسلم» [أبو داود (٤٨٤٣)] ، كما أنَّه (ص) سَنَّ إكرام أقارب ذوي البلاء ، والبذل ، والعطاء ، والسَّبق في الإسلام؛ تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمةٍ للإسلام والمسلمين ، ونصر دعوة الله تعالى[(٤٦٢)].

٥ ـ مثلٌ من عفو النَّبيِّ (ص) وحلمه: إسلام فضالة بن عُمَيْرٍ:

أراد فُضالة بن عُمَيْر بن الملوح اللَّيثي قتل النَّبيِّ (ص) وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلمَّا دنا منه ، قال رسولُ الله (ص) : «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله! قال: «ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟» قال: لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال: فَضَحِكَ النبي (ص) ، ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبُه ، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتَّى ما مِنْ

خلق اللهِ شيءٌ أحبَّ إلي منه ، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأةٍ كنت أتحدَّث إليها ، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث ، فقلت: لا! وانبعث فضالة يقول:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيْثِ فَقُلْتُ لاَ   يَأْبَى عَلَيْكِ اللهُ والإِسْلاَمُ

لَوْ مَا رأيت محمَّداً وَقَبِيْلَهُ   بالفَتْحِ يَوْمَ تُكَسَّرُ الأَصْنَامُ

لَرَأَيْتِ ديْنَ اللهِ أَضْحَى بَيِّنَاً   والشِّرْكُ يَغْشَى وَجْهَهُ الإِظْلاَمُ

[ابن هشام (٤/٥٩ . ٦٠)][(٤٦٣)].

ثالثاً: أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله؟!

قال عروة بن الزُّبير: إنَّ امرأةً سرقت في عهد رسول الله (ص) في غزوة الفتح ، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفعونه ، قال عروة: فلمَّا كلَّمه أسامةُ فيها؛ تلوَّن وجه رسول الله (ص) ، فلمَّا

كان العشيُّ؛ قام رسول الله (ص) خطيباً فأثنى على الله بما هو أهلُه ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد ، فإنَّما أهلك النَّاس قبلكم: أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف؛ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضَّعيف ، أقاموا عليه الحدَّ ، والَّذي نفس محمد بيده! لو أنَّ فاطمة بنت محمَّدٍ سرقت؛ لقطعت يدها» ، ثمَّ أمر رسول الله (ص) بتلك المرأة فقُطِعَتْ يدُها ، فحسنت توبتُها بعد ذلك وتزوَّجت. قالت عائشة رضي الله عنها: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتها إلى رسول الله (ص) . [البخاري (٤٣٠٤) ، ومسلم (١٦٨٨/٩)].

وهكذا يستمرُّ البناء التربويُّ للأمَّة ، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حدٍّ سواء ، ووجدت قريش نفسها أمام تشريعٍ ربَّانيٍّ لا يفرق بين النَّاس ، فهم كلُّهم أمام ربِّ العالمين سواءٌ ، وأصبحت معايير الشَّرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى ، وفي هذا الموقف الَّذي أثار غضب رسول الله الشديد ، واهتمامه الكبير لعبرةٌ للمسلمين ، حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى ، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلاميَّة[(٤٦٤)].

رابعاً: «أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانأى !»:

قالت أمُّ هانأى بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله (ص) بأعلى مكَّة؛ فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي ، من بني مخزوم . وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزوميِّ . قالت: فدخل عليَّ عليُّ بن أبي طالب أخي ، فقال: والله! لأقتلنَّهما ، فأغلقتُ عليهما باب بيتي ، ثمَّ جئت رسول الله (ص) وهو بأعلى مكَّة ، فوجدته يغتسل من جَفنةٍ إنَّ فيها لأثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلمَّا اغتسل ، أخذ ثوبه ، فتوشَّح به ، ثمَّ صلى ثماني ركعاتٍ من الضُّحى ، ثمَّ انصرف إليَّ ، فقال: «مرحباً ، وأهلاً يا أم هانأى !

ما جاء بك ؟» فأخبرته خبر الرَّجلين ، وخبر عليٍّ؛ فقال: «قد أجرنا مَنْ أجرتِ ، وأمَّنَّا مَنْ أمَّنْتِ ، فلا يقتلهما». [البخاري (٣١٧١) ، ومسلم (٨٢/٣٣٦)][(٤٦٥)].

خامساً: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة أعين»:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح قد أسلم وكتب الوحيَ ثمَّ ارتد ، فلمَّا دخل رسول الله (ص) مكَّة ، وقد أهدر دمه؛ فرَّ إلى عثمان ، وكان أخاه من الرَّضاعة ، فلمَّا جاء به ليستأمنَ له؛ صمت عنه رسولُ الله (ص) طويلاً ، ثم قال: «نعم» فلمَّا انصرف مع عثمان؛ قال رسول الله (ص) لمن حوله: «أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حين رآني قد صَمَتُّ ، فيقتله؟!» فقالوا:

يا رسول الله! هلاَّ أومأت إلينا؟ فقال: «إنَّ النَّبيَّ لا يقتُل بإشارة» [الطبراني في الأوسط (٦٥٧٣) ، ومجمع الزوائد (١٦٧/٦)][(٤٦٦)].

وفي روايةٍ: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنةُ أعين» [أبو داود (٢٦٨٣) و(٤٣٥٩) ، والنسائي (١٠٥/٧ ـ ١٠٦)][(٤٦٧)].

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامُه بعد ذلك ، وولاَّه عمر بعض أعماله ، ثمَّ ولاه عثمان[(٤٦٨)].

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجدٌ في صلاة الصُّبح ، أو بعد انقضاء صلاتها في بيته[(٤٦٩)].

سادساً: «المحيا محياكم ، والممات مماتُكم»:

قال أبو هريرة:.... أتى رسولُ الله (ص) الصَّفا ، فعلاه حيث ينظر إلى البيت ، فرفع يديه ، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ، ويدعوه ، قال: والأنصار تحته ، قال: يقول بعضهم لبعضٍ: أمَّا الرَّجل؛ فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشيرته ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: وجاء الوحي ، وكان إذا جاء لم يَخْفَ علينا ، فليس أحدٌ من النَّاس يرفع طرفه إلى رسول الله (ص) حتَّى يقضي ، قال: فلمَّا قُضِيَ الوحي ؛ رفع رأسه ، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار! قلتم: أمَّا الرَّجل ، فأدركته رغبةٌ في قريته ، ورأفةٌ بعشيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله! قال: «فما اسمي إذاً؟! كلا ، إنِّي عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله ، وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم».

قال: فأقبلُوا إليه يبكون ، ويقولون: والله! ما قلنا الَّذي قلنا إلا الظنَّ بالله ورسوله ، قال: فقال رسول الله (ص) : «فإنَّ الله ورسولَه ليصدِّقانكم ، ويعذرانكم». [أحمد (٥٣٨/٢ ـ ٥٣٩) ، ومسلم (١٧٨٠)][(٤٧٠)].

سابعاً: إسلام عبد الله بن الزِّبَعْرى شاعر قريش:

لما فُتِحَتْ مكَّةُ فرَّ عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهميُّ إلى نجران ، فلحقته قوافي حسَّان ، فقد كان خصماً عنيداً للإسلام ، فراح يعيِّره بالجُبْن ، والفِرار ، فقال له:

لاَ تَعْدِمَنْ رَجُلاً أَحَلَّك بُغضُهُ نَجْرَانَ في عَيْشٍ أَحذَّ لَئِيْمِ[(٤٧١)]

أي: فَلْيُبْقِ الله لنا محمَّداً (ص) هذا الرَّجل العظيم الَّذي أحلَّك بغضُه ديارَ نجران ، وليُدمِ الله عليك ابن الزِّبعرى عيشاً مهيناً أشأم.

ثمَّ راح حسَّان يستنزل غضب اللهِ ومَقْتَه على ابن الزِّبعرى وعلى نجله ، ويسأل الله تعالى أن يخلِّده في سوء العذاب ، وأليمه[(٤٧٢)]:

غَضِبَ الإلَهُ عَلَى الزِّبَعْرَى ، وَابْنَهُ وعَذَابُ سُوءٍ في الحَيَاةِ مُقِيْمُ

فتطايرت تلك الأبيات ، ووصلت إلى ابن الزِّبَعْرَى ، فقام ، وقعد ، وقلب أموره ، ثمَّ أراد الله به الخير ، فعزم على الدُّخول في الإسلام ، ثمَّ توَّجه إلى مكَّة ، وقصد رسول الله (ص) وأعلن إسلامه ، وطلب مِنْ رسول الله (ص) أن يستغفر له كلَّ عداوةٍ له ، وللإسلام ، فقال له رسول الله (ص) : «إن الإسلام يجبُّ ما قبله[(٤٧٣)]» ، ثمَّ أدناه رسول الله (ص) منه ، وانسه ، ثمَّ خلع عليه حلَّةً[(٤٧٤)] ، وقد أجمع الرُّواة أنَّ ابن الزِّبَعْرَى رضي الله عنه قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله (ص)[(٤٧٥)] ، قال ابن عبد البَرِّ ـ رحمه الله ـ: وله ـ أي: لابن الزِّبَعْرى ـ في مدح النَّبي (ص) أشعارٌ كثيرةٌ ، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كُفْرِه[(٤٧٦)].

وكذا نصَّ ابنُ حجرٍ في الإصابة: ثمَّ أسلم ، ومدح النَّبيَّ (ص) ، فأمر له بِحُلَّةٍ[(٤٧٧)].

وقال القرطبي: «وكان شاعراً مُجيداً ، وله في مدح النَّبيِّ (ص) أشعارٌ كثيرةٌ ، ينسخ بها ما قد مضى في كفره»[(٤٧٨)] ، وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ، وَمِنَ الشُّعراء الَّذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين ، ثمَّ منَّ اللهُ عليه بالتَّوبة والإنابة ، والرُّجوع إلى الإسلام ، والقيام بنصره والذَّبِّ عنه[(٤٧٩)].

ومن القصائد الرَّائعة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ (ص) ، وندمه على محاربة الإسلام، وتأخُّره في الدُّخول فيه:

مَنَعَ الرُّقادَ بَلابِلٌ وهُمُومُ والَّليْلُ مُعْتَلِجُ[(٤٨٠)] الرِّوَاقِ[(٤٨١)] بَهِيْمُ[(٤٨٢)]
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لامَنِيْ فِيْهِ فَبِتُّ كَأَنَّني مَحْمُوْمُ

يا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَى أَوْصَالِهَا عَيْرَانةٌ[(٤٨٣)] سُرُحُ الْيَدَيْنِ غَشُوْمُ[(٤٨٤)]
إِنّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذيْ أَسْدَيْتُ إِذ أَنَا في الضَّلالِ أَهِيْمُ
أَيَّامَ تأْمُرُنِي بأَغْوَى خُطَّةٍ سَهْمٌ وتأْمُرُنِي بِهَا مَخْزُوْمُ
وأمدُّ أَسْبَابَ الرَّدَى ويَقُودُنِي أَمْرُ الغُوَاةِ وأَمْرُهُمْ مَشْؤومُ
فالْيَوْمَ امَنَ بالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَلْبِي وَمُخْطِأىُ هَذِهِ مَحْرُوْمُ
مَضَتِ العَداوَةُ وانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا ودَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلومُ
فاغْفِرْ فِدىً لكَ والِدَيَّ كِلاَهُمَا زَلَلِيْ فإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُوْمُ
وعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ المِلِيْكِ عَلاَمَةٌ نُوْرٌ أَغَرُّ وخاتَمٌ مَخْتُومُ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ شَرَفاً وبُرْهَانُ الإلهِ عَظِيْمُ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بأَنَّ دِيْنَكَ صَادِقٌ حَقٌّ وأَنَّكَ في الْعِبَادِ جَسِيْمُ
واللهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفى مُسْتَقْبَلٌ في الصَّالِحِيْنَ كَرِيْمُ
قَرْمٌ عَلاَ بُنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ فَرْعٌ تَمَكَّنَ في الذُّرا وأُرُوْمُ[(٤٨٥)]

ثامناً: من الأحكام الشَّرعيَّة الَّتي تؤخذ من الغزوة ، ومكانُ نزول الرَّسول (ص) بمكَّة:

١ ـ اتَّضحت كثير من الأحكام الشَّرعيَّة خلال فتح مكَّة؛ منها:

أ ـ جواز الصَّوم ، والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصيةٍ؛ حيث صام الرَّسول (ص) في مسيرة الجيش من المدينة حتَّى بلغ كُدَيْداً ، فأفطر[(٤٨٦)].

ب ـ صلَّى النَّبيُّ (ص) صلاة الضُّحى ثمانيَ ركعاتٍ خفيفةً ، واستدلَّ قوم بهذا على أنَّها سنَّةٌ مؤكَّدةٌ(١).

ج ـ قصر الصَّلاة الرُّباعية للمسافر ، فقد أقام النَّبيُّ (ص) بمكَّة تسعةَ عَشَرَ يوماً يقصر الصَّلاة[(٤٨٧)].

د ـ تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدَّة ثلاثة أيام[(٤٨٨)] ، ويرى الإمام النَّوويُّ[(٤٨٩)]: أنَّه وقع تحريمه ، وإباحته مرَّتين؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر ، فحُرِّم يومها ، ثمَّ أبيح يوم الفتح ، ثمَّ حُرِّم للمرة الثَّانية إلى الأبد. ويرى ابن القيِّم[(٤٩٠)]: أن المتعة لم تُحرَّم يوم خيبر ، وإنَّما كان تحريمها فقط يوم الفتح ، وله في هذا مناقشةٌ طويلةٌ عند كلامه عن الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث غزوة خيبر ، وغزوة الفتح. والمتَّفق عليه: أنَّها حرِّمت إلى الأبد بعد الفتح[(٤٩١)].

هـ قرَّر الرَّسول (ص) : أنَّ الولد للفراش ، وللعاهر الحجر. [سبق تخريجه]. كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة زمعة ، فقد تنازع فيه سعدُ بن أبي وقَّاص وعبد بن زمعة ، فقضى فيه رسول الله (ص) لعبد بن زمعة؛ لأنَّه ولد على فراش أبيه. [سبق تخريجه].

و ـ عدم جواز الوصيَّة بأكثر من ثلث المال ، كما في قصَّة سعد بن أبي وقَّاص حين مرض بمكَّة ، واستشار الرَّسول (ص) في أن يوصيَ بأكثر من الثُّلث[(٤٩٢)].

هذه بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث الغزوة ، والفتح العظيم.

٢ ـ مكان نزول الرَّسول (ص) بمكَّة:

نزل رسولُ الله (ص) بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين ، وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته: «وهل ترك لنا عقيلٌ من رباع ، أو دور؟!» [البخاري (١٥٨٨) ، ومسلم (١٣٥١)] مبيناً: أنَّه لا يرث المسلم الكافر [البخاري (٦٧٦٤) ، ومسلم (١٦١٤)][(٤٩٣)] ، وكان عقيل قد ورث أبا طالب ، هو وطالب أخوه ، وباع الدُّورَ كلَّها ، وأمَّا عليٌّ ، وجعفرٌ فلم يرثاه لأنَّهما مسلمان ، وأبو طالب مات كافراً[(٤٩٤)].

تاسعاً: من نتائج فتح مكَّة:

كان لفتح مكَّة نتائجُ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ دخلت مكَّة تحت نفوذ المسلمين ، وزالت دولة الكفر منها ، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشِّرك في حنين ، والطائف ، ومن ثَمَّ في العالم أجمع.

٢ ـ أصبح المسلمون قوةً عظمى في جزيرة العرب ، وبعد فتح مكَّة تحقَّقت أمنية الرَّسول (ص) بدخول قريش في الإسلام ، وبرزت قوَّةٌ كبرى في الجزيرة العربيَّة لا يستطيع أيُّ تجمُّعٍ قبليٍّ الوقوف في وجهها ، وهي مؤهَّلةٌ لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ، ثمَّ الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم ، والطُّغيان ، وتأمين الحرِّيَّة لخلق الله؛ لكي يدخلوا في دين الله ، ويعبدوه وحده دون سواه[(٤٩٥)].

٣ ـ كان لهذا الفتح اثارٌ عظيمةٌ دينيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ ، واجتماعيَّة ، وقد بدأت هذه الاثار بصورة يلمَسُها كلُّ مَنْ يُمعن النَّظر في هذا الفتح المبارك.

فأمَّا الاثار الاجتماعيَّة؛ فتمثَّلت في رفقه (ص) بالنَّاس ، وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يُعلِّمهم ، ويفقِّههم في دينهم فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكَّة بعد انصرافه عنها ليصلِّيَ بالنَّاس ، ويفقِّههم في دينهم.

وأمَّا الاثار السِّياسيَّة ، فقد عيَّن عتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ أميراً على مكَّة ، يحكم بين النَّاس بكتاب الله ، فيأخذ لضعيفهم ، وينتصر للمظلوم من الظَّالم[(٤٩٦)].

وأمَّا الاثار الدِّينيَّة؛ فإنَّ فتح مكة ، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الِّدين الَّذي ارتضاه الله لعباده ، فدخلوا فيه أفواجاً[(٤٩٧)].

٤ . تحقَّق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصَّادقين، بعدما ضحَّوا بالغالي، والنَّفيس، وحقَّقوا شروط التَّمكين، وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه، كسنَّة الابتلاء، والتَّدافع، والتَّدرُّج ، وتغيير النُّفوس ، والأخذ بالأسباب ، ولا ننسى تلك الصُّورة الرَّائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذِّناً بالصَّلاة بعد أن عُذِّبَ في بطحاء مكَّة ، وهو يردد: أحد! أَحد! في أغلاله وحديده ، هاهو اليوم قد صعد فوق الكعبة ليرفع صوته الجميل بالأذان؛ وهو في نشوة الإيمان.

* * *

الفصل السَّادس عشر

غزوة حنين ، والطَّائف (٨ هـ)[(٤٩٨)]

المبحث الأوَّل

أسبابها ، وأحداث المعركة

لما فتح الله مكَّة على رسوله، والمؤمنين ، وخضعت له قريشٌ ، خافت هوازن ، وثقيفٌ ، وقالوا: قد فرغ محمَّد لقتالنا ، فلنغزُه قبل أن يغزونا ، وأجمعوا أمرهم على هذا ، وولَّوْا عليهم مالكَ بن عوف النَّصْريَّ ، فاجتمع إليه هوازن ، وثقيف وبنو هلال ، ولم يحضرها من هوازن كعبٌ ، وكلابٌ ، وكان معهم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة ، وكان معروفاً بشدَّة البأس في الحرب ، وأصالة الرَّأي ، إلا أنَّه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي ، والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يُخرجوا وراءهم النِّساء والذَّراري ، والأموال حتى لا يفرُّوا ، فلمَّا علم بذلك دُرَيْدُ؛ سأله: لِمَ ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كلِّ رجلٍ أهلَه ، ومالَه؛ ليقاتل عنهم ، فقال دُرَيْدُ: راعي ضأنٍ والله ، وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ؟! إنَّها إن كانت لك؛ لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ، ورمحه ، وإن كانت عليك؛ فُضِحْتَ في أهلك ومالك!! ولكنَّه لم يستمع لمشورته[(٤٩٩)].

أوَّلاً: أهمُّ أحداث غزوة حنين:

تحرَّك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال ، ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوَّال[(٥٠٠)] ، وقد استخلف الرَّسول (ص) عَتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ على مكَّة عند خروجه ، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً من المسلمين ، أمَّا عدد هوازن ، وثقيف: فكانوا ضعف عدد المسلمين ، أو أكثر ، ولما رأى بعض الطُّلقاء جيش المسلمين؛ قالوا: لن نُغْلَبَ اليوم من قلَّة ، ودخل الإعجابُ في النُّفوس[(٥٠١)].

أ ـ التعبئة الَّتي اتَّخذها مالكُ بن عوف زعيمُ هوازن ، وثقيف:

اتَّخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئةً عاليةً ، مرَّت بمراحل:

١ ـ رفع الرُّوح المعنويَّة لدى جنوده:

وقف مالك خطيباً في جيشه ، وحثَّهم على الثَّبات ، والاستبسال ، وممَّا قال في هذا الجمع الحاشد: إنَّ محمداً لم يقاتل قطُّ قبل هذه المرَّة ، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً[(٥٠٢)] ، لا علم لهم بالحرب فيُنصَرُ عليهم[(٥٠٣)].

٢ ـ حشر ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين ، وأطفالهم ، وأموالهم خلفهم ، وقد قصد من وراء هذا التَّصرُّف دفع المقاتلين إلى الاستبسال ، والثبات أمام أعدائهم؛ لأنَّ المقاتل ـ من وجهة نظره ـ إذا شعر أنَّ أعزَّ ما يملك وراءهُ في المعركة؛ صعُب عليه أن يلوذ بالفرار مخلِّفاً ما وراءه في ميدان المعركة؛ عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ، قال: افتتحنا مكَّة ، ثمَّ غزونا حنيناً ، فجاء المشركون بأحسن صفوفٍ رأيتُ ، قال: فصُفَّتِ الخَيْلُ ، ثُمَّ صُفَّت المقاتلة ، ثمَّ صُفَّتِ النِّساءُ من وراء ذلك ، ثُمَّ صُفَّتِ الغنم ، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ. [مسلم (١٠٥٩/١٣٦)].

٣ ـ تجريد السُّيوف ، وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال ، وهذا التَّصرُّف يؤذن بإصرار المقاتل على الثَّبات أمام الخصم حتَّى النَّصر أو الموت ، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقاً لهذا ، بدليل قوله: إذا أنتم رأيتم القوم؛ فاكسروا جفون سيوفكم ، وشدُّوا شدَّة رجلٍ واحدٍ عليهم. [الحاكم (٣/٤٨ ـ ٤٩) ، ومجمع الزوائد (٦/١٧٩ ـ ١٨٠)].

٤ ـ وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كان عند مالك بن عوف النَّصْرِيِّ معلوماتٌ وافيةٌ عن الأرض الَّتي ستدور عليها المعركة ، ولهذا رأى أن يستغلَّ هذه الظُّروف الطَّبيعيَّة لصالح جيشه ، فعمل بمشورة الفارس المحنَّك دُرَيْدُ بن الصِّمَّة في نصب الكمائن لجيوش المسلمين ، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على

قوات المسلمين لولا لطفُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعنايتُه.

٥ ـ الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضمنَ الخطَّة الَّتي رسمها القائد الهوازنيُّ الأخذُ بزمام المبادرة ، ومهاجمة المسلمين؛ لأنَّ النَّصر في الغالب يكون للمهاجم ، أمَّا المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضَّعف ، ولهذا اتت هذه الخطَّة ثمارها بعض الوقت ، ثمَّ انقلبت موازين القوى ـ بفضل الله تعالى ـ ثمَّ بثبات رسول الله (ص) حيث كسب المسلمون الجولة ، وانتصروا على أعدائهم[(٥٠٤)].

٦ ـ شن الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين:

كان من ضمن بنود الخطَّة الحربيَّة الَّتي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازنيُّ ، استعمال سلاحٍ معنويٍّ ، له تأثيرٌ كبيرٌ في النُّفوس ، فقد شنَّ الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم ، وذلك بأن عمد إلى عشرات الالاف من الجمال الَّتي صحبها معه في الميدان ، فجعلها وراء جيشه ثمَّ أركب عليها النساء ، فكان لذلك المشهد منظرٌ مهيب يحسب من يراه: أنَّ هذا الجيش مئة ألف مقاتلٍ ، وهو ليس كذلك[(٥٠٥)].

ب ـ خطوات الرَّسول (ص) لصدِّ هذه الحشود:

لما بلغ النبي (ص) عزم هوازن على حربه بعد أن تمَّ له فتح مكَّة ـ شرَّفها الله ـ قام بالاتي:

١ ـ أرسل عبدَ الله بن أبي حَدْرَد الأسْلميَّ حتَّى يوافيه بخبر هوازن:

فذهب رضي الله عنه ، ومكث بينهم يوماً أو يومين ، ثم عاد ، وأخبر النَّبي (ص) بما رأى[(٥٠٦)].

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرَّسول (ص) وعاد على وجه السُّرعة بخبر هؤلاء الأعداء ، إلا أنَّه قصَّر رضي الله عنه في أداء هذا الواجب؛ حيث لم يختلط بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يسمع ، ويرى ما يُدبَّر ضدَّ المسلمين هناك ، وكان من أهمِّ ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين الَّتي احتلُّوها ، وقد فوجأى المسلمون باختفاء تلك الكمائن الَّتي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي ، حتَّى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى ، فكان الجهل بهذه الكمائن أحدَ الأسباب الرَّئيسة وراء هزيمة المسلمين في أوَّل المعركة ، وما حدث نتيجةً لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثَّابتة لرسول الله (ص) ؛ لأنَّ هذا الأمر ليس وحياً من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإنَّما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكريَّة ، وقد

بذل النَّبيُّ (ص) جهده في سبيل الحصول على أدقِّ المعلومات ، وأوفاها؛ لكي يضع على ضوئها الخطَّة العسكريَّة المناسبة لمجابهة العدوِّ[(٥٠٧)].

٢ ـ عُدَّة الجيش ، واستعارة الدُّروع ، والرِّماح:

أعدَّ رسول الله (ص) جيشاً قوامه عشرة الاف ، وهم مَنْ خرجوا معه من المدينة ، وألفان من مسلمة الفتح ، فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفاً ، عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن ، وغطفان بذراريهم ، ونَعَمِهم؛ ومع النَّبِيِّ (ص) يومئذٍ عشرة الاف ، ومعه الطُّلقاء[(٥٠٨)] ، وهم ألفان [مسلم (١٠٥٩/١٣٥)] ، وسعى (ص) لتأمين عُدَّة الجيش فطلب من ابن عمِّه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة الاف رمح إعارةً ، وطلب من صفوان بن أميَّة دروعاً ، وتكفَّل (ص) بالضَّمان ، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهم. عن صفوان بن يعلى بن أميَّة عن أبيه عن النَّبيِّ (ص) قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم ـ أو قال: فادفع إليهم ـ ثلاثين درعاً ، وثلاثين بعيراً ، أو أقلَّ من ذلك» فقال له: العارية مؤدَّاة يا رسول الله؟! قال: فقال النَّبيُّ (ص) : «نعم» [أحمد (٤/٢٢٢) ، وأبو داود (٣٥٦٦) ، والنسائي في السنن الكبرى (٥٧٤٤)].

وفي روايةٍ: أنَّ رسول الله (ص) استعار منه يوم حنين دروعاً ، فقال: أغصباً يا محمد؟! قال: «لا ، بل عاريةٌ مضمونةٌ». قال: فضاع بعضها ، فعرض عليه رسول الله (ص) أن يضعها له ، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب. قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ، ثمَّ أسلم. [أحمد (٦/٤٦٥) ، وأبو داود (٣٥٦٢) ، والحاكم (٣/٤٩) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٨٩)].

٣ ـ ثباته (ص) وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين ، واختاروا مواقعهم ، وبثُّوا كتائبهم في شعابه ، ومنعطفاته ، وأشجاره ، وكانت خطَّتهم تتمثَّل في مباغتة المسلمين بالسِّهام في أثناء تقدُّمهم في وادي حنين المنحدر. لقد باغت المشركون المسلمين ، وأمطروهم من جميع الجهات ، فاضطربت صفوفهم ، وماج بعضهم في بعضٍ ، ونتيجةً لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ، ولاذوا بالفرار ، كلٌّ يطلب النَّجاة لنفسه ، وبقي الرَّسول (ص) ، ونفرٌ قليل في الميدان يتصدَّوْن لهجمات المشركين ، ونترك العباس عمَّ الرسول (ص) يصف لنا ذلك المشهد المهيب ، حيث يقول: شهدت مع رسول الله (ص) يوم حنين ، فلزمتُ أنا ، وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله (ص) ، فلم نفارقه ،

ورسول الله (ص) على بغلةٍ له بيضاء ، فلمَّا التقى المسلمون والكفار ؛ وَلَّى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله (ص) يَرْكُضُ بغلته قِبَلَ الكفار ، قال العباس: وأنا اخذ بلجام بغلة رسول الله (ص) أَكُفُّها إرادة ألاَّ تسرع ، فقال رسول الله (ص) : «أي عباس ! نادِ أصحاب السَّمُرَة».

فقال العباس . وكان رجلاً صَيِّتاً . فقلت: بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله! لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطْفَةُ البقر على أولادها ، فقالوا: يا لبيك! يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفَّارَ ، والدَّعوةُ في الأنصار ، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثمَّ قُصِرتِ الدَّعوة على بني الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله (ص) وهو على بغلته ، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله (ص) : «هذا حينَ حميَ الوطيسُ». [مسلم (١٧٧٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٧٩ . ٣٨٠) ، وابن هشام (٤/٨٧)].

لقد أيّد الله نبيَّه (ص) يوم حنينٍ بأمورٍ ، منها:

* نزول الملائكة من السَّماء.

* سلاح الرُّعب[(٥٠٩)].

* تأثير قبضتي الحصى والتُّراب في أعين الأعداء.

من الأسلحة المادِّية الَّتي أيَّد الله بها رسولَه (ص) يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتُّراب اللَّتين رمى بهما وجوه المشركين ، حيث دخل في أعينهم كلِّهم من ذلك الحصى والتُّراب ، فصار كلُّ واحد يجد لها في عينيه أثراً ، فكان من أسباب هزيمتهم[(٥١٠)] ، قال العبَّاس رضي الله عنه: ثمَّ أخذ رسول الله (ص) حصياتٍ ، فرمى بهنَّ وجوه الكفَّار. ثمَّ قال: «انهزَموا وربِّ محمَّد!» قال: فذهبت أنظر فإذا القتالُ على

هيئته فيما أرى ، قال: فوالله! ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدَّهم كليلاً ، وأمرهم مُدْبراً. [سبق تخريجه].

ثانياً: مطاردة فلول الفارِّين إلى أوطاس ، والطَّائف:

أ ـ قال أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه:

لما فرغ النَّبيُّ (ص) من حنين؛ بعث أبا عامر على جيشٍ إلى أوطاس ، فلقي دُريد بن الصِّمَّة ، فَقُتِل دُرَيْدُ ، وهزم الله أصحابه ، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر ، فرُمي أبو عامر في رُكبته ، رماه جُشميٌّ بسهمٍ فأثبته في رُكبته ، فانتهيت إليه ، فقلت: يا عمُّ! مَنْ رماك؟ فأشار إلى أبي موسى ، فقال: ذاك قاتلي الَّذي رماني ، فقصدت له ، فلحقته ، فلما راني وَلَّى ، فاتَّبَعْتُهُ ،

وجعلت أقول له: ألا تستحي ، ألا تثبت ، فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسَّيف فقتلتُه ، ثمَّ قلت لأبي عامرٍ ، قتل الله صاحبك. قال: فانْزِع هذا السَّهم ، فنزعتُه ، فنزل منه الماء.

قال: يابن أخي! أقرأى النَّبيَّ (ص) السَّلام ، وقل له: استغفر لي ، واسْتَخْلَفَني أبو عامرٍ على النَّاس ، فمكث يسيراً ثمَّ مات. فرجعتُ ، فدخلت على النَّبيِّ (ص) في بيته على سريرٍ مُرْمَلٍ[(٥١١)] ، وعليه فراش قد أثَّر رمالُ السَّرير بظهره ، وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا ، وخبر أبي عامر ، وقوله: قل له: استغفر لي ، فدعا بماء ، فتوضَّأ ، ثمَّ رفع يديه فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعُبيد أبي عامر». ورأيت بياضَ إبطيه. ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ! اجعله يوم القيامة فوق كثيرٍ من خلقك من النَّاس» فقلت: ولي فاستغفر ، فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعبد الله بن قيس ذنبَه ، وأدخله يوم القيامة مُدْخلاً كريماً».

قال أبو بردة[(٥١٢)]: إحداهما لأبي عامر ، والأخرى لأبي موسى. [البخاري (٢٨٨٤) ، ومسلم (٢٤٩٨)].

ب ـ محاصرة الفارّين إلى الطائف:

حاصر رسول الله (ص) أهل الطَّائف واستخدم أساليب متنوعةً في القتال ، والحصار ، ومارس الشُّورى ، واختار المكان المناسب عند الحصار ، واستخدم الحرب النَّفسيَّة ، والدِّعاية في صفوف الأعداء ، ومن هذه الأساليب:

١ ـ استخدم (ص) أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النَّبيُّ (ص) في حصاره للطَّائف أسلحةً جديدةً لم يسبق له أن استعملها من قبلُ ، وهذه الأسلحة هي:

ـ المنجنيق:

فقد ثبت: أنَّ الرَّسول (ص) استعمل هذا السِّلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطَّائف ، فعن مكحولٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ (ص) نصب المنجنيق على أهل الطَّائف. [أبو داود في المراسيل (٣٣٥) ، والترمذي في نهاية الحديث (٢٧٦٢)].

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثَّقيلة ذات التأثير الفعَّال على من وُجِّهَت إليه ، فبحجارته تُهدَّم الحصون والأبراج ، وبقنابله تُحَرَّق الدُّور والمعسكرات ، وهذا النَّوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته ، واستخدامه عند القتال[(٥١٣)].

ـ الدَّبابة:

ومن أسلحة الحصار الثَّقيلة الَّتي استعملها الرَّسول (ص) لأوَّل مرَّةٍ في حصار الطائف: الدَّبابة ، والدَّبابة على شكل بيت صغير تُعمل من الخشب ، وتُتَّخذ للوقاية من سهام الأعداء ، عندما يُراد نقض جدار الحصن ، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرَّمي[(٥١٤)].

ـ الحسَك الشَّائِك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرَّسول (ص) في حصاره لأهل الطائف الحسَّك الشَّائك ، وهو من وسائل الدِّفاع الثابتة ، ويُعمل من خشبتين تُسمَّران على هيئة الصليب ، حتَّى تتألَّف منها أربعةُ شعبٍ مدبَّبة ، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل ، والمشاة ، فتتعطَّل حركة السَّير السَّريعة المطلوبة في ميدان القتال[(٥١٥)].

وقد ذكر أصحاب المغازي ، والسِّير: أنَّ الرَّسول (ص) استعمل هذا السِّلاح في حصاره لأهل الطَّائف ، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشَّائك حول حصن ثقيف[(٥١٦)] وفي هذا إشارة لقادة الأمَّة خصوصاً ، والمسلمين عموماً ألاَّ يعطِّلوا عقولهم ، وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النَّافع ، والجديد الَّذي يُحَقِّق للأمَّة مصلحة الدَّارين ، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٢ ـ اختيار رسول الله (ص) مكاناً مناسباً عند القتال:

نزل الجيش في مكانٍ مكشوف قريبٍ من الحصن ، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السِّهام؛ فأصيب من جرَّاء ذلك ناسٌ كثيرون، وحينئذٍ عرض الحُبَابُ بنُ المنذر على الرَّسول (ص) فكرة التَّحوُّل من هذا الموقع إلى مكانٍ امنٍ من سهام أهل الطَّائف ، فقبل (ص) هذه المشورة ، وكلَّف الحُبَاب؛ لكونه من ذوي الخبرات الحربيَّة الواسعة في هذا المجال بالبحث عن موقعٍ ملائم لنزول

الجند ، فذهب رضي الله عنه ثمَّ حدد المكان المناسب ، وعاد فأخبر النَّبيَّ (ص) بذلك ، فأمر النَّبيُّ (ص) جيشه بالتَّحوُّل إلى المكان الجديد.

وهذا شاهد عيان يحدِّثنا عَمَّا رأى ، قال عمرو بن أميَّة الضَّمريُّ رضي الله عنه: لقد اطلع علينا مِنْ نبلهم ساعة نَزَلْنا شيءٌ الله به عليم ، كأنَّه رَجْلُ جرادٍ ، وترَّسنا لهم حتَّى أصيب ناسٌ من المسلمين بجراحةٍ ، ودعا رسول الله (ص) الحُبَاب ، فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مستأخراً عن

القوم» فخرج الحُبَاب حتَّى انتهى إلى موضع مسجد الطَّائف[(٥١٧)] خارج القرية، فجاء إلى النَّبيِّ (ص) فأخبره ، فأمر النَّبيُّ (ص) أن يتحوَّلوا[(٥١٨)].

٣ ـ استخدام الحرب النَّفسيَّة والدِّعاية:

لما اشتدَّت مقاومة أهل الطائف ، وقتلوا مجموعةً من المسلمين؛ أمر النَّبيُّ (ص) بتحريق بساتين العنب ، والنَّخل في ضواحي الطَّائف للضغط على ثقيفٍ ، ثمَّ أوقف هذا العمل بعد أَثَرِه في معنوياتهم وإضعافه روحِ المقاومة ، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرَّحم أن يترك هذا العمل ، ووجَّه النَّبيُّ (ص) نداءً لِعَبِيدِ الطَّائف أنَّ من ينزل من الحصن ، ويخرج إلى المسلمين فهو حرٌّ ، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثَّقفي، فأسلموا ، فأعتقهم ، ولم يعدهم إلى ثقيفٍ بعد إسلامهم[(٥١٩)].

٤ ـ الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله (ص) في رفع الحصار واضحةً ، فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعةً لها ، بل صارت ضمن سيادة الدَّولة الإسلاميَّة ، ولم تعد تستمدُّ قوَّتها إلا من امتناع حصونها ، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنَّك ، وقد استشار رسول الله (ص) مَنْ حوله في عمليَّة الحصار[(٥٢٠)] ، فقال نوفل بن معاوية الدَّيليُّ: ثعلب في حجرٍ؛ إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرَّك! فأمر رسول الله (ص) ابن الخطَّاب فأذَّن في النَّاس بالرَّحيل ، فضج النَّاس من ذلك ، وقالوا: نرحل ، ولم يُفتح علينا الطَّائف؟! فقال رسول الله (ص) : «فاغدوا على القتال» ، فغدوا فأُصيب المسلمون بجراحاتٍ ، فقال رسول الله (ص) : «إنا قافلون غداً إن شاء الله» ، فسُرُّوا بذلك ، وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسولُ الله (ص) يضحك. [البخاري (٤٣٢٥) ، ومسلم (١٧٧٨)]. فلمَّا ارتحلوا، واستقلُّوا، قال: «قولوا: ايبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون» [أحمد (٢/٢١) ، والبخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤)][(٥٢١)] ، وقيل: يا رسول الله! ادعُ الله على ثقيفٍ ، فقال: «اللَّهمَّ اهدِ ثقيفاً ، وائتِ

بهم». [أحمد (٣/٣٤٣) ، والترمذي (٢٩٤٢) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢/٢٠١) ، وانظره في مشكاة المصابيح (٥٩٨٦)][(٥٢٢)].

* * *

البمحث الثاني

فقه الرَّسول (ص) في التَّعامل مع النُّفوس

ويظهر هذا الفقه في عدَّة مواقف من هذه الغزوة ، منها:

أ ـ لا رجعة لِلوَثَنِيَّة:

خرج مع رسول الله (ص) إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهليَّة ، وكانت لبعض القبائل شجرةٌ عظيمةٌ خضراء يقال لها: ذاتُ أنواطٍ ، يأتونها كلَّ سنةٍ ، فيعلِّقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، وبينما هم يسيرون مع رسول الله (ص) إذ وقع بصرهم على الشَّجرة ، فتحلَّبَتْ أفواههم على أعياد الجاهليَّة الَّتي هجروها ، ومشاهدها الَّتي طال عهدهم بها ، فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا «ذاتَ أنواطٍ» كما لهم «ذاتُ أنواطٍ» ، فقال رسول الله (ص) : «الله أكبر! قلتُم والذي نفس محمد بيده! كما قال قوم موسى لموسى: لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم. {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ *} (٥/٢١٨) ، والترمذي (٢١٨٠) ، والبيهقي في الدلائل (٥/١٢٥)][(٥٢٣)].

وهذا يعبِّر عن عدم وضوح تصوُّرهم للتَّوحيد الخالص رغم إسلامهم ، ولكن النَّبيَّ (ص) أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشِّرك ، وحذَّرهم من ذلك ، ولم يعاقبهم ، أو يعنِّفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[(٥٢٤)] ، وقد سمح لهم الرَّسول (ص) بالمشاركة في الجهاد ، لأنَّه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحَّح اعتقاده تماماً من غبش الجاهليَّة ، وإنَّما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله ، وإن قصر في بعض أمور الدِّين الأخرى ، بل الجهاد مدرسةٌ تربويَّةٌ تعليميَّةٌ يتعلَّم فيه المجاهدون كثيراً

من العقائد ، والأحكام ، والأخلاق ، وذلك لما يتضمَّنه من السَّفر، وكثرة اللِّقاءات الَّتي يحصل فيها تجاذب الأحاديث ، وتلاقح الأفكار[(٥٢٥)].

ب ـ الإعجابُ بالكثرة يحجبُ نصر الله:

الإعجابُ بالكثرة حجب عن المسلمين النَّصر في بداية المعركة ، وقد عبَّر القران الكريم عن ذلك بقوله: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ *} [التوبة: ٢٥].

وقد نبَّه إلى هذا رسول الله (ص) حينما أوضح: أنَّه «لا حول ، ولا قوَّة إلا بالله» فيقول: «اللَّهُمَّ بك أجُول ، وبك أَصُولُ ، وبك أُقَاتِلِ» [أحمد (٣/٣٣٢ و٣٣٣) ، وابن حبان (١٩٧٥) ، والنسائي في اليوم والليلة (٦١٤) ، والدارمي (٢٤٨٥)].

وهكذا أخذ الرَّسول (ص) يراقب المسلمين ، ويقوِّم ما يظهر من انحرافاتٍ في التَّصوُّر والسُّلوك حتَّى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العُتاة[(٥٢٦)].

وعلى الرَّغم من الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين ، وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة؛ لأنَّهم فوجئوا بما لم يتوقَّعوه ، فإنَّ رسول الله (ص) لم يعنِّف أحداً ممَّن فرَّ عنه؛ حتَّى حينما طالبه بعض المسلمين أن يقتل الطُّلَقَاء لأنَّهم فرُّوا ، ولم يوافق على هذا[(٥٢٧)].

ج ـ الغنائم وسيلةٌ لتأليف القلوب:

رأى (ص) أن يتألَّف الطُّلقاء ، والأعراب بالغنائم تأليفاً لقلوبهم؛ لحداثة عهدهم بالإسلام ، فأعطى لزعماء قريش ، وغطفان ، وتميم عطاءً عظيماً ، إذ كانت عطيَّة الواحد منهم مئةً من الإبل ، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام ، وصفوان بن أميَّة ، وعيينة بن حصن الفزاري ، والأقرع بن حابس ، ومعاوية ، ويزيد ابنا أبي سفيان ، وقيس بن عديٍّ[(٥٢٨)] ، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدُّنيا إلى حبِّ الإسلام ، أو كما قال أنس بن مالك: إنْ كان الرجل ليسلمُ ما يريد إلا الدُّنيا ، فما يسلمُ حتَّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدُّنيا وما عليها [سبق تخريجه].

وعبَّر عن هذا صفوان بن أميَّة فقال: لقد أعطاني رسولُ الله (ص) ما أعطاني ، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ. [سبق تخريجه].

وقد تأثَّر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشريَّة ، وتردَّدت بينهم قالةٌ ، فراعى (ص) هذا الاعتراض ، وعمل على إزالة التوتُّر ، وبيَّن لهم الحكمة في تقسيم الغنائم ، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانيّاً ، عقليّاً ، عاطفيّاً ، وجدانيّاً ، ما يملك القارأى المسلم على مر الدُّهور ، وكر العصور ، وتوالي الزَّمان إلا البكاء عندما يمرُّ بهذا الحدث العظيم ، فعندما دخل سعد بن عبادة على رسول الله (ص) ، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء؛ الذي أصبت ، قسمت في قومك؛ وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا مِنْ قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ، قال: فجاء رجالٌ من المهاجرين ، فتركهم ، فدخلوا ، وجاء اخرون فردَّهم.

فلمَّا اجتمعوا؛ أتى سعدٌ ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار ، فأتاهم رسول الله (ص) ، فحمِد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار ، ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم ، ألم اتكم ضلالاً ، فهداكم الله بي ، وعالةً ، فأغناكم الله بي ، وأعداءً ، فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسولُه أمنُّ ، وأفضل ، ثمَّ قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟!» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المنُّ ، والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم؛ لقلتم ، فلصدقتم ، ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً ، فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فاويناك ، وعائلاً فاسيناك ، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار! في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدُّنيا تألَّفت بها قوماً؛ ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب النَّاس بالشَّاء[(٥٢٩)] ، والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمدٍ بيده! لما تنقلبون به خيرٌ ممَّا ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك النَّاس شِعباً ، وودايأً ، وسلكت الأنصار شِعْباً ، وواديأً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار ، وواديها ، الأنصارُ شِعَارٌ ، والنَّاس دثار[(٥٣٠)] ، اللَّهُمَّ! ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتَّى أخضلوا لحاهم ، وقالوا: رضينا برسول الله (ص) قَسْماً وحظّاً، ثمَّ انصرف رسول الله (ص) وتفرَّقوا. [أحمد (٣/٧٦ ـ ٧٧)، ومجمع الزوائد (١٠/٣٢)][(٥٣١)]، وفي رواية: «إنَّكم ستلقون بعدي أثرةً ، فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض» [البخاري (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١)].

وممَّا يجدر الإشارة إليه في هذا المقام: أنَّ هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلِّهم ، وإنَّما

قالها حديثو السِّنِّ منهم ، بدليل ما ورد في الصَّحيحين عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء ، فطفق رسول الله (ص) يعطي رجالاً من قريش المئة من الإبل ، فقالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً ، ويتركُنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟! قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله (ص) مِنْ قولهم ، فأرسل إلى الأنصار ، فجمعهم في قبَّةٍ من أَدَمٍ ، فلمَّا اجتمعوا؛ جاءهم رسول الله (ص) فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أمَّا ذوو رأينا يا رسول الله! فلم يقولوا شيئاً ، وأمَّا أُناسٌ منَّا حديثةٌ أسنانُهم؛ قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً ، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال رسول الله (ص) : «فإني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفرٍ أتألَّفهم». [البخاري (٤٣٣١) ، ومسلم (١٠٥٩)].

ويرى الإمام ابن القيِّم ـ استدلالاً بهذه الحادثة ـ: أنَّه قد يتعيَّن على الإمام أن يتألَّف أعداءه لاستجلابهم إليه ، ودفع شرِّهم عن المسلمين ، فيقول: الإمام نائبٌ عن المسلمين ، يتصرَّف لمصالحهم وقيام الدِّين ، فإن تعيَّن ذلك ـ أي: التَّأليف ـ للدَّفع عن الإسلام ، والذَّبِّ عن حوزته ، واستجلاب رؤوس أعدائه إليه ، ليأمن المسلمون شرَّهم ، ساغ له ذلك ، بل تعيَّن عليه ، فإنَّه وإن كان في الحرمان مفسدةٌ ، فالمفسدة المتوقَّعة من فوات تأليف هذا العدوِّ أعظم ، ومبنى الشَّريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما ، بل بناء مصالح الدُّنيا ، والدِّين على هذين الأصلين[(٥٣٢)].

والتَّأليف لهذه الطَّائفة إنَّما هو من قبيل الإغراء ، والتَّشجيع في أوَّل الأمر ، حتَّى يخالط الإيمان بشاشة القلب ، ويتذوَّق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله ـ حقيقة هذا الأمر في مثالٍ محسوسٍ ، فيقول: «إنَّ في الدُّنيا أقواماً كثيرين يُقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تُهدى الدَّواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظلُّ تَمُدُّ إليها فمها ، حتَّى تدخل حظيرتها امنةً ، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتَّى تستأنس بالإيمان ، وتهشَّ له»[(٥٣٣)].

إنَّ النَّبيَّ (ص) ضرب للأنصار صورةً مؤثِّرةً: قومٌ يبشَّرون بالإيمان يقابلهم قومٌ يبشَّرون بالجمال ، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشَّاء ، والبعير ، لقد أيقظتهم تلك الصُّور ، وأدركوا أنَّهم وقعوا في خطأٍ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه ، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ، وماقيهم بالدُّموع ، وألسنتهم بالرِّضا ، وبذلك طابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم

بفضل سياسية النَّبيّ (ص) الحكيمة في مخاطبة الأنصار[(٥٣٤)].

د ـ الصَّبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله (ص) الكثير من الصَّبر على جفاء الأعراب ، وطمعهم في الأموال ، وحرصهم على المكاسب ، فكان مثالاً للمربّي الَّذي يدرك أحوالهم ، وما جبلتهم عليه بيئتُهم ، وطبيعةُ حياتهم من القساوة ، والفظاظة ، والرُّوح الفرديَّة ، فكان يبيّن لهم خُلُقَه ، ويطمئنهم على مصالحهم ، ويعاملهم على قدر عقولهم ، فكان بهم رحيماً ، ولهم مربّياً ، ومصلحاً ، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم؛ الَّذين كانوا ينحنون أمامهم ، أو يسجدون ، وكانوا دونهم محجوبين ، وإذا خاطبوهم؛ التزموا بعبارات التَّعظيم ، والإجلال كما يفعل العبد مع ربِّه، أمَّا الرَّسول (ص) فكان كأحدِهم يخاطبونه ، ويعاتبونه ، ولا يحتجب عنهم قطُّ، وكان الصَّحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدُّب بحضرته، ويخاطبونه بصوتٍ خفيضٍ، ويَكِنُّون له في أنفسهم المحبَّة العظيمة ، وأمَّا جفاة الأعراب؛ فقد عنفهم القران على سوء أدبهم ، وجفائهم ، وارتفاع أصواتهم ، وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول (ص)[(٥٣٥)] ، وهذه مواقف تدلُّ على حسن معاملة رسول الله (ص) للأعراب:

١ ـ الأعرابيُّ الذي رفض البُشْرَى:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النَّبيِّ (ص) ـ وهو نازلٌ بالجِعْرَانَةِ بين مكَّة والمدينة ـ ومعه بلالٌ ، فأتى النَّبيَّ (ص) أعرابيٌّ فقال: ألا تنجزُ لي ما وعدتني؟ فقال له: «أَبْشِر!» فقال: قد أكثرتَ عليَّ مِنْ (أبشر). فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان ، فقال: «رَدَّ البُشْرَى ، فاقبلا أنتما» قالا: قَبِلْنا. ثمَّ دعا بقدح فيه ماءٌ ، فغسل يديه ، ووجهه فيه ، ومجَّ فيه ، ثم قال: «اشْربَا منه ، وأفرغا على وجوهكما ، ونحوركما ، وأبشرا» فأخذا القدح ، ففعلا ، فنادت أمُّ سلمة من وراء السِّتر: أن أفضلا لأمِّكما. فأفضلا لها منه طائفةً. [البخاري (٤٣٢٨) ، ومسلم (٢٤٩٧)].

٢ ـ مقولة الأعرابِيّ: (ما أريد بهذه القسمة وجه الله!):

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: «لَّما كان يومُ حنينٍ اثر رسولُ الله (ص) ناساً في القِسْمَة ، فأعطى الأقرعَ بن حابسٍ مِئَةً من الإبل ، وأعطى عُيَيْنةَ مِثْلَ ذلك ، وأعطى أناساً من أشراف العرب ، واثرهم يومئذ في القِسْمَة ، فقال رجلٌ: والله! إنَّ هذه القِسْمَة ما عُدِلَ فيها ، وما أُرِيدَ فيها وجهُ الله! قال: فقلتُ: والله لأخبرنَّ رسولَ الله (ص) ، قال: فأتيتُه ، فأخبرتُه بما قال ، قال: فتغيَّر وجْهُهُ حتَّى كان كالصِّرْفِ. ثمَّ قال: «فمَن يعدلُ إن لم يعدلِ اللهُ ورسولُه؟!» قال: ثمَّ قال:

«يرحم الله موسى! قد أُوذي بأكثرَ من هذا ، فَصَبَرَ». قال: قلت: لا جرمَ لا أرفعُ إليه بعدها حديثاً. [البخاري (٤٣٣٦) ، ومسلم (١٠٦٢)].

٣ . تعامله مع هوازن لما أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله (ص) بالجِعْرَانَةِ وقد أسلموا ، فقالوا: يا رسول الله! إنَّا أصلٌ وعشيرةٌ ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فامنن علينا مَنَّ الله عليك ، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صُرد ، فقال: يا رسول الله! إنَّما في الحظائر من السَّبايا خالاتُك ، وحواضنُك اللاَّتي كن يكفلنك، ولو أنَّا مَلَحْنَا لابن أبي شمر أو النُّعمان بن المنذر[(٥٣٦)] ثُمَّ أصابنا منها مثل الَّذي أصابنا منك رجونا عائدتهما ، وعطفهما ، وأنت رسول الله خير المكفولين ، ثمَّ أنشأ يقول:

أُمنُنْ عَلَيْنَا رسُولَ اللهِ في كرمٍ فإِنَّكَ المرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ[(٥٣٧)]

إلى أن قال:

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فوْكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا دَرَرُ

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا وإِذْ يَزِيْنُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم ، فعادت فواضله عليه السَّلام عليهم قديماً وحديثاً ، وخصوصاً ، وعموماً[(٥٣٨)].

فلما سمع رسول الله (ص) من الوفد قال لهم: «نساؤكم ، وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله! خيَّرتنا بين أحسابنا ، وأموالنا؟ بل أبناؤنا ، ونساؤنا أحبُّ إلينا ، فقال رسول الله (ص) : «أمَّا ما كان لي ، ولبني عبد المطلب، فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالنَّاس فقوموا ، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله (ص) إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله (ص) في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم » فلمَّا صلَّى رسول الله (ص) بالنَّاس الظُّهر ؛ قاموا ؛ فقالوا ما أمرهم به رسول الله (ص) ، فقال: «أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله (ص) . وقال الأقرع بن حابس: أمَّا أنا وبنو تميم ؛ فلا ، وقال عُيَيْنةُ: أمَّا أنا وبنو فزارة؛ فلا ، وقال العبَّاس بن مرداس السُّلَمِيُّ: أما أنا، وبنو سليم ، فلا ، فقالت بنو سُليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله (ص) ، قال عبَّاس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله (ص) : «من أمسك منكم بحقِّه فله بكلِّ إنسان سِتُّ فرائض من أوَّل فيءٍ نصيبه» فردّوا إلى النَّاس نساءهم ،

وأبناءهم. [أحمد (١٨٤/٢) ، والطبراني في الكبير (٥٣٠٤) ، والطبري في تاريخه (١٣٥/٣) ، والبيهقي في الدلائل (١٩٤/٥ ـ ١٩٥) ، ومجمع الزوائد (١٨٧/٦ ـ ١٨٨)][(٥٣٩)].

وفي روايةٍ: ... فخطب رسول الله (ص) في المؤمنين ، فقال: «إنَّ إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين ، وإنِّي أردت أن أردَّ إليهم سبيهم ، فَمن أحبَّ منكم أن يطيِّبَ ذلك؛ فليفعلْ ، ومن أحبَّ أن يكون على حظِّه حتَّى نعطيه إيَّاه من أوَّل ما يفيء الله علينا ، فليفعلْ» فقال الناس: طيّبْنا يا رسول الله! لهم ، فقال لهم: «إنَّا لا ندري من أَذِنَ منكم فيه ممَّن لم يأذن ، فارجعوا حتَّى يرفع إلينا عرفاؤكم أمرَكم». فرجع النَّاس فكلمهم عرفاؤهم ، ثمَّ رجعوا إلى النَّبيِّ (ص) فأخبروه: أنَّهم طيَّبوا ، وأذنوا. [البخاري (٤٣١٨ و٤٣١٩) ، والبيهقي في الدلائل (١٩٢/٥)][(٥٤٠)].

وقد سُرَّ الرَّسول (ص) بإسلام هوازن ، وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النَّصريِّ ، فأخبروه: أنَّه في الطَّائف مع ثقيفٍ ، فوعدهم بردِّ أهله ، وأمواله عليه ، وإكرامه بمئةٍ من الإبل إن قدم عليه مسلماً ، فجاء مالكٌ مسلماً ، فأكرمه وأمَّره على قومه ، وبعض القبائل المجاورة ، ولقد تأثَّر مالك بن عوف ، وجادت قريحته لمدح النَّبيِّ (ص) فقال:

مَا إِنْ رأَيْتُ ولاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ … فِي النَّاسِ كُلِّهِمِ بِمِثْلِ مُحَمَّدِ
أَوْفَى وأَعْطَى لِلْجَزِيْلِ إِذَا اجْتُدِي … وَمَتى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا في غَدِ
وإذا الكَتِيْبَةُ عَرَّدَتْ[(٥٤١)] أَنْيَابُهَا … بالسَّمْهرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فكأنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ … وَسْطَ الهَبَاءَةِ[(٥٤٢)] خَادِرٌ[(٥٤٣)] في مرْصَدِ[(٥٤٤)]

لقد كانت سياسته (ص) مع خصومه مرنةً إلى أبعد الحدود ، وبهذه السِّياسة الحكيمة استطاع (ص) أن يكسب هوازن ، وحلفاءها إلى صفِّ الإسلام ، واتَّخذ من هذه القبيلة القويَّة رأس حربةٍ يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الَّذي قاتل ثقيفاً في الطَّائف حتَّى ضيَّق عليهم ، وقد فكَّر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطَّائف من كلِّ مكان ، فلا تستطيع تحرُّكاً ، ولا تجارةً ، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام؛ مثل عروة بن مسعودٍ الثَّقفيِّ ، الَّذي سارع إلى اللَّحاق برسول الله (ص) وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين ، واعتمر من الجِعْرَانَةِ ، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة ، وأعلن

إسلامه ، وعاد إلى الطَّائف ، وكان من زعماء ثقيف محبوباً عندهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، وأذَّن في أعلى منزله ، فرماه بعضُهم بسهامٍ، فأصابوه ، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطَّائف[(٥٤٥)].

إنَّ الإنسان ليعجب من فقه النَّبيِّ (ص) في معاملة النُّفوس ، وفي سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى ، لقد استطاع (ص) أن يزيل معالم الوثنيَّة ، وبيوتات العبادة الكفريَّة من مكَّة ، وما حولها ، ورتَّب (ص) الأمور التنظيمية للأراضي الَّتي أضيفت للدَّولة الإسلاميَّة ، فعيَّن عَتَّاب بن أَسِيد أميراً على مكَّة ، وجعل معاذ بن جبل مرشداً ، وموجِّهاً ومعلِّماً ، ومربِّياً[(٥٤٦)] ، وعيَّن على هوازن مالك بن عوف قائداً ، ومجاهداً ، ثمَّ اعتمر ، ورجع إلى المدينة (ص) .

* * *

المبحث الثَّالث

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد

أولاً: تفسير الايات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ *ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

في الايات السَّابقة تصويرٌ بيانيٌّ بديعٌ لحال المسلمين ، فيه تنقُّلٌ بالسَّامع من صورةٍ إلى صورة: من صورة المسلمين؛ وهم معجبون بكثرتهم ، مسرورون بها ، إلى صورة فشلهم ، وهزيمتهم مع هذه الكثرة ، فلم تنفعهم ، إلى صورة الخوف الَّذي أصابهم حتَّى لم تعد الأرض تسعهم ، وأقفلت منافذها في وجوههم إلى

الصُّورة الحسِّيَّة لهذا الفشل في الفرار ، والنُّكوص ، وتولية الأدبار حتَّى لم يبقَ حول النَّبي (ص) إلا القليل ، وبعد الخوف الشَّديد الَّذي أصاب المؤمنين في مبدأ لقائهم بأعدائهم في غزوة حنين يجيء نصر الله؛ الَّذي عبَّر عنه ـ سبحانه ـ بقوله: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *}

السَّكينة: الطُّمأنينة ، والرَّحمة ، والأمنة ، وهي من السُّكون ، وهو ثبوت الشَّيء بعد التَّحرُّك ، أو من السَّكن ، وهو كل ما سكنَت إليه ، واطمأنت به من أهلٍ ، وغيرِهم[(٥٤٧)].

وقوله تعالى: قال القاسميُّ: أي: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ} تسكنون ، وتثبتون به من رحمته ، ونصره ، وانهزام الكفار ، واطمئنان قلوبهم للكرِّ بعد الفرِّ أي: الَّذين {عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} ، وإعادة الجارِّ للتنبيه على اختلاف حاليهما ، أو الَّذين ثبتوا

مع رسول الله (ص) ولم يفرِّوا ، أو على الكلِّ؛ وهو الأنسب[(٥٤٨)].

وقوله تعالى: : قال الطَّبريُّ: هي الملائكة

وقوله: {وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *}

أي: وعذَّب الذين كفروا بالقتل ، والسَّبي ، والأسر ، وذلك هو جزاء الكافرين في الدُّنيا ما داموا يستحبُّون الكفر على الإيمان ، ويعادون أهله ، ويقاتلونهم عليه[(٥٤٩)].

ثمَّ قال تعالى: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *}

أي: ويتوب الله من بعد هذا التَّعذيب على من يشاء من المشركين بأن يوفقهم للدُّخول في الإسلام ، والله غفورٌ رحيمٌ لمن تاب ، وامن ، فرحمتُه وسعت كلَّ شيءٍ[(٥٥٠)].

قال سيِّد قطب: «فبابُ المغفرة دائماً مفتوحٌ لمن يخطأى ، ثمَّ يتوب ، إنَّ معركة حُنين الَّتي يذكرها السِّياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوَّةٍ غير قوَّته لَتَكْشِفُ لنا حقيقةً أخرى ضمنيَّةً ، حقيقة القوى الَّتي تعتمد عليها كلُّ عقيدة. إنَّ الكثرة العدديَّة ليست بشيءٍ ، إنَّما هي القلَّة العارفة ، المتَّصلة ، الثَّابتة ، المتجرِّدة للعقيدة ، ..... لقد قامت كلُّ عقيدةٍ بالصَّفوة المختارة ، لا بالزَّبد الَّذي يذهب جُفاءً ، ولا بالهشيم الَّذي تذروه الرِّياح»[(٥٥١)].

إنَّ غزوة حنين سُجِّلت في القران الكريم؛ لكي تبقى درساً للأمَّة في كلِّ زمانٍ ، ومكان ، ولقد عُرِضَتْ في القران الكريم على منهجيَّة ربانيَّة كان من أهم معالمها الاتي[(٥٥٢)]:

أ ـ بيَّن القران الكريم ، أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم. قال تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ} ، ثم بيَّن القران أنَّ هذه الكثرة لا تفيد {فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا}

ب ـ بيَّن القران الكريم: أنَّ المسلمين انهزموا ، وهربوا ما عدا النَّبيِّ (ص) ، ونفرٌ يسيرٌ من أصحابه. قال تعالى: {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ *}

ج ـ بيَّن القران الكريم: أنَّ الله نصر رسوله (ص) في هذه المعركة ، وأكرمه بإنزال السَّكينة عليه ، وعلى المؤمنين. فقال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}

د ـ بيَّن القران الكريم: أنَّ الله أمدَّ نبيَّه محمَّداً (ص) بالملائكة في حنين. قال تعالى: {وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *}

وأكَّد ـ سبحانه ـ على أنَّه يقبل التَّوبة من عباده ، ويوفِّق مَنْ شاء إليها. قال تعالى: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *}

ثانياً: أسباب الهزيمة ، وعوامل النَّصر في حُنين:

أ ـ أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى عدَّة أسباب ، منها:

١ ـ أنَّ شيئاً من العُجْبِ تسرب إلى قلوب المسلمين ، لما رأوا عددهم ، فقد قال رجلٌ منهم: لن نُغلب اليوم من قلَّة ، فشقَّ ذلك على النَّبيِّ (ص) ، فكانت الهزيمة.

٢ ـ خروج شبَّانٍ ليس لديهم سلاحٌ ، أو سلاحٌ كافٍ ، وإنَّما عندهم حماسٌ وتسرُّعٌ.

٣ ـ أنَّ عدد المشركين كان كثيراً ، بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤ ـ أنَّ مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حُنَيْن ، فتهيَّأ هنالك ، ووضع الكمائن والرُّماة في مضايق الوادي ، وعلى جوانبه ، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنِّبال ، وبالهجوم المباغت.

٥ ـ كان العدو مهيَّأ، ومنظَّماً ، ومستعدّاً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين ، فقد جاء المشركون بأحسن صفوفٍ رُئيت: صفِّ الخيل ، ثمَّ المقاتلة ، ثمَّ النِّساء من وراء ذلك ، ثمَّ الغنم ، ثمَّ النَّعَم.

٦ ـ وجود ضعاف الإيمان الَّذين أسلموا حديثاً في مكَّة ، ففرُّوا ، فانقلبت أولاهم على أخراهم ، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل ، وهزيمة غيرهم[(٥٥٣)].

ب ـ عوامل النَّصر:

كانت عوامل النَّصر في حنين عدَّة أسباب منها:

١ . ثبات الرَّسول (ص) في القتال ، وعدم تراجعه ، ممَّا جعل الجنود يثبتون ، ويستجيبون لنداء القائد الثَّابت.

٢ . شجاعة القائد: فالرَّسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب؛ بل تقدَّم نحو عدوه راكباً بغلته ، فطفق يَرْكُضُ ببغلته قِبَل الكفار ، والعبَّاس اخذٌ بلجام البغلة يكفُّها ألاَّ تسرع.

٣ . ثبات قلَّةٍ من المسلمين معه ، وحوله حتَّى جاء الَّذين تولَّوا ، وأكملوا المسيرة ، مسيرة الثَّبات ، والبرِّ ، والقتال حتَّى النَّصر.

٤ . سرعة استجابة الفارِّين ، والتحاقهم بالقتال.

٥ . وقوع الجيش المعادي في خطأٍ عسكريٍّ قاتل ، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلاميِّ بعد فراره ، ممَّا أعطى فرصةً ثمينةً للجيش الإسلاميِّ ليلتقط أنفاسه ، ويعود إلى ساحة القتال ، ويستأنف القتال من جديدٍ بقيادة القائد الثابت الشُّجاع رسول الله (ص) .

٦ . رَمْيَةُ الحصى: فقد أخذ النَّبي (ص) حصياتٍ فرمى بهنَّ وجوه الكفار ثمَّ قال: «انهزموا وربِّ محمد!» [سبق تخريجه] .

٧ . الاستعانة ، والاستغاثة بالله . عز وجلَّ .: فقد كان الرسول (ص) يلحُّ على الله في الدُّعاء بالنَّصر على الأعداء.

٨ . إنزال الملائكة في الغزوة ، ومشاركتها فيها ، وقد سجَّل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التَّوبة[(٥٥٤)]: {وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *}

ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين ، والطَّائف:

١ . نزول الاية الكريمة: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء: ٢٤] في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوِّجات ، وقد فرَّق السَّبي بَيْنَهُنَّ وبين أزواجهنَّ ، فأوضحت الاية جواز وطئهنَّ؛ إذا انقضت عدَّتهنَّ؛ لأنَّ الفرقة تقع بينهنَّ وبين أزواجهن الكفار بالسَّبي ، وتنقضي العدَّة بالوضع للحامل ، وبالحيض لغير الحامل[(٥٥٥)].

٢ . منع المخنثين خلقة من الدُّخول على النِّساء الأجنبيات: وكان ذلك مباحاً إذ لا حاجة للمخنَّث بالنِّساء ، وكان سبب المنع ما رواه البخاريُّ عن زينب بنت أبي سلمة عن أمِّها أمِّ سلمة: دخل عليَّ النبيُّ (ص) وعندي مخنَّثٌ ، فسمعتُه يقول لعبد الله بن أبي أميَّة: يا عبد الله! أرأيت إن فتح الله عليكم

الطَّائف غداً ، فعليك بابنة غيلان ، فإنَّها تُقبل بأربعٍ وتُدْبِرُ بثمانٍ ، فقال النَّبيُّ (ص) : «لا يدخلَنَّ هؤلاء عليكم». [البخاري (٤٣٢٤)].

وفي هذا المنع حرص النَّبيّ (ص) على سلامة أخلاق المجتمع الإسلاميّ.

٣ ـ النَّهي عن قصد قتل النِّساء ، والأطفال ، والشُّيوخ ، وكذلك الأجراء ممَّن لا يشتركون

في القتال ضدَّ المسلمين: وقد ذكر ابن كثيرٍ: أنَّ رسول الله (ص) مرَّ يوم حنين بامرأةٍ قتلها خالدُ بن الوليد؛ والنَّاس متقصِّفون[(٥٥٦)] عليها ، فقال رسول الله (ص) : «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالداً ، فقل له: لا يقتلن ذريةً ، ولا عسيفاً» وفي روايةٍ: فقال له: إنَّ رسول الله (ص) ينهاك أن تقتل وليداً ، او امرأة ، أو عسيفاً. [أحمد (٣/٤٨٨) ، وأبو داود (٢٦٦٩) ، وابن ماجه (٢٨٤٢) ، والنسائي في الكبرى (٨٥٧١ و٨٥٧٢ و٨٥٧٣) ، وابن حبان (٤٧٩١)].

٤ ـ تشريع العمرة من الجِعْرَانَةِ:

أحرم النَّبيُّ (ص) بعمرة من الجِعْرَانَةِ وكان داخلاً إلى مكَّة ، وهذه هي السُّنة لمن دخلها من طريق الطَّائف ، وما يليه ، وأمَّا ما يفعله كثيرٌ مما لا علم عندهم من الخروج من مكَّة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرةٍ ثمَّ يرجع إليها؛ فهذا لم يفعله رسول الله (ص) ، ولا استحبَّه أحدٌ من أهل العلم ، وإنَّما يفعله عوامُّ النَّاس ، زعموا أنَّه اقتداء بالنَّبيّ (ص) ، وغلطوا ، فإنَّه إنَّما أحرم منها داخلاً إلى مكَّة ، ولم يخرج منها إلى الجِعْرَانةِ؛ ليحرم منها[(٥٥٧)].

٥ ـ إرشاده (ص) للأعرابيّ بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحجّ:

قال يعلى بن منبّه: جاء رجلٌ إلى النَّبيّ (ص) ، وهو بالجِعْرَانَةِ وعليه جبَّةٌ ، وعليها خلوقٌ[(٥٥٨)] ، أو قال: أثر صفرةٍ ، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزِل على النَّبيِّ (ص) الوحيُ ، فَسُتِرَ بثوبٍ ، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النَّبيَّ (ص) ، وقد أُنْزِل الوحي عليه ، قال: فرفع عمر طرف الثَّوب عنه ، فنظرت إليه ، فإذا له غطيطٌ. قال: فلمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصُّفرة ـ أو قال ـ: أثر الخلوق ، واخلَعْ عنك جبَّتك ، واصنعْ في عمرتك ما أنت صانع في حجَّتك». [البخاري (١٥٣٦) ، ومسلم (١١٨٠)].

٦ ـ مَنْ قتل قتيلاً فله سَلَبُه:

قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرتُ إلى رجلٍ من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين ، واخر من المشركين يَخْتِلُه من ورائه ليقتله ، فأسرعت إلى الَّذي يَخْتِله ، فرفع ليضربني ، فضربت يده فقطعتُها ، ثمَّ

أخذني ، فضمَّني ضمّاً شديداً حتَّى تخوَّفْتُ ، ثمَّ برك فتحلَّل، ودفعته، ثمَّ قتلته، وانهزم المسلمون ، وانهزمت معهم ، فإذا بعمر بن الخطَّاب في النَّاس، فقلت له: ما شأنُ النَّاس؟ قال: أمرُ الله ، ثمَّ تراجع الناس إلى رسول الله ، فقال رسول الله (ص) : «من أقام بينة على قتيلٍ قتله؛ فله سلبه» فقمت لألتمس بينةً على قتيلي، فلم أرَ أحداً يشهد لي ، فجلست ،

ثمَّ بدا لي فذكرتُ أمره لرسول الله (ص) فقال رجلٌ من جلسائه: سلاح هذا القتيل الَّذي يذكر عندي ، فأرضِهِ منه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كلا لا يعطه أصيبغ[(٥٥٩)] من قريشٍ ، ويدع[(٥٦٠)] أسداً من أُسْدِ الله يقاتل عن الله ، ورسوله (ص) ، قال: فقام رسول الله (ص) فأدَّاه إلي فاشتريت منه خرافاً[(٥٦١)] ، فكان أوَّل مالٍ تأثَّلتُهُ في الإسلام. [البخاري (٤٣٢١) ، ومسلم (١٧٥١)].

ونلحظ في هذا الخبر: أنَّ أبا قتادة الأنصاريَّ رضي الله عنه حرص على سلامة أخيه المسلم ، وقتل ذلك الكافر بعد جهدٍ عظيم ، كما أنَّ موقف الصِّدِّيق رضي الله عنه فيه دلالةٌ على حرصه على إحقاق الحقِّ، والدِّفاع عنه، ودليلٌ على رسوخ إيمانه، وعمق يقينه ، وتقديره لرابطة الأخوَّة الإسلاميَّة ، وأنَّها بمنزلةٍ رفيعةٍ بالنسبة له[(٥٦٢)].

٧ ـ النهي عن الغلول:

أخذ النَّبيُّ (ص) يوم حنين وَبَرَةً من سنام بعيرٍ من الغنائم ، فجعلها بين أصبعيه ، ثمَّ قال: «أيُّها النَّاس! إنَّه لا يحلُّ لي ممَّا أفاء الله عليكم قدر هذه ، إلا الخمس ، والخمس مردودٌ عليكم ، فأدُّوا الخياط ، والمخيط ، وإيَّاكم ، والغلول ، فإنَّ الغلول عارٌ ، ونارٌ ، وشنارٌ على أهله في الدُّنيا ، والاخرة»[(٥٦٣)].

ولما سمع النَّاس هذا الزَّجر بما فيه من وعيد من رسول الله (ص) ، أشفقوا على أنفسهم ، وخافوا خوفاً شديداً ، فجاء أنصاريٌّ بكبَّة خيطٍ من خيوط شعر ، فقال: يا رسول الله! أخذت هذه الوبرة لأخيط بها بَرْذَعَةَ بعيرٍ لي دَبِر ، فقال له (ص) : «أمَّا حقِّي منها ، وما كان لبني عبد المطَّلب فهو لك». فقال الأنصاريُّ: أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها ، فرمى بها مِنْ يده. [أحمد (١٨٤/٢) ، وأبو داود (٢٦٩٤) ، والنسائي (٢٦٣/٦ ـ ٢٦٤)].

وأمَّا عقيل بن أبي طالب؛ فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين ، وسيفه ملطَّخٌ دماً ، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليردَّه ، حتَّى الخياط ، والمخيط ، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته ، فألقاها في الغنائم[(٥٦٤)].

وهذا التَّشديد في النَّهي عن الغلول ، وتبشيعه بهذه الصُّورة الشَّائهة المرعبة ، ولو كان في شيءٍ تافهٍ لا يُلتفت إليه ، يمثِّل مَعْلماً من أهم معالم المنهج النبويِّ في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العمليَّة؛ إيماناً ، وأمانة ، وفي التزام الأفراد بهذا التَّوجيه يتطهَّر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة؛ لأنَّ التَّساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها ، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانيَّة التي لا تليق بالمجتمع المسلم[(٥٦٥)].

٨ ـ وفاء نذر كان في الجاهلية:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما قفلنا من حنين سأل عمرُ النَّبيَّ (ص) عن نَذْرٍ كان نذره في الجاهليَّة اعتكافاً ، فأمره النَّبيُّ (ص) بوفائه. [البخاري (٤٣٢٠) ، ومسلم (١٦٥٦)].

رابعاً: مواقف لبعض الصَّحابة والصَّحابيات:

١ ـ أنس بن أبي مرثدٍ الغنويُّ ، وحراسة المسلمين:

قال رسول الله (ص) قبل اندلاع معركة حنين: «من يحرسنا اللَّيلة؟» فقال أنسُ بن أبي مرثدٍ: أنا يا رسول الله! قال (ص) : «فاركب» ، فركب ابن أبي مرثد فرساً له ، وجاء إلى رسول الله (ص) فقال له (ص) : «استقبل هذا الشِّعْب حتَّى تكون في أعلاه ، ولا نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيلة».

قال سهيل بن الحنظليَّة: فلمَّا أصبحنا؛ خرج رسول الله (ص) إلى مُصَلاَّه ، فركع ركعتين ، ثمَّ قال: «هل أحسنتم فارسكم؟» قالوا: ما أحسنَّاه ، فثوِّب بالصَّلاة ، فجعل (ص) يصلِّي ، وهو يلتفت إلى الشِّعب ، حتَّى إذا قضى صلاته ، قال: «أبشروا! فقد جاءكم فارسكُم» ، فجعل ينظر إلى خلال الشَّجر في الشِّعب ، فإذا هو قد جاء حتَّى وقف عليه، فقال: إنِّي انطلقت حتَّى إذا كنت في أعلى الشِّعب حيث أمرني (ص) ، فلمَّا أصبحت طلعتُ الشِّعبين كليهما فنظرت ، فلم أرَ أحداً ، فقال (ص) : «هل نزلت اللَّيلة؟» ، فقال: لا ، إلا مصلِّياً ، أو قاضي حاجةٍ ، فقال له (ص) : «قد أوجبت ، فلا عليك أن تعمل بعدها» [أبو داود (٢٥٠١) ، والنسائي في الكبرى (٨٨١٩)][(٥٦٦)].

وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النَّبويُّ الكريم في الاهتمام بالأفراد ، فقد ظهر اهتمام النَّبيِّ (ص) بطليعة القوم حتَّى جعل يلتفت في صلاته ، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمرٍ مهمٍّ ، ثمَّ إنَّه (ص) قال: «أبشروا ! فقد جاء فارسكم» إنَّها الكلمة الَّتي يستعملها (ص) في إخبارهم بما يسرُّهم من الأمور العظيمة ، تلك هي أهمِّية الفرد في المجتمع الإسلاميِّ ، إنَّه ليس كمَّاً مهملاً ، ولا رقماً في سجلٍ ، ولا بزالاً في الةٍ ، يستغنى عنه عند الضَّرورة ليؤتى بغيره ، إنَّها بعض التَّفسير للمنهج

الإلهيّ[(٥٦٧)] في قوله: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *} [الإسراء: ٧٠].

كما أنَّ في هذه القصَّة مَعْلَماً من معالم المنهج النَّبويِّ الكريم في وجوب اليقظة ، وتعرُّف أحوال العدو ، ومراقبة حركاته ، ومعرفة ما عنده من القوَّة عدداً وعدَّةً ، وما رسمه من خططٍ حربيَّةٍ ، وهي سياسةٌ مهمَّةٌ بالنسبة للقادة الَّذين يسعون لإعلاء كملة الله في الأرض[(٥٦٨)].

وأمَّا قول الرَّسول (ص) : «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها» ، فهذا محمول على النَّوافل الَّتي يكفِّر الله بها السيئات ، ويرفع بها الدَّرجات ، والمقصود: أنَّه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ما قد يقع منه مِنْ سيئاتٍ في المستقبل ، ويرفع الله به درجاته في الجنَّة ، وليس المقصود: أنَّ هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[(٥٦٩)].

٢ ـ شجاعة أمِّ سُلَيْمٍ يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إنَّ أمَّ سُلَيْمٍ اتخذت يوم حنين خِنْجَراً[(٥٧٠)] ، فكان معها ، فراها أبو طلحة ، فقال: يا رسول الله! هذه أمُّ سليم معها خنجرٌ ، فقال لها رسول الله (ص) : «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتَّخذته إن دنا مني أحد من المشركين؛ بقرت به بطنه ، فجعل رسول الله (ص) يضحك ، قالت: يا رسول الله! اقتلْ مَنْ بعدنا[(٥٧١)] من الطُّلقاء[(٥٧٢)] ، انهزموا بك[(٥٧٣)] ، فقال رسول الله: «يا أمَّ سُلَيْمٍ! إنَّ الله قد كفى ، وأحسن». [مسلم (١٨٠٩)].

٣ ـ الشَّيماء بنت الحارث أخت النَّبيِّ (ص) من الرَّضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله (ص) الشَّيماء بنت الحارث ، وبنت حليمة السَّعدية ، أخت رسول الله (ص) من الرَّضاعة ، وعنَّفوا عليها في السَّوق ، وهم لا يدرون ، فقالت للمسلمين: تعلمون والله! أنِّي لأختُ صاحبكم من الرَّضاعة ، فلم يصدِّقوها حتَّى أتوا بها رسولَ الله (ص) ، ولما انتهت الشَّيماء إلى رسول الله (ص) قالت: يا رسول الله! إنِّي أختك من الرَّضاعة ، قال: «ما علامة ذلك؟» قالت: عَضَّةٌ عَضَضْتَنِيهَا في ظهري ، وأنَّا مُتَوَرِّكَتُك[(٥٧٤)] ،

وعرف رسولُ الله (ص) العلامة ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وخيَّرها ، وقال: «إن أحببت؛ فعندي مُحَبَّةً مُكْرَمَةً ، وإن أحببت أن أُمَتِّعَكِ ، وترجعي إلى قومك؛ فعلتُ» فقالت: بل تمتِّعني ، وتردُّني إلى قومي[(٥٧٥)] ، ومتَّعها رسول الله (ص) فأسلمت ، وأعطاها رسول الله (ص) ثلاثة أَعْبُدٍ ، وجاريةً ، ونعماً ، وشاء. [الطبري في تاريخه (١٣١/٣ ـ١٣٢)، وابن هشام (١٠٠/٤ ـ ١٠١)،

والبيهقي في الدلائل (٥/١٩٩ ـ ٢٠٠) ، وعبد الرزاق في المصنف (٧/٤٧٩) برقم (١٣٩٥٨)][(٥٧٦)].

خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشَّاعر ـ والهيمنة الإعلاميَّة على الجزيرة:

لما قدم رسول الله (ص) من الطَّائف؛ جاءه كعب بن زهير ـ الشَّاعر ابن الشَّاعر ـ وكان قد هجا رسول الله (ص) ، ثمَّ ضاقت به الأرض ، وضاقت عليه نفسه ، وحثَّه أخوه (بُجَيْر) على أن يأتي رسول الله (ص) تائباً مسلماً ، وحذَّره من سوء العاقبة؛ إن لم يفعل ذلك ، فقال قصيدته الَّتي يمدح فيها رسول الله (ص) ، والتي اشتهرت بقصيدة (بانت سعاد) فقدم المدينة ، وغدا إلى رسول الله (ص) حين صلَّى الصُّبح ، ثمَّ جلس إليه ، ووضع يده في يده ، وكان رسول الله (ص) لا يعرفه ، فقال لرسول الله (ص) : «إنَّ كعب بن زهير جاء يستأمنُك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابلٌ منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار ، فقال: يا رسول الله! دعني وعدوَّ الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله (ص) : «دعه عنك ، فقد جاء تائباً نازعاً» وأنشد كعب قصيدته اللاَّمية الَّتي قال فيها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[(٥٧٧)]

ومَا سُعَادُ غَدَاةَ الطَّرْفِ إِذْ رَحَلُوا إِلاَّ أغنُّ قَرِيْرُ العَيْنِ مَكْحُولُ[(٥٧٨)]

ومنها:

إنَّ الرَّسُوْلَ لَنُوْرٌ يُسْتَضَاءُ بهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

فِيْ عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قالَ قائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُوْلُوا

شُمُّ العَرَانِيْنِ أبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيْلُ

[الحاكم (٣/٥٧٩ ـ ٥٨٣) ، والطبراني في الكبير (١٩/١٧٦ ـ ١٧٩) ، برقم (٤٠٣) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٠٧ ـ ٢١١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٣٩٣ ـ ٣٩٤)][(٥٧٩)].

ويقال: إنَّه لما أنشد رسول الله قصيدته؛ أعطاه بردته ، وهي الَّتي صارت إلى الخلفاء[(٥٨٠)] ، قال ابن كثيرٍ: هذا من الأمور المشهورة جدّاً ، ولكن لم أرَ ذلك في شيءٍ من هذه الكتب المشهورة بإسنادٍ أرتضيه ، فالله أعلم[(٥٨١)].

ويقال: إنَّ الرَّسول (ص) قال له بعد ذلك: لولا ذكرت الأنصار بخيرٍ ، فإن الأنصار لذلك أهلٌ[(٥٨٢)] ، فقال:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ فَلاَ يَزَلْ فِيْ مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الأَنْصَارِ[(٥٨٣)]

وَرِثُوا المكَارِمَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ		إنَّ الخِيَارَ هُمُ بَنُو الأَخْيَارِ
المكْرَهِيْنَ السَّمْهَرِيَّ بأذْرُعٍ		كسَوَالِفِ الهِنْدِيِّ غَيْرِ قِصَارِ[(٥٨٤)]
والنَّاظِرِيْنَ بأَعْيُنٍ مُحْمَرةٍ		كالجَمْرِ غَيْرَ كَلِيْلَةِ الأَبْصَارِ
والبَائِعِيْنَ نُفُوْسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ		لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانُقٍ وكِرَارِ
والقَائِدِيْنَ[(٥٨٥)] النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ		بالمِشْرِفِيِّ وبالقَنَا الخَطَّارِ[(٥٨٦)]
يَتطهَّرُوْنَ يَرَوْنَه نُسُكَاً لَهُمْ		بدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّارِ

إلى أن قال:

لَوْ يَعْلَمُ الأَقْوَامُ عِلْمِيَ كُلَّهُ		فِيْهِمْ لَصَدَّقَنِي الَّذِيْنَ أُمَارِي[(٥٨٧)]
قَوْمٌ إِذَا خَوتِ النُّجُومُ فإِنَّهُمْ		لِلطَّارِقِيْنَ[(٥٨٨)] النَّازِلِيْنَ مَقَارِي[(٥٨٩)]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأنَّ الشُّعراء المعارضين للدَّعوة الإسلاميَّة قد انتهى دورهم ، فقد أسلم ضرار بن الخطَّاب ، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى ، وأبو سفيان بن الحارث ، والحارث بن هشام ، والعبَّاس بن مرداس ، وتحوَّلوا إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ ، واستظلوا بلوائه عن قناعةٍ ، وإيمانٍ ، ولم يكتفِ بعضهم بأن تكون كلمتُه في الدِّفاع عن الإسلام؛ بل كان سيفُه إلى جانب كلمته ، وهذا من بركات فتح مكَّة[(٥٩٠)].

سادساً: من نتائج غزوة حنينٍ ، والطائف:

١ ـ انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن ، وثقيف في هذه الغزوة.

٢ ـ كانت غزوة حنين والطَّائف اخر غزوات النَّبيِّ (ص) لمشركي العرب.

٣ ـ رجوع كثيرٍ من أهل مكَّة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام ، وحصول الأنصار على وسامٍ عظيم ، وهو شهادةُ رسولِ الله (ص) لهم بالإيمان ، والدُّعاء لهم ولأبنائهم ، وأحفادهم، ورجوعهم برسول الله (ص) إلى المدينة.

٤ ـ انضمام كوكبةٍ مباركةٍ من قيادة أهل مكَّة وهوازن إلى الإسلام ، وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان ، والأصنام ، والمعابد الجاهليَّة في الجزيرة العربيَّة ، كما كان لقبيلة هوازن دورٌ كبيرٌ في مجاهدة أهل الطَّائف ، والتَّضييق عليهم حتَّى أسلموا.

٥ ـ توسَّعت الدَّولة الإسلاميَّة وامتدَّ نفوذها ، وأصبح لرسول الله (ص) أمراء بمكَّة ، وعلى قبيلة هوازن ، وصارت تلك الأماكن جزءاً من الدولة الإسلامية؛ التي عاصمتها المدينة النَّبويَّة ، وأصبح بالإمكان أن

يرسل رسولُ الله (ص) بعوثاً دعويَّةً بدون خوفٍ ، أو وجلٍ مِنْ أحدٍ ، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين ، وأخذت حركة السَّرايا تستهدف الأوثان ، والأصنام لتهديمها ، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً ، ونظَّم رسولُ الله (ص) فريضة الزَّكاة ، فكلَّف مَنْ يقوم على جمعها من القبائل التَّابعة للدَّولة[(٥٩١)].

* * *

المبحث الرَّابع

أهمُّ الأحداث ما بين حُنَيْنٍ وتبوك

أولاً: ترتيب استيفاء الصَّدقات:

شرع رسول الله (ص) بعد عودته إلى المدينة ـ في أواخر ذي القعدة ـ في تنظيم الإدارة ، والجباية ، وكان (ص) قد استخلف عَتَّابَ بن أَسِيْدٍ على مكَّة حين انتهى من أداء العمرة ، وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقِّه النَّاس ، ويعلِّمهم القران ، وكان هدي النَّبيِّ (ص) عندما تدخل القبائل في الإسلام الحرصَ على تعليمها ، وتربيتها ، ويُعَيِّن مَنْ يُشرف على ذلك؛ لأنَّ النُّفوس تحتاج إلى العناية ، والاهتمام ، وغرس العقائد الصَّحيحة ، والتَّصوُّرات السَّليمة فيها.

وفي مطلع المحرم من العام التَّاسع وجَّه الرَّسول (ص) عُمَّالَه إلى المناطق المختلفة ، فبعث بُريدة بن الحصيب إلى أسلم ، وغِفار ، وعبَّاد بن بشر الأشهلي إلى سُليم ، ومزينة ، ورافع بن مكيث إلى جهينة ، وعمرو بن العاص إلى فزارة ، والضَّحاكَ بن شعبان الكلابيَّ إلى بني كلاب، وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعبٍ، وابن اللُّتبيَّة الأزديَّ إلى بني ذبيان ، ورجلاً من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم[(٥٩٢)] ، والمهاجر بن أبي أميَّة إلى صنعاء ، وزياد بن لبيد إلى حضرموت ، والزبرقان بن بدرٍ ، وقيس بن عاصم إلى بني سعدٍ ، والعلاءَ بن الحضرميّ إلى البحرين، وعليَّ بن أبي طالبٍ إلى نجران؛ ليجمع صدقاتهم، ويَقْدَم عليه بجزيتهم(١).

وكان (ص) يستوفي الحساب على العُمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف ، كما فعل مع عامله ابن اللُّتْبِيَّة من الأزد، حيث حاسبه عندما قال الرَّجل[(٥٩٣)]: هذا لكم ، وهذا أُهدي لي، فقام رسول الله (ص) على المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال: «ما بالُ عاملٍ أبعثُه ، فيقول: هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، أفلا قعد في بيت أبيه، أو بيت أمِّه حتَّى ينظر أيُهدى إليه أم لا؟!، والَّذي نفس محمد بيده ! لا ينال أحدٌ منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً له

رُغاء، أو بقرةً لها خوار ، أو شاةً تَيْعَرُ» ثمَّ رفع يديه حتَّى رأينا عُفْرَتَيْ إبطيه ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ هل بلغتُ؟ مرَّتين» [البخاري (٦٩٧٩) ، ومسلم (١٨٣٢)]. وكان يقول أيضاً: «أيما عاملٍ استعملناه وفرضنا له رزقاً فما أصاب بعد رزقه؛ فهو غلول». [أبو داود (٢٩٤٣)][(٥٩٤)].

ثانياً: أهمُّ السَّرايا في هذه المرحلة:

أ . سريَّة الطُّفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

كان النَّبيُّ (ص) قد بعث الطُّفيل بن عمروٍ من مقرِّهِ في حُنَيْنٍ ، وقبل أن يسير إلى الطَّائف ، أمره بأن يهدم (ذا الكفلين) صنم عمرو بن حُمَمَة الدَّوسيِّ ، ثمَّ يستمدُّ قومه ، ويوافيه مع المدد إلى الطَّائف ، وقد نَّفذ الطُّفيل بن عمروٍ أوامر النَّبيِّ (ص) ، فهدم (ذا الكفلين) وحرَّقه ، وقاد أربعمئةٍ من قومه ، ومعهم دبابةٌ ، ومنجنيق مدداً لرسول الله (ص) ، فوصلوا إليه بعد مقدمه الطَّائف بأربعة أيام[(٥٩٥)].

ب . سريَّة عبد الله بن حُذافة السَّهميّ ، ويُقال: إنَّها سريَّة الأنصار:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ: بعث النَّبيُّ (ص) سريَّةً فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه ، فغضب ، فقال: أليس أمركم النَّبيُّ (ص) أن تطيعوني؟ قالوا: بلى! قال: فاجمعوا لي حطباً ، فجمعوا ، فقال: أوقدوا ناراً ، فأوقدوها ، فقال: ادخلوها ، فهمُّوا ، وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا

إلى النَّبيِّ (ص) من النَّار ، فما زالوا حتَّى خمدت النَّار ، فسكن غضبُه ، فبلغ النَّبيَّ (ص) فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة؛ الطَّاعة في المعروف». [البخاري (٤٣٤٠) ، ومسلم (١٨٤٠)].

ج ـ سريَّة عليِّ بن أبي طالب لهدم صنم الفُلْس في بلاد طَيِّأى:

وفي ربيع الاخر خرجت سريَّة عليّ بن أبي طالب إلى الفُلْس ـ صنم لِطيِّأى ـ ليهدمه ، وكان تعدادها خمسين ومئة رجلٍ من الأنصار ، على مئة بعير ، وخمسين فرساً ، ومعه رايةٌ سوداء ، ولواءٌ أبيض ، فشنُّوا الغارة على محلَّة ال حاتم ـ حاتم الطَّائيِّ الَّذي ضُرب المثل بجوده ـ مع الفجر ، فهدموا الفُلْس ، وخرَّبوه ، وملؤوا أيديهم من السَّبي ، والنَّعَم ، والشَّاء ، وفي السَّبي أخت عديِّ بن حاتم ، وهرب عديٌّ إلى الشَّام[(٥٩٦)].

د ـ سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخَلَصَة:

قال جرير بن عبد الله: قال لي رسول الله (ص) : «ألا تُرِيحُني من ذي الخَلَصَة؟» ، فقلت: بلى! فانطلقت في خمسين ومئة فارس من أحمَس، وكانوا أصحاب خيل ، وكنت لا أثبتُ على الخيل ، فذكرت ذلك للنَّبيِّ (ص) ، فضرب يده على صدري ، حتَّى رأيت أثر يده في صدري ، وقال: «اللَّهم! ثَبِّتْهُ واجعله هادياً مهديّاً» قال: فما وقعت عن فرسٍ بعدُ ، قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخَثْعَمَ ، وبجيلة ، فيه نُصُبٌ يقال له: الكعبة ، قال: فأتاها فحرَّقها بالنَّار ، وكسرها ، قال: ولما قدم جرير اليمن كان بها رجلٌ يستقسم بالأزلام ، فقيل له: إنَّ رَسُولَ رَسُولِ الله (ص) هاهنا ، فإن قدر عليك ضرب عنقك! قال: فبينما هو يضرب بها؛ إذ وقف عليه جرير ، فقال: لَتَكْسِرَنَّها ولتَشْهَدنَّ أن لا إله إلا الله ، أو لأضربن عنقك! قال: فكسرها ، وشهد ، ثم بعث جرير رجُلاً من أحمَس يُكنى أبا أرطأة إلى النَّبيِّ (ص) يبشِّره بذلك ، فلمَّا أتى النَّبيَّ (ص) قال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحقِّ ما جئت حتَّى تركتُها كأنَّها جملٌ أجرب ، قال: فبرَّك النَّبيُّ (ص) على خيل أحمَس ، ورجالها خمس مرَّاتٍ. [البخاري (٤٣٥٧) ، ومسلم (٢٤٧٦) ، وأحمد (٤/٣٦٢) ، وأبو داود (٢٧٧٢) ، والنسائي في الكبرى (٨٢٤٥)].

ثالثاً: إسلام عديِّ بن حاتم:

عندما وقعت أخت عديِّ بن حاتم في أسر المسلمين؛ عاملها رسول الله (ص) معاملةً كريمة ، وبقيت معزَّزة مكرَّمةً ، ثمَّ كساها النَّبيُّ (ص) ، وأعطاها ما تتبلَّغ به في سفرها ، وعندما وصلت إلى أخيها في

الشَّام شجَّعته على الذَّهاب لرسول الله (ص) ، فتأثَّر بنصيحتها ، وقدم على المدينة[(٥٩٧)] ، ونترك أبا عبيدة بن حذيفة يحدِّثنا عن قصَّة إسلام عديٍّ ، قال أبو عبيدة بن حذيفة: كنت أُحَدَّثُ عن عديِّ بن حاتمٍ ، فقلت: هذا عديٌّ في ناحية الكوفة ، فلو أتيتُه ، فكنت أنا الذي أسمع منه ، فأتيتُه فقلت: إنِّي كنت أُحدَّث عنك حديثاً ، فأردت أن أكون أنا الَّذي أسمعه منك. قال: لما بعث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ النَّبيَّ (ص) فررت منه حتَّى كنت في أقصى أرض المسلمين ممَّا يلي الرُّوم.

قال: فكرهت مكاني الَّذي أنا فيه حتَّى كنت له أشدَّ كراهيةً له منِّي من حيث جئت ، قال: قلت: لآتينَّ هذا الرَّجل ، فوالله! إن كان صادقاً ، فلأسمعنَّ منه ، وإن كان كاذباً ما هو بضائري.

قال: فأتيتُه ، واستشرفني النَّاس ، وقالوا: عديُّ بن حاتمٍ ، عديُّ بن حاتمٍ ، قال: أظنُّه قال ثلاث مرارٍ ، قال: فقال لي: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم». قال: قلت: إنِّي من أهل دينٍ ، قال: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم» قال: قلت: إنِّي من أهل دينٍ ، قالها ثلاثاً ، قال:

«أنا أعلم بدينك منك» قال: قلت: أنت أعلم بديني منِّي؟! قال: «نعم» قال: «أليس ترأس قومك؟» قال: قلت: بلى! قال: فذكر محمَّدٌ الرَّكوسِيَّة[(٥٩٨)] قال: كلمة التمسها يقيمها ، فتركها ، قال: «فإنَّه لا يحلُّ في دينك المرباع[(٥٩٩)]».

قال: فلمَّا قالها؛ تواضعتُ لها ، قال: «وإنِّي قد أرى أنَّ ممَّا يمنعك خصاصةً تراها ممَّن حولي ، وأن النَّاس علينا إلباً واحداً ، هل تعرف مكان الحِيرة؟» قال: قلت: قد سمعت بها ، ولم اتها. قال: «لتوشكنَّ الظَّعينة أن تخرج منها بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة ، ولتوشكنَّ كنوز كسرى بن هرمز تُفتح» قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز ـ ثلاث مرات ـ ، وليوشكنَّ أن يبتغي مَنْ يقبل ماله منه صدقةً فلا يجد» قال: فلقد رأيت اثنتين: قد رأيت الظَّعينة تخرج من الحيرة بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة ، وكنت في الخيل الَّتي أغارت على المدائن ، وايم الله! لتكونن الثَّالثة إنَّه لحديث رسول الله (ص) حدَّثنيه. [البخاري (٣٥٩٥) ، وأحمد (٤/٢٥٧)][(٦٠٠)].

وفي روايةٍ جاء فيه: «... فخرجت حتى أقدم على رسول الله (ص) المدينة ، فدخلت عليه ، وهو في مسجده ، فسلَّمت عليه ، فقال: «من الرَّجل؟» فقلت: عديُّ بن حاتمٍ ، فقام رسول الله (ص) ، فانطلق بي إلى بيته ، فوالله! إنَّه لعامدٌ بي إليه؛ إذ لقيته امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها ، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بِمَلِكٍ ، قال: ثمَّ مضى بي رسول الله (ص) حتَّى إذا دخل بي بيته تناول وسادةً من أَدَمٍ[(٦٠١)] ، محشوةً ليفاً ، فقذفها إليَّ ، فقال:

«اجلس على هذه» قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها ، فقال: «بل أنت» فجلست عليها ، وجلس رسول الله (ص) بالأرض ، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بأمر مَلِكٍ»[(٦٠٢)].

وفي هذه القصَّة دروس ، وعبرٌ كثيرةٌ منها:

١ ـ كان عديٌّ وهو مقبلٌ على رسول الله (ص) يحمل في تصوُّره أنَّه أحد رجلين: إمَّا نبيٌّ أو مَلِكٌ، فلمَّا رأى وقوف رسول الله (ص) مع المرأة الضَّعيفة الكبيرة مدَّةً طويلةً شعر بِخُلُق التَّواضع ، وانسلخ مِنْ ذهنه عامل المِلكِ ، واستقرَّ في تصوُّره عامل النُّبوَّة.

٢ ـ كان النَّبيُّ (ص) موفقاً حينما انتقد عَدِيّاً في مخالفته للدِّين الَّذي يعتنقُه ، حين حصل لعدي اليقين بنبوَّة رسول الله (ص) ، الَّذي يعلم من دينه ما لا يعلمه النَّاس مِنْ حوله.

٣ ـ لما ظهر للنَّبيِّ (ص) أنَّ عديّاً قد أيقن بنبوَّته؛ تحدَّث عن العوائق الَّتي تحول بين بعض الناس واتِّباع الحقِّ حتَّى مع معرفتهم بأنَّه حقٌّ ، ومنها: ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم ، وما هم فيه من الفقر ، فأبان له النَّبيُّ (ص) بأنَّ الأمن سيشمل البلاد حتَّى تخرج المرأة من العراق إلى مكَّة من غير أن تحتاج إلى حماية أحدٍ ، وأنَّ دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين ، وأنَّ المال سيفيض حتَّى لا يقبله أحدٌ ، فلمَّا زالت عن عديٍّ هذه المعوِّقات؛ أسلم.

٤ ـ كان النَّبيُّ (ص) موفقاً في دعوته ، حيث كان خبيراً بأدواء النُّفوس ، ودوائها ، ومواطن الضَّعف فيها وأزمَّة قيادها ، فكان يلائم كلَّ إنسانٍ بما يلائم علمه وفكره ، وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه ، ولذلك أثَّر في زعماء القبائل ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً[(٦٠٣)].

٥ ـ وجد عديٌّ سماتِ النُّبوَّة الصَّادقة في مظهر معيشته (ص) وحياته ، ووجد هذه السِّمات أيضاً في لون حديثه ، وكلامه ، ووجد مصداق ذلك فيما بعد ، في وقائع الزَّمن ، والتَّاريخ ، فكان ذلك سبباً في إسلامه وزيادة يقينه ، وانخلاعه عن زخارف الحياة الدُّنيا ومظاهر الأبَّهة ، والتَّرف الَّتي كان قد أسبغها عليه قومُه[(٦٠٤)].

رابعاً: أحداث متفرِّقة في سنة ثمانٍ:

قال ابن كثير نقلاً عن الواقدي: «... وفي هذه السَّنة بعث رسولُ الله (ص) عمرو بن العاص إلى جيفر ، وعمرو ابني الجلندى من الأزد ، وأُخِذَتِ الجزية من مجوس بلدها ، ومَنْ حولها من الأعراب ، وفيها تزوَّج رسول الله (ص) فاطمة بنت الضَّحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة ، فاستعاذت منه عليه

السَّلام ، ففارقها ، وفي ذي الحجَّة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطيَّة ، فاشتدَّت غيرة أمَّهات المؤمنين منها حين رُزِقت ولداً ذكراً[(٦٠٥)].

وفي عام (٨ هـ) توفِّيت السَّيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الرَّبيع ، وقد ولدت قبل المبعث بعشر سنين ، وكانت أكبر بناته (ص) ، تليها رقيَّة ، ثمَّ أمُّ كلثوم ، ثمَّ فاطمة رضي الله عنهنَّ ، كان رسول الله محبّاً لها ، أسلمت قديماً ، ثمَّ هاجرت قبل إسلام زوجها بستِّ سنين ، وكانت قد أجهضت في هجرتها ثمَّ نزفت ، وصار المرض يعاودها حتَّى توفيت ، ولما

ماتت؛ قال رسول الله (ص) : «اغْسِلْنها وِتْراً؛ ثلاثاً ، أو خمساً ، واجعلْن في الاخرة كافوراً». [البخاري (١٣٥٢) ، ومسلم (٩٣٩)][(٦٠٦)].

* * *

الفصل السَّابع عشر

غزوة تبوك (٩ هـ) وهي غزوة العُسْرَة[(٦٠٧)]

المبحث الأوَّل

تاريخ الغزوة ، وأسماؤها ، وأسبابها

أوَّلاً: تاريخها ، وأسماؤها:

خرج رسول الله (ص) لهذه الغزوة في رجب من العام التَّاسع الهجريِّ[(٦٠٨)] ، بعد العودة من حصار الطَّائف بنحو ستَّة أشهرٍ[(٦٠٩)].

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك ، نسبة إلى مكانٍ ، هو عين تبوك؛ الَّتي انتهى إليها الجيش الإسلاميُّ ، وأصل هذه التَّسمية جاء في صحيح مسلم ، فقد روى بسنده إلى معاذ: أنَّ رسول الله (ص) قال: «ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتَّى يضحى النَّهار ، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى اتي». [أحمد (٥/٢٣٧ ـ ٢٣٨) ، ومسلم (٧٠٦/١٠) ، وأبو داود (١٢٠٦) ، والترمذي (٥٥٣) ، والنسائي (١/٢٨٥) ، وابن ماجه (١٠٧٠)].

وللغزوة اسمٌ اخر ، وهو غزوة العُسْرَة ، وقد ورد هذا الاسم في القران الكريم حينما تحدَّث عن هذه الغزوة في سورة التَّوبة ، قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١١٧].

وقد روى البخاريُّ بسنده إلى أبي موسى الأشعريِّ: قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله (ص) أسأله الحُملانَ لهم؛ إذ هم معه في جيش العُسْرَة ، وهي غزوة تبوك... ، وعَنْوَنَ البخاريُّ لهذه الغزوة بقوله: «باب غزوة تبوك ، وهي غزوة العُسْرة». [البخاري تعليقاً (٨/١٣٨)].

لقد سمِّيت بهذا الاسم لشدَّة ما لاقى المسلمون فيها من الضَّنْكِ ، فقد كان الجوُّ شديدَ الحرارة ، والمسافة بعيدةً ، والسَّفر شاقّاً لقلَّة المؤونة وقلَّة الدَّوابِّ الَّتي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة ، وقلَّة الماء في هذا السَّفر الطَّويل ، والحرِّ الشَّديد ، وكذلك قلَّة المال الذي يُجَهَّز به الجيش ، وينفق عليه[(٦١٠)] ، ففي تفسير عبد الرَّزَّاق عن معمر ، عن ابن عقيل؛ قال: (خرجوا في قلَّةٍ من الظَّهْر ، وفي حرٍّ شديدٍ حتَّى كانوا ينحرون البعير ، فيشربون ما في كِرْشِهِ من الماء ، فكان ذلك عُسْرَةً من الماء)[(٦١١)] ، وهذا الفاروق عمر بن الخطَّاب يحدِّثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين ، فيقول: خرجنا مع رسول الله (ص) إلى تبوك في قيظٍ شديدٍ ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديدٌ ، حتَّى ظننَّا أنَّ رقابنا ستنقطع حتَّى إن كان أحدُنا يذهب يلتمس الخلاء ، فلا يرجع حتَّى يظنَّ أنَّ رقبته تنقطع ، وحتى إنَّ

الرَّجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه؛ فيشربه ، ويضع ما بقي على بَطْنِه. [البزار (١٨٤١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٩٤)].

وللغزوة اسم ثالث هو الفاضحة؛ ذكره الزُّرقانيُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه (شرح المواهب اللَّدنية)[(٦١٢)] ، وسمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّ هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين ، وهتكت أستارهم ، وفضحت أساليبهم العدائيَّة الماكرة ، وأحقادهم الدَّفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحقِّ رسول الله (ص) ، والمسلمين[(٦١٣)].

وأمَّا موقع تبوك فيقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطَّريق المعبدة في الوقت الحاضر ، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الرُّوم انذاك[(٦١٤)].

ثانياً: أسبابها:

ذكر المؤرِّخون أسباب هذه الغزوة ، فقالوا: وصلت الأنباء للنَّبيِّ (ص) من الأنباط الَّذين يأتون بالزَّيت مِنَ الشَّام إلى المدينة: أنَّ الروم جمعت جموعاً ، وأجلبت معهم لخمُ ، وجُذَامُ ، وغيرُهم من متنصِّرة العرب ، وجاءت في مقدِّمتهم إلى البلقاء[(٦١٥)] ، فأراد النَّبيُّ (ص) أن يغزوهم قبل أن يغزوه[(٦١٦)].

ويرى ابن كثير: أنَّ سبب الغزوة هو استجابةٌ طبيعيَّةٌ لفريضة الجهاد ، ولذلك عزم رسول الله (ص) على قتال الرُّوم؛ لأنَّهم أقرب النَّاس إليه ، وأولى النَّاس بالدَّعوة إلى الحقِّ لقربهم إلى الإسلام ، وأهله ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *} [التوبة: ١٢٣].

والَّذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصَّواب؛ إضافةً إلى أنَّ الأمر الَّذي استقرَّ عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافَّةً بِمَنْ فيهم أهل الكتاب الَّذين وقفوا في طريق الدَّعوة ، وظهر تحرُّشهم بالمسلمين ، كما روى أهل السِّير[(٦١٧)].

ولا يمنع ما ذكره المؤرِّخون بأنَّ سبب الخروج هو عزم الرُّوم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم؛ لأنَّ أصل الخروج كان وارداً.

لقد كان المسلمون على حذرٍ من مجيء غسَّان إليهم من الشَّام ، ويظهر ذلك جليّاً ممَّا وقع لعمر بن الخطَّاب ، فقد كان النَّبيُّ (ص) الى من نسائه شهراً ، فهجرهنَّ ، ففي صحيح البخاريِّ: وكنَّا قد تحدَّثنا: أنَّ ال غسَّان تُنْعِلُ النِّعال لغزونا ، فنزل صاحبي الأنصاريُّ يوم نوبته ، فرجع إلينا عِشاءً فضرب

بابي ضرباً شديداً ، وقال: أنائمٌ هو؟ ففزعت ، فخرجت إليه ، وقال: حدث أمرٌ عظيم ، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسَّان؟ قال: لا! بل أعظم منه ، وأهول ، طلَّق رسول الله (ص) نساءه.... [البخاري (٥١٩١) ، ومسلم (١٧٤٩)].

ثالثاً: الإنفاقُ في هذه الغزوة وحِرْصُ المؤمنين على الجهاد:

حثَّ رسول الله (ص) الصَّحابة على الإنفاق في هذه الغزوة؛ لبعدها ، وكثرة المشركين فيها ، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله ، فأنفق كلٌّ حسب مقدرته ، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القِدْح المعلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة[(٦١٨)] ، فهذا عبد الرَّحمن بن خُباب يحدِّثنا عن نفقة عثمان ، حيث قال: شهدت النَّبيَّ (ص) وهو يحثُّ على جيش العُسْرَة ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئة بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئتا بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ ثلاثمئة بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر ، وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه! ما على عثمان ما عمل بعد هذه». [أحمد (٤/٧٥) ، والترمذي (٣٧٠٠)].

وعن عبد الرَّحمن بن سَمُرَة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفَّان إلى النَّبيِّ (ص) بألف دينارٍ في ثوبه حين جهَّز النَّبيُّ (ص) جيش العُسْرَة ، قال: فجعل النَّبيُّ (ص) يقلِّبها بيده ، ويقول:

«ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم! يردِّدها مراراً». [أحمد (٥/٦٣) ، والترمذي (٣٧٠١)].

وأمَّا عمر؛ فقد تصدَّق بنصف ماله ، وظنَّ أنَّه سيسبق أبا بكرٍ بذلك ، وهذا الفاروق يحدِّثنا بنفسه عن ذلك ، حيث قال: أمرنا رسول الله (ص) يوماً أن نتصدَّق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر؛ إن سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله (ص) : «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثلَه. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكلِّ ما عنده ، فقال له رسول الله (ص) : «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسولَه ، قلت: لا أسابقك إلى شيءٍ أبداً. [أبو داود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥)].

وروي: أنَّ عبد الرَّحمن بن عوفٍ أنفق ألفي درهم ، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العُسْرَة[(٦١٩)].

وكانت لبعض الصَّحابة نفقاتٌ عظيمةٌ ، كالعبَّاس بن عبد المطَّلب ، وطلحة بن عبيد الله ، ومحمَّد بن مَسْلَمة ، وعاصم بن عديٍّ رضي الله عنهم[(٦٢٠)].

وهكذا يفهم المسلمون: أنَّ المال وسيلةٌ ، واستطاع أغنياء الصَّحابة أن يبرهنوا: أنَّ مالهم في خدمة هذا الدِّين ، يدفعونه عن طواعيةٍ ، ورغبةٍ ، وأنَّ تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخٌ مشرِّفٌ؛ لأنَّه تاريخ المال في يد الرِّجال ، لا تاريخ الرِّجال تحت سيطرة المال ، وكما كان الجهاد بالنَّفس فكذلك هو بالمال ، وإنَّ الَّذين رُبُّوا على أن يقدِّموا أنفسهم ، تهون عليهم أموالُهم في سبيل الله تعالى[(٦٢١)].

إنَّ في مسارعة الموسرين من الصَّحابة إلى البذل ، والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين؛ من مسارعةٍ إلى فعل الخير ، ومقاومةٍ لأهواء النَّفس وغرائزها ، ممَّا تحتاج إليه كلُّ أمَّة لضمان النَّصر على أعدائها ، وخير ما يفعله المصلحون ، وزعماء النَّهضات هو غرس الدِّين في نفوس النَّاس غرساً كريماً[(٦٢٢)].

وقدَّم فقراء المسلمين جهدهم من النَّفقة على استحياءٍ ، ولذلك تعرَّضوا لسُخْرِيَةٍ وغمز ، ولمز المنافقين ، فقد جاء أبو عُقَيْلٍ بنصف صاع تمرٍ ، وجاء اخر بأكثر منه ، فلمزوهما قائلين: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الاخر إلا رياءً ، فنزلت الاية: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ*} [التوبة: ٧٩][(٦٢٣)].

وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء ، فكانوا يتَّهمون الأغنياء بالرِّياء ، ويسخرون من صدقة الفقراء[(٦٢٤)].

لقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنَّهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد؛ فهذا عُلبَةُ بن زيدٍ أحد البكَّائين صلَّى من اللَّيل ، وبكى ، وقال: اللَّهمَّ! إنَّك قد أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ولم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك ، وإنِّي أتصدَّق على كلِّ مسلمٍ بكلِّ مظلمةٍ أصابتني في جسدٍ ، أو عرْضٍ ، فأخبره النَّبيُّ (ص) : أنَّه قد غُفِر له[(٦٢٥)].

وفي هذه القصَّة وما جرى فيها اياتٌ من الإخلاص ، وحبِّ الجهاد لنصرة دين الله ، وبثِّ دعوته في الافاق ، وفيها مِنْ لُطف الله بضعفاء المؤمنين الَّذين يعيشون في حياتهم عيشةً عمليَّة[(٦٢٦)].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدِّثنا عن قصَّته: (.... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك ، خرجت إلى أهلي ، فأقبلت . وقد خرج أوَّل صحابة رسول الله . فطفقت في المدينة أنادي: ألا مَنْ يحمل رجلاً له سهمه! فإذا شيخٌ من الأنصار ، فقال: لنا سهمه على أن نحملَه عقبة[(٦٢٧)] ، وطعامه معنا. فقلت: نعم ، قال: فسر على بركة الله ، فخرجت مع خير صاحبٍ حتَّى أفاء الله علينا[(٦٢٨)] ،

فأصابني قلائصَ[(٦٢٩)] ، فَسُقْتُهُنَّ حتَّى أتيتُه ، فخرج ، فقعد على حقيبة من حقائب إبله ، ثمَّ قال: سقهن مدبراتٍ ، ثمَّ قال: سقهن مقبلاتٍ ، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً إنَّما هي غنيمتُك الَّتي شرطتُ لك ، قال: خذ قلائصك يابن أخي! فغير سهمِك أردنا. [أبو داود (٢٦٧٦)][(٦٣٠)].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخرويَّة ، أجراً ، وثواباً

يجده عند الله يوم لقائه ، وتنازل الأنصاريُّ عن قسم كبيرٍ من راحته ، ليتعاقب وواثلة على راحلته ، ويقدِّم له الطَّعام مقابل سهمٍ اخر ، وهو الأجر ، والثَّواب.

إنَّها مفاهيم تنبع من المجتمع الَّذي تربَّى على كتاب الله ، وسنَّة رسوله (ص) ، لها نفس الخاصِّيَّة في الإضاءة ، وتحمل نَفْسَ البريق ، متمِّمٌ بعضها لبعضها الاخر[(٦٣١)].

وجاء الأشعريُّون يتقدَّمهم أبو موسى الأشعريُّ يطلبون من النَّبيِّ (ص) أن يحملهم على إبلٍ ليتمكَّنوا من الخروج للجهاد ، فلم يجد ما يحملهم عليه حتَّى مضى بعضُ الوقت ، فحصل لهم على ثلاثةٍ من الإبل[(٦٣٢)].

وبلغ الأمر بالضُّعفاء ، والعجزة ممَّن أقعدهم المرض ، أو النَّفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد ، وتحرُّجاً من القعود حتَّى نزل فيهم قران: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ *} [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

إنَّها صورةٌ مؤثِّرة للرَّغبة الصَّحيحة في الجهاد على عهد رسول الله (ص) ، وما كان يحسُّه صادقو الإيمان من ألمٍ إذا ما حالت ظروفهم المادِّية بينهم وبين القيام بواجباته ، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممَّن عذر الله لمرضٍ ، أو كبر سنٍّ ، أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[(٦٣٣)] ، وهم الَّذين عناهم رسول الله (ص) عندما قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة! قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر». [البخاري (٤٤٢٣) ، وأحمد (١٠٣/٣) ، وأبو داود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) ، وابن حبان (٤٧٣١)].

رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرَّسول (ص) النَّفير ، ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة؛ أخذ المنافقون في تثبيط همم النَّاس ، قائلين لهم: لا تنفروا في الحرِّ ، فأنزل الله تعالى فيهم: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ *فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *} [التوبة: ٨١ ـ ٨٢].

وقال رسول الله (ص) ـ وهو في جهازه لتبوك ـ للجدِّ بن قيس: يا جدُّ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله! أو تأذن لي ، ولا تفتني؟ فوالله! لقد عرف قومي: أنَّه ما من رجل أشدُّ عجباً بالنِّساء منِّي ، وإنِّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألاَّ أصبر ، فأعرض عنه رسول الله (ص) ، وقال: «قد أذنت لك» [الطبري في تفسيره (١٠/١٤٨ ـ ١٤٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢١٣ ـ ٢١٤) ، والطبراني في الكبير (٢١٥٤ و١٢٦٥٤) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٠)] ، ففيه نزلت الاية: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ *} [التوبة: ٤٩] ، وذهب بعضهم إلى النَّبيِّ (ص) مبدين أعذاراً كاذبةً ، ليأذن لهم بالتخلُّف ، فأذن لهم ، فعاتبه الله تعالى بقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *} [التوبة: ٤٣].

وبلغ رسول الله (ص) : أنَّ ناساً منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهوديِّ يثبِّطون النَّاس عن رسول الله (ص) ، فأرسل إليهم مَنْ أحرق عليهم بيت سُوَيْلِم. [ابن هشام (٤/١٦٠)][(٦٣٤)].

وهذا يدلُّ على مراقبة المسلمين الدَّقيقة ، ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود ، فقد كانت عيون المسلمين يقظةً تراقب تحرُّكات اليهود، والمنافقين، واجتماعاتهم، وأوكارهم، بل كانوا يطَّلعون فيها على أدقِّ أسرارهم، واجتماعاتهم، وما يدور فيها مِنْ حبك المؤامرات ، وابتكار أساليب التَّثبيط ، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال ، وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة ، وأوكارها حازماً حاسماً؛ إذ أمر بحرق البيت على مَنْ فيه من المنافقين ، وأرسل مِنْ أصحابه مَنْ يُنَفِّذُه ، وَنُفِّذَ بحزمٍ ، وهذا منهج نبويٌّ كريمٌ يتعلَّم منه كل مسؤول في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كيف يقف من دعاة الفتنة ، ومراكز الإشاعات المضلِّلة الَّتي تُلحق الضَّرر بالأفراد ، والمجتمعات ، والدُّول؛ لأنَّ التَّردُّد في مثل هذه الأمور يُعَرِّض الأمن ، والأمان إلى الخطر ، وينذر بزوالها[(٦٣٥)].

لقد تحدَّث القران الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة ، وفي أثناءها وبعدها ، وممَّا جاء من حديث القران الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمَّن استئذانهم ، وتخلُّفهم عن الخروج ، وكان

ممَّن تخلف عبد الله بن أبيِّ بن سلول وقد تحدَّث القران عنهم ، فقال الله تعالى: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *} [التوبة: ٤٢].

فقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ موقف المنافقين ، وأنَّهم تخلَّفوا بسبب بُعْد المسافة ، وشدَّتها ،

وأنَّه لو كان الَّذي دعوتهم إليه ـ يا محمد! ـ عرضاً من أعراض الدُّنيا ، ونعيمها ، وكان السَّفر سهلاً ، لاتَّبعوك في الخروج ، ولكنَّهم تخلَّفوا ، ولم يخرجوا ، فالاية تشرح ، وتوضِّح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة ، وأسباب هذا الموقف ، ثمَّ حكى ـ سبحانه ـ ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: {وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *} ، وكان نزول هذه الاية قبل رجوعه (ص) من تبوك.

والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله ـ كذباً، وزوراً ـ قائلين: لو استطعنا أيُّها المؤمنون! أن نخرج معكم للجهاد في تبوك؛ لخرجنا، فإنَّنا لم نتخلَّف عن الخروج معكم إلا مضطرِّين، فقد كانت لنا أعذارُنا القاهرة الَّتي حملتنا على التخلُّف[(٦٣٦)].

وقوله ـ سبحانه ـ: {يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *}

قال ابن عاشور: أي: يحلفون مهلكين أنفسهم؛ أي: موقعينها في الهُلْكِ ـ والهُلْكُ: الفناء ، والموت ، ويطلق على الأضرار الجسميَّة ، وهو المناسب هنا ـ أي: يتسبَّبون في ضرِّ أنفسهم بالأيمان الكاذبة ، وهو ضرُّ الدُّنيا ، وعذاب الاخرة ، وفي هذه الاية دلالةٌ على أنَّ تعمُّد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك[(٦٣٧)].

ثمَّ عاتب الله تعالى نبيَّنا محمَّداً (ص) بقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *}

قال مجاهد[(٦٣٨)]: نزلت هذه الاية في أُناسٍ قالوا: استأذِنوا رسولَ اللهِ (ص) ، فإن أذن لكم؛ فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم ، فاقعدوا. وهؤلاء هم فريقٌ من المنافقين ، منهم عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، والجدُّ بن قيسٍ ، ورفاعةُ بن التَّابوت ، وكانوا تسعةً وثلاثين ، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ[(٦٣٩)].

والاية الكريمة عتابٌ لطيفٌ من اللَّطيف الخبير سبحانه لحبيبه (ص) على ترك الأَوْلى ، وهو التوقُّف عن الإذن إلى انجلاء الأمر ، وانكشاف الحال[(٦٤٠)] ، ثمَّ قال تعالى: {لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ *} [التوبة: ٤٤ ـ ٤٥].

هذه الايات أوَّل ما نزل في التَّفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال[(٦٤١)] ، فبيَّن سبحانه: أنَّه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الاخر الاستئذان ، وترك الجهاد في سبيل الله ، وإنَّما هذا من صفات المنافقين الَّذين يستأذنون من غير عذرٍ ، وصفهم ـ سبحانه ـ بقوله: أي: شكَّت في صحَّة {وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} جئتَهم به ، وقوله: أي: {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ *} ، يقدمون رِجْلاً ، ويؤخِّرون أخرى ، وليست لهم قدمٌ ثابتةٌ في شيءٍ[(٦٤٢)].

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبةً للتَّمييز بين المؤمنين ، والمنافقين ، وَضَحَتْ فيها الحواجز بين الطَّرفين ، ولم يَعُدْ هناك أيُّ مجالٍ للتَّستُّر على المنافقين ، أو مجاملتهم؛ بل أصبحت مجابهتُهم أمراً ملحّاً بعد أن عملوا كلَّ مافي وسعهم لمجابهة الرَّسول (ص) ، والدَّعوة ، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنَّفير ، الَّذي أعلنه الله تعالى ، ورسوله (ص) ، والَّذي نزل به القران الكريم؛ بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين ، وإيقافُهم عند حدِّهم واجباً شرعيّاً[(٦٤٣)].

خامساً: إعلان النَّفير ، وتعبئة الجيش:

أُعلِن النَّفير العام للخروج لغزوة تبوك؛ حتَّى بلغ عدد من خرج مع النَّبيِّ (ص) إلى تبوك ثلاثين ألفاً ، وقد عاتب القران الكريم الَّذين تباطؤوا بقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ *} [التوبة: ٣٨].

وقد طالبهم القران الكريم بأن ينفروا شباناً ، وشيوخاً ، وأغنياء ، وفقراء ، بقوله تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [التوبة: ٤١].

لقد استطاع رسول الله (ص) أن يحشد ثلاثين ألف مقاتلٍ[(٦٤٤)] من المهاجرين ، والأنصار ، وأهل مكَّة ، والقبائل العربيَّة الأخرى ، ولقد أعلن رسول الله (ص) ـ على غير عادته في غزواته ـ هدفه ، ووجهتَه في القتال؛ إذ أعلن صراحةً: أنَّه يريد قتال بني الأصفر (الرُّوم) ، علماً بأنَّ هديه

في معظم غزواته أن يورِّي فيها(١) ، ولا يصرّح بهدفِه ، ووجهتِه ، وقصدِه حفاظاً على سرية الحركة ، ومباغتة العدوِّ(١).

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التَّصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره ، وقد صرَّح (ص) في هذه الغزوة ـ على غير العادة ـ بالجهة التي يريد غزوها ، وجلَّى هذا الأمر للمسلمين ، لأسبابٍ منها:

١ ـ بُعْد المسافة ، فقد كان رسول الله (ص) يدرك أنَّ السير إلى بلاد الرُّوم يُعدُّ أمراً صعباً؛ لأنَّ التَّحرُّك سيتمُّ في منطقةٍ صحراويَّةٍ ممتَّدة ، قليلة الماء ، والنَّبات ، ولابدَّ حينئذٍ من إكمال المؤونة ، ووسائل النَّقل للمجاهدين قبل بدء الحركة حتَّى لا يؤدِّي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

٢ ـ كثرة عدد الرُّوم ، بالإضافة إلى أنَّ مواجهتهم تتطلَّب إعداداً خاصّاً ، فهم عدوٌّ يختلف في طبيعته عن الأعداء الَّذين واجههم النَّبيُّ (ص) مِنْ قبلُ ، فأسلحتهم كثيرةٌ ، ودرايتهم بالحرب كبيرةٌ ، وقدرتهُم القتاليَّة فائقةٌ[(٦٤٥)].

٣ ـ شدَّة الزَّمان ، وذلك لكي يقفَ كلُّ امرأٍ على ظروفه ، ويُعِدَّ النَّفقة اللازمة له في هذا السَّفر الطَّويل لمن يعول وراءه[(٦٤٦)].

٤ ـ أنَّه لم يعد مجالٌ للكتمان في هذا الوقت؛ حيث لم يبقَ في جزيرة العرب قوَّةٌ معاديةٌ لها خطرها ، تستدعي هذا الحشد الضَّخم ، سوى الرُّومان ، ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ، ودومة الجندل والعقبة[(٦٤٧)].

لقد شرع رسول الله (ص) لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربيَّة ، ومراعاة المصلحة العامَّة في حالتي الكتمان ، والتصريح ، ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال[(٦٤٨)].

ولما علم المسلمون بجهة الغزوة؛ سارعوا إلى الخروج إليها ، وحثَّ الرسول (ص) على النَّفقة قائلاً: «من جهَّز جيش العسرة فله الجنَّة». [البخاري تعليقاً (٦٥/٧) ، والدارقطني (٤٤٠١) ، والبيهقي في الكبرى (١٦٧/٦)].

واستخلف رسولُ الله (ص) على المدينة محمَّد بن مسلمة الأنصاري ، وخلَّف عليَّ بن أبي طالبٍ على أهله، فأرجف به المنافقون ، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً ، وتخفُّفاً منه ، فأخذ

عليٌّ رضي الله عنه سلاحه ، ثمَّ خرج حتَّى أتى رسول الله (ص) وهو نازلٌ بالجُرْفِ[(٦٤٩)] ، فقال: يا نبي الله! زعم المنافقون: أنَّك إنَّما خلَّفتني؛ لأنَّك استثقلتني، وتخفَّفت منِّي، فقال: «كذبوا، ولكنِّي خلَّفتك لِمَا تركتُ ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي ، وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون

من موسى؟ إلا أنه لا نبيَّ بعدي» [البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤/٣١ ـ ٣٢)][(٦٥٠)]. فرجع عليٌّ إلى المدينة[(٦٥١)].

وكان استخلاف عليٍّ رضي الله عنه في أهله باعتبار قرابته ، ومصاهرته ، فكان استخلافه في أمرٍ خاصٍّ ، وهو القيام بشأن أهله ، وكان استخلاف محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ في الغزوة نفسها استخلافاً عامّاً ، فتعلَّق بعض الناس بأن استخلاف عليٍّ يشير إلى خلافته من بعده ، ولا صحَّة لهذا القول؛ لأنَّ خلافته كانت في أهله خاصَّةً[(٦٥٢)].

وعندما تجمَّع المسلمون عند ثِنيَّة الوداع بقيادة رسول الله (ص) ، اختار الأمراء ، والقادة ، وعقد الألوية ، والرَّايات لهم ، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، ورايته العظمى إلى الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه ، ودفع راية الأوس إلى أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ ، وراية الخزرج إلى أبي دجانة ، وأمر كلَّ بطنٍ من الأنصار أن يتَّخذ لواءً[(٦٥٣)] ، واستعمل رسول الله (ص) على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عَبَّادَ بن بِشْرٍ ، فكان رضي الله عنه يطوف في أصحابه على العسكر[(٦٥٤)] ، وكان دليلَ رسول الله (ص) في هذه الغزوة علقمةُ بن الفَغْوَاء الخزاعيُّ ، فقد كان من أصحاب الخبرة ، والكفاءة في معرفة طريق تبوك[(٦٥٥)].

وقد انفرد الواقديُّ بالمعلومات عن طريق الجيش ، وتوزيع الرَّايات ، وهو متروكٌ ، ولكنَّه غزير المعلومات في السِّيرة ، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضرُّ[(٦٥٦)].

ويلاحظ الباحث التَّطوُّر السَّريع لعدد المقاتلين بشكلٍ عامٍّ ، ولسلاح الفرسان بشكل خاصٍّ.

إنَّ الَّذي يدرس تاريخَ الدَّعوة الإسلاميَّة ، ونشوءَ الدَّولة الإسلاميَّة ومؤسَّساتها العامَّة ـ وفي مقدَّمة هذه المؤسسات الجيشُ الإسلاميُّ القوَّة الضَّاربة للدَّولة ـ يلاحظ أنَّ هناك تطوُّراً سريعاً جدّاً في مجال القوَّة العسكريَّة؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدرٍ الكبرى ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً ، وفي غزوة أحد بلغ سبعمئة مقاتل ، تقريباً ، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة الاف مقاتلٍ ، وفي غزوة فتح مكة عشرة الافٍ ، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثني عشر ألف مقاتلٍ ، وأخيراً بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتلٍ أو يزيد.

وإنَّ الدَّارس يلاحظ هذا التطوُّر السَّريع اللاَّفت للنَّظر في مجال سلاح الفرسان ، ففي غزوة بدرٍ كان عدد الفرسان فارسين ـ في بعض الرِّوايات ـ وفي غزوة أحدٍ لم يتجاوز عدد الفرسان ما كان في بدرٍ ، ويقفز العدد بعد ستِّ سنوات فقط إلى عشرة الاف فارس ، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام في الجزيرة

العربيَّة وبخاصَّةٍ في البادية؛ ذلك لأن أهلها يهتمُّون باقتناء الخيول ، وتربيتها أكثر من أبناء المدن[(٦٥٧)].

* * *

المبحث الثَّاني

أحداث في الطَّريق ، والوصول إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش ، وتوزيع المهامِّ ، والألوية ، والرَّايات ، توجَّه الجيش الإسلاميُّ بقيادة رسول الله (ص) إلى تبوك ، ولم ينتظر أحداً قد تأخَّر ، وقد تأخَّر نفرٌ من المسلمين يظنُّ فيهم خيراً ، وكلَّما ذُكِرَ لرسول الله (ص) اسم رجل تأخَّر قال (ص) : «دعوه ، إن يك فيه خير؛ فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» [الحاكم ٣/٥٠]][(٦٥٨)].

أولاً: قصَّة أبي ذرٍّ الغفاريِّ:

قال ابن إسحاق: ثمَّ مضى رسول الله (ص) سائراً ، فجعل يتخلَّف عنه الرَّجل ، فيقولون: يا رسول الله! تخلَّف فلانٌ ، فيقول: «دعوه ، فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه» ، حتى قيل: يا رسول الله! قد تخلَّف أبو ذرٍّ ، وأبطأ به بعيره ، فقال: «دعوه فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقُه الله بكم ، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» وتلوَّم[(٦٥٩)] أبو ذرٍّ على بعيره ، فلمَّا أبطأ عليه ، أخذ متاعه ، فحمله على ظهره ، ثمَّ خرج يتبع أثر رسول الله (ص) ماشياً ، ونزل رسول الله (ص) في بعض منازله ، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول الله! إنَّ هذا الرَّجل يمشي على الطَّريق وحدَه ، فقال رسول الله (ص) : «كن أبا ذرٍّ»[(٦٦٠)] ، فلمَّا تأمَّله القوم؛ قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذرٍّ ، فقال رسول الله (ص) : «رحم الله أبا ذرٍّ ، يمشي وحدَه، ويموت وحدَه ، ويُبعث وحدَه»[(٦٦١)].

ومضى الزَّمان ، وجاء عصر عثمان ، ثمَّ حدثت بعض الأمور وسُيِّرَ أبو ذرٍّ إلى الرَّبذَة فلمَّا حضره الموت ، أوصى امرأته ، وغلامه: إذا متُّ فاغسلاني ، وكفِّناني ، ثمَّ احملاني ، فضعاني على قارعة الطَّريق ، فأوَّل ركبٍ يمرُّون بكم؛ فقولوا: هذا أبو ذرٍّ! فلمَّا مات؛ فعلوا به كذلك ، فطلع ركبٌ ، فما علموا به؛ حتَّى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعودٍ في رهطٍ من أهل الكوفة ، فقال: ما هذا؟ فقيل: جِنازة أبي ذرٍّ ، فاستهل ابن مسعودٍ يبكي ، فقال: صدق رسول الله (ص) : «يرحم الله أبا ذرٍّ! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبعث وحدَه» فنزل ، فوليه بنفسه حتَّى دفنه. [الحاكم (٣/٥٠ ـ ٥١) ، والطبري في تاريخه (٣/١٤٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٢١ ـ ٢٢٢)][(٦٦٢)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ ما تعرَّض له أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضي الله عنه من الصُّعوبات ، والمخاطر ، الَّتي نجَّاه الله منها ، وقوَّاه بالصَّبر عليها ، لقد بذل أبو ذرٍّ جهداً كبيراً في المشي على قدميه ، وهو يحمل متاعه على ظهره ، حتَّى لحق بالنَّبيِّ (ص) والمسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[(٦٦٣)].

٢ ـ وفي قوله (ص) : «رحم الله أبا ذر! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويبعث وحدَه» دلالةٌ واضحةٌ وضوح الشَّمس في رائعة النَّهار على صدق نبوَّة الرَّسول (ص) ؛ إذ الإخبار بأمورٍ لم تقع ، ثمَّ تقع بعد الإخبار يدلُّ على معجزةٍ ، وتكريمٍ من الله لهذا الرَّسول (ص) وهذه الوسيلة من إثبات النُّبوَّة كثيرةٌ في السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفةِ[(٦٦٤)].

٣ ـ كما أنَّ في القصَّة دلالةٌ على علم ابن مسعودٍ رضي الله عنه ، وقوَّة ذاكرته ، وسرعة استحضاره لما حفِظ؛ حيث تذكَّر بعد سنواتٍ عديدةٍ حديث رسول الله (ص) عمَّا سيؤول إليه أمر أبي ذرٍّ في اخر حياته رضي الله عنه[(٦٦٥)].

ثانياً: قصة أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق: ... ثمَّ إنَّ أبا خَيْثَمَة رجع بعد أن سار رسولُ الله (ص) أياماً إلى أهله في يوم حارٍّ ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[(٦٦٦)] ، قد رشَّت كلُّ واحدةٍ منها عريشها ، وبرَّدت له فيه ماءً ، وهيَّأت له فيه طعاماً ، فلمَّا دخل؛ قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: رسول الله (ص) في الضِّحِّ[(٦٦٧)] ، والرِّيح ، والحرِّ ، وأبو خيثمة في ظلٍّ

باردٍ ، وطعامٍ مُهيَّأ ، وامرأةٍ حسناء ، في ماله مقيمٌ ، ما هذا بالنَّصَف! ثمَّ قال: والله ! لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتَّى ألحق برسول الله (ص) ، فهيِّئا لي زاداً ، ففعلتا ، ثمَّ قدَّم ناضحه[(٦٦٨)] ، فارتحله ، ثمَّ خرج في طلب رسول الله (ص) حتَّى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة عميرُ بن وهبٍ الجُمحيُّ في الطَّريق ، يطلب رسول الله (ص) ، فترافقا ، حتَّى إذا دنوا من تبوك ، قال أبو خيثمة لعمير بن وهبٍ: إنَّ لي ذنباً ، فلا عليك أن تَخَلَّف عنّي ، حتَّى آتيَ رسول الله (ص) ! ففعل حتَّى إذا دنا من رسول الله (ص) وهو نازلٌ بتبوك ، قال النَّاس: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ ، فقال رسول الله (ص) : «كن أبا خيثمة» ، فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! فلمَّا أناخ ، أقبل فسلَّم على رسول الله (ص) ، فقال له رسول الله (ص) : «أولى لك يا أبا خيثمة[(٦٦٩)] !» ثمَّ أخبر رسولَ الله (ص) الخبر ، فقال له رسول الله (ص) خيراً ، ودعا له بخيرٍ.
[الطبراني في الكبير (٥٤١٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، والمجمع (٦/١٩٢ ـ ١٩٣)][(٦٧٠)] .

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً ، واسمه: مالكُ بن قيسٍ:

لما رأيتُ الناسَ في الدِّيْنِ نافَقُوا أَتَيْتُ الَّتِي كانَتْ أَعَفَّ وأَكْرمَا
وبَايَعْتُ باليُمْنَى يَدِي لِمُحمَّدِ فَلَمْ أَكْتَسِبْ إِثْماً وَلَمْ أَغْشَ مَحْرَمَا
تَرَكْتُ خَضِيْباً[(٦٧١)] في العَرِيْشِ وَصِرْمَةً[(٦٧٢)] صَفَايَا[(٦٧٣)] كِراماً يُسْرُهَا قَدْ تَحَمَّمَا[(٦٧٤)]
وَكُنْتُ إِذَا شَكَّ المُنَافِقُ أَسْمَحَتْ[(٦٧٥)] إِلَى الدِّيْنِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْثَ يَمَّمَا[(٦٧٦)]

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، منها:

١ ـ المسلم صاحب ضميرٍ حيٍّ:

فقد رأى أبو خيثمة رضي الله عنه ما أعدَّت له زوجتاه من الماء البارد ، والطَّعام مع الظِّلِّ المبرَّد ، والإقامة ، فتذكر رسولَ الله (ص) وما هو فيه من التَّعرُّض للشَّمس ، والرِّيح ، والحرِّ؛

فأبصر ، وتذكَّر ، وتيقَّظ ضميره ، وحاسب نفسه ، ثمَّ عزم على الخروج ، وخرج وحدَه يقطع الفيافي ، والقفار حتَّى التقى بعمير بن وهب الجمحيِّ ، ولعلَّه كان قادماً من مكة ، فهذه الصُّورة تبيِّن لنا مثلاً من سلوك المتَّقين الَّذين تمرُّ عليهم لحظات ضعفٍ ، يعودون بعدها أقوى إيماناً ممَّا كانوا عليه ، إذا

تذكَّروا وراجعوا أنفسهم ، وفي بيان ذلك يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *} [الأعراف: ٢٠١].

وقد تذكَّر سريعاً ، وخرج لعلَّه يدرك ما فاته ، وظلَّ يشعر بالذَّنب ، حتَّى وصل إلى النَّبيِّ (ص) في تبوك ، وحصل على رضاه ، وسرورِه[(٦٧٧)].

٢ ـ معرفة الرَّسول (ص) بأصحابه ، وبمعادنهم:

إنَّ قول الرَّسول (ص) حينما قال له أصحابه: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ: «كن أبا خيثمة» فلمَّا اقترب ، وعرفوه ، قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! يدلُّ على معرفة رسول الله (ص) بأصحابه ، وأنَّه أعرفُهم بمعادن رجاله ، يعرف المستجيب من غيره ، ويعرف التَّائب النَّائب إلى ربِّه إذا زل قدمُه بسرعة رجوعه ، ومعرفةُ خصال الرِّجال ومعادِنهم تدلُّ على معرفةٍ واسعةٍ ، وخبرةٍ مستوعبةٍ فاحصةٍ ، نتيجة التَّعامل ، والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة ، فقد كان يخالط الجميع يسمع منهم ، ويُسمعهم ، ويسيرون معه ، ويُجاهدون تحت رايته[(٦٧٨)].

٣ ـ حزم أبي خيثمة ، وصبره ، ونفاذ عزيمته:

تأمَّل هذا القرار الَّذي اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله (ص) وحدَه ، في هذه الرِّحلة المضْنِيَة ، في هذه الصَّحراء قليلة الماء ذات الحرِّ اللافح ، لقد اتَّخذ هذا القرار الحازم ، ونفَّذه بدقَّةٍ ، فدلَّ على قوَّة عزيمته ، وعنفوان إرادته ، وعلى جلده ، وصبره[(٦٧٩)].

٤ ـ عِتَابُ القائد للجنديِّ له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفاً بذنبه ، يطرح السَّلام على رسول الله (ص) ، فعاتبه (ص) معاتبةً تحمل في طيَّاتها اللَّوم ، والتَّأنيب ، والتَّهديد؛ إذ قال له رسول الله (ص) : «أولى لك يا أبا خيثمة!» فهي كلمةٌ فيها معنى التَّهديد ، ومعناها: دنوتَ من الهلكة.

إنَّه ممَّا لاشكَّ فيه: أنَّ هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجنديِّ؛ إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذَّنب.

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في تعليم القادة عدم السُّكوت على أخطاء الجنود؛ لأنَّ ذلك يضرُّهم ، ويُلحِق الضَّرر بغيرهم ، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ، ومحاسبة مرتكبه ، وتقويمه ، وبذلك يكونون معلِّمين ، ومرشدين ، ومربِّين[(٦٨٠)].

ثالثاً: الوصول إلى تبوك:

عندما وصل النَّبيُّ (ص) لم يجد أثراً للحشود الرُّومانية ، ولا القبائل العربيَّة ، وبالرَّغم من أنَّ الجيش مكث عشرين ليلةً في تبوك ، لم تفكِّر القيادة الرُّومانيَّة مطلقاً في الدُّخول مع المسلمين في قتالٍ ، حتَّى القبائل العربيَّة المتنصِّرة اثرت السُّكون ، أمَّا حكام المدن في أطراف الشَّام ، فقد اثروا الصُّلح، ودفع الجزية ، فقد أرسل ملك أيلة للنَّبيِّ (ص) هديةً ، وهي بغلةٌ بيضاء ، وبُرد ، فصالحه على الجزية ، وأرسل خالدَ بن الوليد رضي الله عنه على رأس سريَّةٍ من الفرسان ، بلغ عددها أربعمئةٍ وعشرين فارساً إلى دومة الجندل ، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أُكَيْدِرَ بن عبد الملك الكنديَّ ـ ملكَها ـ وهو في الصَّيْدِ خارجها[(٦٨١)] ، فصالحه النَّبيُّ (ص) على الجزية[(٦٨٢)] ، وقد تعجَّب المسلمون من قَباء كان أُكَيْدِرُ يلبَسُه ، فقال الرَّسول (ص) : «أتعجبون من هذا؟ فوالَّذي نفسي بيده! لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة أحسن مِنْ هذا». [البخاري (٣٨٠٢) ، ومسلم (١٢٦/٢٤٦٨)][(٦٨٣)].

وقد ورد أنَّ غنائم خالد من أُكَيْدِرَ كانت ثمانمئةٍ من السَّبي ، وألفَ بعيرٍ ، وأربعمئة درعٍ، وأربعمئة رمحٍ[(٦٨٤)] ، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبيِّ (ص) ، وهي بغلةٌ بيضاء ، وبرد ، فصالحه على الجزية[(٦٨٥)].

وكتب رسول الله (ص) معاهداتٍ لكلٍّ من أهل جرباء، وأذرح[(٦٨٦)]، ولأهل مقنا[(٦٨٧)] ، يؤدِّي بموجبها هؤلاء النَّاس من نصارى العرب الجزية كلَّ عامٍ ، وتخضع لسلطان المسلمين ، لقد انفرد رسول الله (ص) بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة ، وعقد معها معاهداتٍ ، وبذلك أمن حدود الدَّولة الإسلاميَّة الشَّمالية[(٦٨٨)].

وبهذه المعاهدات قصَّ (ص) أجنحة الرُّوم ، فقد كانت هذه القبائل تابعةً للرُّوم ، ودخلوا في النَّصرانية ، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله ، والتزامها بالجزية يعتبر قصَّاً لهذه الأجنحة ، وبتراً لحبال تبعيَّتهم للرُّوم ، وتحريراً لها من هذه التَّبعيَّة؛ الَّتي كانت تذلُّهم ، وتخضعهم لسلطان الرُّوم لينالوا مِنْ تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به ، وخوفاً من ظلمهم لقوَّتهم الباطشة ، وقد وَفَوا بعهد الصُّلح ، والتزموا أداء الجزية ، فأعطوها عن يد وهم صاغرون[(٦٨٩)].

وهذه سياسةٌ نبويَّةٌ حكيمةٌ اختطَّها رسولُ الله (ص) في بناء الدَّولة ، ودعوة النَّاس لدين الله ، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الرُّوم بإماراتٍ تدين للرَّسول (ص) بالطَّاعة ، وتخضع لحكم المسلمين ، وأصبحت في زمن الخلفاء الرَّاشدين نقاط ارتكازٍ ، سهَّلت مهمة الفتح الإسلاميِّ في

عهدهم ، فمنها انطلقت قوّات المسلمين إلى الشَّمال ، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم[(٦٩٠)].

رابعاً: وصايا رسول الله (ص) للجيش عند مروره بِحِجْر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاريُّ رضي الله عنه: لما كان في غزوة تبوك تسارع النَّاس إلى أهل الحِجْرِ يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله (ص) ، فنادى في النَّاس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله (ص) وهو ممسكٌ بعيره ، وهو يقول: «ما تدخلون على قومٍ غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله! قال: «أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسدِّدوا ، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً» [أحمد (٢٣١/٤) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/٦)][(٦٩١)].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إنَّ النَّاس نزلوا مع رسول الله (ص) أرض ثمودٍ الحجر ، واستقوا من بئرها ، واعتجنوا به ، فأمرهم رسول الله (ص) أن يهريقوا ما استقوا من بئرها ، وأن يعلفوا الإبلَ العجينَ ، وأمرهم أن يستقوا من البئر الَّتي كانت تردها النَّاقة ، وقال رسول الله (ص) : «لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين؛ حذراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم» ثمَّ زجر[(٦٩٢)] ، فأسرع حتَّى خلَّفها. [البخاري (٣٣٨٠) ، ومسلم (٣٩/٢٩٨٠)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في توجيه رسول الله (ص) صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود ، وأن
يتذكَّروا بما غضبَ الله على الَّذين كذَّبوا رسوله ، وألا يغفُلوا عن مواطن العظة برسومها الدَّارسة ، وأطلالها القديمة ، ونهاهم عن الانتفاع بشيءٍ ممَّا في ربوعها ، حتَّى الماء؛ لكيلا تفوت بذلك العبرة ، وتخف الموعظة ، بل أمرهم بالبكاء ، والتَّباكي ، تحقيقاً للتأثُّر بعذاب الله ، ولو أنَّهم مرُّو بها كما نمرُّ نحن باثار السَّابقين؛ لتعرَّضوا لسخط الله ، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ، ودلائل النُّبوَّات ، وعاينوا العجائب ، لكن قست قلوبُهم ، فاستهانوا بها ، وحقَّ عليهم العذاب ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه.

إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما قصَّ علينا من أنباء الأمم الخالية إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار ، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم ، الَّتي نزل فيها سخط المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ وعذابه الأليم؛ وجب أن تكون الموعظة أشدَّ ، والاعتبار أعمقَ ، والخوف من سخط المولى ـ سبحانه ـ أبلغَ ؛ ولهذا تسجَّى النَّبيُّ ـ صلوات الله

وسلامُه عليه . بثوبه لما مر بالدِّيار الملعونة المسخوطة ، واستحث خطا راحلته[(٦٩٣)] ، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت الَّذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون ؛ خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم». [سبق تخريجه].

خامساً: وفاة الصحابي عبد الله (ذو البجادين)[(٦٩٤)] رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قمت من جوف اللَّيل ، وأنا مع رسول الله (ص) في غزوة تبوك ، قال: فرأيت شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر ، قال: فاتَّبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله (ص) وأبو بكر ، وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنيُّ قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله (ص) في حضرته ، وأبو بكر ، وعمر يُدَلِّيانه إليه ، وهو يقول: «أدْنِيَا إليَّ أخاكما» ، فدلَّياه إليه ، فلمَّا هيَّأه لِشِقِّه ، قال: «اللَّهمَّ ! إنِّي أمسيت راضياً عنه ، فارض عنه» قال: (الرَّاوي عن ابن مسعود) قال عبدُ الله بن مسعودٍ: يا ليتني كنت صاحب الحفرة. [البزار (٢٧٣٦) ، وأبو نعيم في الدلائل (٢/٥٢٤ . ٥٢٦) ، ومجمع الزوائد (٩/٣٦٩)][(٦٩٥)].

قال ابن هشام: وإنما سُمِّي ذا البجَادين؛ لأنَّه كان ينازع إلى الإسلام ، فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيِّقون عليه ، حتَّى تركوه في بِجَادٍ ، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله (ص) ، فلمَّا كان قريباً منه ، شقَّ بجاده باثنين ، فاتَّزر بواحدٍ ، واشتمل بالاخر ، ثمَّ أتى رسول الله (ص) فقيل له: ذو البِجادَين لذلك[(٦٩٦)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وحكمٌ ، وفوائد؛ منها:

١ . تكريم النَّبيِّ (ص) لجنوده أحياء وأمواتاً:

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النَّبي (ص) على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنَّهم قدَّموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، تاركين وراءهم أعزَّ ما يملكون ، فكانت تلك الرِّعاية مظهراً من مظاهر تكريمهم في الدُّنيا ، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذِّئاب وغيرها من دوابِّ الأرض ، لكي يكون هذا التَّكريم من الأسباب الَّتي تدفع غيرهم إلى الاستبسال ، والإقدام في ميادين الجهاد.

ومن الجدير بالذِّكر: أنَّ هذا المبدأ لم يجد مَنْ يدعو إلى تطبيقه إلاَّ في العصر الحديث ، وبهذا يمكن أن يقال: إنَّ رعاية القائد المسلم لشؤون جنده تعدُّ سبقاً عسكرياً لم تعرفه النُّظم والدَّساتير الوضعيَّة إلا بعد قرونٍ طويلةٍ مِنْ بزوغ الإسلام[(٦٩٧)].

فهذه صورة من البرِّ ، والتَّكريم فريدةٌ يتيمةٌ ، لن تجد في تاريخ الملوك والحكَّام من يبرُّ ، ويتواضع إلى هذا المستوى ، إلى حيث يوسِّد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير ، ثمَّ يلتمس له المرضاة من ربِّ العالمين ، أمَّا هو فقد أعلن: أنَّه أمسى راضياً عنه[(٦٩٨)].

٢ ـ جواز الدفن في اللَّيل ، والغبطة مشروعةٌ في الخير:

فقد دفن رسول الله (ص) ذا البجادين ليلاً ، والسُّنَّةُ أن يُعَجَّل في دفن الميت ، كما أنَّ الغبطة مشروعةٌ في الخير ، وهي أن تتمنَّى حصول الخير لك ، كما حصل لغيرك من إخوانك ، وهذا عكس الحسد؛ إذ الحسد؛ تمنِّي زوال النِّعمة عن غيرك ، والحسد كلُّه شرٌّ كما ترى ، أمَّا الغبطة؛ فلا تكون إلا في الخير[(٦٩٩)] ، تأمَّل قول عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حينما سمع رسول الله (ص) يقول في حق ذي البجادين: «اللَّهُمَّ إِنِّي أمسيت عنه راضياً ، فارضَ عنه» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: يا ليتني كنت صاحب اللَّحد. [سبق تخريجه][(٧٠٠)]! إنَّها كلمةُ كلِّ مؤمنٍ امن بالله ، واليوم الاخر ، ووقف موقفه ذاك؛ فقد عرفوا أين تكون ميادين التَّنافس[(٧٠١)].

سادساً: بعض المعجزات الَّتي حدثت في الغزوة:

ظهرت في غزوة تبوك معجزاتٌ؛ منها:

١ ـ اللهُ تعالى يرسل السَّحاب لدعاء نبيِّه بالسُّقيا:

لما جاز النَّبيُّ (ص) حِجْرَ ثمود ، أصبح النَّاس ولا ماء لهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله (ص) ، فدعا رسول الله (ص) ربه ، واستسقى لمن معه من المسلمين ، فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ سحابةً ، فأمطرت حتَّى ارتوى النَّاس ، واحتملوا حاجتهم من الماء ، فتحدَّث ابن إسحاق عمَّن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النِّفاق فيهم؟ قال: نعم والله! إن كان الرَّجل ليعرفه من أخيه ، ومن أبيه ، ومن عمِّه ، وفي عشيرته ، ثم يَلْبَسُ بعضُهم بعضاً على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرني رجالٌ من قومي ، عن رجلٍ من المنافقين معروف نفاقُه ، كان يسير مع رسول الله (ص) حيث سار ، فلمَّا كان من أمر النَّاس بالحِجْرِ ما كان ، ودعا رسول الله (ص) حين دعا ، فأرسل الله السَّحابة ، فأمطرت حتى ارتوى النَّاس ، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شيء! قال: سحابةٌ مارَّةٌ[(٧٠٢)].

٢ ـ خبر ناقة رسول الله (ص):

لما كان رسول الله (ص) سائراً في طريقه إلى تبوك ضلَّت ناقتُه ، فخرج أصحابه في طلبها ، وعند رسول الله (ص) رجلٌ من أصحابه ، يقال له: عُمارة بن حزم ، وكان عقبيّاً بدريّاً ، وهم عمُّ بني عمرو بن حزمٍ ، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي ، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللُّصَيْت؛ وهو في رحل عمارة ، وعُمارة عند رسول الله (ص) : أليس محمد يزعم: أنَّه نبيٌّ ، ويخبركم عن السَّماء ، وهو لا يدري أين ناقتُه؟

فقال رسول الله (ص) وعُمارة عنده: «إنَّ رجلاً قال: هذا محمَّد يخبركم أنَّه نبيٌّ ، ويزعم أنَّه يخبركم بأمر السَّماء ، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإنِّي والله! ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلَّني الله عليها ، وهي في هذا الوادي ، في شعب كذا ، وكذا ، قد حبستها شجرةٌ بزمامها ، فانطلقوا حتَّى تأتوني بها» ، فذهبوا ، فجاؤوا بها ، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله ، فقال: والله! لعجبٌ من شيء حَدَّثناه رسولُ الله (ص) انفاً ، عن مقالة قائلٍ أخبره الله عنه بكذا ، وكذا ، للَّذي قال زيد بن اللُّصَيْت. فقال رجلٌ ممَّن كان في رحل عمارة ، ولم يحضر رسول الله (ص) : زيدٌ والله! قال هذه المقالة قبل أن تأتي ، فأقبل عمارة على زيدٍ ، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليَّ عبادَ الله ، إنَّ في رحلي لداهيةً؛ وما أشعر ، اخرج ، أيْ عدوَّ الله مِنْ رحلي ، فلا تصحبني. [الطبري في تاريخه (٣/١٤٥) ، والبلاذري في أنساب الأشراف (١/٢٨٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٣٢)][(٧٠٣)].

قال ابن إسحاق: فزعم بعض النَّاس أنَّ زيداً تاب بعد ذلك ، وقال بعض النَّاس: لم يزل مُتَّهماً بشرٍّ حتَّى هلك[(٧٠٤)].

٣ ـ الإخبار بهبوب ريحٍ شديدةٍ ، والتَّحذير منها:

أخبر رسولُ الله (ص) أصحابه في تبوك بأنَّ ريحاً شديدةً ستهبُّ ، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ، ودوابِّهم ، فلا يخرجوا حتَّى لا تؤذيهم ، وليربطوا دوابَّهم حتَّى لا تؤذى. وتحقَّق ما أخبر به رسول الله (ص) فهبتِ الرِّيح الشَّديدة ، وحملت من قام فيها إلى مكانٍ بعيدٍ[(٧٠٥)] ، فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حُمَيْدٍ ، قال: وانطلقنا حتَّى قدمنا تبوك ، فقال رسول الله (ص) : «ستهبُّ عليكم اللَّيلة ريحٌ شديدةٌ ، فلا يقم أحدٌ منكم ، فمن كان له بعيرٌ فليشدَّ عِقَالَه» ، فهبَّت ريحٌ شديدةٌ ، فقام رجلٌ ، فحملته الرِّيح حتَّى ألقته بجبل طيِّأى. [البخاري (١٤٨١) ، ومسلم (١٣٩٢/١١ و١٢)].

قال النَّوويُّ في شرحه على صحيح مسلمٍ معقِّباً على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظَّاهرة من إخباره (ص) بالمغيب ، وخوف الضَّرر من القيام وقت الرِّيح[(٧٠٦)].
٤ . تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه مِنْ خصبٍ:
قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: قال رسول الله (ص) : «إنَّكم ستأتون غداً . إن شاء الله . عين تبوك ، وإنَّكم لن تأتوها حتَّى يَضْحَى النَّهار ، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى اتي» ، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان ، والعين مثل الشِّراك[(٧٠٧)] ، تَبِضُّ[(٧٠٨)] بشيءٍ من ماءٍ ، فسألهما رسول الله (ص) : «هل مَسَسْتُما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم ، فسبَّهما النَّبيُّ (ص) وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثمَّ غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتَّى اجتمع في شيءٍ ، وغسل رسول الله (ص) فيه يديه ووجهه ، ثمَّ أعاده فيها ، فجرت العين بماءٍ منهمرٍ أو غزيرٍ حتَّى استقى النَّاس.
وقد قال رسول الله (ص) لمعاذ بن جبل: «يوشك يا معاذ! إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما هاهنا قد مُلأى جناناً». [أحمد (٥/٢٣٧ . ٢٣٨) ، ومسلم (٧٠٦/١٠) ، وأبو داود (١٢٦٠) ، والترمذي (٥٥٣) ، والنسائي (١/٢٨٥) ، وابن ماجه (١٠٧٠)].

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الَّذي كانت فيه العين منطقةً جرداء لقلَّة الماء ، ولكن الله . عزَّ وجل . أجرى على يد رسوله (ص) بركة تكثير هذا الماء ، حتَّى أصبح يسيل بغزارةٍ ، ولم يكن هذا اتياً لسدِّ حاجة الجيش ، بل أخبر رسول الله (ص) بأنه سيستمرُّ ، وستكون هناك جنانٌ ، وبساتين مملوءةٌ بالأشجار المثمرة ، ولقد تحقَّق ما أخبر به الرَّسول (ص) بعد فترة قليلةٍ من الزَّمن ، ولا زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها ، وبساتينها ، ونخيلها ، وتمورها ، تنطق بصدق نبوَّة الرَّسول (ص) ، وتشهد بأنَّ الرَّسول (ص) لا يتكلَّم إلا صدقاً، ولا يخبر إلا حقّاً، ولا ينبأى بشيءٍ إلا ويتحقَّق[(٧٠٩)].
٥ . تكثير الطَّعام:
قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناسَ مجاعةٌ، فقالوا: يا رسول الله! لو أذنت لنا ، فنحرنا نواضِحنا[(٧١٠)] ، فأكلنا ، وادَّهَنَّا ، فقال لهم رسول الله (ص) : «افعلوا» فجاء عمر ، فقال: يا رسول الله! إنَّهم إن فعلوا؛ قلَّ الظَّهر[(٧١١)] ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثمَّ ادع لهم بالبركة، لعلَّ الله أن يجعل في ذلك! فدعا رسول الله (ص) : بنطْعٍ[(٧١٢)] ، فبسطه ، ثمَّ دعاهم بفضل أزوادهم ، فجعل الرَّجل يجيء بكفِّ الذُّرة ، والاخر بكف التَّمْر ، والاخر بالكِسْرَة ، حتَّى اجتمع على النِّطع في ذلك شيءٌ يسيرٌ ، ثمَّ دعا عليه بالبركة ، ثمَّ قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» ،

فأخذوا في أوعيتهم حتَّى ما تركوا من المعسكر وعاءً إلا ملؤوه ، وأكلوا حتَّى شبعوا ، وفضَلَتْ منه فَضْلَةٌ ، فقال رسول الله (ص) : «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسولُ الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ، فتحجب عنه الجنَّة». [أحمد (١١/٣)، ومسلم (٤٥/٢٧) ، والبيهقي في الدلائل (٢٢٩/٥ ـ ٢٣٠) ، وابن حبان (٦٥٣٠) ، وأبو يعلى (١١٩٩)].

هذه بعض المعجزات ، والكرامات الَّتي أظهرها الله على يد رسول الله (ص) في غزوة تبوك ، تدلُّ على صدق نبوَّته ، ورسالته ، وتدلُّ على رفعة منزلته ، وتكريمه عند ربِّه[(٧١٣)].

سابعاً: حديث القران الكريم عن مواقف المنافقين في أثناء الغزوة:

أ ـ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلسٍ يوماً: ما أرى قرَّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا ألسنةً ، وأجبننا عند اللِّقاء.. فقال رجلٌ في المجلس: كذبت ، ولكنَّك منافقٌ ، لأخبرنَّ رسول الله (ص) ! فبلغ ذلك رسولَ الله (ص) ، ونزل القران. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلِّقاً بِحَقْبِ[(٧١٤)] ناقة رسول الله، والحجارة تنكبُه[(٧١٥)]، وهو يقول: يا رسول الله! إنَّما كنَّا نخوض ، ونلعب ، والرَّسول (ص) يقول: «أبالله ، واياته ، ورسوله كنتم تستهزئون؟». [ابن جرير في تفسيره (١٧٢/١٠) ، والسيوطي في الدر المنثور (٢٣٠/٤)].

وفي رواية قتادة ، قال: بينما رسول الله (ص) في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناسٌ من المنافقين ، فقالوا: يرجو هذا الرَّجل أن تفتح له قصور الشَّام وحصونُها؟ هيهات! هيهات!! فأطلع الله نبيَّه على ذلك ، فقال نبيُّ الله (ص) : «احبسوا عليَّ هؤلاء الرَّكب». فأتاهم ، فقال: قلتُم كذا ، وكذا ، فحلفوا ما كنَّا إلا نخوض ، ونلعب [ابن جرير في تفسيره (١٧٢/١٠) ، والسيوطي في الدر المنثور (٢٣٠/٤)]. فأنزل الله تعالى: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ *وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ *} [التوبة: ٦٤ ـ ٦٥].

والاستفهام في قوله: استفهامٌ {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ *} ، والمعنى: قل يا محمد! لهؤلاء موبِّخاً ، ومنكراً: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم ـ كما تزعمون ـ سوى فرائضِ الله ، وأحكامه ، واياته ، ورسوله الَّذي جاء لهدايتكم ، وإخراجكم من الظُّلمات إلى النُّور؟! ثمَّ بيَّن سبحانه:

أنَّ استهزاءهم هذا أدَّى بهم إلى الكفر ، فقال: {لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *} [التوبة: ٦٦].

ومعنى الاية: أي: لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم؛ لأنَّ الإقدام على الكفر لأجل اللَّعب لا ينبغي أن يكون ، فاعتذاركم إقرارٌ بذنبكم ، فهو كما يقال: عذرٌ أقبحُ من ذنبٍ[(٧١٦)].

وقوله: أي: إن نعف عن بعضكم؛ {إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *} ، وإنابتهم إلى ربِّهم. كمُخَشِّن بن حُمَيِّر؛ نعذب بعضاً اخر؛ لإجرامهم ، وإصرارهم عليه[(٧١٧)].

ب. إيذاء الرَّسول (ص) ، والمؤمنين ، ومحاولة اغتيال رسول الله (ص):

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ *} [التوبة: ٧٤].

وقد قال ابن كثيرٍ: إنَّ الضَّحاك قال: إنَّ نفراً من المنافقين همُّوا بالفتك بالنَّبيِّ (ص) وهو في غزوة تبوك في بعض اللَّيالي في حال السَّير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الاية[(٧١٨)] وفي رواية الواحديِّ عن الضَّحَّاك: خرج المنافقون مع رسول الله (ص) إلى تبوك ، فكانوا إذا خلا بعضُهم إلى بعضٍ؛ سبُّوا رسول الله (ص) ، وأصحابَه ، وطعنوا في الدين ، فنقل ما قالوا حذيفةُ إلى رسول الله (ص) ، فقال لهم رسول الله: «يا أهل النِّفاق! ما هذا الذي بلغني عنكم؟!» ، فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك ، فأنزل الله هذه الاية إكذاباً لهم[(٧١٩)].

والمعنى الإجماليُّ للاية: «يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة الَّتي نسبت إليهم ، والله يكذِّبهم ، ويُثبت: أنَّهم قد قالوا كلمة الكفر الَّتي رويت عنهم ، ولم يذكر القران هذه الكلمة؛ لأنَّه لا ينبغي ذكرها»[(٧٢٠)].

أمَّا همُّهم بما لم ينالوا؛ فهو اغتيال رسول الله (ص) حين كان بالعقبة وهو منصرفٌ مِنْ تبوك. قال ابن كثير: عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت اخذاً بخطام ناقة رسول الله (ص) أقود به ، وعمَّار يقود النَّاقة ، وأنا أسوقُه ، وعمَّار يقوده ، حتَّى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها ، قال: فأنبهت رسول الله (ص) بهم ، فصرخ بهم فولَّوا مدبرين ، فقال لنا رسولُ الله (ص) : « هل عرفتم القوم؟ » قلنا: لا يا رسول الله؟! قد كانوا ملثَّمين ، ولكنَّا قد عرفنا الرِّكابَ. قال: «هؤلاء المنافقون إلي يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا؟» ، قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يزاحموا رسول الله

(ص) في العقبة ، فيلقوه منها». [البيهقي في الدلائل (٥/٢٦٠ ـ ٢٦١) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/٢٤٤)].

وقوله: . أي: وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر {وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} ، وبعثة الرَّسول (ص) فيهم شيئاً يقتضي الكراهة ، والهمَّ بالانتقام ، إلا أن أغناهم الله تعالى ، ورسولُه من فضله بالغنائم الَّتي هي عندهم أحبُّ الأشياء لديهم في هذه الحياة.

وقوله تعالى: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ}

أي: فإنْ يتوبوا من النِّفاق ، وما يصدر عنه من مساوأى الأقوال ، والأفعال؛ يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدُّنيا ، والاخرة.

وقوله: {وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ *}

أي: وإن يُعرضوا عمَّا دُعوا إليه من التَّوبة ، وأصروا على النِّفاق وما ينشأ منه من المساوأى الخلقيَّة ، والنَّفسيَّة ، يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدُّنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهَلَع[(٧٢١)].

* * *

المبحث الثَّالث

العودة من تبوك إلى المدينة ،

وحديث القران الكريم في المخلَّفين عن الغزوة ،

وعن مسجد الضِّرار

عاد النَّبيُّ (ص) إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلةً[(٧٢٢)] ، وقد أمر النَّبيُّ (ص) بهدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون وهو راجعٌ إلى المدينة ، ولما اقترب من المدينة؛ خرج الصِّبيان إلى ثَنِيَّة الوداع يتلقَّونه ، ودخل المدينة ، فصلَّى في مسجده ركعتين ، ثمَّ جلس للنَّاس ، وجاء المخلَّفون لرسول الله (ص) يقدِّمون له الاعتذار ، وكانوا أربعة أصنافٍ: فمنهم من له أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ومنهم مَنْ ليس له أعذارٌ شرعيَّة ، وتاب الله عليهم ، ومنهم من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة ، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلَّفون الَّذين لهم أعذار شرعيَّةٌ ، وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ *} [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

بيَّنت هذه الايات الكريمة الَّذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذرٌ شرعيٌّ ، بأنَّه ليس عليهم حرجٌ ، وليس عليهم إثمٌ في هذا التَّخلُّف؛ ذلك لأن لهم عذراً شرعياً منعهم من الخروج ، وفي المراد بالضُّعفاء: أنَّهم الزَّمنى ، والمشايخ الكبار ، وقيل: الصِّغار ، وقيل: المجانين ، سمُّوا ضعافاً لضعف عقولهم ، ذكر القولين الماورديُّ ، والصَّحيح: أنَّهم الَّذين يضعفون

لزمانةٍ ، أو عمىً ، أو سنٍّ ، أو ضعفٍ في الجسم. والمرضى: الَّذين بهم أعلالٌ مانعةٌ من الخروج للقتال[(٧٢٣)].

وقوله: أي: ليس على الذين {وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ} يجدون نفقةً تبلغهم إلى الغزو حرجٌ؛ أي: إثم ، أي: إذا عرفوا {إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} ، وأحبُّوا أولياءه ، وأبغضوا أعداءه[(٧٢٤)].

وقوله: قال الطَّبري: يقول تعالى: ليس على مَنْ {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} ، فنصح لله ، ورسوله في تخلُّفه عن رسول الله وعن الجهاد معه ، لعذرٍ يُعذر به طريقٌ يتطرَّق عليه ، فيعاقب مِنْ قبله يقول تعالى: والله ساترٌ على ذنوب {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} ، يتغمَّدها بعفوه لهم عنها ، رحيمٌ بهم أن يعاقبَهم عليها[(٧٢٥)].

وقال القرطبيُّ: الاية أصلٌ في سقوط التَّكليف عن العاجز ، ولا فرق بين العجز من جهة القوَّة ، أو العجز من جهة المال[(٧٢٦)].

وقوله: معطوف على {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} قبله ، من عطف الخاصّ على العامّ ، اعتناءً بشأنهم ، وجعلهم كأنَّهم لتميزهم جنسٌ اخر ، مع أنَّهم مندرجون مع الَّذين وصفهم الله قبل ذلك أي: {أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ *} حرج ، ولا إثم على الضُّعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون إذا ما تخلَّفوا عن الجهاد ، وكذلك لا حرج ، ولا إثم ـ أيضاً ـ على فقراء المؤمنين على الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السَّفر الطَّويل لهم {الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ} محمد[(٧٢٧)]: {لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} ، وقوله: أي: {تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} وأعينهم تسيل بالدُّموع من شدَّة الحزن؛ لأنَّهم لا يجدون المال؛ الَّذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك[(٧٢٨)].

ثانياً: المخلَّفون الذين ليس لهم أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث ايات تتحدَّث عن هؤلاء المخلَّفين ، وهي:

١ ـ قوله تعالى: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١٠٢].

ومعنى الاية الكريمة: أنَّ هؤلاء الجماعة تخلَّفوا عن الغزو لغير عذرٍ مسوِّغٍ للتخلُّف ، ثم ندموا على ذلك ، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة ، كما اعتذر المنافقون ، بل تابوا ، واعترفوا بالذَّنب ، ورجوا أن يتوب الله عليهم ، والمراد بالعمل الصَّالح: ما تقدَّم من إسلامهم ، وقيامهم بشرائع الإسلام ، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن ، والمراد بالعمل السَّيِّأى: هو تخلُّفهم عن هذه الغزوة ، وقد أتبعوا هذا العمل السَّيِّأى عملاً صالحاً ، وهو الاعتراف به والتَّوبة عنه.

وأصل الاعتراف: الإقرار بالشَّيء ، ومجرَّد الإقرار لا يكون توبةً إلا إذا اقترن به النَّدم على الماضي ، والعزم على تركه في الحال ، والاستقبال ، وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط: أنَّهم خلطوا كلَّ واحد منهما بالاخر؛ كقولك: خلطت الماء باللَّبن ، واللبنَ بالماء.

وفي قوله: دليلٌ على أنَّه قد وقع منهم مع الاعتراف {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} يفيد التَّوبة ، أو مقدِّمة التَّوبة وهي الاعتراف ، ويقوم مقام التَّوبة ، وحرف التَّرجِّي وهو (عسى) هو في كلام الله سبحانه

يفيد تحقُّق الوقوع ؛ لأنَّ الإطماع من الله سبحانه إيجابٌ؛ لكونه أكرم الأكرمين ، أي: يغفر {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} ، ويتفضَّل على عباده[(٧٢٩)].

٢ ـ قوله تعالى: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ١٠٦].

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصَّحيحين: هلال بن أميَّة ، وكعب بن مالك ، ومُرارة بن الرَّبيع ، وكانوا قد تخلَّفوا عن رسول الله (ص) لأمرٍ ما ، مع الهمّ باللَّحاق به (ص) فلم يتيسَّر لهم ، ولم يكن تخلُّفهم عن نفاقٍ ، وحاشاهم ، فقد كانوا من المخلصين ، فلمَّا قدم النَّبيُّ (ص) وكان ما كان من المتخلِّفين؛ قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة ، ولم يعتذروا له (ص) ، ولم يفعلوا كما فعل أهل السَّواري[(٧٣٠)] ، وأمر رسول الله باجتنابهم ، وشدَّد الأمر عليهم ، كما ستَعْلَمُه إن شاء الله تعالى ، وقد وقف أمرهم خمسين ليلةً لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم[(٧٣١)].

٣ ـ قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *} [التوبة: ١١٨].

والمراد بهؤلاء الثَّلاثة هم: هلالُ بنُ أميَّة ، وكعب بن مالك ، ومُرَارة بن الرَّبيع ، وفيهم نزلت هذه الاية[(٧٣٢)] ، وسوف نتحدَّث عن هذه القصَّة بإذن الله بنوعٍ من التَّفصيل ، لما فيها من الدُّروس ، والعبر ، والحكم.

ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلَّفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *} [التوبة: ٩٠].

ومعنى الاية: أنَّه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحقٍّ أو باطلٍ على كلا التَّفسيرين ؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله (ص) بالتَّخلُّف عن الغزوة ، وطائفةٌ أخرى لم يعتذروا ، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذرٍ ، وهم منافقو الأعراب الذين كذَبوا الله ورسوله ، ولم يؤمنوا ، ولا صدَّقوا ، ثمَّ توعَّدهم الله ـ سبحانه ـ فقال: أي: من {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ} ، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا ، بل كذَّبوا بالله ، ورسوله ، أي: كثيرُ {عَذَابٌ أَلِيمٌ *} ، فيصدُق على عذاب الدُّنيا ، والاخرة[(٧٣٣)].

ونزل فيهم قوله تعالى: والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون! أنَّه يسكن مِنْ حول مدينتكم قومٌ من الأعراب {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ} ، فاحترسوا منهم[(٧٣٤)].

رابعاً: المخلَّفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ *فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ *} [التوبة: ٨١ ـ ٨٣].

وتفسير الايات السَّابقة كالاتي: المخلَّفون: اسم مفعول مأخوذ من قولهم: خلَّف فلانٌ فلاناً وراءه: إذا تركه خلفه ، والمخلَّف: المتروك خلف مَنْ مضى[(٧٣٥)] ، : بقعودهم قال ابن الجوزيِّ: فيها {بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ}

أحدهما: أنَّ معناه: بعد رسول الله (ص) .

والثاني: أنَّ معناه: مخالفة رسولِ الله (ص) ، فالمعنى بأنَّهم قعدوا لمخالفة رسول الله (ص)(٣).

والمعنى: قال ابن كثير: يقول تعالى ذامَّاً للمنافقين المتخلِّفين عن صحابة رسول الله (ص) في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه معه أي: بعضهم لبعض قال الله تعالى {وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} (ص) : لهم: التي تصيرون إليها بمخالفتكم ممَّا فررتم منه مِنَ الحرّ

وقوله: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *}

والمعنى: أنَّهم فرحوا ، وضحكوا طوال أعمارهم في الدُّنيا ، فهو قليلٌ بالنسبة إلى بكائهم في الاخرة؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ ، والاخرة باقيةٌ ، والمنقطعُ الفاني قليلٌ بالنسبة إلى الدَّائم الباقي. وقوله تعالى: والمراد بقوله: إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الَّذين تخلَّفوا عن الخروج معك إلى {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ} ، والمراد بقوله: حين لم يخرجوا إلى تبوك والمراد بقوله: . قال الإمام الرَّازي {أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ *} ملخَّصُه: ذُكِرَ في تفسير «الخالف» وجوهٌ:

الأول: الخالفون جمعٌ ، واحدهم: خالف ، وهو مَنْ يخلُف الرَّجل في قومٍ. ومعناه: فاقعدوا مع الخالفين من الرِّجال الَّذين يخلُفون في البيت ، فلا يبرحونه.

الثاني: أنَّ الخالفين فسِّر بالمخالفين ، يقال: فلانٌ خالفه أهلُ بيته: إذا كان مخالفاً لهم ، وقومٌ خالفون ، أي: كثيرو الخلاف لغيرهم.

الثالث: أنَّ الخالف هو الفاسد. قال الأصمعيُّ: يقال: خلف عن كلِّ خيرٍ ، يخلف ، خلوفاً: إذا فسد ، وخلف اللَّبنُ: إذا فسد.

إذا عرفت هذه الوجوه الثَّلاثة؛ فلا شك: أنَّ اللَّفظ يصلح حمله على كلِّ واحدٍ منها؛ لأنَّ أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصِّفات السَّيئة[(٧٣٧)].

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرَّسول (ص) في معاملته للمنافقين ـ عندما اعتذروا له ـ عن المسلمين الصَّادقين؛ حيث إنَّه (ص) عامل المنافقين باللِّين، والصَّفح، واختار للمسلمين الصَّادقين الشِّدَّة ، والعقوبة! ولا شكَّ: أنَّ الشدَّة ، والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهرٌ للإكرام ، والتَّشريف ، وهو ما لا يستحقُّه المنافقون ، وكيف يستحقُّ المنافقون أن تنزل اياتٌ في توبتهم ـ على أيِّ حال ـ إنَّهم كفرةٌ ، ولن يَنْشُلَهم شيءٌ ممَّا يتظاهرون به في الدُّنيا من الدَّرك الأسفل في النَّار يوم القيامة ، وقد أمر الشَّارع جلَّ جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ، ونُجري الأحكام الدُّنيوية حسب ظواهرهم ، ففيم التَّحقيق عن بواطن أعذارهم ، وحقيقة أقوالهم؟ وفيم معاقبتُهم في الدُّنيا على ما قد يصدر عنهم مِنْ كذبٍ؟! ونحن إنَّما نعطيهم الظَّاهر فقط من المعاملة والأحكام ، كما يُبدون لنا هم أيضاً الظَّاهر فقط من أحوالهم ، وعقائدهم.

قال ابن القيِّم: وهكذا يفعل الربُّ سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم ، فيؤدِّب عبده المؤمن الَّذي يحبُّه ـ وهو كريمٌ عنده ـ بأدنى زلَّة وهفوةٍ ، فلا يزال مستيقظاً حذراً ، وأمَّا مَنْ سقط من عين الله ، وهان عليه؛ فإنَّه يُخَلِّي بينه وبين معاصيه ، وكلَّما أحدث ذنباً؛ أحدث له نعمةً[(٧٣٨)].

خامساً: مسجد ضرار:

في أثناء عودة النَّبي (ص) إلى المدينة راجعاً من تبوك نزلت عليه الايات الاتية: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وسبب نزول هذه الايات الكريمات: أنَّه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله (ص) إليها رجلٌ من الخزرج ، يقال له: أبو عامر الرَّاهب ، وكان قد تنصَّر في الجاهليَّة ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادةٌ في

الجاهلية ، وله شرفٌ في الخزرج كبيرٌ ، فلمَّا قدِم رسولُ الله (ص) مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمةٌ عاليةٌ ، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شرق اللَّعين أبو عامرٍ بريقِه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارّاً إلى كفَّار مكَّة من مشركي قريشٍ ، يمالئهم على حرب رسول الله (ص) فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحدٍ ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله ـ عزَّ وجل ـ ، وكانت العاقبة للمتَّقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفَّين فوقع في إحداهنَّ رسول الله (ص) ، وأصيب ذلك اليوم ، فجرح ، وكسرت رباعيَّته اليُمنى ، والسُّفلى ، وشُجَّ رأسه (ص) .

وتقدَّم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلمَّا عرفوا كلامه؛ قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق! يا عدوَّ الله! ونالوا منه ،

وسبُّوه ، فرجع وهو يقول: والله! لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ ، وكان رسول الله (ص) قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه القران ، فأبى أن يسلم ، وتمرَّد ، فدعا عليه رسول الله (ص) أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدَّعوة ، وذلك: أنَّه لما فرغ النَّاس من أحدٍ ، ورأى أمر الرَّسول (ص) في ارتفاع ، وظهورٍ؛ ذهب إلى هرقل ملك الرُّوم يستنصره على النَّبيّ (ص) ، فوعده ، ومنَّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من أهل النِّفاق ، والرِّيب يعدهم ، ويمنِّيهم بجيشٍ يقاتل به رسول الله (ص) ، ويغلبه ، ويردُّه عمَّا هو فيه ، وأمرهم أن يتَّخذوا له معقلاً يَقْدَمُ عليهم فيه مَنْ يَقْدَم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قُباء ، فبنوه ، وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله (ص) إلى تبوك وجاؤوا ، فسألوا رسول الله (ص) أن يأتي إليهم ، فيصلِّي في مسجدهم ليحتجُّوا بصلاته فيه على تقريره ، وإثباته ، وذكروا: أنَّهم بنوه للضُّعفاء منهم ، وأهل العلَّة في الليلة الشَّاتية ، فعصمه الله من الصَّلاة فيه ، فقال: «إنَّا على سفرٍ ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» ، فلمَّا قفل عليه السَّلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبقَ بينه وبينها إلا يومٌ أو بعض يومٍ نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضِّرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر ، والتَّفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ، ومسجد قُباء؛ الَّذي أسس من أوَّل يومٍ على التَّقوى ، فبعث رسول الله (ص) إلى ذلك المسجد مَنْ هدمه قبل مَقْدَمِهِ المدينة [ابن جرير في تفسيره (٢٣/١١) ، والبيهقي في الدلائل (٢٦٢/٥ ، ٢٦٣) ، وابن هشام (١٧٣/٤ ، ١٧٤) ، وابن كثير في تفسيره (٣٨٨/٢)] ، هذا ما ذكره ابن كثيرٍ في سبب النُّزول.

أمَّا معنى الايات الكريمات:

أخبر الله سبحانه أنَّ الباعث لهم على بناء هذا المسجد أربعةُ أمور:

١ ـ الضِّرار لغيرهم ، وهو المضارَّة.

٢ ـ الكفر بالله ، والمباهاة لأهل الإسلام؛ لأنَّهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النِّفاق.

٣ ـ التَّفريق بين المؤمنين؛ لأنَّهم أرادوا ألاَّ يحضروا مسجد قُباء ، فتقلَّ جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة ، وبطلان الأُلفة ما لا يخفى.

٤ ـ الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي: الإعداد لأجل مَنْ حارب الله ورسوله[(٧٣٩)].

وقد خيَّب الله تعالى مسعاهم ، وأبطل كيدهم ، بأنْ أمر نبيَّه (ص) بهدمه ، وإزالته.

وقوله: ذمٌّ لهم على أيمانهم {وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى} ، وأقوالهم الكاذبة ، لذلك قال تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *}

ثمَّ نهى الله ـ تعالى ـ رسوله والمؤمنين عن الصَّلاة في هذا المسجد نهياً مؤكَّداً ، فقال سبحانه: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *}

قال ابن عاشور: وقوله (سبحانه): المراد بالقيام الصَّلاة؛ {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} أوَّلها قيامٌ ، ووجه النَّهي عن الصَّلاة فيه: أنَّ صلاة النَّبي (ص) فيه تُكْسِبه يُمناً ، وبركةً فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزيَّةً عليه ، ولذلك أمر رسول الله (ص) عمَّار بن ياسر ، ومالك بن الدُّخشم مع بعض أصحابه ، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظَّالم أهلُه؛ فاهدموه ، وحرِّقوه» ففعلوا[(٧٤٠)].

وقوله: احتراسٌ ممَّا يستلزمه النَّهي عن الصَّلاة فيه؛ من إضاعة عبادة في الوقت الَّذي رغبوه للصَّلاة {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} ، فأمر الله بأن يصلِّي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصَّلاة في مسجد الضِّرار أن يصلِّي في مسجده ، أو في مسجد قُباء ، لئلا يكون لامتناعه من الصَّلاة من حظوظ الشَّيطان أن يكون صرفُه عن صلاةٍ في وقت دعي للصَّلاة فيه ، وهذا أدبٌ نفسانيٌّ عظيمٌ[(٧٤١)].

وفيه أيضاً: دفعُ مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرَّسول (ص) ، بأنَّه دعي إلى الصَّلاة في مسجدهم ، فامتنع ، فقوله: وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة؛ لأنَّ النَّهي عن صلاته في مسجد الضِّرار أزال كونه حقيقاً بصلاته فيه {أَحَقُّ}

ولعلَّ نكتة الإتيان باسم التَّفضيل: أنَّه تهكُّمٌ على المنافقين؛ لمجازاتهم ظاهراً في دعوتهم النَّبيَّ (ص) للصَّلاة فيه ، بأنَّه وإن كان حقيقاً بصلاته بمسجدٍ أُسِّس على التَّقوى أحقّ منه ، فيعرف من وصفه بأنَّه : أنَّ هذا أُسِّس على ضِدِّها

وقد رأى ابن عاشور: أنَّ المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى: أنَّه مسجد هذا صفته ، لا مسجداً واحداً معيَّناً ، فيكون هذا الوصف كلِّيّاً انحصر في فردين: المسجد النَّبويُّ ، ومسجد قُباء[(٧٤٢)].

قوله تعالى: روى {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} ماجه: أنَّه لما نزلت هذه الاية قال رسول الله (ص) : «يا معشر الأنصار! إنَّ الله تعالى قد أثنى عليكم في الطُّهور، فما طُهوركم؟»

قالوا: نتوضأ للصَّلاة ، ونغتسل من الجنابة ، ونستنجي بالماء. قال: «فهو ذاك ، فعليكُمُوه». [ابن ماجه (٣٥٥)].

وفي قصة مسجد الضِّرار دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها:

١ . الكفر ملةٌ واحدةٌ:

وقد تبيَّن هذا في موقف أبي عامرٍ الرَّاهب من الإسلام ، ومن المسلمين؛ إذ غضب غضباً شديداً ، وتألَّم لهزيمة المشركين في بدرٍ ، فأعلن عداءه للرَّسول (ص) ، وتوجَّه إلى عاصمة الشِّرك انداك مكَّة يحثُّ أهلها على قتال المسلمين ، وخرج مقاتلاً معهم في أحدٍ ، وحاول تفتيت الصَّفِّ الإسلاميِّ[(٧٤٣)] ، وصدق الله تعالى عندما قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ *} [الأنفال: ٧٣].

. محاولة التَّدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضفوا الشَّرعية على هذا البناء ، وأنَّه مسجدٌ بنوه لأسبابٍ مقنِعةٍ في الظَّاهر ، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها ، فقد جاؤوا يطلبون من الرَّسول (ص) الصلاة في هذا البناء ليكون مسجداً قد باركه رسول الله (ص) بالصَّلاة فيه ، فإذا حدث هذا فقد استقرَّ قرارهم في تحقيق أهدافهم ، وهذا أسلوبٌ ماكرٌ خبيثٌ قد ينطلي على كثيرٍ من النَّاس[(٧٤٤)].

٣ . فالله خيرٌ حافظاً ، وهو أرحم الراحمين:

إنَّ الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلهيَّة بالنَّبيِّ (ص) ، فقد أطلعه الله . عزَّ وجلَّ . على أسرار هؤلاء المنافقين ، وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد ، فلولا إعلام الله لرسوله (ص) ؛ لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم ، ولصلَّى في البناء ، فأضفى عليه الشَّرعيَّة ، وأقبل النَّاس يصلُّون فيه؛ لأنَّ رسول الله

(ص) صلَّى فيه ، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين ، وضعاف المسلمين ، فينفردون بهم ، وقد يؤثِّرون عليهم بالإشاعات[(٧٤٥)].

٤ ـ العلاج النَّبويُّ الحاسم:

إنَّ ما قام به الرَّسول (ص) من الأمر بهدم مسجد الضِّرار هو التَّصرُّف الأمثل ، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ ، سنَّه لقادة الأمَّة في القضاء على أيِّ عملٍ يراد منه الإضرار بالمسلمين ، وتفريق كلمتهم ، فالدَّاء العُضَالُ لا يُعالَجَ بتسكينه ، والتخفيف منه ، وإنَّما يعالج بحسمه ، وإزالة اثاره؛ حتَّى لا يتجدَّد ظهوره بصورةٍ أخرى ، وإنَّ الثِّمار العمليَّة الَّتي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر

النَّبويِّ الحازم لتدلُّنا على أنَّ هذه المنهجيَّة؛ التي نهجها رسول الله (ص) مع هذا المكر الخبيث هي الطَّريقة المثلى لقمع حركة النِّفاق في المجتمع المسلم ، فقد أصبح أمرُهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً، فشيئاً ، حتَّى لم يبقَ منهم بعد لحاق الرَّسول (ص) بالرَّفيق الأعلى إلا عددٌ قليل ، ولم يُعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضِّرار أن قاموا بأعمالٍ تخدم الهدف نفسه؛ لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[(٧٤٦)].

٥ ـ ما يلحق بحكم مسجد الضِّرار:

ذكر المفسِّرون ما يُلحق بمسجد الضِّرار في الحكم ، فهذه بعض أقوالهم:

أ ـ قال الزَّمخشري: «... وقيل: كلُّ مسجد بُني مباهاةً ، أو رياءً ، وسمعةً ، أو لغرضٍ سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمالٍ غير طيِّبٍ؛ فهو لاحقٌ بمسجد الضِّرار»[(٧٤٧)].

علق الدَّكتور عبد الكريم زيدان على قول الزَّمخشري ، فقال: ولكن: هل يلحق بمسجد الضِّرار ، فيهدم ، كما هدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون في المدينة ، وأمر النَّبيُّ (ص) بهدمه؟ لا أرى ذلك ، وإنَّما يمكن أن يقال: إنَّ المسجد الذي بني لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التَّقوى ، والإخلاص الكامل لله تعالى[(٧٤٨)].

ب ـ قال القرطبيُّ في تفسيره: قال علماؤنا: وكلُّ مسجدٍ بُني على ضرارٍ ، أو رياءٍ وسُمعةٍ ، فهو في حكم مسجد الضِّرار لا تجوز الصَّلاة فيه[(٧٤٩)].

ج ـ وقال سيِّد قطب في تفسيره: هذا المسجد ـ مسجد الضِّرار ـ الَّذي اتُّخذ على عهد رسول الله (ص) مكيدةً للإسلام ، والمسلمين ، هذا المسجد ما يزال يُتَّخذ في صورٍ شتَّى ، يُتَّخذ في صورة نشاطٍ ظاهره الإسلام ، وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه ، وتُتَّخذ في صورة أوضاعٍ ترفع لافتة الدِّين عليها لِتَتَتَرَّس وراءها ، وهي ترمي هذا الدِّين ، وتُتَّخذ في صورة تشكيلاتٍ ، وتنظيماتٍ ، وكتبٍ ، وبحوثٍ

تتحدَّث عن الإسلام؛ لتُخَدِّر القلقين الَّذين يرون الإسلام يُذبح ، ويُمحق ، فتخدِّرهم هذه التَّشكيلات ، وتلك الكتب بما توحيه لهم من أنَّ الإسلام بخيرٍ ، وأنَّه لا داعي للخوف ، أو القلق عليه[(٧٥٠)].

٦ ـ قاعدة لمعرفة ما يلحق بمسجد الضِّرار:

قال الدَّكتور عبد الكريم زيدان: كلُّ ما يُتَّخذ ممَّا هو في ظاهره مشروعٌ ، ويريد متَّخذوه تحقيق غرضٍ غير مشروعٍ ، فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار؛ لأنَّه يحمل روحَه ، وعناصِرَه[(٧٥١)] ، وإذا أردنا الإيجاز؛ قلنا في هذه القاعدة: كلُّ ما كان ظاهره مشروعاً ويريد مُتَّخذوه الإضرار بالمؤمنين؛ فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار[(٧٥٢)].

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضِّرار ، وما يلحق به ما ذكره الإمام ابن القيِّم من مشاهد الشِّرك ، ومن أماكن المعاصي ، والفسوق ، كالحانات ، وبيوت الخمر ، والمنكرات ، ونحو ذلك؛ لأنَّ هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به؛ وإن استحقت الإزالة كمسجد الضِّرار ، باعتبارها منكراتٍ ظاهراً ، وباطناً[(٧٥٣)].

٧ ـ مساجد الضِّرار في بلاد المسلمين:

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين ، والملحدين ، والمبشرين ، والمستعمرين ، يقيمون أماكن باسم العبادة ، وما هي لها ، وإنَّما المراد بها الطَّعن في الإسلام ، وتشكيك المسلمين في معتقداتهم ، وادابهم ، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدَّرس ، والتَّعليم؛ ليتوصَّلوا بها إلى بثِّ سمومهم بين أبناء المسلمين ، وصرفهم عن دينهم ، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثَّقافة ، والغرض منها خلخلة العقيدة السَّليمة في القلوب ، والقيم الخلقيَّة في النُّفوس ، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحَّة ، والخدمة الإنسانيَّة ، والغرض منها التأثير على المرضى ، والضعفاء ، وصرفهم عن دينهم ، وقد اتَّخذوا من البيئات الجاهلة ، والفقيرة ، لاسيَّما في بلاد إفريقية ذريعةً للتَّوصُّل إلى أغراضهم الدَّنيئة ، الَّتي لا يقرُّها عقلٌ ، ولا شرعٌ ، ولا قانونٌ[(٧٥٤)].

إنَّ مسجد الضِّرار ليس حادثةً في المجتمع الإسلاميِّ الأوَّل ، وانقضت؛ بل هي فكرةٌ باقيةٌ ، يُخَطَّط لها باختيار الأهداف العميقة ، وتُختار الوسائل الدَّقيقة لتنفيذها ، وخططها تصبُّ في التامر على الإسلام وأهله بالتَّشويه وقلب الحقائق ، والتَّشكيك ، وزرع بذور الفتن لإبعاد النَّاس عن دينهم ، وإشغالهم بما يضرُّهم ويدمِّر مصيرهم الأخروي[(٧٥٥)].

* * *

المبحث الرَّابع

قصَّة الثلاثة الذين خُلِّفوا

وردت قصَّة الثَّلاثة الَّذين خلِّفوا على لسان كعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، في كتب السِّيرة ، والحديث ، والتفسير ، بروايات متقاربةٍ في ألفاظها ، ولقيت عنايةً فائقةً في الشَّرح ، والتَّدريس وكان صحيح البُخاريِّ من أكثر الكتب دقَّةً ، وتفصيلاً لهذه القصَّة[(٧٥٦)].

ونترك كعب بن مالك رضي الله عنه يحدِّثنا بنفسه ، حيث قال: «لم أتخلَّف عن رسول الله (ص) في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تَبُوك ، غير أنِّي كنت تخلَّفت في غزوة بدرٍ ، ولم يعاتبْ أحداً تخلَّفَ عنها ، إنَّما خرج رسول الله (ص) يريد عير قريش؛ حتَّى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ ، ولقد شهدتُ مع رسول الله (ص) ليلة العقبة[(٧٥٧)] حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدرُ أذكرَ في النَّاس منها ، كان من خَبَري أنِّي لم أكن قطُّ أقوى ، ولا أيسر حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغزاة ، والله! ما اجتمعت عندي قَبلَه راحلتان قطُّ حتَّى جمعتُهما في تلك الغزوة.

ولم يكن رسول الله (ص) يريد غزوةً إلا ورَّى بغيرها ، حتَّى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله (ص) في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً ، وعدوّاً كثيراً ، فجلَّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهَّبوا أُهبةَ غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الَّذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله (ص) كثيرٌ ، ولا يجمعهم كتاب حافظٍ ـ يريد الدِّيوان ـ قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيَّب إلا ظنَّ أن سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وحيُ الله.

وغزا رسول الله (ص) تلك الغزوة حين طابت الثِّمارُ ، والظِّلالُ ، وتجهَّز رسول الله (ص) والمسلمون معه ، فطفقت أغدو؛ لكي أتجهَّزَ معهم ، فأرجعُ ، ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي؛ حتَّى اشتد بالنَّاس الجِدُّ ، فأصبح رسول الله (ص) والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جَهازي شيئاً ، فقلتُ: أتجهَّز بعده بيومٍ ، أو يومين ، ثمَّ

أَلحقُهم ، فغدوت بعد أن فَصَلوا؛ لأتجهَّزَ ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً ، ثمَّ غدوت ، ثُمَّ رجعتُ ولم أقض شيئاً. فلم يزل بي حتَّى أسرعوا وتفارط الغزو[(٧٥٨)] ، وهممت أن أرتحل فأُدرِكَهُم ـ وليتني فعلتُ ! ـ

فلم يقدَّر لي ذلك ، فكنتُ إذا خرجتُ في النَّاس ـ بعد خروج رسول الله (ص) ـ فطفتُ فيهم أحزنني أنِّي لأرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النِّفاق أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضُّعفاء ، ولم يَذكرْني رسولُ الله (ص) حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعبٌ؟» فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه بُرداه ، والنَّظر في عطفيه[(٧٥٩)] ، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله (ص) ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيِّضاً[(٧٦٠)] يزول به السَّراب[(٧٦١)] ، فقال رسول الله (ص) : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريُّ ، وهو الَّذي تصدَّق بصاع التَّمر حين لمزه[(٧٦٢)] المنافقون.

قال كعب بن مالكٍ: فلمَّا بلغني: أنَّ رسول الله (ص) قد توجَّه قافلاً[(٧٦٣)] من تبوك؛ حضرني بثِّي[(٧٦٤)] ، فطفقتُ أتذكَّرُ الكذبَ ، وأقول: بم أخرج مِنْ سخطه غداً؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ مِنْ أهلي. فلمَّا قيل لي: إنَّ رسولُ الله (ص) قد أظلَّ قادماً[(٧٦٥)] ، زاح[(٧٦٦)] عنِّي الباطل ، حتَّى عرفت أنِّي لن أنجو منه بشيءٍ أبداً ، فأجمعت صِدْقَه[(٧٦٧)].

وأصبح رسول الله (ص) قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثمَّ جلس للنَّاس ، فلمَّا فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسولُ الله (ص) علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته ، فلمَّا سلمت؛ تبسَّم تبسُّم المغْضَب ، ثمَّ قال: «تعالَ» ، فجئت أمشي حتَّى جلست بين يديه ، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرَك؟» قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي والله! لو جلست عند غيرك من أهل الدُّنيا؛ لرأيت أن سأخرج من سَخَطِه

بعذرٍ ، ولقد أُعطيت جدلاً[(٧٦٨)] ، ولكنِّي ، والله! لقد علمت ، لئن حدَّثْتُك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عنِّي؛ ليوشكنَّ[(٧٦٩)] اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ ، ولئن حدَّثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه[(٧٧٠)] إنِّي لأرجو فيه عُقبى الله[(٧٧١)]. والله! ما كان لي عذر ، والله! ما كنت قطُّ أقوى ، ولا أَيْسَرَ منِّي حين تخلَّفت عنك ، قال رسول الله (ص) : «أمَّا هذا؛ فقد صدق ، فقم حتَّى يقضي الله فيك».

فقمت ، وثار رجالٌ من بني سلمة ، فاتَّبعوني ، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت ألاّ تكون اعتذرت إلى رسول الله (ص) بما اعتذر به إليه المخلَّفون ، فقد كان كافيك ذنبَك

استغفارُ رسول الله (ص) لك ، قال: فوالله! ما زالوا يُؤنِّبونني[(٧٧٢)] حتَّى أردت أن أرجع إلى رسول الله (ص) ، فأُكذِّبَ نفسي.

قال: ثمَّ قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم. لقيه معك رجلان ، قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: مَنْ هما؟ قالوا: مُرَارةُ بن الرَّبيع العَمْريُّ ، وهلالُ بن أميَّة الواقفيُّ ، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدا بدراً ، فيهما أسوةٌ ، قال: فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله (ص) المسلمين عن كلامنا نحن الثَّلاثة من بين مَنْ تخلَّف عنه.

قال: فاجتَنَبَنا النَّاس ، وقال: تغيَّروا لنا حتَّى تنكَّرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض الَّتي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً ، فأمَّا صاحباي؛ فاستكانا[(٧٧٣)]، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا ، فكنت أشبَّ القوم ، وأجلَدَهم[(٧٧٤)] ، فكنت أخرج ، فأشهد الصَّلاة ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ.

واتي رسول الله (ص) ، فأسلِّم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصَّلاة ، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام ، أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه ، وأسارقه النَّظر ، فإذا أقبلت على صلاتي؛ نظر إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوه؛ أعرض عنِّي ، حتَّى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتَّى تسوَّرت جدار حائطِ أبي قتادة ، وهو ابن عمِّي ، وأحبُّ النَّاس إليَّ ، فسلَّمت عليه ،

فوالله! ما ردَّ عليَّ السَّلام ، فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدُك بالله[(٧٧٥)]! هل تعلم أنِّي أحبُّ الله ، ورسوله؟ قال: فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فقال: اللهُ ورسوله أعلم! ففاضت عيناي ، وتولَّيت حتَّى تسوَّرت الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة؛ إذا نبطي من نبط أهل الشَّام[(٧٧٦)] ، ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة ، يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان ، وكنت كاتباً ، فقرأته فإذا فيه: أمَّا بعد؛ فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك اللهُ بدار هوانٍ ، ولا مَضْيَعة[(٧٧٧)] ، فالحقْ بنا؛ نواسِك ، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء ، فتايممت[(٧٧٨)] بها التَّنُّور ، فسجرتُها[(٧٧٩)] بها؛ حتَّى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين واستلبث الوحي[(٧٨٠)]؛ إذا رسولُ رسولِ الله (ص) يأتيني ، فقال: إنَّ رسول الله (ص) يأمرك أن تعتزل امرأتك! قال: فقلتُ: أطلِّقها ، أم ماذا أفعل؟ قال: لا ، بل اعْتَزِلْهَا ، فلا تقربنَّها ، قال: فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك ، فكوني عندهم؛ حتَّى يقضي الله في هذا الأمر ، قال: فجاءت امرأةُ هلال بن أميَّة رسولَ الله (ص) فقالت له: يا رسول الله! إنَّ هلال بن أميَّة شيخٌ ضائعٌ ، ليس له خادمٌ ، فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «لا ، ولكن لا يقربنَّك» فقالت: إنَّه والله! ما به حركةٌ إلى شيءٍ ، والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله (ص) في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه. قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسولَ الله (ص) ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله (ص) إذا استأذنتُه فيها ، وأنا رجلٌ شابٌّ ، قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ ، فكمُل لنا خمسون ليلةً على ظهر بيت من بيوتنا.

فبينما أنا جالس على الحال الَّتي ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ منَّا ، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت؛ سمعتُ صوت صارخٍ أوفى على سَلَعٍ[(٧٨١)] ، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر! قال: فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرجٌ. قال: فاذن[(٧٨٢)]

رسول الله (ص) توبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر ، فذهب النَّاس يبشِّروننا ، فذهب قِبَل صاحبيَّ مبشِّرون ، ورَكَض رجلٌ إليَّ فرساً ، وسعى ساعٍ مِنْ أسلم قِبَلِي ، وأوفى الجبل ، فكان الصَّوت أسرع من الفرس ، فلمَّا جاءني الَّذي سمعت صوته يبشِّرني ، نزعت له ثوبيَّ ، فكسوتُهما إيَّاه ببشارته ، والله! ما أملك غيرهَما يومئذٍ.

واستعرتُ ثوبين ، فلبستهما ، فانطلقت أتأمَّم[(٧٨٣)] رسول الله (ص) فيتلقَّاني النَّاس فوجاً ، فوجاً[(٧٨٤)] ، يهنِّئوني بالتَّوبة ، ويقولون: لتهنك توبة الله عليك! حتَّى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله (ص) جالسٌ في المسجد ، وحوله النَّاس ، فقام طلحة بن عُبَيْد الله يُهَرْوِلُ حتَّى صافحني ، وهنَّأني ، والله! ما قام رجلٌ من المهاجرين غيرهُ.

قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلمَّا سلَّمت على رسول الله (ص) قال: وهو يَبْرُق وجهُه من السُّرور ، ويقول: «أبشرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك!» قال: قلتُ: أمن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟ فقال: «لا ، بل من عند الله» وكان رسول الله (ص) إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنَّه قطعةُ قمرٍ قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلمَّا جلست بين يديه؛ قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع[(٧٨٥)] من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسول الله (ص) ! فقال رسول الله (ص) : «أمسك بعضَ مالك ، فهو خير لك». قال: فقلت: فإنِّي أمسك سهمي الذي بخيبر ، قال: وقلت: يا رسول الله! إنَّ الله إنَّما أنجاني بالصِّدق ، وإنَّ من توبتي ألاَّ أُحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله! ما

علمت أنَّ أحداً من المسلمين أبلاه[(٧٨٦)] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (ص) إلى يومي هذا أحسن ممَّا أبلاني الله به ، وَوَالله! ما تعمَّدت كَذْبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله (ص) إلى يومي هذا ، وإِنِّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله . عز وجل .: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ *} [التوبة: ١١٧ . ١١٩].

قال كعب رضي الله عنه: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ ، بعد أنْ هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله (ص) ألاَّ أكونَ كذبْتُه ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إنَّ الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ ، وقال الله: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ *} [التوبة: ٩٥ . ٩٦].

قال كعبٌ رضي الله عنه: كنَّا تخلفنا نحن الثَّلاثة عن أمر أولئك الَّذين قبل منهم رسول الله (ص) حين حلفوا له ، فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسولُ الله (ص) أمرَنا حتَّى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله . عز وجل .: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *} [التوبة: ١١٨] ، وليس الَّذي ذكر اللهُ ممَّا خُلِّفْنَا ، تخلُّفنا عن الغَزْوَةِ ، وإنَّما هو تَخْلِيفه إيَّانا ، وإرجاؤُه أمرَنا[(٧٨٧)] عمَّن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه. [البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائدُ كثيرةٌ ، نذكر منها:

١ . الأسلوب الجميل ، والبيان الرَّائع ، والأدب الرَّفيع:

لقد تمَّت صياغة هذا الحديث بأسلوبٍ جميلٍ ، وبيانٍ رائعٍ ، وأدبٍ رفيعٍ ، وإنَّه ليُعتبر مع أمثاله كحديث صلح الحديبية ، وحديث الإفك نماذجَ عاليةً للأدب العربيِّ الرَّفيع ، وليت القائمين على وضع المناهج الدِّراسيَّة يختارون هذه الأحاديث ، وأمثالها لتنمية مدارك الطُّلاَّب ، وتكوين الملكة الأدبيَّة ، والثروة اللُّغوية العالية ، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث: فلمَّا قيل: إنَّ رسول الله (ص) قد

أظلَّ قادماً؛ زاح عنِّي الباطل ، وعرفت أنِّي لن أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذبٌ ، فأجمعت صِدْقَه[(٧٨٨)].

٢ . الصِّدق سفينة النَّجاة:

لقد أدرك كعبٌ ، وهلالُ ، ومُرَارةُ رضي الله عنهم خطورة الكذب ، فعزموا على سلوك طريق الصَّراحة ، والصِّدق ، وإنْ عرَّضهم ذلك للتَّعب ، والمضايقات ، ولكنْ كان أملُهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتَهُم ، ثمَّ يعودون إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ أقوى ممَّا كانوا عليه[(٧٨٩)] ، وما أجملَ ختمَ ربِّ العالمين توبته على كعبٍ وَمَنْ معه رضي الله عنهم بقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ *} [التوبة: ١١٩].

٣ . الهَجْر التَّربويُّ ، وأثره في المجتمع:

إنَّ الهجر التَّربويَّ له منافعُه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة ، ومنع أفراده من التَّورُّط في المخالفات الَّتي تكون إمَّا بترك شيءٍ من الواجبات ، أو فعل شيءٍ من المحرَّمات؛ لأنَّ مَنْ توقَّع أنَّه إذا وقع في شيءٍ من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع ، فإنَّه لا يفكِّر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أنَّ تطبيق هذا الحكم يجب أن يتمَّ في الظُّروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النَّبويِّ المدنيّ ، حيث توجد الدَّولة المهيمنة ، والمجتمع القويُّ ، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طُبِّق عليه هذا الحكم.

وهذا الهجر التَّربويُّ يختلف عن الهجر الَّذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا ، فهذا دنيويٌّ ، وذاك دينيٌّ، فالهجر الدِّينيُّ مطلبٌ شرعيٌّ يثاب عليه فاعله ، أمَّا الهجر الدُّنيويُّ؛ فإنَّه مكروهٌ ، إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام؛ فإنَّه يكون محرماً[(٧٩٠)] ، لقول رسول الله (ص) : «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسَّلام» [البخاري (٦٢٣٧) ، ومسلم (٢٥٦٠)] ، ولقوله (ص) : «مَنْ هجر أخاه سنةً فهو كَسَفْكِ دَمِهِ». [أحمد (٤/٢٢٠) ، وأبو داود (٤٩١٥) ، والبيهقي في الاداب (٢٨٠) ، والحاكم (٤/١٦٣) ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٠٤)].

٤ . تنفيذ المجتمع المسلم كلِّه لأوامر القيادة:

استجاب المجتمع المسلم كلُّه لتنفيذ أمر المقاطعة ، والهجر الَّذي صدر من القائد الأعلى (ص) ، وامتنعوا جميعاً عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة ، ووصف كعبٌ لنا ذلك ، فقال: «... فاجتَنَبَنا النَّاس ،

وتغيَّروا لنا ، حتَّى تنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف ، فأمَّا صاحباي ، فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا؛ فكنت أشَبَّ القوم ، وأجلدَهم ، فكنت أخرج ، فأشهدُ الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ...»[(٧٩١)].

وقد أطلق كعب السَّلام على ابن عمِّه أبي قتادة ، فلم يردَّ عليه السَّلام ، وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحبُّ الله ، ورسولَه؟ فسكت ، مع أنَّه من أحبِّ النَّاس إليه ، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزَّعَ الفكر بين إجابة رجلٍ حبيب إليه ، عزيزٍ عليه ، وبين تنفيذ أمر النَّبيِّ (ص) بتطبيق

الهجر التَّربويِّ ، ولكن ليس هناك تردُّد بين الأمرين ، فالَّذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبيِّ (ص) فظهر ذلك على سلوكه[(٧٩٢)].

وقد بلغ الالتزام بالأمر النَّبويِّ في الهجر التَّربويِّ ذروته حين أمر رسولُ الله (ص) الثلاثة الَّذين خُلِّفوا باعتزال زوجاتهم حتَّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فالتزم الجميع بذلك ، واستأذنت زوج هلال بن أميَّة . وكان شيخاً طاعناً في السِّنِّ لا يجد من يخدمه . فطلبت من الرَّسول (ص) أن يأذن لها أن تخدمَه ، فأذن لها النَّبيُّ (ص) بذلك شريطة ألا يقربها ، فالتزمتْ رضي الله عنها[(٧٩٣)].

٥ ـ الولاء التَّامُّ لله ورسوله (ص):

كان العدوُّ الصَّليبيُّ يراقب ، ويرصد ، ويستغلُّ الفرصة السَّانحة لكي يمزِّق الجبهة الدَّاخلية، ويشعل نار الفتنة بين المسلمين، ليوهن البنيان ، ويقوِّض الأركان، ولذلك استغلَّ ملكُ غسَّان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، وعقوبة رسول الله (ص) له بأن يرسل سفيره لكعب برسالةٍ خاصَّةٍ منه إليه يُغريه فيها. تأمَّل قوله: قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ، ولا مَضْيَعَة ، فالْحَقْ بنا ، نواسِك. [سبق تخريجه] ، فكان تعليق كعب على هذه الرِّسالة: وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ منِّي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجالٌ من أهل الشِّرك! ثمَّ أحرق الرِّسالة[(٧٩٤)].

وهذا الموقف يدلُّ على شدَّة ولاء كعبٍ لله ، ورسوله (ص) وقوَّة إيمانه ، وعظمة نفسه ، فقد أدرك أنَّها محنةٌ جديدةٌ أقسى من الأولى ، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسَّلب ، أو يرمي بالكتاب ، ويمزِّقه ، ولكنَّه رمى به في التَّنور ، ليصير رماداً ، ويصير كلُّ ما به دخاناً يتبدَّد في الهواء ، وخرج الرَّجل من محنته ، وهو أقوى ما يكون إيماناً ، وأصفى ما يكون روحاً ، وأكرم ما يكون أخلاقاً ، فيا لعظمة هذه النُّفوس المؤمنة الكبيرة![(٧٩٥)] لقد مرَّ كعبٌ من فوق هذا الاختبار ، والابتلاء عزيزاً ، قويّاً بإسلامه ، لم يتأثَّر به ، ولا انزلق فيه[(٧٩٦)].

٦ ـ توبة الله على العبد قِيمَةٌ دينيَّةٌ يتطلَّع إليها الصَّادقون:

عندما نزلت الايات الكريمة الَّتي بيَّنت توبة الله على هؤلاء الثَّلاثة؛ كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين ، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله (ص) ؛ حتَّى استنار كأنَّه قطعة قمرٍ ، وظهرت الفرحة على وجوه الصَّحابة رضي الله عنهم؛ حتَّى صاروا يتلقَّون كعباً ،

وصاحبيه أفواجاً ، يهنِّئونهم بما تفضل الله به عليهم من التَّوبة ، وجاء كعبٌ إلى النَّبيِّ (ص) ووجهه يَبْرُق من السُّرور ، فقال (ص) له: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك!». وهذا يعني مقام التَّوبة ، وأنَّها أعظم من الدُّخول في الإسلام.

إنَّ التَّوبة تعني عودة العبد إلى الدُّخول تحت رضوان الله تعالى الّذي هو أعلى هدفٍ ينشده المسلم ، وبالتَّالي فإنَّه يحظى بحفظه جلَّ وعلا في الدُّنيا ، وتكريمه في الاخرة ، لقد كانت توبة كعبٍ عظيمةً ، عبَّر عنها بنزع ثوبيه ـ اللَّذين لا يملك يومئذٍ غيرهما ـ وإهدائهما لِمَنْ بشَّره[(٧٩٧)] ، وعدم نسيان كعبٍ لطلحة بن عبيد الله مصافحته ، وتهنئته له[(٧٩٨)] ، وكذلك كانت فرحةُ صاحبيه عظيمةً؛ غير أنَّ كعباً رضي الله عنه لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له[(٧٩٩)] ، وقد جاء في رواية الواقديِّ: وكان الَّذي بشَّر هلال بن أميَّة بتوبته سعيدُ بن زيدٍ ، قال: وخرجت إلى بني واقفٍ ، فبشرته ، فسجد ، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتَّى تخرج نَفْسُه[(٨٠٠)].

٧ ـ تشرع أنواعٌ من العبادات شكراً لله عند النِّعمة:

كانت فرحة كعب بن مالكٍ بتوبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه لا تحدُّها حدودٌ ، ولا تصوِّرها مثل ، وقد تفنَّن هو رضي الله عنه في التَّعبير عنها بجملةٍ من العبادات ، منها:

أ ـ سجود الشُّكر:

حينما سمع كعبٌ البشارة بتوبة الله عليه؛ خرَّ ساجداً من فوره شكراً لله ـ تبارك وتعالى ـ فقد كان من عادة الصَّحابة رضي الله عنهم أن يسجدوا شكراً لله تعالى كلَّما تجدَّدت لهم نعمةٌ، أو انصرفت عنهم نِقْمَةٌ، وقد تعلَّموا ذلك من رسول الله (ص)[(٨٠١)] .

ب ـ مكافأة الَّذي يحمل البُشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللَّذين كان يلبَسُهما ، فكساهما الَّذي سمع صوته بالبشرى ، وما كان يملك وقتئذٍ غيرهما ، ثمَّ استعار ثوبين ، فلبسهما ، ولاشكَّ أنَّ هذا ضربٌ من الهبة المشروعة ، فإن كان المبشِّر غنيّاً

، كان له هديةً ، وإن كان فقيراً؛ كان له صدقةً ، وكلاهما إخراج المال شكراً لله تعالى على إنزاله الفرج[(٨٠٢)].

ج . التَّصدُّق بالمال:

فقد جعل كعبٌ رضي الله عنه من توبته أن ينخلع من ماله صدقةً لله تعالى ، لكنَّه (ص) وجَّهه إلى عدم التَّصدُّق بجميع ماله ، وقال له: «أمسك عليك بعض مالك ، فهو خيرٌ لك» ، وكأنَّه يستشيره بذلك ، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله[(٨٠٣)] ، وقد ثار الخلاف الفقهيُّ فيمن نذر التَّصدُّق بجميع ماله ، والصَّدقة مستحبَّة ، والنَّذر واجبُ الوفاء ، ولم يذهب كعب إلى النَّذر ، وإنَّما استشار في الصَّدقة بكلِّ المال ، فأشار رسول الله (ص) عليه بإمساك بعض ماله.

* * *

المبحث الخامس

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد

أولاً: معالمُ من المنهج القرانيِّ في الحديث عن غزوة تبوك:

إنَّ الايات الَّتي أنزلها الله في كتابه المتعلّقة بغزوة العُسْرَة هي أطول ما نزل في قتالٍ بين المسلمين ، وخصومهم ، وقد بدأت باستنهاض الهمم لردِّ هجوم المسيحيَّة ، وإشعارهم بأنَّ الله لا يقبل ذرَّة تفريطٍ في حماية دينه ، ونصرة نبيِّه (ص) ، وإنَّ التراجع أمام الصُّعوبات الحائلة دون قتال الرُّوم . يعتبر مزلقةً إلى الردَّة والنِّفاق[(٨٠٤)] ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ *إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [التوبة: ٣٨ . ٣٩].

وعند التَّأمُّل في سورة التَّوبة يلاحظ القارأى: أنَّ لها معالمَ في عرضها لغزوة تبوك ، منها:

١ . عاتب القران الكريم مَنْ تخلَّف عتاباً شديداً ، وتميَّزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأنَّ الله حثَّ على الخروج فيها ، وعاتب مَنْ تخلَّف عنها ، والايات الكريمة جاءت بذلك كقوله تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [التوبة: ٤١].

وقد خُتِمَتِ الغزوات النَّبويَّةُ بهذه الغزوة ، وقد كان تطبيقاً عمليّاً لوضع النَّصِّ القراني في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ...} موضع التَّنفيذ

٢ . ميَّز القران الكريم هذه الغزوة عن غيرها ، فسمَّاها الله تعالى ساعة العسرة ، قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} ، فقد كانت غزوة عسرةٍ بكلِّ معنى الكلمة.

٣ . من معالم منهج القران في عرضه لهذه الغزوة العظيمة: أنَّ الله ردَّ على المنافقين لَمْزَهُمْ فقراء الصَّحابة عندما جاء أحدُهم بنصف صاعٍ ، وتصدَّق به ، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا ، وما فعل هذا إلا رياءً ، فنزلت الاية: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *} [التوبة: ٧٩].

٤ . بيَّن القران الكريم: أنَّ المؤمنين الَّذين خرجوا مع رسول الله (ص) . وعددُهم يزيد عن الثَّلاثين ألفاً . قد كتب الله لهم الأجر العظيم[(٨٠٥)]. قال تعالى: {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [التوبة: ٨٨]. {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ

وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *} [التوبة: ١٢٠].

ثانياً: ممارسة الشُّورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله (ص) في هذه الغزوة الشُّورى ، وَقَبِلَ مشورة الصِّدِّيق ، والفاروق في بعض النَّوازل الَّتي حدثت في الغزوة ، ومن هذه النَّوازل:

أ ـ قبول مشورة أبي بكر الصِّدِّيق في الدُّعاء حين تعرَّض الجيش لعطشٍ شديدٍ:

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قَيْظٍ شديد ، فنزلنا منزلاً ، وأصابنا فيه عطشٌ ، حتَّى ظننَّا: أنَّ رقابنا ستنقطع؛ حتَّى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره ، فيعتصر فَرْثَه ، فيشربه ، ثمَّ يجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصِّديق: يا رسول الله! إنَّ الله عوَّدك في الدعاء خيراً ، فادعُ الله ، قال: «أتحبُّ ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه ، فلم يردَّهما حتَّى حالت السَّماء ، فأظلَّت ثم سكبت ، فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. [البزار (١٨٤١) ، وابن حبان (١٣٨٣) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٣١) ، والحاكم (١/١٥٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٩٤ ـ ١٩٥)].

ب ـ قبول مشورة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعةٌ:

أصابت جيشَ العُسرة مجاعةٌ أثناء سيرهم إلى تبوك ، فاستأذنوا النَّبيَّ (ص) في نحر إبلهم حتَّى يسدُّوا جَوْعَتَهُم ، فلمَّا أذن لهم النَّبيُّ (ص) في ذلك؛ جاءه عمر رضي الله عنه فأبدى مشورته في

هذه المسألة، وهي: أنَّ الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلُهم، وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطَّريق الطَّويل ، ثمَّ ذكر رضي الله عنه حلاً لهذه المعضلة ، وهو: جمع أزواد القوم ، ثمَّ الدعاء لهم بالبركة فيها ، فعمل (ص) بهذه المشورة حتَّى صدر القوم عن بقيَّةٍ من هذا الطعام ، بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه ، وأكلوا حتَّى شبعوا. [سبق تخريجه][(٨٠٦)].

٣ ـ قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشَّام ، والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النَّبيُّ (ص) إلى منطقة تبوك ، وجد أنَّ الرُّوم فرُّوا خوفاً من جيش المسلمين ، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشَّام ، فأشار عليه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة ، وعلَّل رأيه بقوله: إنَّ للروم جموعاً كثيرةً ، وليس بها أحدٌ من أهل الإسلام. ولقد كانت مشورة مباركةً ، فإنَّ القتال داخل بلاد الرُّومان يعدُّ أمراً صعباً؛ إذ إنَّه يتطلَّب تكتيكاً خاصّاً؛ لأنَّ الحرب في الصَّحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن ، بالإضافة إلى أنَّ عدد الرُّومان في الشَّام يقرب من

مئتين وخمسين ألفاً ، ولاشكَّ في أنَّ تجمُّع هذا العدد الكبير في تحصُّنه داخل المدن يعرِّض جيش المسلمين للخطر(١).

إنَّ ممارسة الشُّورى في حياة الأمَّة في جميع شؤونها؛ السِّياسيَّة والعسكريَّة والاجتماعيَّة ، منهجٌ تربويٌّ كريمٌ ، سار عليه الحبيب المصطفى (ص) في حياته.

ثالثاً: التَّدريب العمليُّ العنيف:

كان خروج الرَّسول (ص) إلى تبوك بأصحابه فيه فوائدُ كثيرةٌ ، منها: تدريبهم تدريباً عنيفاً ، فقطع بهم (ص) مسافةً طويلةً في ظروفٍ جويَّةٍ صعبةٍ ، حيث كانت حرارة الصَّيف اللاهب ، بالإضافة إلى الظُّروف المعيشيَّة الَّتي كانوا يعانون منها ، فقد كان هناك قلَّةٌ في الماء ، حتَّى كادوا يهلكون من شدَّة العطش ، وأيضاً كان هناك قلَّةٌ في الزَّاد ، والظَّهْر ، ولاشكَّ في أنَّ هذه الأمور تعدُّ تدريباً عنيفاً؛ لا يتحمَّله إلا الأقوياء من الرِّجال.

وفي هذا الدَّرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريباً عنيفاً كاجتياز مواقع ، وعراقيل صعبةٍ جدّاً ، وقطع مسافاتٍ طويلةٍ في ظروفٍ جوِّيَّةٍ مختلفةٍ ، وحرمانٍ من الطَّعام ، والماء بعض الوقت ، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمُّل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب ، ولقد تحمَّل جيش العُسرَة مشقاتٍ لا تقلُّ صعوبةً عن مشقات هذا التَّدريب العنيف ، إن لم تكن أصعب منها بكثيرٍ ، لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها ، وقطعوا مسافاتٍ طويلةً شاقَّةً في صحراء الجزيرة العربيَّة صيفاً ، وتحمَّلوا الجوع ، والعطش مدَّةً طويلةً.

إن غزوة تبوك تدريبٌ عنيفٌ للمسلمين ، كان غرض الرَّسول (ص) منه إعدادهم لتحمُّل رسالة حماية حرِّية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربيَّة ، فقد كانت هذه الغزوة اخر غزوات الرَّسول (ص) ، فلابدَّ من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرَّفيق الأعلى»[(٨٠٧)].

وقد ساعد هذا التَّدريب العمليُّ الصَّحابةَ في عصر الخلفاء ، فقاموا بفتح بلاد الشَّام ، وبلاد الفرس بقوَّة إيمانهم ، وثقتهم بخالقهم ، وساعدهم على ذلك لياقتُهم البدنيَّة العالية ، ومعرفتُهم العمليَّة لاستخدام السُّيوف والرِّماح ، وأنواع الأسلحة في زمانهم.

رابعاً: أهم نتائج الغزوة:

يمكن للباحث أن يلاحظ أهمَّ نتائج هذه الغزوة ، وهي:

١ ـ إسقاط هيبة الرُّوم من نفوس العرب جميعاً: مسلمِهم ، وكافرِهم على السَّواء؛ لأن قوَّة الرُّوم كانت في حسِّ العرب لا تُقاوَم ، ولا تُغْلَب ، ومن ثمَّ فقد فزعوا من ذكر الرُّوم ، وغزوهم ، ولعلَّ الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكِّدةً على ما ترسَّخ في ذهن العربيِّ في جاهليته من أنَّ الرُّوم قوَّةٌ لا تُقهر ، فكان لابدَّ من هذا النَّفير العامِّ لإزاحة هذه الهزيمة النَّفسيَّة من نفوس العرب.

٢ ـ إظهار قوَّة الدَّولة الإسلامية كقوَّةٍ وحيدةٍ في المنطقة ، قادرةٍ على تحدِّي القِوى العظمى عالميّاً ـ حينذاك ـ ليس بدافعٍ عصبيٍّ ، أو عرقيٍّ ، أو تحقيق أطماع زعاماتٍ معاصرةٍ ، وإنَّما بدافعٍ تحريريٍّ ، حيث تدعو الإنسانيَّة إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبوديَّة ربِّ العباد ، ولقد حقَّقت هذه الغزوة الغرض المرجوَّ منها بالرَّغم من عدم الاشتباك الحربيِّ مع الرُّوم ، الَّذين اثروا الفرار شمالاً ، فحقَّقوا انتصاراً للمسلمين دون قتالٍ ، حيث أخلوا مواقعهم للدَّولة الإسلاميَّة ، وترتَّب على ذلك خضوعُ النَّصرانيَّة الَّتي كانت تمتُّ بصلة الولاء لدولة الرُّوم مثل إمارة دومة الجندل ، وإمارة أيْلة «مدينة العقبة حالياً على خليج العقبة» وكتب رسول الله (ص) بينه وبينهم كتاباً يحدِّد ما لهم ، وما عليهم[(٨٠٨)] ، وأصبحت القبائل العربيَّة الشَّاميَّة الأخرى الَّتي لم تخضع للسَّيطرة الإسلاميَّة في تبوك تتعرَّض بشدَّة للتأثير الإسلاميِّ ، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ، ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدَّولة البيزنطيَّة ، أو تحويل هذا الولاء إلى الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة ، ويعدُّ ما حدث في تبوك نقطةَ البداية العمليَّة للفتح الإسلاميِّ لبلاد الشَّام[(٨٠٩)] ، وإن كانت هناك محاولاتٌ قبلها ، ولكنَّها لم تكن في قوَّة التأثير

كغزوة تبوك ، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عملياتٍ متواصلةٍ لفتح البلدان ، والَّتي واصلها خلفاء رسول الله (ص) من بعده ، وممَّا يؤكِّد هذا: أنَّ الرَّسول (ص) قبل موته جهَّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربةٍ موجَّهةٍ صوب الرُّوم ، وطليعةً لجيش الفتح ، وضمَّ هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله (ص) ، ولكنَّه لم يقم بمهمَّته إلا بعد وفاته (ص) ، ومع هذا فقد حقَّق الهدف المطلوب منه ، كما سيأتي[(٨١٠)] بإذن الله عند الحديث عن سيرة الصِّدِّيق رضي الله عنه.

لقد وضع رسول الله (ص) الأسس الأولى ، والخطوات المثلى لفتح بلاد الشَّام ، والفتوحات الإسلاميَّة.

٣ ـ توحيد الجزيرة العربيَّة تحت حكم الرَّسول (ص) : تأثَّر موقف القبائل العربيَّة من الرَّسول (ص) والدَّعوة الإسلاميَّة بمؤثِّراتٍ متداخلةٍ ، كفتح مكةَ ، وخيبر ، وغزوة تبوك ، فبادر كلُّ قومٍ بإسلامهم بعدما امتدَّ سلطان المسلمين إلى خطوط التَّماسِّ مع الرُّوم ، ثُمَّ مصالحة نجران في الأطراف الجنوبيَّة على

أن يدفعوا الجزية ، فلم يَعُدْ أمام القبائل العربيَّة إلا المبادرة الشَّاملة إلى اعتناق الإسلام ، والالتحاق بركب النُّبوَّة بالسَّمع ، والطَّاعة ، ونظراً لكثرة وفود القبائل العربيَّة الَّتي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربيَّة بعد عودة النَّبيِّ (ص) من غزوة تبوك؛ لتعلن إسلامها هي ، ومن وراءها ، فقد سُمِّيَ العامُ التَّاسع للهجرة في المصادر الإسلاميَّة بـ (عام الوفود)[(٨١١)].

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النَّبيِّ (ص) الَّتي قادها بنفسه ، فقد كانت حياته المباركة (ص) غنيَّةً بالدُّروس ، والعبر ، الَّتي تتربَّى عليها أمَّتُه في أجيالها المقبلة، ومليئةً بالدُّروس، والعبر في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة الَّتي تحكم بشرع الله.

* * *

المبحث السَّادس

أهمُّ الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجَّة الوداع[(٨١٢)]

أولاً: وفد ثقيفٍ وإسلامُهم:

لما انصرف الرَّسول (ص) عن الطَّائف اتَّبع أثره عروة بن مسعود الثَّقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم ، ورجع إلى قومه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فرموه بالنَّبل ، فأصابه سهم فقتله ، ثمَّ إنَّهم رأوا: أنَّه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب الَّذين أسلموا ، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله (ص) ، فقدم عليه ستَّةٌ منهم ، في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تِسْعٍ[(٨١٣)].

وكان الوفد يتكوَّن من ستَّةٍ من كبار بني مالك ، والأحلاف ، ثلاثةٌ لكلٍّ منهما ، وعلى رأسهم جميعاً عبدُ يَالَيْلَ بن عمرو[(٨١٤)] ، وتكوين هذا الوفد على هذا النَّحو يدلُّ على فكرٍ سياسيٍّ عميق؛ ذلك لأنَّ ثقيف تأمل في أن يتدخل المهاجرون من بني أميَّة للتوسُّط في إقرار الصُّلح مع الرَّسول (ص) بسبب علاقة بني أميَّة التَّاريخيَّة بالأحلاف[(٨١٥)].

كان الصَّحابة يعرفون اهتمام الرَّسول (ص) بإسلام ثقيفٍ ، ولذلك ما إن ظهر وفد ثقيف قرب المدينة؛ حتَّى تنافس كلٌّ من أبي بكرٍ ، والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد للرَّسول (ص) ، وتنازل المغيرةُ لأبي بكرٍ[(٨١٦)].

واستقبل الرَّسول (ص) الوفد راضياً ، وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القران ، ويروا النَّاس إذا صلَّوا ، وكانت ضيافتهم على رسول الله (ص) ، وكانوا يفدون على رسول الله (ص) كلَّ يومٍ ، ويخلِّفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم ، فكان عثمان كلما رجعوا ، وقالُوا بالهاجرة ، عمد إلى رسول الله (ص) فسأله عن الدِّين ، واستقرأه القران، حتى فقه في الدِّين، وعلم ، وكان

إذا وجد رسول الله (ص) نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله (ص) ، وعجب منه، وأحبَّه[(٨١٧)].

ومكث الوفد أياماً يختلفون إلى النَّبيِّ (ص) ، والنَّبيُّ (ص) يدعوهم إلى الإسلام ، فقال له عبد يَالَيْلَ: هل أنت مقاضينا حتَّى نرجع إلى أهلنا ، وقومنا؟ فقال رسول الله (ص) : «نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام؛ قاضيتكم ، وإلا فلا قضيَّة ، ولا صلح بيني وبينكم».

قال عبدُ يَالَيْلَ: أرأيت الزِّنى؟ فإنَّا قوم عُزَّاب بغَرْبٍ[(٨١٨)] لابدَّ لنا منه ، ولا يصبر أحدنا على العُزْبة ، قال: «هو ممَّا حرَّم الله على المسلمين ، يقول الله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً *} [الإسراء: ٣٢]».

قال: أرأيت الرِّبا؟ قال: «الرِّبا حرام!» قال: فإنَّ أموالنا كلَّها رباً ، قال: «لكم رؤوس أموالكم ، يقول تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [البقرة: ٢٧٨]».

قال: أفرأيت الخمر؟ فإنَّها عصيرُ أعنابنا ، لابدَّ لنا منها.

قال: «فإنَّ الله قد حرَّمها!» ثمَّ تلا رسول الله (ص) هذه الاية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [المائدة: ٩٠].

فارتفع القوم ، وخلا بعضهم ببعض ، فقال عبدُ يَالَيْلَ: ويحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثَّلاث! والله لا تصبر ثقيفٌ عن الخمر أبداً، ولا عن الزنى أبداً.

قال سفيان بن عبد الله: أيُّها الرَّجل! إنْ يرد الله بها خيراً تصبر عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا ، فصبروا ، وتركوا ما كانوا عليه ، مع أنَّا نخاف هذا الرجل ، قد أوطأ الأرض غلبةً ، ونحن في حصنٍ في ناحية من الأرض ، والإسلام حولنا فاشٍ ، والله! لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً ، وما أرى إلا الإسلام ، وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكَّة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله (ص) حتَّى كتبوا الكتاب ، وكان خالد هو الَّذي كتبه ، وكان رسول الله (ص) يرسل إليهم الطَّعام ، فلا يأكلون منه شيئاً حتَّى يأكل منه رسول الله (ص) ؛ حتَّى أسلموا.

قالوا: أرأيت الرَّبَّة ، ما ترى فيها؟ قال: «هَدْمَها».

قالوا: هيهات! لو تعلم الرَّبَّة أنَّا أوضعنا هدمها[(٨١٩)] قتلت أهلنا. قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل! إنَّ الرَّبَّة حجرٌ لا يدري مَنْ عَبَدَهُ ممَّن لا يعبدُه.

قال عبد ياليل: إنَّا لم نأتك يا عمر! فأسلموا ، وكمل الصُّلح ، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد ، فلمَّا كمُل الصُّلح ، وكتبوه؛ كلَّموا النَّبيَّ (ص) يدع الرَّبَّة ثلاث سنين ، لا يهدُمها ، فأبى ، قالوا: سنتين! فأبى ، قالوا: سنة! فأبى ، قالوا: شهراً واحداً! فأبى أن يوقِّت لهم وقتاً ، وإنَّما يريدون بترك الرَّبة لما يخافون من سفهائهم ، والنِّساء ، والصِّبيان ، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهدمها ، فسألوا النَّبيَّ (ص) أن يعفيهم من هدمها[(٨٢٠)] ، فوافق رسول الله (ص) على طلبهم ذلك ، وسألوا النَّبيِّ (ص) أن يعفيهم من الصَّلاة ، فقال رسول الله (ص) : «لا خير في دين لا صلاة فيه» [أحمد (٤/٢١٨) ، وأبو داود (٣٠٢٦) ، والطيالسي (٩٣٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٩٩ ـ ٣٠١)][(٨٢١)].

لقد طلب وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله (ص) من بعض الفرائض ، وأن يحلِّل لهم بعض المحرَّمات ، إلا أنَّهم فشلوا في طلباتهم ، وخضعوا للأمر الواقع[(٨٢٢)].

وقد أكرم رسول الله (ص) وِفَادَتَهُم، وأحسن ضيافتهم في قدومهم ، وإقامتهم وعند سفرهم ، وأمَّرَ (ص) عثمان بن أبي العاص على الطَّائف ، فقد كان أحرصَهم على تعلُّم القران ، والتَّفقُّه في الدِّين ، وكان أصغرهم سنّاً[(٨٢٣)]. ولقد تأثَّر الوفد من معاملة النَّبيِّ (ص) ، ومن اختلاطهم بالمسلمين ، حتَّى إنَّهم صاموا ما بقي عليهم من شهر ، ومكثوا في المدينة خمسة عشر يوماً ، ثمَّ رجعوا إلى

الطَّائف[(٨٢٤)] ، وبعد رجوعهم جهَّز رسول الله (ص) سريَّةً بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ومشاركة المغيرة بن شعبة[(٨٢٥)] رضي الله عنه، وأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه(٤) وبعثهم في أثر الوفد[(٨٢٦)].

وبينما نجحت مساعي الوفد في إقناع ثقيف بالدُّخول في الإسلام ، وأخبروهم بمصير الَّلات ، وإذا بالسَّريَّة قد وصلت إلى الطَّائف ، ودخل المغيرة بن شعبة في بضعة عشر رجلاً

يهدمون الرَّبَّة[(٨٢٧)] ، وكان ذلك تحت حراسةٍ مشدَّدةٍ من قومه بني مَعَتِّب الَّذين قاموا دونه؛ خشية أن يُرمى، أو يُصاب كما أصيب عروة بن مسعود[(٨٢٨)] ، وخرجت ثقيف عن بكرة أبيها؛ رجالها ، ونساؤها ، وصبيانها حتَّى الأبكار من خدورهنَّ ، وكانوا لقرب عهدهم بالشَّرك لا ترى عامَّة ثقيف أنَّها مهدومة ، ويظنُّون أنَّها ممتنعة[(٨٢٩)].

وكان المغيرة رجلاً فيه دعابةٌ ، وظرفٌ ، فقال لأصحابه: والله لأضحكنَّكُم من ثقيف ، فضرب بالفأس ، ثمَّ سقط يركض ، فارتج أهل الطَّائف بصيحةٍ واحدةٍ ، وقالوا: أبعد الله المغيرة ، فقد قتلته الرَّبَّة ، وفرحوا حين رأوه ساقطاً [(٨٣٠)]، وقالوا مخاطبين أفراد السَّريَّة: مَنْ شاء منكم فليقترب ، وليجتهد على هدمها ، فوالله! لا تستطاع أبداً ، فوثب المغيرة بن شعبة ، وقال: قبَّحكم الله يا معشر ثقيف! إنَّما هي لُكاع[(٨٣١)]؛ حجارةٌ ومَدَرٌ ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه[(٨٣٢)].

أكمل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ومن معه هدم الطَّاغية حتَّى سوَّوها بالأرض ، وكان سادنها واقفاً على أحرٍ من الجمر؛ ينتظر نقمة الرَّبَّة ، وغضبها على هؤلاء العُصاة[(٨٣٣)] ، فما إن وصلوا إلى أساسها حتَّى صاح قائلاً: سترون إذا انتهى أساسها ، يغضب الأساس غضباً يخسف بهم[(٨٣٤)] ، فلمَّا سمع المغيرة رضي الله عنه بذلك السُّخف قال لقائد السَّريَّة: دعني أحفر أساسها ، فحفره حتَّى أخرجوا ترابها ، وانتزعوا حُلِيَّها ، وأخذوا ثيابها ، فَبهِتَتْ ثقيفٌ[(٨٣٥)] ، وأدركت الواقع الذي كانت تحجبه غشاوةٌ على أعينهم[(٨٣٦)].

وأقبل الوفد حتَّى دخلوا على رسول الله (ص) بحليِّها ، وكسوتها ، فقسمه رسول الله (ص) من يومه ، وحمدوا الله على نصرة نبيِّه ، وإعزاز دينه[(٨٣٧)].

وتمَّ القضاء على ثاني أكبر طواغيت الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، وحلَّ محلَّها بيتٌ من بيوت الله ـ عزَّ وجل ـ يوحَّد فيه الرَّبُّ الَّذي لا إله إلا هو ، وذلك بتوجيهٍ كريمٍ من رسول الله (ص) إلى عثمان بن أبي العاص

رضي الله عنه[(٨٣٨)] عامله على الطَّائف حيث أمره «بأن يجعل مسجد الطَّائف حيث كان طاغيتهم» [أبو داود (٤٥٠) ، وابن ماجه (٧٤٣)].

ثانياً: وفاة زعيم المنافقين (عبد الله بن أُبيِّ بن سلول):

مرض عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، رأسُ المنافقين ، في ليالٍ بَقِين من شوَّال ، ومات في ذي القعدة من السَّنة التاسعة[(٨٣٩)].

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله (ص) على عبد الله بن أبيٍّ في مرضه نعوده، فقال له النَّبيُّ (ص) : قد كنت أنهاك عن حبِّ يهود ، فقال عبد الله: فقد أبغضهُم سعد بن زرارة ، فمات.

ولما توفي عبد الله بن أبيٍّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله (ص) ، فسأله أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه ، فأعطاه ، ثمَّ سأله أن يصلِّيَ عليه ، فقام رسول الله (ص) ليصلِّي عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله (ص) ، فقال: يا رسول الله! تصلِّي عليه ، وقد نهاك ربُّك أن تُصلي عليه ، فقال رسول الله (ص) : إنَّما خيَّرني الله فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *} [التوبة: ٨٠] ، وسأزيده على السَّبعين ، قال: إنَّه منافق ، قال: فصلَّى عليه رسولُ الله (ص) ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ اية: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة: ٨٤]. [البخاري (٤٦٧٠) ، ومسلم (٢٤٠٠)].

وإنَّما صلَّى عليه رسولُ الله (ص) إجراءً له على حكم الظَّاهر ، وهو الإسلام ، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله ـ وكان من خيار الصَّحابة ، وفضلائهم ـ وهو الذي عرض على النَّبيِّ (ص) أن يقتل أباه لما قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق ، كما بيَّنَّا ، ولما فيه من مصلحةٍ شرعيَّة ، وهو تأليف قلوب قومه ، وتابعيه ، فقد كان يدين له بالولاء فئةٌ كبيرةٌ من المنافقين ، فعسى أن يتأثَّروا ، ويرجعوا عن نفاقهم ، ويعتبروا ، ويخلصوا لله ، ولرسوله ، ولو لم يُجِبْ ابنه ، وترك الصَّلاة عليه قبل ورود النَّهي الصَّريح ، لكان سُبَّةً ، وعاراً على ابنه ، وقومه ، فالرَّسول

الكريم (ص) اتَّبع أحسن الأمرين في السِّياسة ، إلى أن نُهيَ فانتهى[(٨٤٠)].

وأمَّا إعطاؤه (ص) القميص؛ فلأنَّ الضَّنَّ به يُخِلُّ بالكرم ، وقد كان مِنْ خُلُق رسول الله (ص) ألاَّ يرد طالبَ حاجةٍ قطُّ ، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول (ص) قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر ، وكان من خلق رسول الله (ص) وال بيته ردُّ الجميل بخير منه[(٨٤١)].

وبموت عبد الله بن سلول تراجعت حركة النِّفاق في المدينة ، حتَّى إنَّنا لم نجد لهم حضوراً بارزاً في العام العاشر للهجرة ، ولم يبقَ إلا العدد غير المعروف إلا لصاحب سر رسول الله (ص) حُذيفة بن اليمان[(٨٤٢)] ، وكان عمر فيما بعد لا يصلِّي على جنازة مَنْ جَهِل حالَه حتَّى يصلِّي عليه حذيفة بن اليمان؛ لأنَّه كان يعلم أعيان المنافقين ، وقد أخبره رسول الله (ص) بهم[(٨٤٣)].

كان العام التَّاسع حاسماً لحركة النفاق في المجتمع الإسلاميّ ، فقد وصل النِّظام الإسلاميُّ إلى قوَّته ، ومن ثمَّ لابدَّ من تحديد إطار التَّعامل مع كلِّ القِوى بوضوح[(٨٤٤)] ، ولهذا عبَّر الإمام ابن القيِّم عن خطَّة الإسلام أمام المنافقين: «فإنَّه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم ، والحجَّة ، وأُمِر أن يُعرض عنهم ، ويُغلِظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونُهيَ أن يصلِّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأُخبر: أنَّه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم»[(٨٤٥)].

وجاءت هذه الخطَّة وفق النُّصوص القرانيَّة الَّتي احتوتها سورة التَّوبة «براءة» «الفاضحة» حيث يستغرق الحديث عن المنافقين أكثر من نصف السُّورة ، فيفضح نواياهم ، وأعمالهم ، ووصف أحوالهم النَّفسيَّة والقلبيَّة ، وموقفهم في غزوة تبوك ، وقبلها ، وفي أثنائها ، وما تلاها ، وكشْف حقيقة حيلهم ، ومعاذيرهم في التَّخلُّف عن الجهاد ، وبثِّ الضعف ، والفتنة ، والفرقة في الصُّفوف ، وإيذاء رسول الله (ص) بالقول ، والعمل[(٨٤٦)].

ومن أهم الأحكام الَّتي برزت في هذه المرحلة ضدَّ المنافقين:

١ ـ عدم الصَّلاة على مَنْ مات منهم ، ودمغُهم بالكفر:

{وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ *} [التوبة: ٨٤ ـ ٨٥].

٢ ـ تهديم مسجدهم الَّذي بنوه للإضرار بين المسلمين:

وهو مسجد الضِّرار ، وقد تحدَّثت عنه فيما مضى بنوعٍ من التفصيل.

٣ ـ إصدار الأمر بمجاهدة المنافقين كمجاهدة الكافرين:

{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *} [التحريم: ٩]، وسواءٌ أكان الجهاد بالقتال، أم في المعاملة ، والمواجهة ، والكشف ، والفضح ، فإنَّ طريقة التَّعامل مع المنافقين بعد سورة براءة غير المعاملة قبلها.

٤ ـ الكشف عن صفاتهم وأعمالهم بوضوح:

كما جاء في سورة التَّوبة أيضاً ، فهم الَّذين قالوا تثبيطاً للمسلمين: {لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة: ٨١] ، وهم الَّذين يلمزون المطَّوِّعين في الصَّدقات ، ويؤذون رسول الله (ص) في القول ، والفعل.....إلخ[(٨٤٧)].

هذه معالم المنهج النَّبويِّ في التعامل مع حركة النِّفاق في المجتمع الإسلاميِّ في العام التَّاسع الهجريِّ.

ثالثاً: تخيير النَّبيِّ (ص) لزوجاته (دروسٌ من بيوتات الرَّسول (ص)):

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

وقد دلَّت الأحاديث الصَّحيحة على أن نزول هاتين الايتين كان بعد اعتزال النَّبيِّ (ص) لنسائه ، بعد أن أقسم ألاَّ يدخل عليهنَّ شهراً ، فاعتزلهن في مَشْرُبَةٍ له ، وهي القصَّة المعروفة بقصَّة إيلائه[(٨٤٨)] من نسائه ، وكان تاريخ نزول هذه الايات في العام التاسع للهجرة[(٨٤٩)].

وأمَّا سبب نزولها ، فهو طلب زوجاته (ص) التَّوسعة عليهنَّ في النَّفقة ، فقد أخرج مسلمٌ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله (ص) فوجد الناس جلوساً ببابه ، لم يؤذن لأحدٍ منهم ، قال: فأُذِن لأبي بكرٍ فدخل ، ثمَّ أقبل عمر ، فاستأذن ، فأُذِن له ، فوجد النَّبيَّ (ص) جالساً حوله نساؤه واجماً[(٨٥٠)] ساكتاً ، قال: فقال: لأقولنَّ شيئاً أُضحك النَّبيَّ (ص) ، فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنتَ خارجةَ[(٨٥١)] سألتني النَّفقة فقمتُ إليها ، فوجأت عنقَها[(٨٥٢)] ، فضحك رسول الله (ص) وقال: «هنَّ حولي كما ترى يسألنني النَّفقة». فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها ، كلاهما يقول: أتسألن رسول الله (ص) ما ليس عنده ، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله (ص) شيئاً أبداً ليس عنده ، ثمَّ اعتزلهن شهراً ، أو تسعاً وعشرين ، ثمَّ نزلت عليه هذه الاية» [مسلم (١٤٧٨) ، وأحمد (٣/٣٢٨)].

كانت الحياة المعيشية في بيوت رسول الله (ص) تجري على وتيرةٍ واحدةٍ ، بالرَّغم من إمكانية التَّوسُّع في بعض الأحيان، ونساء الرَّسول (ص) من البشر، يرغبن ما يرغب فيه النَّاس ، ويشتهين ما يشتهيه النَّاس[(٨٥٣)] ، فقد كانت مساكنهنَّ متواضعةً بسيطةً غاية البساطة، فقد وصفها الدُّكتور أبو شهبة فقال: إنَّ الرَّسول (ص) بنى حُجَراً حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له ، ولأهله ، ولم تكن

الحُجَرُ كبيوت الملوك ، والأكاسرة، والقياصرة، بل كانت بيوت مَنْ ترفَّع عن الدُّنيا، وزخرفها، وابتغى الدَّار الاخرة، فقد كانت كمسجده مبنيةً من اللَّبِن ، والطِّين ، وبعض الحجارة ، وسقوفها من جذوع النَّخل والجريد ، قريبة الفناء ، قصيرة البناء ، ينالها الغلام الفارع بيده.

قال الحسن البصريُّ . وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة .: قد كنت أنالُ أطولَ سقف في حُجَرِ النَّبيِّ (ص) بيدي ، وكان لكلِّ حُجْرَةٍ بابان: خارجيٌّ ، وداخليٌّ من المسجد؛ ليسهلَ دخولُ النَّبيِّ (ص) إليه[(٨٥٤)].

وأمَّا الإضاءة: فلم يكن هناك مصباحٌ يستضاء به ، يدل على ذلك ما رواه البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها ، قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله (ص) ورجلاي في قبلته ، فإذا سجد؛ غمزني ، فقبضت رجليَّ ، فإذا قام؛ بسطتُهما ، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح. [البخاري (٣٨٢) ، ومسلم (٥١٢/٢٧٢)].

أمَّا الفراش . الَّذي يأوي إليه هذا النَّبيُّ عليه أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم . فهو عبارة عن رُمالِ حصيرٍ ، ليس بينه وبينه فراشٌ ، قد أثر الرُّمال بجنبه ، متكأى على وسادةٍ مِنْ أَدَمٍ ، حشوها
ليفٌ. [البخاري (٦٤٥٦) ، ومسلم (٢٠٨٢)]. فقد كانت معيشته (ص) تدلُّ على الشدَّة ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما أعلم النَّبيَّ (ص) رأى رغيفاً مرقَّقاً[(٨٥٥)] حتَّى لحق بالله ، ولا رأى شاةً سميطاً[(٨٥٦)] بعينه قطُّ. [البخاري (٦٤٥٧)].

وعن عائشة؛ قالت: إنْ كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلَّةٍ في شهرين ، وما أوقدت في أبيات رسول الله (ص) نارٌ ، فقال لها عروة بن الزُّبير: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التَّمر ، والماء. [البخاري (٦٤٥٩)].

هذا؛ وقد فتح الله على المسلمين بعد خيبر ، وفتح مكَّة ، وغزوة تبوك ، وقد قرأت زوجات النَّبي (ص) اياتٍ في كتاب الله تبيح التَّمتُّع بنعم الله دون إسراف ، فرغبن أن ينالهنّ حظٌّ من ذلك ، كما في قوله تعالى: {يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *} [الأعراف: ٣١].

وحضَّ على أكل الطَّيبات من الرِّزق ، قال سبحانه: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *} [الأعراف: ٣٢].

ودعا إلى التوسُّط في الإنفاق ، والاعتدال فيه ، فقال تعالى: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا *} [الإسراء: ٢٩] ، إلا أنَّ هناك جانباً اخر يتعلَّق به (ص) ، ونمطاً من المعيشة اختاره بتوجيهٍ من ربِّه عزَّ وجلَّ ، فلم يلتفت لشيءٍ من هذا ، كما أدَّبه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: {لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ *} [الحجر: ٨٨].

وقوله سبحانه: {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *} [طه: ١٣١].

ولذلك جاءت ايات التَّخيير ، فوقفت زوجاتُه (ص) من قضيَّة التَّخيير موقفاً حاسماً لا تردُّد فيه ، فإنَّهنَّ اخترن الله ورسولَه ، والدَّار الاخرة ، فقد كنَّ يطلبن منه (ص) التَّوسعة في النَّفقة ، وكن يدافعن عن ذلك ما استطعن ، فلمَّا وصل الأمر إلى وضعهنَّ أمام خيارين: الحياة الدُّنيا ، وزينتها ، أو الله ، ورسوله ، والدَّار الاخرة؛ لم يتردَّدن لحظةً واحدةً في سلوك الخيار الثَّاني بل قلن جميعهنَّ بصوتٍ واحد: نريد الله ، ورسولَه والدَّار الاخرة[(٨٥٧)].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله (ص) بتخيير أزواجه؛ بدأ بي ، فقال: «إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً ، فلا عليك ألاَّ تعجلي حتَّى تستأمري أبويك» ، قالت: وقد علم أنَّ أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت: ثمَّ قال: «إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأِزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] قالت: فقلت: ففي أيِّ هذا أستأمر أبويَّ؟ فإنِّي أريد الله ورسولَه والدَّار الاخرة ، قالت: ثمَّ فعل أزواجُ رسول الله (ص) مثلَ ما فعلتُ. [البخاري (٤٧٨٦) ، ومسلم (١٤٥٧)].

وهكذا تتجلَّى في موقفهنَّ رضي الله عنهنَّ صورةٌ ناصعةٌ لقوَّة الإيمان ، واختبارٌ حقيقيٌّ للإخلاص ، والصِّدق مع الله تعالى ، فإنَّ قوله تعالى في الاية الأولى من ايتي التَّخيير: {إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ} ، كالوعد بحصولهن على مبتغاهنَّ في الحياة الدُّنيا وزينتها ـ إن اخترن ذلك ـ ولكنَّهنَّ رفضن هذا ، واخترن الله ، ورسولَه ، والدَّار الاخرة. وفي قوله تعالى في الاية الثانية: إشارةٌ إلى أنَّ {وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *} يَنَلْنه من الأجر

سببه كونهنَّ محسناتٍ ، ومن ذلك اختيارهنَّ الله ، ورسوله ، والدَّار الاخرة؛ إذ لا يكفي لحصولهنَّ على هذا الأجر كونهنَّ زوجاتٍ للرَّسول (ص)[(٨٥٨)] .

وتنكير الأجر ، ثمَّ وَصْفُه بأنه عظيم فيه ترغيبٌ لهنَّ بالكفِّ عن التطلُّع إلى الحياة الدُّنيا وزينتها ، فهذا الأجر لا يقدِّر قدره إلا الله ، وهو شاملٌ لخيري الدُّنيا والاخرة[(٨٥٩)].

ولقد اعتبر الخلفاء الرَّاشدون قصَّة التَّخيير تلك مَعْلَماً من معالم الإسلام ، ومنهجاً نبويّاً كريماً ينبغي أن يسلكه بيت القيادة في الأمَّة.

وإنَّ النَّظرة الفاحصة في التاريخ لَتُبَيِّنُ: أنَّ هذا الجانب يعدُّ معياراً دقيقاً به يُعرف القرب من الاستقامة ، أو البعدُ عنها ، وقد فهم قادة الأمَّة المؤمنون ـ حينما وُجدوا ـ على امتداد تاريخ الإسلام ، أهمِّية هذا الجانب ، فرعَوْه حقَّ رعايته ، وإنَّ الأمثلة العمليَّة من تاريخ الخلافة الرَّاشدة هي من الوفرة ، والكثرة بمكانٍ ، بحيث لا تُتْعِبُ الباحث في التَّفتيش عنها[(٨٦٠)].

إنَّ قيادة الأمَّة تكليفٌ ، ومَغْرمٌ ، وليست مغنماً ، ولابدَّ لِلَّذين يتولَّونها أن يحسبوا أهمية

التَّعالي على حطام الدُّنيا ، والشَّوق إلى الله ، والدَّار الاخرة[(٨٦١)].

رابعاً: حجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس:

كانت تربية المجتمع، وبناء الدَّولة في عصر النَّبيِّ (ص) مستمرَّةً في جميع الأصعدة، والمجالات العقائديَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة ، والعسكريَّة ، والتَّعبديَّة ، وكانت فريضة الحجِّ لم تُمارس في السَّنوات الماضية ، فحجَّةُ عام (٨ هـ) بعد الفتح كُلِّف بها عَتَّابُ بن أَسِيْدٍ ، ولم تكن قد تميَّزت حجَّة المسلمين عن حجَّة المشركين[(٨٦٢)] ، فلمَّا حل موسم الحج أراد (ص) الحجَّ ، ولكنَّه قال: «إنَّه يحضر البيت عُراةٌ مشركون يطوفون بالبيت ، فلا أحبُّ أن أحجَّ حتَّى لا يكون ذلك» ، فأرسل (ص) الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسعٍ ، فخرج أبو بكر ، ومعه عددٌ كبيرٌ من الصَّحابة[(٨٦٣)] ، وساقوا معهم الهدي[(٨٦٤)].

فلمَّا خرج الصِّدِّيق بركب الحجيج؛ نزلت سورة براءة ، فدعا النَّبيُّ (ص) عليّاً رضي الله عنه ، وأمره أن يلحق بأبي بكرٍ الصِّدِّيق ، فخرج على ناقة رسول الله (ص) العضباء؛ حتَّى أدرك الصِّدِّيق أبا بكرٍ بذي الحليفة ، فلمَّا راه الصِّدِّيق ، قال له: أميرٌ أم مأمور؟ فقال: بل مأمور ، ثمَّ سارا ، فأقام أبو بكرٍ للنَّاس الحجَّ على منازلهم؛ الَّتي كانوا عليها في الجاهليَّة ، وكان الحجُّ في هذا العام في ذي الحجَّة ـ كما دلَّت على ذلك الرِّوايات الصَّحيحة ـ لا في شهر ذي القعدة كما قيل.

وقد خطب الصِّدِّيق قبل التَّروية ، ويوم عرفة ، ويوم النَّحر ، ويوم النفر الأوَّل ، فكان يعرِّف النَّاس مناسكهم: في وقوفهم ، وإفاضتهم ونحرهم ، ونفرهم ، ورميهم للجمرات.... إلخ ، وعليٌّ يخلفه في كل موقف من هذه المواقف ، فيقرأ على النَّاس صدر سورة براءة ، ثم ينادي في النَّاس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنَّة إلا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهدٌ فعهده إلى مدَّته ، ولا يحجُّ بعد العام مشرك. [أحمد (١/٧٩) ، والترمذي (٨٧١ و٣٠٩٢) ، وأبو يعلى (٤٥٢)][(٨٦٥)].

وقد أمر الصِّدِّيق أبا هريرة في رهطٍ اخر من الصَّحابة لمساعدة عليٍّ بن أبي طالب في إنجاز مهمَّته[(٨٦٦)].

إنَّ نزول صدر سورة براءة يمثِّل مفاصلةً نهائيَّة مع الوثنيَّة ، وأتباعها ، حيث منعت حجَّهم ، وأعلنت الحرب عليهم[(٨٦٧)].

قال الله تعالى: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ *وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *} [التوبة: ١ ـ ٣].

وقد أُمْهِلَ المعاهدون لأجلٍ معلومٍ منهم إلى انتهاء مدَّتهم فقال تعالى: {الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ *} [التوبة: ٤].

كما أمهل مَنْ لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم ، حيث يصبحون بعدها في حالة حربٍ مع المسلمين ، قال تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ٥].

وقد كلَّف النَّبيُّ (ص) عليّاً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحجِّ، مراعاةً لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ، ونقضها ألاَّ يتولَّى ذلك سيِّد القبيلة، أو رجل مِنْ رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاةٌ للإسلام، فلذلك تدارك النَّبيُّ (ص) الأمر ، وأرسل عليّاً بذلك ، فهذا هو السَّبب في تكليف عليٍّ بتبليغ صدر سورة براءة ، لا ما زعمه بعضُهم من أن ذلك للإشارة إلى أنَّ عليّاً

أحقُّ بالخلافة من أبي بكرٍ، وقد علَّق على ذلك الدُّكتور محمد أبو شهبة، فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصِّدِّيق له: أميرٌ أم مأمور؟[(٨٦٨)] وكيف يكون المأمورُ أحقَّ بالخلافة من الأمير[(٨٦٩)]؟!

وقد كانت هذه الحجَّة بمثابة التَّوطئة للحجَّة الكبرى ، وهي حجَّة الوداع[(٨٧٠)]؛ لقد أُعْلِن في حجَّة أبي بكر: أنَّ عهد الأصنام قد انقضى ، وأنَّ مرحلةً جديدةً قد بدأت ، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى ، فبعد هذا الإعلان الَّذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة ، أيقنت

تلك القبائل أنَّ الأمر جَدٌّ ، وأنَّ عهد الوثنيَّة قد انقضى فعلاً ، فأخذت ترسل وفودها معلنةً إسلامها ، ودخولها في التَّوحيد[(٨٧١)].

خامساً: عام الوفود (٩ هـ)[(٨٧٢)]:

لما افتتح رسول الله (ص) مكَّة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، وضرب رسول الله (ص) أمد أربعة أشهرٍ لقبائل العرب المشركين ، لكي يقرِّروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتَّخذ الدَّولة الإسلاميَّة منهم موقفاً معيَّناً ، ضربت إليه وفود العرب اباط الإبل من كلِّ وجهٍ معلنةً إيمانها، وولاءها[(٨٧٣)]، وقد اختلف العلماء في تاريخ مَقْدَمِ الوفود على رسول الله (ص) وفي عددها، حيث أشارت المصادر الحديثيَّة ، والتَّاريخيَّة إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخٍ مبكرٍ عن السَّنة التَّاسعة ، ولعلَّ ذلك ممَّا أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد على ستين وفداً عند البعض ، ويرتفع فيبلغ أكثر من مئة وفدٍ عند اخرين ، ولعلَّ البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم[(٨٧٤)] ، فقد أورد محمَّد بن إسحاق: أنَّه: لما فتح رسول الله (ص) مكَّة المكرَّمة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كلِّ وجه[(٨٧٥)].

وقد استقصى ابن سعدٍ في جمع المعلومات عن الوفود ، كما فصَّل كثيراً ، وقدَّم ترجماتٍ وافيةً عن رجال الوفود ، ومن كانت له صحبةٌ منهم ، وما ورد عن طريقهم من اثار ، ولا تخلو أسانيد ابن سعدٍ ـ أحياناً ـ من المطاعن ، كما أنَّ فيها أسانيد من الثِّقات أيضاً[(٨٧٦)] ، ولاشكَّ في أنَّ الأخبار الَّتي أوردها المؤرِّخون ليست ثابتةً بالنَّقل الصَّحيح المعتمد وفق أساليب المحدِّثين ، برغم أنَّ عدداً كبيراً من المرويَّات عن تلك الوفود ثابتةٌ ، وصحيحةٌ[(٨٧٧)]؛ فقد أورد البخاريُّ معلوماتٍ عن وفد قبيلة تميم ، وقدومه إلى النَّبي (ص) ، ووفود أخرى مثل: عبد القيس ، وبني حنيفة ، ووفد نجران ، ووفد الأشعريين ، وأهل اليمن ، ووفد دَوْسٍ [البخاري (٤٣٦٥ و٤٣٦٨ ، و٤٣٧٢ و٤٣٩٢)] ، وتعزَّزت أخبار هذه الوفود

بمعلوماتٍ إضافيَّةٍ ، وردت في مصادر تاريخيَّةٍ إلى جانب ما ورد عنها في كتب السِّيَر والمغازي[(٨٧٨)] ، وقد أورد مسلم أخباراً عن أغلب الوفود

المذكورة انفاً[(٨٧٩)] ، كما أوردت بقيَّة الكتب السِّتَّة معلوماتٍ أوسع ، شملت عدداً كبيراً من الوفود[(٨٨٠)].

إنَّ قصص الوفود ، وأخبارها ، وكيفيَّة تعامل رسول الله (ص) معها من الأهميَّة بالمكان الكبير[(٨٨١)] ، وتبقى مسألة الحاجة الماسَّة إلى نقدٍ تاريخيٍّ لمتون الأخبار المفصَّلة الَّتي وصلتنا عن الوفود[(٨٨٢)] ، فلقد تركت لنا تلك الأخبار ، والقصص منهجاً نبويّاً كريماً في تعامله (ص) مع الوفود ، يمكننا الاستفادة من هديه (ص) في تعامله مع النَّفسيَّة البشريَّة ، وتربيته ، ودقَّته ، وتنظيمه ، ففيها ثروةٌ هائلةٌ من الفقه الَّذي يدخل في دوائر التَّعليم والتَّربية ، والتَّثقيف وبُعْد النَّظر وجمع القلوب على الغاية ، وربط أفرادٍ بأعيانهم بالمركز بحيث تبقى في كلِّ الظُّروف ، والأحوال مرتكزاتٌ قويَّةٌ إلى الإسلام ، إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كلِّ الحقول نفسيّاً ، واجتماعيّاً ، واقتصاديّاً ، وإداريّاً وسياسيّاً ، وعسكريّاً ، تعطي لكلِّ عاملٍ في جانب من هذه الجوانب دروساً تكفيه ، وتغنيه[(٨٨٣)].

هذا وقد تميَّز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة ، وقد استعدَّت الدَّولة الإسلاميَّة لاستقبالهم، وتهيئة المناخ التَّربويِّ لهم، وقد تمثَّل هذا الاستقبال بتهيئة مكان إقامة لهم، وكانت هناك دارٌ للضِّيافة[(٨٨٤)] ، ينزل فيها الوافدون ، وهناك مسجدُ رسول الله (ص) الَّذي كان ساحةً للاستقبال ، ثمَّ كان هناك تطوُّعٌ ، أو تكليف رسول الله (ص) لأحد الصَّحابة باستضافة بعض القادمين[(٨٨٥)].

واهتمَّ (ص) بتلك الوفود ، وحرَص على تعليمها ، وتربيتها ، وقد كانت تلك الوفود حريصةً على فهم الإسلام ، وتعلُّم شرائعه ، وأحكامه ، وادابه ، ونظمه في الحياة ، وتطبيق ما عُلِّموه تطبيقاً عمليّاً ، جعلهم نماذج حيّة لفضائله ، وقد كان لكثيرٍ منهم سؤالاتٌ عن أشياء كانت شائعةً بينهم؛ ابتغاء معرفة حلالها ، وحرامها ، وكان النَّبيُّ (ص) حريصاً أشدَّ الحرص على تفقيههم في الدِّين ، وبيان ما سألوه عنه ، وكان (ص) يُدني منهم مَنْ يعلم منه زيادة حِرْصٍ على القران العظيم ، وحفظ اياته تفقُّهاً فيه ، ويقول لأصحابه: «فقِّهوا إخوانكم»[(٨٨٦)].

وكان (ص) يسأل عمَّن يُعْرَف مِنْ شرفائهم ، فإذا رغبوا في الرَّحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحقِّ ، وحثَّهم على الاعتصام بالصَّبر ، ثمَّ يجزيهم بالجوائز الحسان ، ويسوِّي بينهم ، فإذا رجعوا إلى أقوامهم؛ رجعوا هُداةً دعاةً ، مشرقةً قلوبهم بنور الإيمان ، يعلِّمونهم ممَّا عُلِّموا ، ويحدِّثونهم بما سمعوا ، ويذكرون لهم

مكارم النَّبيِّ ، وبرَّه ، وبِشْرَه ، واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه ، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تاخيهم ، وتحاببهم ، ومواساة بعضهم بعضاً؛ ليثيروا في أنفسهم الشَّوق إلى لقاء رسول الله (ص) ، ولقاء أصحابه ، ويحبِّبوا إليهم التأسِّي بهم في سلوكهم ، ومكارم أخلاقهم[(٨٨٧)] ، واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيَّتها؛ كوفد نصارى نجران ، ووافقت على دفع الجزية ، ونحاول أن نتحدَّث عن بعض الوفود؛ لما في ذلك من الفقه ، والدُّروس ، والعبر؛ كوفد عبد قيس ، وبني سعد بن بكر ، ووفد نصارى نجران:

أ ـ وفد عبد القيس:

وقد تحدَّث ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن قدومهم ، فقال: إنَّ وفد عبد القيس أتوا رسول الله (ص) ، فقال رسول الله (ص) : «مَن الوفد؟ ـ أو: مَنِ القوم؟» قالوا: ربيعة قال: «مرحباً بالقوم[(٨٨٨)] ـ أو: بالوفد ـ غير خزايا ، ولا نَدَامَى[(٨٨٩)]». قال: فقالوا: يا رسول الله! إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدةٍ[(٨٩٠)] ، وإنَّ بيننا وبينك هذا الحيُّ من كفَّار مضر ، وإنَّا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهرٍ حرام ، فمرنا بأمرٍ فصلٍ[(٨٩١)] نخبر به مَنْ وراءنا ، ندخل به الجنَّة ، وسألوه عن الأشربة. قال: فأمرهم بأربعٍ ، ونهاهم عن أربعٍ ، قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدُّوا خمساً من المغنم» ، ونهاهم عن الدُّباء[(٨٩٢)] ، والحنتم[(٨٩٣)] ، والمزَفَّتِ[(٨٩٤)] ، وربما قال: النَّقير[(٨٩٥)] ، أو المقَيَّر وقال: «احفظوهنَّ ، وأخبروا بهنَّ مَنْ وراءكم» [البخاري (٥٣) ، ومسلم (١٧)].

وفي رواية: أنَّ الأشجَّ بن عبد قيسٍ تخلَّف في الرِّكاب حتَّى أناخها ، وجمع متاع القوم ، ثمَّ جاء يمشي حتَّى أخذ بيد رسول الله (ص) فقبَّلها ، فقال له النَّبيُّ (ص) : «إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله ورسولُه» فقال: جَبْلٌ جُبِلْتُ عليه ، أم تَخَلُّقَاً منِّي؟ قال: «بل جَبْلٌ» [ابن ماجه (٤١٨٧)] قال: الحمد لله الَّذي جَبَلَنِي على ما يحبُّ اللهُ ورسولُه. [أحمد (٤/٢٠٦) ، والبخاري في الأدب المفرد (٥٨٤)][(٨٩٦)].

وقد انشغل رسول الله (ص) بمقدَمِهم وأخَّر صلاة السُّنَّة البَعْدِيَّة بعد الظهر وصلاَّها بعد العصر[(٨٩٧)].

ب ـ وفد ضِمَام بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكرٍ:

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: بينما نحن جلوسٌ مع النَّبيّ (ص) في المسجد دخل رجلٌ على جملٍ ، فأناخه في المسجد ثمَّ عقله ، ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ (ص) متكىءٌ بين ظهرانيهم ، فقلنا: هذا الرَّجل الأبيض المتَّكىء ، فقال له الرَّجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النَّبي (ص) : «قد أجبتك» ، فقال الرَّجل للنَّبيّ (ص) : إِنِّي سَائِلُكَ فمشدِّدٌ عليك في المسألة؛ فلا تَجِدْ[(٨٩٨)] عليَّ في نفسك ، فقال: سل عمَّا بدا لك ، فقال: أسألك بربّك وربِّ مَنْ قبلك! الله أرسلك إلى النَّاس كلِّهم؟ فقال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أَنْشُدُكَ بالله! الله أمرك أن تصلِّيَ الصَّلوات الخمس في اليوم واللَّيلة؟ قال: «اللَّهمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! الله أمرك أن نصوم هذا الشَّهر من السَّنة؟ قال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! الله أمرك أن تأخذ هذه الصَّدقة من أغنيائنا ، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النَّبي (ص) : «اللَّهم نعم!».

فقال الرَّجل: امنت بما جئت به ، وأنا رسول مَنْ ورائي مِنْ قومي ، وأنا ضِمَامُ بن ثَعْلَبَةَ أخو بني سعد بن بكر. [البخاري (٦٣) ، وأبو داود (٤٨٦) ، وابن ماجه (١٤٠٢) ، وأحمد (٣/١٦٨) ، والنسائي (٤/١٢٢)].

وفي رواية ابن عبَّاسٍ: ... حتَّى إذا فرغ؛ قال: فإِنِّي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً رسول الله (ص) ، وسأؤدِّي هذه الفرائض ، وأجتنبُ ما نهيتني عنه ، ثمَّ لا أزيد ، ولا أنقص.

قال: ثمَّ انصرف راجعاً إلى بعيره ، فقال رسول الله (ص) حين ولَّى: «إنْ يصدق ذو الْعَقِيصَتَيْنِ[(٨٩٩)]؛ يدخل الجنَّة». قال: فأتى إلى بعيره ، فأطلق عِقَاله ثمَّ خرج حتَّى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أوَّل ما تكلَّم به أن قال: بئست اللاَّتُ ، والعزَّى! قالوا: صه يا ضِمَام! اتَّق البَرَص ، والجُذام! اتَّق الجنون! قال: ويلكم! إنَّهما والله! لا يضرَّان ، ولا ينفعان ، إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به ممَّا كنتم فيه ، وإِنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، وإِنِّي قد جئتكم من عنده بما أمركم به ، ونهاكم عنه. قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ ، ولا امرأةٌ إلا مسلماً ، قال: يقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل مِنْ ضِمَامِ بن ثعلبة. [أحمد (١/٢٦٤ ـ ٢٦٥) ، وأبو داود (٤٨٧) ، والدارمي (٦٥٦)][(٩٠٠)].

وتدل قصَّة إسلامه على مدى انتشار تعاليم الإسلام في وسط القبائل العربيَّة ، حتَّى جاء ضِمَام لا ليسأل عنها ، ولكن جاء ليستوثق منها ، معدِّداً لها الواحدة تلو الأخرى ، ممَّا يدلُّ على استيعابه لها قبل مجيئه إلى الرَّسول (ص)[(٩٠١)] .

ج ـ وفد نصارى نجران:

كتب رسول الله (ص) إلى نجران[(٩٠٢)] كتاباً قال فيه: «أمَّا بعد ، فإِنِّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم؛ فالجزية ، فإن أبيتم؛ اذنتكم بحربٍ ، والسَّلام[(٩٠٣)]».

فلمَّا أتى الأسقفَ الكتابُ؛ جمع النَّاس ، وقرأه عليهم ، وسألهم عن الرَّأي فيه ، فقرَّروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوَّن من أربعة عشرَ من أشرافهم ، وقيل: ستِّين راكباً منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب ـ وهو أميرهم، وصاحب مشورتهم، والَّذي يصدُرون عن رأيه ـ والسَّيد ـ وهو صاحب رحلتهم ـ وأبو الحارث ـ أسقفُهم ، وحبرُهم وصاحب مدراسهم ـ فقدموا على النَّبِيِّ (ص) ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحَبِرة ، وأرديةٌ مكفوفةٌ بالحرير ، وفي أيديهم خواتيم الذَّهب ، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله (ص) : دعوهم ، ثمَّ أتوا

النَّبيَّ (ص) ، فأعرض عنهم ، ولم يكلِّمهم ، فقال لهم عثمان: من أجل زِيِّكُمْ هذا ، فانصرفوا يومهم هذا ، ثمَّ غدَوا عليه بِزِيِّ الرُّهبان فسلَّموا عليه ، فردَّ عليهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، وقالوا: كنَّا مسلمين قبلكم ، فقال النَّبيُّ (ص) : «يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: عبادتكم الصَّليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أنَّ للهِ ولداً»[(٩٠٤)] ، وكثر الجدال والحجاج بينه ، وبينهم ، والنَّبيُّ (ص) يتلو عليهم القران ، ويقرع باطلهم بالحجَّة ، وكان ممَّا قالوه لرسول الله (ص) : ما لك تشتم صاحبنا ، وتقول: إنَّه عبد الله ؟! فقال: «أجل ، إنَّه عبد الله ورسولُه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فغضبوا ، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أبٍ ، فإن كنت صادقاً ، فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الردِّ عليهم قوله سبحانه: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *} [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠].

فكانت حجَّةً دامغةً ، شُبِّه فيها الغريب بما هو أغرب منه[(٩٠٥)]. فلمَّا لم تُجْدِ معهم المجادلة بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، دعاهم إلى المباهلة[(٩٠٦)] ، امتثالاً لقوله تعالى: {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ *} [آل عمران: ٦١].

وخرج النَّبيُّ (ص) ومعه عليٌّ ، والحسن ، والحسين ، وفاطمة ، وقال: «وإذا أنا دعوت فأمِّنوا»[(٩٠٧)]. فائتمرُوا فيما بينهم ، فخافوا الهلاك؛ لعلمهم: أنَّه نبيٌّ حقاً ، وأنَّه ما بَاهَلَ قومٌ نبيّاً إلا هلكوا ، فأبوا أن يلاعنوه ، وقالوا: احكم علينا بما أحببت ، فصالحهم على ألفي حُلَّةٍ ، ألف في رجب ، وألف في صفر[(٩٠٨)] ، ولما عزموا على الرُّجوع إلى بلادهم، قالوا للنَّبيِّ (ص) : ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منا مال الصُّلح ، فقال لهم: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين» ، فاستشرف له أصحاب رسول الله (ص) فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرَّاح!» فلمَّا قام؛ قال: «هذا أمين هذه الأمة». [البخاري (٤٣٨٢) ، وأحمد (٣/١٨٤) ، والترمذي (٣٧٩١) ، وابن ماجه (١٥٤ و١٥٥)].

سادساً: بعوث رسول الله (ص) لتعليم مبادأى الإسلام ، وترتيب أمور الإدارة والمال:

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها ، وتنضوي تحت سيادة الدَّولة الإسلاميَّة ،

ويتعلَّموا ما شاء الله أن يتعلَّموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم ، وكان (ص) يرسل معهم مَنْ يعلِّمهم دينهم ، وشرع (ص) يبعث دعاته في شتَّى الجهات ، واهتمَّ بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن؛ لتعليمها مبادأى الإسلام ، وأحكامه ، فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ، ومختلف أطرافها ، وأصبحت الحاجة داعيةً إلى معلِّمين ، ودعاة ، ومرشدين ، يشرحون للنَّاس حقائق الإسلام[(٩٠٩)]؛ لكي تتطهَّر قلوبهم ، وتشفى صدورهم من أمراض الجاهليَّة ، وأدرانها الخبيثة ، وامتنعت قبيلة بني الحارث بن كعب عن الدُّخول في الإسلام ، فأرسل إليهم رسولُ الله (ص) خالداً في سريَّةٍ دعويَّةٍ جهاديَّةٍ.

أ ـ بَعْثُ خالد إلى بني الحارث بن كعب (١٠ هـ):

كان بنو الحارث بن كعب يسكنون بنجران ، ولم يقبَل منهم أحدٌ الإسلام ، فبعث رسول الله (ص) إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الاخر ، أو جُمادَى سنَة عشْرٍ ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا؛ قَبِلَ منهم ، وإن لم يفعلوا؛ قاتلهم ، فخرج خالد حتَّى قدم عليهم ، فبعث الرُّكبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ، فأسلم النَّاس ، ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلِّمهم الإسلام ، وكتاب الله ، وسنَّة نبيِّه (ص) كما أمره رسول الله (ص) ، ثمَّ كتب خالدٌ إلى رسول الله (ص) يُعْلِمه بإسلامهم ، وأنَّه مقيمٌ فيهم ، حتَّى يكتب إليه رسول الله (ص) ، فجاءه كتاب رسول الله (ص) يأمره بأن يُقْبِل إلى المدينة؛ ومعه وفدٌ منهم ، ففعل ، فلما قدموا أمَّر عليهم قيس بن

الحُصَيْن ، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم ، ليفقههم في الدِّين ، ويعلِّمهم السُّنَّة ، ومعالم الإسلام[(٩١٠)].

وفي روايةٍ: أنَّه (ص) أرسل عليّاً بدلاً من خالدٍ ، وعندما وصل إلى قبائل همدان؛ قرأ عليهم كتاب رسول الله (ص) ، فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب عليٌّ إلى رسول الله (ص) بإسلامهم ، فلمَّا قرأ رسول الله (ص) الكتاب؛ خرَّ ساجداً ، ثمَّ رفع رأسه فقال: «السَّلام على همدان ، السَّلام على همدان» [البيهقي في الدلائل: (٥/٣٩٦)].

كان رسول الله (ص) حريصاً على الجبهة الجنوبيَّة للدَّولة ، وأن تدخل قبائل اليمن في الإسلام ، وظهر هذا الاهتمام في النتائج الباهرة الَّتي حقَّقتها الدَّعوة ، في كثرة عدد الوفود التي كانت تنساب من كلِّ أطراف اليمن متَّجهةً إلى المدينة ، ممَّا يدل على أنَّ نشاط المبعوثين إلى اليمن كان متَّصلاً ، وبعيد المدى ، وكانت سرايا رسول الله (ص) تساند هذا النَّشاط الدَّعويَّ

السِّلميَّ ، حيث بعث خالد بن الوليد ، ثمَّ علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنهما في هذا السِّياق[(٩١١)].

إنَّ الوثائق الَّتي عقدها النَّبيُّ (ص) مع قبائل اليمن ، وحضرموت قد بلغت عدداً كبيراً ، ضمَّنها محمَّد حميد الله ـ رحمه الله ـ في كتابه: «مجموعة الوثائق السِّياسيَّة»[(٩١٢)].

إنَّ التَّركيز على مفاصل القوى ، ومراكز التَّأثير في المجتمعات ، وبناء الدُّول ، منهج نبويٌّ كريمٌ ، حرص النَّبيُّ (ص) على ممارسته في حياته.

ب ـ بَعْثُ معاذ بن جبل ، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن:

١ ـ بعث رسول الله (ص) معاذ بن جبل الأنصاريَّ ـ أعلمَ الصَّحابة في علم الحلال والحرام ـ إلى اليمن؛ قاضياً ، ومفقِّهاً ، وأميراً ، ومصدِّقاً[(٩١٣)] ، وجعله على أحد مِخْلافَيْها[(٩١٤)] ، وهو الأعلى. ولما خرج معاذٌ قاصداً اليمن؛ خرج معه رسول الله (ص) يودِّعه ، ويوصيه ، ومعاذ راكبٌ ، ورسول الله (ص) يمشي تحت راحلته ، فأوصاه بوصايا كثيرةٍ ، ورسم له منهجاً دعويّاً عظيماً ، حيث قال له: «إنك ستأتي قوماً من أهل كتاب ، فإذا جئتهم؛ فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم صدقةً ، تؤخذ من أغنيائهم ، فتردُّ على

فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإيَّاك وكرائمَ أموالهم ، واتَّقِ دعوة المظلوم ، فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب». [البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩)].

وفي هذا الحديث إرشادٌ من النَّبيِّ (ص) للدُّعاة إلى الله بالتَّدرُّج ، والبدء بالأهمِّ ، فالأهمِّ ، فالدَّعوة تكون بترسيخ الإيمان بالله تعالى ، ورسوله إيماناً يثبت في القلوب ، ويهيمن على الأفكار ، والسُّلوك ، ثمَّ تكون الدَّعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العمليَّة الَّتي ترسِّخ هذا الإيمان ، وتنمِّيه ، ثمَّ يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات ، والنَّهي عن المحرَّمات ، فيتقبَّل النَّاسُ تكاليف الإسلام الَّتي قد تكون مخالفةً لهوى النفس؛ لأنَّ قلوبهم قد عمرت بالإيمان ، واليقين قبل ذلك[(٩١٥)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ رسمه (ص) لمعاذ ولمن يريد أن يسير على هدي الصَّحابة الكرام ،

وما أحوج الذين نذروا أنفسهم للدَّعوة إلى الله إلى الوقوف أمام هذا الهدي النَّبويِّ يترسَّمون خطاه ، ويستوعبونه فهماً ، ووعياً ، وتطبيقاً! وحينئذٍ تكون خطاهم في الطَّريق الصَّحيح[(٩١٦)]. ولما فرغ رسول الله (ص) من وصاياه لمعاذ قال له: «يا معاذُ! إنَّك عسى ألاَّ تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلَّك أن تمرَّ بمسجدي هذا ، وقبري[(٩١٧)]» ، فبكى معاذ خَشَعاً لفراق الرَّسول (ص) ، وكذلك وقع الأمر كما أشار الرَّسول (ص) ، فقد أقام معاذ باليمن ، ولم يقدم إلا بعد وفاة الرَّسول (ص)[(٩١٨)] .

٢ ـ وبعث رسول الله (ص) أبا موسى الأشعريَّ اليمنيَّ إلى مخلاف اليمن الاخر ، وهو الأسفل ، قاضياً ، ومفقِّهاً ، وأميراً ، ومصدِّقاً ، وأوصاه ، ومعاذاً ، فقال:ءَ «يسِّرا ، ولا تعسِّرا ، وبشِّرا ، ولا تنفِّرا ، وتطاوعا ، ولا تختلفا». [البخاري (٤٣٤٢) ، ومسلم (١٧٣٣)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أرشد إليه رسولُ الله (ص) معاذاً ، وأبا موسى بأن يأخذوا بالتَّيسير على النَّاس ، ونهاهما عن التَّعسير عليهم ، وأمرهما بالتَّبشير ، ونهاهما عن التَّنفير[(٩١٩)].

ج ـ ترتيب أمور الإدارة والمال:

إن النِّظام جزءٌ من هذا الدِّين ، وداخلٌ في كل أموره؛ لأنَّ النِّظام يجمع الأشتات ، وتُحقَّق به الأهداف ، والغايات ، فالنِّظام سمةٌ يتميَّز بها الإسلام منذ اللَّحظة الأولى؛ حيث يدخل في جميع جوانب الإسلام التَّصوريَّة ، والشَّعائريَّة ، والتُعبُّديَّة ، وفي الشَّرائع الحياتيَّة كلِّها ، فكان (ص) يضع من يدير المدينة في حالة غيبته عنها ، وكلَّما فتح منطقةً ، وضع عليها أميراً ، وكانت الوفود تأتي إلى رسول الله (ص) فيُعيِّن عليها أميراً مِنْ قِبَلِه ، ثمَّ يترك لهم مَنْ يعلِّمهم دينهم ، ويرسل إليهم مَنْ يجمع صدقاتهم[(٩٢٠)].

وكان يختار عمَّاله من الصَّالحين ، وأولي العلم ، والدِّين ، ومن المنظور إليهم من العرب ، وذوي الشَّخصيَّات المؤثِّرة في قبائلهم ، فقد كان عامله على مكَّة عتَّاب بن أَسِيْدٍ ، وعلى الطَّائف عثمان بن العاص ، وبعث عليّاً ، وأبا موسى إلى اليمن ، وأقرَّ الرَّسول (ص) في بعض الحالات الأمراء ، والملوك الَّذين أسلموا ، أو قُبِلت الجزية منهم ، ومنهم: باذان بن ساسان ولد بهرام الَّذي أقرَّه الرَّسول (ص) على اليمن بعد إسلامه ، ولما بلغه موته قسم عمله على جماعةٍ من الصَّحابة ، فولَّى على صنعاء شمر بن باذان ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعريَّ ، وعلى الجند يعلى بن أميَّة ، وعلى همذان عامر بن شمر الهمداني ، وعلى ما بين نجران ،

وزمع ، وزبيد خالد بن سعيد بن العاص ، وعلى نجران عمرو بن حزام ، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي ، وعلى السَّكاسك والسُّكون عكَّاشة بن ثور[(٩٢١)].

وكان (ص) يستوفي الحساب على العمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف، وحدَّد (ص) لبعض عمَّاله رواتب ، منهم عَتَّاب بن أَسِيْدٍ والي مكَّة ، درهماً كلَّ يوم[(٩٢٢)] ، ولما استعمل (ص) قيس بن مالكٍ على قومه همدان خصَّص له قطعةً من الأرض يأخذ خراجها ، وكانت رواتب عمَّاله تتغيَّر بتغير أحوال المعيشة ، فهي ليست ثابتةً[(٩٢٣)] ، قال رسول الله (ص) : «مَنْ ولي لنا ولايةً ، ولم يكن له بيتٌ؛ فليتَّخذ بيتاً ، أو لم تكن له زوجةٌ؛ فليتَّخذ زوجةً ، أو لم تكن له دابَّةٌ ، فليتَّخذ دابةً» [أحمد (٤/٢٢٩) ، وأبو داود (٢٩٤٥) ، وابن خزيمة (٢٣٧٠)][(٩٢٤)].

وهذه هي الحاجات الرَّئيسية لوليِّ الأمر في ذلك الوقت؛ منعاً لأخذ الرَّشوة ، وهذه قاعدةٌ قانونيَّة جاء بها الإسلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة في بنودها ، وهي أنَّ الهدية للحاكم رشوةٌ صريحةٌ[(٩٢٥)].

* * *

المبحث السَّابع

حجَّة الوداع (١٠ هـ)[(٩٢٦)]

الحجُّ أحد الأركان الخمسة ، وقد فُرض في العام العاشر ، وهذا ما ذهب إليه ابن القيِّم[(٩٢٧)]، واستدلَّ بأدلةٍ قويَّةٍ ، وهو الَّلائق بهديه (ص) في عدم تأخير ما هو فرض، لأنَّ الله تعالى يقول: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران: ٩٧] ، وقد نزلت عام الوفود ، أواخر سنة تِسْعٍ[(٩٢٨)].

لم يحجَّ النَّبيُّ (ص) من المدينة غير حجَّته الَّتي كانت في العام العاشر ، وعرفت هذه الحجَّة بحجَّة البلاغ ، وحجَّة الإسلام ، وحجَّة الوداع؛ لأنَّه (ص) ودَّع النَّاس فيها ولم يحجَّ بعدها ، وحجَّة البلاغ؛ لأنَّه (ص) بلَّغ النَّاس شرع الله في الحجِّ قولاً ، وعملاً ، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام ، وقواعده شيءٌ إلا وقد بيَّنه ، فلمَّا بيَّن لهم شريعة الحجِّ ، ووضَّحه ، وشرحه ، أنزل الله عليه ، وهو واقفٌ بعرفة: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: ٣]. [البخاري (٤٤٠٧) ، ومسلم (٣٠١٧)].

ولما نزلت هذه الاية؛ بكى بعض الصَّحابة . ومنهم عمر بن الخَّطاب رضي الله عنه . وكأنَّهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرَّسول (ص) ، ولما قيل لسيِّدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان[(٩٢٩)] ، وكان عدد الَّذين مع رسول الله (ص) أكثر من مئة ألفٍ[(٩٣٠)].

أولاً: كيف حجَّ النَّبيُّ (ص)؟:

[البخاري (١٥٥٧) ، ومسلم (١٢١٨)]:

عزم رسول الله (ص) على الحجِّ ، وأعلم النَّاس: أنَّه حاجٌّ ، فتجهَّزوا . وذلك في شهر ذي القعدة سنة عشر . للخروج معه ، وسمع بذلك مَنْ حول المدينة ، فقدموا يريدون الحجَّ مع الرَّسول (ص) ، ووافاه في الطَّريق خلائق لا يحصون ، فكانوا مِنْ بين يديه ومن خلفه ، وعن

يمينه ، وعن شماله مدَّ البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظُّهر لخمسٍ بَقِينَ من ذي القعدة يوم السَّبت ، بعد أن صلَّى الظُّهر بها أربعاً[(٩٣١)].

وخطبهم قبل ذلك خطبةً علَّمهم فيها الإحرامَ ، وواجباتِه ، وسننه ، ثمَّ سار وهو يلبِّي ، ويقول: «لبيك اللَّهُمَّ لبيك ، لبَّيك لا شريك لك لبيك ، إنَّ الحمد ، والنِّعمة لك ، والملك ، لا شريك لك» والنَّاس معه يزيدون ، وينقصون ، وهو يقرُّهم ، ولا ينكر عليهم ، ولزم تلبيته ، ثمَّ مضى حتَّى نزل بـ (العرج) ثمَّ

سار حتَّى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سَرِف) ثمَّ نهض إلى أن نزل بـ (ذي طوى) ، فبات بها ليلة الأحد ، لأربع خلون من ذي الحجَّة ، وصلَّى بها الصُّبح ، ثمَّ اغتسل من يومه ، ونهض إلى مكَّة فدخلها نهاراً من أعلاها ، ثمَّ سار ، حتَّى دخل المسجد ، وذلك ضحىً[(٩٣٢)] ، فاستلم الرُّكن (ص) ، فرمل ثلاثاً[(٩٣٣)] ، ومشى أربعاً ، ثمَّ نفذ إلى مقام إبراهيم[(٩٣٤)] عليه السَّلام. فقرأ: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ *} [البقرة: ١٢٥].

فجعل المقام بينه وبين البيت ، وكان يقرأ في الرَّكعتين: ثمَّ رجع إلى الرُّكن {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ} * {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *} ، ثمَّ خرج من الباب إلى الصَّفا ، فلمَّا دنا من الصَّفا؛ قرأ: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ١٥٨].

وبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فرقي عليه ، حتَّى إذا رأى البيت؛ استقبل القبلة ، فوحَّد الله ، وكبَّره ، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» ، ثمَّ دعا بين ذلك ، قال مثل هذه ثلاث مرَّاتٍ ، ثمَّ نزل إلى المروة ، حتَّى إذا انصبَّتْ[(٩٣٥)] قدماه في بطن الوادي؛ سعى ، حتَّى إذا صَعِدَتَا[(٩٣٦)]؛ مشى ، أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصَّفا ، حتَّى إذا كان اخر طوافه على المروة؛ قال: «لو أنِّي استقبلتُ من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ، وجعلتها عُمْرَةً ، فمن كان منكم ليس معه هَدْيٌ؛ فليحلَّ ، وليجعلها عُمْرةً».

فقام سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ ، فقال: يا رسول الله! أَلِعَامِنَا هذا أم للأبد؟ فشبَّك

رسول الله (ص) أصابعه واحدةً في الأخرى ، وقال: «دخلتِ العمرةُ في الحجِّ» مرَّتين ، «لا بل لأبدٍ أَبَدٍ»[(٩٣٧)].

وأقام بمكَّة أربعة أيام: يوم الأحد ، والإثنين ، والثَّلاثاء ، والأربعاء ، فلمَّا كان يوم الخميس ضُحىً؛ توجَّه بمن معه من المسلمين إلى منىً ، ونزل بها ، وصلَّى بها الظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر ، ومكث قليلاً حتَّى طلعت الشَّمس ، وأمر بِقُبَّةٍ من شَعَرٍ تُضْرَبُ له بِنَمِرَةَ[(٩٣٨)] ، فسار رسول الله (ص) ولا تَشُكُّ قريشٌ إلا أنَّه واقفٌ عند المشعر الحرام[(٩٣٩)] ، كما كانت قريش تصنع في الجاهليَّة ، فأجاز[(٩٤٠)] رسول الله (ص) حتَّى أتى عرفةَ ، فوجد القُبَّةَ قد ضُرِبت له بنَمِرَة فنزل

بها ، حتى إذا زاغت الشَّمسُ؛ أمَرَ بالقصواء ، فرُحِلَتْ له ، فأتى بطن الوادي[(٩٤١)] ، فخطب النَّاس ، وقال:

«إنَّ دماءكم ، وأموالكم حرامٌ عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدميَّ موضوعٌ ، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ ، وإنَّ أوَّل دَمٍ أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بن الحارثِ ، كان مُسْتَرْضَعاً في بني سعدٍ ، فقتلتْه هذيلٌ ، وربا الجاهليَّة موضوعٌ ، وأوَّل رباً أضع ربانا ، ربا العباس بن عبد المطَّلب ، فإنَّه موضوع كلُّه.

فاتَّقوا الله في النِّساء ، فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمان الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله ، ولكن عليهنَّ ألاَّ يوطئن فرشَكم أحداً تكرهونه[(٩٤٢)] ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّحٍ[(٩٤٣)] ، ولهنَّ عليكم رزقُهن ، وكسوتُهنَّ بالمعروف؛ وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تُسْأَلُونَ عنِّي ، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنَّك بلغت ، وأدَّيت ، ونصحت ، فقال بإصبعه السَّبَّابة ، يرفعها إلى السَّماء ، وينكتها[(٩٤٤)] إلى النَّاس: «اللَّهمَّ اشهد! اللَّهُمَّ اشهد!» ثلاث مرَّات[(٩٤٥)].

ثمَّ أذَّن ، ثم أقام ، فصلَّى الظُّهر ، ثمَّ أقام ، فصلَّى العصر ، ولم يصلِّ بينهما شيئاً ، ثمَّ ركب رسولُ الله (ص) ، حتَّى أتى الموقف ، فجعل بطنَ ناقتهِ القصواءِ إلى الصَّخَرَاتِ[(٩٤٦)] وجعل حبل المشاة بين يديه[(٩٤٧)] ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتَّى غربت الشمس ، وذهبت الصُّفْرَةُ قليلاً حتى غاب القُرْصُ[(٩٤٨)].

وذكر أبو الحسن النَّدويُّ: لما فرغ رسول الله (ص) من صلاته ، والتَّضرُّع ، والابتهال إلى غروب الشَّمس ، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيه: «اللَّهُمَّ! إنَّك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي ، وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، والوَجِل المشفِق ، المقر المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذَّليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضَّرير ، مَنْ خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ جسده ، ورَغِم أنفهُ لك ، اللَّهُمَّ! لا تجعلني بدعائك ربِّ شقيّاً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين»[(٩٤٩)]!

وهناك أنزلت عليه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: ٣] ، فلمَّا غربت الشَّمس؛ أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، ودفع رسول الله

(ص) وقد شَنَقَ للقصواءِ الزِّمَامَ ، حتَّى إنَّ رأسها ليُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ ، وهو يقول: «أيُّها النَّاس! عليكم السَّكينة[(٩٥٠)]».

وكان يلبِّي في مسيره ذلك ، لا يقطع التَّلبية حتَّى أتى المزدلفة ، وأمر المؤذِّن بالأذان فأذَّن ، ثمَّ أقام ، فصلَّى المغرب قبل حطِّ الرِّحال ، وتبريك الجمال ، فلمَّا حطُّوا رحالهم؛ أمر ، فأقيمت الصَّلاة ، ثمَّ صلَّى العشاء ، ثمَّ نام ، حتَّى أصبح ، فلمَّا طلع الفجر صلاَّها في أول الوقت ، ثمَّ ركب حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدُّعاء والتَّضرُّع ، والتَّكبير ، والتَّهليل ، والذكر ، حتى أَسْفَرَ جِدّاً[(٩٥١)] ، وذلك قبل طلوع الشَّمس.

ثمَّ سار من مزدلفة ، مردِفاً للفضل بن عباس ، وهو يلبِّي في مسيره ، وأمر ابن عبَّاسٍ أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصياتٍ ، فلمَّا أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ[(٩٥٢)]؛ حرَّك ناقته ، وأسرع السَّير[(٩٥٣)] ، فإنَّ هنالك أصاب أصحابَ الفيل العذابُ ، حتَّى أتى منىً ، فأتى جمرة العقبة ، فرماها راكباً بعد طلوع الشَّمس ، وقطع التلبية[(٩٥٤)].

ثمَّ رجع إلى مِنىً ، فخطب الناس خطبةً بليغةً ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النَّحر ، وتحريمه ، وفضله عند الله ، وحرمة مكَّة على جميع البلاد ، وأمر بالسَّمع ، والطَّاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر النَّاس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتَّبليغ عنه[(٩٥٥)].

وقد جاء في هذه الخطبة: «أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أعلم ، فَسكَتَ؛ حتَّى ظننَّا أن سيسمِّيه بغير اسمه ، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى! قال: «أي بلدٍ هذا؟» قلنا: الله ورسولُه أعلم ، فَسَكَتَ؛ حتَّى ظننَّا: أنَّه سيسمِّيه بغير اسمه ، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى! قال: «فإنَّ دماءكم ، وأموالكم ـ وفي رواية: وأعراضكم ـ عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم ، قال: «اللَّهُمَّ اشهد! فليبلغ الشَّاهد الغائب ، فَرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ»[(٩٥٦)].

ثمَّ انصرف إلى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره ، ثمَّ أمسك وأمر عليّاً أن ينحر ما بقي من المئة، فلمَّا أكمل (ص) نحره استدعى الحلاق ، فحلق رأسه ، وقسم شعره بين مَنْ يليه ، ثمَّ أفاض إلى مكَّة راكباً ، وطاف طواف الإفاضة[(٩٥٧)] ، فصلَّى بمكَّة

الظهر ، فأتى بني عبدِ المطلب يَسْقُون على زمزم ، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم النَّاس على سِقَايتكم؛ لنزعتُ معكم» ، فناولوه دلواً ، فشرب منه[(٩٥٨)].

ثمَّ رجع إلى منىً من يومه ذلك ، فبات بها ، فلمَّا أصبح؛ انتظر زوال الشَّمس ، فلمَّا زالت مشى من رحله إلى الجمار ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثمَّ الوسطى ، ثمَّ الجمرة الثَّالثة ـ وهي جمرة العقبة ـ وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النَّحر ، وخطبة ثانية في ثاني يوم النَّحر[(٩٥٩)] ،

وهو يوم النفر الأول ، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة ، ويوم النَّحر بمنى.

والواقع أن تكرار الخطب في حَجَّة الوداع كان أمراً لابدَّ منه لحاجة المسلمين ، فهي الحجَّة الوحيدة الَّتي حجَّها الرَّسول (ص) ، وقد عزَّ فيها الإسلام والمسلمون ، وأصبحت كلمتهم هي النَّافذة في الجزيرة كلِّها ، كما كانت الوداع الأخير ، فما أشدَّ حاجةَ المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التَّذكير ، والنُّصح ، والتَّوصية ، وإلى تكرار القول ، والتَّأكيد عليه حتَّى يعوه ، ويحفظوه ، ولا ينسوه ، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرِّسالة ، وأداء الأمانة![(٩٦٠)].

هذا ، وقد تأخَّر رسول الله (ص) حتَّى أكمل رمي أيام التَّشريق الثَّلاثة ، ثمَّ نهض إلى مكَّة ، فطاف للوداع ليلاً سحراً ، وأمر النَّاس بالرَّحيل ، وتوجَّه إلى المدينة[(٩٦١)]. وفي طريق العودة من حجَّة الوداع خطب الرَّسول (ص) النَّاس في غدير خُمٍّ قريباً من الجحفة في اليوم الثَّامن عشر من ذي الحجَّة ، وقد جاء في هذه الخطبة: «أمَّا بعد: ألا أيُّها النَّاس! فإنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربِّي فأجيب ، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْنِ ، أوَّلهما كتابُ الله فيه الهدى والنُّور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به» ، فحثَّ على كتاب الله ، ورغَّب فيه ، ثمَّ قال: «وأهلُ بيتي ، أذكِّركم اللهَ في أهل بيتي ، أذكِّركُم الله في أهل بيتي ، أذكِّركم الله في أهل بيتي» [أحمد (١٤/٣ و١٧) ، ومسلم (٢٤٠٨/٣٦ و٣٧)].

وفي روايةٍ: ... أخذ بيد عليٍّ رضي الله عنه وقال: «من كنتُ وليُّه ، فهذا وليُّه ، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه». [أحمد (١١٨/١)][(٩٦٢)] ، وفي روايةٍ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» [أحمد (٣٦٨/٤) ، والترمذي (٣٧١٣)][(٩٦٣)].

وكان عليٌّ قد أقبل من اليمن ، وشهد حجَّة الوداع[(٩٦٤)] ، وقد اشتكى بعض الجند عليّاً ، وأنَّه اشتدَّ في معاملتهم ، وكان قد استرجع منهم حللاً وزَّعها عليهم نائبه ، فأوضح لهم النَّبيُّ (ص) في غدير خُمٍّ مكانةَ عليٍّ ، ونبَّه على فضله لينتهوا عن الشَّكوى[(٩٦٥)] ، فقد كان الحقُّ مع عليٍّ في إرجاع ما أعطاهم نائبه في غيبته؛ لأنَّها أموال صدقاتٍ ، وخمس[(٩٦٦)].

ولما أتى رسولُ الله (ص) ذا الحليفة ، بات بها ، فلمَّا رأى المدينة؛ كبَّر ثلاث مرَّاتٍ ، وقال: «لا إله إلا الله وحدَه ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيء قديرٌ ، ايبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربِّنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحدَه» ، ثمَّ دخلها نهاراً. [البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤)][(٩٦٧)].

ثانياً: الدُّروس ، والعبر ، والفوائد:

١ ـ مرحلة النُّضج الَّتي وصلت إليها الأمَّة:

وصلت الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة العاشرة مرحلةً من النُّضج متقدِّمةً ، وكان ذلك يقتضي لمساتٍ أخيرةً ، فوسَّع (ص) في العام التَّاسع ، والعاشر من الهجرة دائرة التَّلقِّي المباشر ، من خلال استقباله الوفود ، ومن خلال رحلة الحجِّ ، فأوجد قاعدةً عريضةً تحمل دعوته ، وقد تلقَّت عنه مباشرة ، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رَحَى الإسلام دائرةً ، وإلى الأبد[(٩٦٨)] ، ففي حجَّة الوداع كانت اللَّمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنَّة رسوله (ص) .

٢ ـ تربية الأفراد على قطع الصِّلة بالجاهليَّة ، والابتعاد عن الذُّنوب:

أ ـ فقد أشار (ص) إلى أهمِّيَّة قطع المسلم علاقته بالجاهليَّة: أوثانها ، وثاراتها ، ورِباها ، وغير ذلك ، ولم يكن حديثُه (ص) مجرَّد توصيةٍ ، بل كان قراراً؛ أعلن عنه للملأ كلِّه؛ لأولئك الَّذين كانوا مِنْ حوله ، والأمم الَّتي ستأتي مِنْ بعده ، وهذه هي صيغة القرار: «ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدمي موضوعٌ ، دماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ... وربا الجاهليَّة موضوعٌ[(٩٦٩)]» لأنَّ الحياة الجديدة الَّتي يحياها المسلم بعد إسلامه حياةٌ لا صلة لها بِرِجْسِ الماضي ، وأدرانه[(٩٧٠)].

ب ـ وقد حذَّر (ص) من الذُّنوب ، والخطايا ، والاثام ، ما ظهر منها ، وما بطن؛ لأنَّ الذُّنوب ، والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدوُّ بعدوِّه ، فهي سبب مصائبه في الدُّنيا: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ *} [الشورى: ٣٠] فتُرْدِيه في نار جهنَّم في الاخرة ، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السَّيف.

وأعلن رسولُ الله (ص) : أنَّه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن العقول الَّتي تفتَّحت على التَّوحيد ترفض أن تعود إلى الشِّرك الظاهر ، ولكنَّ الشَّيطان لا ييئس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا ، والذُّنوب ، حتَّى تُرْدِي صاحبها في المهاوي[(٩٧١)].

٣ ـ تربية المجتمع على مبادأى أساسيَّة:

أ ـ الأخوَّة في الله هي العُروة الوُثقى الَّتي تربط بين جميع المسلمين: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠] ، فقد قال (ص) : «أيُّها النَّاس! اسمعوا قولي ، واعقلوه ، تَعَلَّمُنَّ: أنَّ كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلم ، وأنَّ المسلمين إخوةٌ؛ فلا يحلُّ لامرأٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه ، فلا تَظْلِمُنَّ أنفسكم». وقال: «إنَّ دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرامٌ ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، حتَّى تلقَوا ربَّكم فيسألَكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضُكم رقاب بعض». [سبق تخريجه].

ب ـ الوقوف بجانب الضَّعيف ، حتَّى لا يكون هذا الضَّعف ثغرةً في البناء الاجتماعيِّ ، فأوصى (ص) في خطبته بالمرأة والرَّقيق على أنَّهما نموذجان من الضُّعفاء[(٩٧٢)] ، فقد شدَّد (ص) في وصيته بالإحسان إلى الضُّعفاء[(٩٧٣)] ، وأوصى خيراً بالنِّساء ، وأكَّد في كلمةٍ مختصرةٍ جامعةٍ القضاءَ على الظُّلم البائد للمرأة في الجاهليَّة ، وتثبيت ضمانات حقوقها ، وكرامتها الإنسانيَّة ، الَّتي تضمَّنتها أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة[(٩٧٤)].

ج ـ التَّعاون مع الدَّولة الإسلاميَّة على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله ، ولو كان الحاكم عبداً حبشيّاً؛ فإنَّ في ذلك الصَّلاحَ ، والفلاحَ ، والنَّجاةَ في الدُّنيا ، والاخرة[(٩٧٥)] ، فقد بيَّن (ص) العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنَّها تعتمد على السَّمع ، والطَّاعة ما دام الرَّئيس يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله (ص) ، فإذا مال عنهما؛ فلا سمع، ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى[(٩٧٦)].

د ـ المساواة بين البشر: فقد قال (ص) : «لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتَّقوى. النَّاس من ادم ، وادم من تراب» [رواه أحمد (٤١١/٥) عن رجل من أصحاب النبيِّ (ص) ، والبزار (٢٠٤٤) عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير (١٢/١٨ ـ ١٣) ، وانظره في مجمع الزوائد (٢٧٢/٣)]؛ حيث حدَّد: أن أساس التَّفاضل لا عبرة فيه لجنسٍ ، ولا لون ، ولا وطن ، ولا قوميَّة ، ... إلخ ، وإنَّما أساس التَّفاضل قيمةٌ خلقيَّةٌ
راقيةٌ ترفع مكانة الإنسان إلى مقاماتٍ رفيعةٍ جدّاً[(٩٧٧)].

هـ تحديد مصدر التَّلقِّي: وقد حدَّد (ص) مصدر التَّلقِّي والطَّريقة المثلى لحلِّ مشاكل المسلمين ، الَّتي قد تعترض طريقهم ، في الرُّجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما ، ضمن لهم بعدَ الاعتصام بهما الأمان من كلِّ شقاءٍ ، وضلالٍ ، وهما: كتاب الله ، وسنَّة رسوله (ص) ، وإنَّك لتجده يتقدَّم بهذا التعهُّد ،

والضَّمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده؛ ليبيِّن للنَّاس أنَّ صلاحية التَّمسُّك بهذين الدَّليلين ليس وقفاً على عصرٍ دون اخر ، وأنَّه لا ينبغي أن يكون لأيِّ تطوُّرٍ حضاريٍّ ، أو عُرْف زمنيٍّ أيُّ سلطانٍ ، أو تغَلُّبٍ عليهما[(٩٧٨)].

لقد وصف (ص) الدَّاء ، والدَّواء ، ووضع العلاج لكلِّ المشكلات بالالتزام التَّامِّ بما جاء من أحكامٍ في كتاب الله وسنَّة رسوله (ص) : «تركت فيكم ما إن تمسَّكتُم به؛ لن تضلُّوا بعدي أبداً كتابَ الله ، وسنَّتي». [مالك في الموطأ (٢/٨٩٩) ، ومشكاة المصابيح (١٨٦) ، والسلسلة الصحيحة (١٧٦١)].

هذا هو العلاج الدَّائم ، وقد كرَّر (ص) نداءه للبشريَّة عامَّةً عبر الأزمنة ، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب ، والسُّنَّة في حلِّ جميع المشكلات الَّتي تواجه البشريَّة؛ فإنَّ الاعتصام بهما يجنِّب النَّاس الضَّلال ، ويهديهم إلى الَّتي هي أقوم في الحاضر ، والمستقبل ، لقد اجتازت تعاليم رسول الله (ص) ، وهديه حدود الجزيرة ، واخترقت حواجز الزَّمن ، وأسوار القرون ، وظلَّ يتردَّد صداها حتَّى يوم النَّاس هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلم يكن يخاطب سامعيه ، فيقول لهم: (أيُّها المؤمنون! أيُّها المسلمون! أيُّها الحجَّاج)؛ بل كان يقول لهم: (أيُّها النَّاس!) ، وقد كرَّر نداءه إلى النَّاس كافَّةً مرَّاتٍ متعدِّدةً دون أن يخصِّصه بجنسٍ ، أو بزمانٍ ، أو مكانٍ ، أو لونٍ ، فقد بعثه الله للنَّاس كافَّةً ، وأرسله رحمةً للعالمين[(٩٧٩)].

٤ ـ الأساليب التعليمية من خطب حجَّة الوداع:

أ ـ التَّعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علَّم رسولُ الله (ص) صحابته الكرام مناسك الحجِّ بصورةٍ عمليَّةٍ ، بأن قام بها ، وباشرها فعلاً ، ولم يكتفِ بأن يعلِّمها لهم قولاً ، ولذلك قال لهم: «خذوا عنِّي مناسككم» [رواه مسلم (١٢٩٧) ، وأبو داود (١٩٧٠) ، والنسائي (٥/٢٧٠)][(٩٨٠)] ، وعلى هذا فيُستحسن من الدُّعاة؛ وهم يعلِّمون الناس معاني الإسلام أن يعلِّموهم هذه المعاني ، والمطلوبات الشَّرعية ، أو بعضَها في
الأقلِّ بصورةٍ عمليَّةٍ كالوضوء ، والصَّلاة ، وتعليم قراءة القران بصورةٍ سليمةٍ[(٩٨١)].

ب ـ تكرار الخُطَب:

لاحظنا: أنَّ النَّبي (ص) كرر خطبه ، فقد خطب في عرفة ، وفي منىً مرَّتين ، كما كرَّر معاني بعض هذه الخطب ، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا برسول الله (ص) ، فيكرِّروا خطبهم ، ويكرِّروا بعض معانيها الَّتي يرون حاجةً لتكرارها؛ حتَّى يستوعبها السَّامعون ، ويحفظوها؛ لأنَّ القصد من خُطب الخطيب إفادة السَّامعين

بما يقول ، فإذا كانت الفائدة لا تحصل ، أو لا تتمُّ إلا بتكرار الخُطب من حيث عددها ، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها ، فليكرِّرها الدَّاعية ، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديدٍ في خطبه ، ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معانٍ معيَّنةٍ في أذهان السَّامعين.

إنَّ الدَّاعية همُّه أن يفيد السَّامعين ، وليس همُّه أن يُظهر براعته في الخُطَب ، وفي تنوُّع معانيها دون نظرٍ ، ولا اعتبارٍ إلى ما يحتاج إليه السَّامعون ، ودون اعتبارٍ لفهمهم هذه المعاني ، واستيعابهم لها[(٩٨٢)].

ج ـ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغائبَ:

وفي هذا توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ لكي تعمَّ الفائدة أكبر عددٍ ممكنٍ من النَّاس ، فهذا من باب التعاون على الخير؛ ولأنَّ الغائب قد يكون أوعى للعلم ، وأكثر فهماً له من الحاضر الَّذي سمع ، وعلى الدُّعاة ، والعلماء عندما يُلْقُون درساً أو محاضرةً لإخوانهم أو لعامَّة النَّاس أن يقولوا للحاضرين: «فليبلِّغِ الحاضرُ منكم الغائبَ بما سمعه». [البخاري (٦٧)].

د ـ جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النَّبيِّ (ص) الحاضرين عن اسم اليوم الَّذي هم فيه ، وكذا عن الشَّهر ، والبلد ـ وهم يعرفونها ـ ما يجلب انتباههم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة ، فيصغون إليه إصغاءً تامّاً ، قال القرطبيُّ: سؤال النَّبيِّ (ص) عن الثلاثة: أي: عن اليوم ، والشَّهر ، والبلد ، وسكوته بعد كلِّ سؤالٍ منها؛ كان لاستحضار فهومهم ، وليُقبلوا عليه بكلِّيَّتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه... فعلى العلماء ، والدُّعاة أن يقدِّموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السَّامعين ، ويشدُّهم إلى كلامهم[(٩٨٣)].

٥ ـ بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من حجَّة الوداع:

جاءت حجَّة الوداع حافلةً بالأحكام الشَّرعية ، وخاصَّةً ما يتعلَّق بالحجِّ ، وبالوصايا ، والأحكام الَّتي وردت في خطبة عرفات ، لذلك اهتمَّ العلماء بحجَّة الوداع اهتماماً كبيراً ، واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك ، وغيرها ممَّا تحفِل به كتبُ الفقه ، وكتبُ شروح الحديث ، وخصَّص بعضُهم مؤلفاتٍ مستقلَّةً في حجَّة الوداع[(٩٨٤)].

ونشير إلى بعض هذه الأحكام باختصارٍ شديدٍ ، فمن هذه الأحكام:

أ ـ إفطار الحاجِّ يوم عرفة:

قالت ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها زوج النَّبيِّ (ص) : إنَّ النَّاس شكُّوا في صيام رسول الله (ص) يوم عرفة ، فأرسلْتُ إليه بحلابٍ[(٩٨٥)] ، وهو واقفٌ في الموقف ، فشرب منه ، والنَّاس ينظرون إليه. [البخاري (١٩٨٩) ، ومسلم (١١٢٣/١١٠)].

ب ـ كيف يفعل بمن تُوفي مُحْرِماً؟

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: بينما رجلٌ واقفٌ مع رسول الله (ص) بعرفة؛ إذْ وقع عن راحلته ، فَوَقَصَتْهُ ، أو فأَوْقَصَتْهُ[(٩٨٦)] ، فذُكر ذلك للنَّبيِّ (ص) فقال: «اغسلوه بماءٍ وسدْرٍ ، وكفِّنوه في ثوبين ، ولا تحنِّطوه[(٩٨٧)] ، ولا تخمِّروا[(٩٨٨)] رأسه؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة ملبِّياً»[(٩٨٩)]. [أحمد (٢١٥/١) ، ومسلم (١٢٠٦) ، والنسائي (١٩٥/٥) ، وابن ماجه (٣٠٨٤)].

ج ـ هل يجوز الحجُّ عن الغير؟

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كان الفضل بنُ العبَّاس رديفَ رسول الله (ص) ، فجاءت امرأةٌ من خثعم ، فجعل الفضلُ ينظر إليها ، وتنظر إليه ، وجعل النَّبيُّ (ص) يصرف وجه الفضل إلى الشِّقِّ الاخر ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ فريضة الله على عباده في الحجِّ أدركت أبي شيخاً كبيراً ، لا يَثْبُتُ على الرَّاحلة ، أفأحجُّ عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حَجَّة الوداع. [البخاري (١٥١٣) ، ومسلم (١٣٣٤)].

د ـ منهج التَّيسير (لا حرج! لا حرج!):

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: وقف رسول الله (ص) على راحلته ، فطفق ناس يسألونه ، فيقول القائل: يا رسول الله! إنِّي لم أكن أشعر: أنَّ الرمي قبل النَّحر ، فنحرت قبل الرَّمي؟ فقال رسول الله (ص) : «ارم ، ولا حرج!» قال: وطفق اخر يقول: إنِّي لم أشعر أنَّ النَّحر قبل الحلق ، فحلقت قبل أن أنحر ، فيقول: «انحر ، ولا حرج!» قال: فما سمعته يُسأل يومئذٍ عن أمرٍ ممَّا ينسى المرء ويجهل ، من تقديم بعض الأمور قبل بعض ، وأشباهها ، إلا قال رسول الله (ص) : «افعل ، ولا حرج!». [البخاري (٨٣) ، ومسلم (١٣٠٦)].

هذه بعض الأحكام المختصرة ، ومن أراد المزيد فليراجع ما كتبه الألبانيُّ عن حجَّة الوداع فقد لخص الحَجَّةَ في اثنتين وسبعين مسألة[(٩٩٠)] ، وكتاب «الوصيَّة النَّبويَّة للأمَّة الإسلاميَّة» للدكتور فاروق حمادة ، فقد جمع من المصادر الأدبيَّة ، والحديثيَّة ، وكتب أهل السِّير ثمانية وثلاثين بنداً ، ثمَّ قام

بتحليلها ، وتخريجها ، وتوثيق نصوصها بميزان الجرح والتَّعديل؛ الَّذي اعتمده أئمَّة المسلمين منذ الصَّدر الأول؛ لأنَّ الأمر دينٌ وشرعٌ كما قال ، وقد أجاد ، وأفاد[(٩٩١)].

٦ . فوائد في تسمية أيام الحجِّ:

كان يقال لليوم السَّابع من ذي الحجة يومُ الزِّينة؛ لأنَّه تُزيَّن فيه البُدن الَّتي تُهدى بالجلال ، وغيرها ، واليوم الثَّامن يقال له: يوم التَّروية؛ لأنَّهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء ، ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف ، وما بعده؛ لأنَّ هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذٍ ابارٌ ، ولا عيونٌ ، أمَّا الان ففيها الماء الكثير والحمد لله! واليوم التَّاسع: يوم عرفة؛ للوقوف فيه بها ، واليوم العاشر: يوم النَّحر ، ويوم الأضحى ، ويوم الحجِّ الأكبر. واليوم الحادي عشر: يوم القرِّ؛ لأنَّهم يقرُّون فيه ، ويقال له: يوم الرؤوس؛ لأنَّهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي ، وهو أوَّل أيام التَّشريق ، وثاني أيَّام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الأوَّل؛ لجواز الخروج فيه إلى مكَّة لمن يريد التَّعجيل ، وثالث أيام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الثَّاني[(٩٩٢)].

قال عزَّ شأنه: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *} [البقرة: ٢٠٣].

* * *

المبحث الثَّامن

مرض رسول الله (ص) ووفاتُه

إنَّ الأرواح الشَّفافة الصَّافية القويَّة لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حُجُب الغيب بقدرة الله تعالى ، والقلوب الطَّاهرة المطمئنة لتحدِّث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزَّمان ، والعقول الذَّكيَّة المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات ، وتلميحات ، ولنبيِّنا محمَّد (ص) من هذه الصِّفات الحظ الأوفر ، وهو منها بالمحلِّ الأرفع؛ الذي لا يُسامَى ، ولا يُطاوَل[(٩٩٣)].

ولقد جاءت بعض الايات القرانيَّة مؤكِّدةً على حقيقة بشرية النَّبيِّ (ص) ، وأنَّه كغيره من البشر سوف يذوق الموت ، ويعاني سكراته ، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء ، ولقد فهم (ص) من بعض

الايات اقترابَ أجله ، وقد أشار (ص) في طائفة من الأحاديث الصَّحيحة إلى اقتراب وفاته ، منها ما هو صريح الدَّلالة على الوفاة ، ومنها ما ليس كذلك ، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الاحاد من كبار الصَّحابة الأجلاَّء؛ كأبي بكرٍ ، والعباس ، ومعاذٍ رضي الله عنهم[(٩٩٤)].

أولاً: الايات والأحاديث الَّتي أشارت إلى وفاته (ص):

١ ـ الايات:

أ ـ قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤].

قال القرطبيُّ: فأعْلَمَ اللهُ تعالى في هذه الاية: أنَّ الرسل ليست بباقيةٍ في قومها أبداً ، وأنه يجب التَّمسُّك بما أتت به الرُّسل؛ وإن فُقِدَ الرَّسولُ بموتٍ ، أو قَتْلٍ[(٩٩٥)].

ب ـ قال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ *} [الزمر: ٣٠].

قال ابن كثير: هذه الاية من الايات الَّتي استشهد بها الصِّدِّيق رضي الله عنه عند موت الرَّسول (ص) حتَّى تحقَّق النَّاس موته[(٩٩٦)].

ج ـ قال الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ *} [الأنبياء: ٣٤] ، ثمَّ أعقب ذلك ببيان: أنَّ الموت حتمٌ لازمٌ ، وقدرٌ سابق ، فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ *} [الأنبياء: ٣٥] ، فهذه الايات صريحةٌ ، ونصَّت على وفاته (ص) .

وهناك بعض الايات أشارت إلى ذلك وإن لم تصرّح؛ منها:

ـ قال تعالى: {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى *وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى *} [الضحى: ٤ ـ ٥].

ـ قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ *وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ *} [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ـ قال تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *} [القصص: ٨٨].

فهذه الايات تبيّن: أنَّ جميع أهل الأرض ستمضي فيهم سنَّة الله في موت خلقه ، لن يتخلَّف منهم أحدٌ أبداً.

ـ قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: ٣].

وقد بكى عمر بن الخطَّاب حين نزلت الاية ، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان!! وكأنه استشعر وفاة النَّبيِّ (ص)[(٩٩٧)] .

ـ قال تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا *فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا *} [النصر: ١ ـ ٣].

فقد سأل عمر رضي الله عنه ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن هذه الاية: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *} ، فقال: أَجَلُ رسول الله (ص) أَعَلَمَهُ إيَّاه ، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم [البخاري (٤٤٣٠)].

في رواية الطَّبراني: قال ابن عبَّاس: نُعِيَتْ إلى رسول الله (ص) نفسُه حين نزلت ، فأخذ بأشدِّ ما كان قطُّ اجتهاداً في أمر الاخرة. [الطبراني في الكبير (٢٦٧٦) ، ومجمع الزوائد (٩/٢٦ ـ ٢٧) ، وابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٩٥ ـ ٣٠١)].

٣ ـ أمَّا الأحاديث الَّتي أشارت إلى ذلك:

أ ـ قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّا كنَّا أزواجَ النَّبيِّ (ص) عنده جميعاً لم تُغادِر منَّا واحدةٌ ، فأقبلت فاطمة عليها السَّلام ، ولا والله ما تخفَى مشيتُها من مشية رسول الله (ص) ، فلمَّا راها؛ رحَّبَ؛ قال: «مرحباً بابنتي». فأقعدها يمينه ـ أو شماله ـ ثمَّ سارَّها فبكت ، ثمَّ سارَّها ، فضحكت ، فقلت لها: خصَّك رسول الله بالسِّرار ، وأنت تبكين؟! فلمَّا أن قامت قلت لها: أخبريني ما سارَّك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله (ص) ، فلمَّا توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحقِّ لما أخبرتيني ، قالت: أمَّا الان؛ فنعم ، قالت: سارَّني في الأوَّل ، قال لي: «إنَّ جبريل كان يعارضني في القران كلَّ سنةٍ مرَّةً ، وقد عارضني في هذا العام مرَّتين ، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي ، فاتقي الله ، واصبري ، فنعم السَّلف أنا لك!» فبكيت ، ثمَّ سارَّني ، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيِّدة نساء المؤمنين ، أو سيِّدة نساء هذه الأمَّة؟» فضحكتُ. [البخاري (٦٢٨٥ و٦٢٨٦) ، ومسلم (٢٤٥٠/ ٩٨ ـ ٩٩)].

وفي هذا الحديث دليلٌ قاطعٌ ، وإشارةٌ واضحةٌ إلى اقتراب أجل رسول الله (ص) ، وأنَّ ساعة الفراق قد باتت قريبةً إلا أنَّ النَّبيَّ (ص) قد اختصَّ ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلم ذلك ، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله (ص)[(٩٩٨)] .

ب ـ قال جابر رضي الله عنه: رأيت النَّبيَّ (ص) يرمي على راحلته يوم النَّحر ، ويقول: «لتأخذوا مناسككم؛ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أحُجُّ بعد حجَّتي هذه!». [سبق تخريجه].

قال النَّوويُّ: فيه إشارةٌ إلى توديعهم ، وإعلامهم بقرب وفاته (ص) ، وحثِّهم على الاعتناء بالأخذ عنه ، وانتهاز الفرصة من ملازمته ، وتعلُّم أمور الدِّين ، وبهذا سمِّيت حجَّة الوداع[(٩٩٩)].
وقال ابن رجب: وما زال (ص) يُعرِّض باقتراب أجله في اخر عمره ، فإنَّه لما خطب في حجَّة الوداع قال للنَّاس: «خذوا عنِّي مناسككم ، فلعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا! فطفق يودِّع النَّاس ، فقالوا: هذه حجَّة الوداع[(١٠٠٠)].
ج ـ قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه: خطب رسول الله (ص) للنَّاس ، وقال: «إنَّ الله خيَّر عبداً بين الدُّنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله». قال: فبكى أبو بكرٍ رضي الله عنه ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله (ص) عن عبدٍ خُيِّر ! فكان رسول الله (ص) هو المخيَّر ، وكان أبو بكرٍ أعلمَنا. [البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢)].

قال الحافظ ابن حجر: وكأنَّ أبا بكر رضي الله عنه فهم الرَّمز الَّذي أشار به النَّبيُّ (ص) من قرينة ذكره ذلك في مرض موته ، فاستشعر منه: أنَّه أراد نفسه ، فلذلك بكى[(١٠٠١)].
د ـ قال العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه: رأيت في المنام كأنَّ الأرض تنزع إلى السَّماء[(١٠٠٢)] بأشطانٍ[(١٠٠٣)] شدادٍ ، فقصصت ذلك على النَّبيِّ (ص) فقال: «ذاك وفاة ابن أخيك» [البزار (٨٤٤) ، ومجمع الزوائد (٩/٢٣ ـ ٢٤)].
وفي هذا الحديث إخبار النَّبي (ص) بقرب وفاته ، وفيه صدق رؤيا المؤمن ، واستشعار بعض الصَّحابة وفاته (ص)[(١٠٠٤)] .
هـ وعن معاذٍ: أنَّ النَّبي (ص) لما بعثه إلى اليمن؛ خرج راكباً؛ والنَّبيُّ (ص) يمشي تحت راحلته ، فقال: «يا معاذ! إنَّك عَسَى ألا تلقاني بعد عامي هذا ، فتمرَّ بقبري ، ومسجدي» فبكى معاذٌ لفراقه (ص) ، فقال: «لا تبك يا معاذ! فإنَّ البكاء من الشَّيطان» [أحمد (٥/٢٣٥) ، والطبراني في الكبير (٢٠/١٢١) ، وابن حبان (٦٤٧) ، ومجمع الزوائد (٩/٢٢)]. وفي الحديث إخبار النَّبيِّ (ص) معاذ بن جبل باقتراب أجله ، وأنَّه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا ، وفيه شدَّة محبَّة الصَّحابة للنَّبيِّ (ص) وبكائهم؛ إذا ذكروا فراقه[(١٠٠٥)].
ثانياً: مرض الرَّسول (ص)
بدء الشَّكوى:

رجع رسول الله (ص) من حجَّة الوداع في ذي الحجَّة ، فأقام بالمدينة بقيَّته ، والمحرَّم ، وصفراً ، من العام العاشر ، فبدأ بتجهيز جيش أسامة ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يتوجَّه نحو البلقاء ، وفلسطين ، فتجهَّز النَّاس ، وفيهم المهاجرون ، والأنصار ، وكان منهم أبو بكر ، وعمر ، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة ، وتكلَّم البعض في تأميره [(١٠٠٦)]، وهو مولىً ، وصغيرُ السِّنِّ على كبار المهاجرين ، والأنصار ، فلم يقبل الرَّسول (ص) طعنهم في إمارة أسامة[(١٠٠٧)] ، فقال (ص) : «إن يطعنوا في إمارته؛ فقد طعنوا في إمارة أبيه ، وايمُ

الله! إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ ، وإنَّ ابنه هذا لمن أحبِّ النَّاس إليَّ بعده».

[البخاري (٣٧٣٠) ، ومسلم (٢٤٢٦)].

وبينما النَّاس يستعدُّون للجهاد في جيش أسامة؛ ابتدأى رسول الله (ص) بوجعه الَّذي قبضه الله فيه ، وقد حدثت حوادثُ ما بين مرضه ، ووفاته؛ منها:

أ ـ النَّبيُّ (ص) في البقيع وزيارته قتلى أحدٍ ، وصلاتُه عليهم:

عن أبي مُوَيْهِبَةَ مولى رسول الله (ص) ؛ قال: بعثني رسول الله (ص) في جَوف اللَّيل ، فقال: «يا أبا مُوَيْهبَة! إِنِّي قد أُمِرْت أن أستغفر لأهل البقيع ، فانطلق معي». فانطلقت معه ، فلمَّا وقف بين أظهرهم؛ قال: «السَّلام عليكم يا أهل المقابر! ليَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه ممَّا أصبح النَّاس فيه ، أقبلت الفتن كقطع اللَّيل المظلم ، يتبع اخرُها أوَّلها ، والاخرة شرٌّ من الأولى»[(١٠٠٨)]. ثمَّ أقبل عليَّ ، فقال: «يا أبا مُوَيْهِبَة! إِنِّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدُّنيا ، والخلد فيها ، ثمَّ الجنَّة ، فخيِّرت بين ذلك ، وبين لقاء ربِّي ، والجنَّة». قال: فقلت: بأبي أنت وأمِّي! خذ مفاتيح خزائن الدُّنيا ، والخُلد فيها ، ثمَّ الجنَّة ، قال: «لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنَّة». ثمَّ استغفر لأهل البقيع، ثمَّ انصرف، فبدأ برسول الله (ص) وجعه؛ الَّذي قبضه الله فيه. [أحمد (٣/٤٨٩) ، والطبراني في الكبير (٢٢/٣٤٦ ـ ٣٤٧) ، والدارمي (٧٩) ، والحاكم (٣/٥٦) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٤)].

ومن حديث عقبة بن عامر الجهنيِّ رضي الله عنه ، قال: إنَّ رسول الله (ص) صلَّى على قتلى أحدٍ بعد ثماني سنين كالمودِّع للأحياء ، والأموات ، ثمَّ طلع المنبر ، فقال: «إني بين أيديكم فَرَطٌ ، وأنا عليكم شهيدٌ ، وإنَّ موعدكم الحوض ، وإِنِّي لأنظر إليه؛ وأنا في مقامي هذا ، وإِنِّي لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدُّنيا أن تنافسوها». فقال عقبة: فكانت اخر نظرةٍ نظرتها إلى رسول الله (ص) . [البخاري (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦)].

ب ـ استئذانه (ص) أن يُمرَّض في بيت عائشة ، وشدَّة المرض الَّذي نزل به:
قالت عائشة رضي الله عنها: لما ثَقُلَ رسول الله (ص) واشتدَّ به وجعُه؛ استأذن أزواجه في أن يمرَّض في بيتي ، فأذنَّ له ، فخرج وهو بين رجلين ، تخطُّ رجلاه في الأرض ، بين عبَّاسٍ ورجلٍ اخر[(١٠٠٩)] ، ولما دخل بيتي؛ اشتدَّ وجعه. قال: «أهريقوا عليَّ من سبع قربٍ لم تُحْلَلْ أوكيتُهنَّ[(١٠١٠)] ، لعلِّي أعهد إلى النَّاس» فأجلسناه في مِخْضَبٍ[(١٠١١)] لحفصة ، ثمَّ طفقنا نصبُّ عليه من تلك القرب ، حتَّى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتُنَّ ، ثمَّ خرج إلى النَّاس فصلَّى بهم ، وخطبهم [البخاري (١١٩٨)] ، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أشدَّ عليه الوَجَعُ من رسول الله (ص) . [البخاري (٥٦٤٦) ، ومسلم (٢٥٧١)].
وقال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: دخلت على رسول الله (ص) وهو يُوعَكُ فمسسته بيدي ، فقلت: يا رسول الله! إنك لَتُوعَكُ وعْكاً شديداً ، فقال رسول الله (ص) : «أَجَلْ؛ إنِّي أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم». قال: فقلت: ذلك أنَّ لك أجرين ، فقال رسول الله (ص): «أجلْ!» ، ثمَّ قال رسول الله (ص) : «ما من مسلم يصيبه أذىً من مرضٍ فما سواه إلا حَطَّ الله به سيئاتِه ، كما تَحُطُّ الشَّجرةُ ورقَها». [البخاري (٥٦٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٠)].
ثالثاً: من وصايا رسول الله (ص) في أيَّامه الأخيرة:
١ ـ وصيته (ص) بالأنصار:
مرَّ العبَّاس رضي الله عنه بقومٍ من الأنصار يبكون حين اشتدَّ برسول الله (ص) وجعُه ، فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلسنا من رسول الله (ص) ، فدخل العبَّاس عليه (ص) ، فأخبره ، فعُصِّب بعصابةٍ دسماء[(١٠١٢)] ، أو قال: بحاشية بُرد ، وخرج ، وصعِد المنبر ـ ولم يصعد بعد ذلك اليوم ـ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «أوصيكم بالأنصار فإنَّهم كَرشي[(١٠١٣)] ، وعَيْبَتي[(١٠١٤)] ، وقد قَضوا الَّذي عليهم ، وبقي الَّذي لهم ، فاقبلوا من مُحسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم». [البخاري (٣٧٩٩) ، ومسلم (٢٥١٠)].
وفي الحديث شدَّة محبَّة الأنصار لرسول الله (ص) ، وبكاؤهم لمرضه ، وحرمانهم من مجلسه[(١٠١٥)].
٢ ـ إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد:
لقد ازدادت شدَّة المرض على رسول الله (ص) ، بحيث كان يُغْمَى عليه في اليوم الواحد مرَّاتٍ عديدةً ، ومع ذلك كلِّه أحَبَّ (ص) أن يفارق الدُّنيا وهو مطمئنٌّ على أمَّته أن تضلَّ من بعده ، فأراد

أن يكتب لهم كتاباً مفصَّلاً؛ ليجتمعوا عليه، ولا يتنازعوا ، فلمَّا اختلفوا عنده (ص) عدل عن كتابة ذلك الكتاب ، وأوصاهم بأمورٍ ثلاثةٍ ، ذكر الرَّاوي منها اثنين:

ـ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

ـ وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم به. [البخاري (٣٠٥٣) ، ومسلم (١٦٣٧)].

٣ ـ النَّهي عن اتِّخاذ قبره مسجداً:

كان من اخر ما تكلَّم به رسول الله (ص) قوله: «قاتل الله اليهود والنَّصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». [البخاري (٤٣٧) ، ومسلم (٥٣٠)][(١٠١٦)].

٤ ـ إحسان الظَّنِّ بالله:

قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله (ص) يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظَّنَّ بالله ، عزَّ وجلَّ». [أحمد (٣/٢٩٣) ، ومسلم (٢٨٧٧/٨١) ، وأبو داود (٣١١٣) ، وابن ماجه (٤١٦٧)].

٥ ـ الوصية بالصَّلاة ، وما ملكت أيمانكم:

قال أنس رضي الله عنه: كانت وصيَّة رسول الله (ص) حين حضره الموت: «الصَّلاة وما ملكت أيمانُكم!» حتَّى جعل يغرغر بها في صدره ، ولا يفيض بها لسانُه. [أحمد (٣/١١٧) ، وابن ماجه (٢٦٩٧) ، وابن حبان (٥/٦٦)].

٦ ـ لم يبقَ مِنْ مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا:

قال عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كَشَفَ رسول الله (ص) السِّتْرَ ، وهو مَعْصُوبٌ في مرضه؛ الَّذي مات فيه ، فقال: «اللَّهُمَّ! هل بَلَّغْتُ؟ ـ ثلاث مرَّات ـ إنَّه لم يبقَ من مُبَشِّرات النُّبوة إلا الرُّؤيا ، يراها العبد الصَّالح ، أو ترى له. ألا وإنِّي قد نهيت عن القراءة في الرُّكوع ، والسُّجود ، فإذا ركعتم؛ فعظِّموا الله ، وإذا سجدتم؛ فاجتهدوا في الدُّعاء ، فإنَّه قَمِنٌ[(١٠١٧)] أن يستجاب لكم». [أحمد (١/٢١٩) ، ومسلم (٤٧٩) ، وأبو داود (٨٧٦) ، والنسائي (٢/١٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٩٩)].

رابعاً: أبو بكر يصلِّي بالمسلمين:

ولما اشتدَّ المرض بالنَّبيِّ (ص) ، وحضرت الصَّلاة ، فأذَّن بلالٌ ، قال النَّبيُّ (ص) : «مُروا أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ» فقيل: إنَّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ[(١٠١٨)] ، إذا قام مقامك؛ لم يستطع أن يُصلِّي بالنَّاس. وأعاد ، فأعادوا له ، فأعاد الثَّالثة ، فقال: «إنكنَّ صواحبُ يوسف[(١٠١٩)] ، مُروا أبا بكر

فليصلِّ بالنَّاس!» فخرج أبو بكرٍ ، فوجد النَّبيَّ (ص) في نفسه خفَّةً ، فخرج يهادى بين رجلين ، كأنِّي أنظر إلى رجليه تَخُطَّانِ من الوجع ، فأراد أبو بكر أن يتأخَّر فأومأ إليه النَّبيُّ (ص) : أنْ مكانك ، ثمَّ أُتي به حتَّى جلس إلى جنبه. قيل للأعمش: فكان النَّبيُّ (ص) يُصلِّي ، وأبو بكر يصلِّي بصلاته ، والنَّاس يصلُّون بصلاة أبي بكرٍ ؟ فقال برأسه: نعم. [البخاري (٦٦٤) ، ومسلم (٩٥/٤١٨)].

خامساً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى (ص):

١ ـ كان أبو بكرٍ يصلِّي بالمسلمين؛ حتَّى إذا كان يوم الإثنين ، وهم صفوفٌ في صلاة الفجر ، كشف النَّبيُّ (ص) سِتْرَ الحجرة ، ينظر إلى المسلمين ، وهم وقوفٌ أمام ربِّهم ، ورأى كيف أثمر غرس دعوته ، وجهاده ، وكيف نشأت أمَّةٌ تحافظ على الصَّلاة ، وتواظب عليها بحضرة نبيِّها وغيبته ، وقد قرَّت عينه بهذا المنظر البهيج ، وبهذا النَّجاح الَّذي لم يُقَدَّر لنبيٍّ ، أو داعٍ قبله ، واطمأنَّ أنَّ صلة هذه الأمَّة بهذا الدِّين ، وعبادة الله تعالى صلةٌ دائمةٌ ، لا تقطعها وفاة نبيِّها ، فملأى من السُّرور ما الله به عليم ، واستنار وجهه؛ وهو منيرٌ[(١٠٢٠)].

يقول الصَّحابة رضي الله عنهم: كشف النَّبيُّ (ص) سِتْرَ حجرة عائشة ينظر إلينا؛ وهو قائمٌ ، كأنَّ وجهه ورقةُ مصحفٍ ، ثمَّ تبسَّم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح ، وظنَّنا أنَّ النَّبيَّ (ص) خارجٌ إلى الصَّلاة ، فأشار إلينا أن أتمُّوا صلاتكم ، ودخل الحجرة ، وأرخى السِّتْر. [البخاري (٤٤٤٨)].

وانصرف بعض الصَّحابة إلى أعمالهم ، ودخل أبو بكرٍ على ابنته عائشة ، وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع ، وهذا يوم بنت خارجة ـ إحدى زوجتيه ، وكانت تسكن بالسُّنح[(١٠٢١)] ـ فركب على فرسه ، وذهب إلى منزله[(١٠٢٢)].

٢ ـ في الرَّفيق الأعلى:

واشتدَّت سكرات الموت بالنَّبيِّ (ص) ، ودخل عليه أسامة بن زيد؛ وقد صمت فلا يقدر على الكلام ، فجعل يرفع يديه إلى السَّماء ، ثم يضعها على أسامة ، فعرف أنَّه يدعو له ، وأخذت السَّيدة عائشة رسول الله ، وأوسدته إلى صدرها بين سَحْرها ، ونحرها[(١٠٢٣)] ، فدخل

عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، وبيده سواكٌ ، فجعل رسولُ الله (ص) ينظر إليه ، فقالت عائشة: اخذه لك؟ فأشار برأسه: أنْ نعم ، فأخذته من أخيها ، ثمَّ مضغته ، وليَّنته ، وناولته إيَّاه ، فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك ، وكلُّ ذلك وهو لا ينفكُّ عن قوله: «في الرَّفيق الأعلى» [البخاري (٤٤٣٧) ، ومسلم (٨٧/٢٤٤٤)].

وكان (ص) يُدخل يده في رَكوة ماءٍ ، أو علبةٍ فيها ماءٌ ، فيمسح بها وجهه ، ويقول: «لا إله إلا الله ، إنَّ للموت سكراتٍ!» ثمَّ نصب يده ، فجعل يقول: «في الرَّفيق الأعلى» حتَّى قُبِضَ ، ومالت يده. [البخاري (٤٤٤٩)].

وفي لفظ: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان يقول: «اللَّهُمَّ! أعنِّي على سكرات الموت». [أحمد (٦/٦٤) ، والترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩٣)].

وفي روايةٍ: أنَّ عائشة رضي الله عنها سمعت النَّبيَّ (ص) ، وأصغت إليه قبل أن يموت؛ وهو مُسْنِدٌ إلى ظَهْره يقول: «اللَّهُمَّ! اغفر لي ، وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى!». [البخاري (٤٤٤٠) ، ومسلم (٢٤٤٤/٨٥)].

وقد ورد: أنَّ فاطمة رضي الله عنها قالت: واكرب أباه! فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلمَّا مات؛ قالت: يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه. يا أبتاه! من جنَّة الفردوس مأواه. يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه. فلمَّا دُفِن (ص) قالت لأنسٍ: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله (ص) التُّراب؟! [البخاري (٤٤٦٢)].

٣ ـ كيف فارق رسول الله (ص) الدُّنيا؟

فارق رسول الله (ص) الدُّنيا وهو يحكم جزيرة العرب ، ويرهبُه ملوك الدُّنيا ، ويَفْديه أصحابُه بنفوسهم ، وأولادهم ، وأموالهم ، وما ترك عند موته ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ، ولا أمةً ، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقةً. [البخاري (٤٤٦١)]. وتُوفِّي (ص) ؛ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ بثلاثين صاعاً من شعير[(١٠٢٤)].

وكان ذلك يوم الإثنين ١٢ ربيع الأوَّل سنة ١١ للهجرة بعد الزَّوال[(١٠٢٥)] ، وله (ص) ثلاثٌ وستون سنَّة [البخاري (٣٩٠٢ و٣٩٠٣) ، ومسلم (٢٣٥١)] ، وكان أشدَّ الأيام سواداً ، ووحشةً ، ومصاباً على المسلمين ، ومحنةً كبرى للبشريَّة ، كما كان يومُ ولادَته أسعدَ يومٍ طلعت فيه الشَّمْس[(١٠٢٦)].

يقول أنسٌ رضي الله عنه: كان اليوم الَّذي قدم فيه رسول الله (ص) المدينة أضاء منها كلُّ شيءٍ ، فلمَّا كان اليوم الَّذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيءٍ. [أحمد (٣/٢٢١) ، والترمذي (٣٦١٨) ، وابن ماجه (١٦٣١)] ، وبكت أمُّ أيمن فقيل لها: ما يبكيك على النَّبيِّ (ص) ؟ قالت: إنِّي قد علمت: أنَّ

رسول الله (ص) سيموت ، ولكنْ إنَّما أبكي على الوحي الَّذي رُفِع عنَّا. [مسلم (٢٤٥٤) ، وابن ماجه (١٦٣٥)].

٤ . هول الفاجعة ، وموقف أبي بكرٍ منها:

قال ابن رجب: ولما تُوفي رسولُ الله (ص) اضطرب المسلمون ، فمنهم من دُهِشَ ، فخولط ، ومنهم مَنْ أُقْعِد فلم يُطق القيام ، ومنهم من اعتُقل لسانُه ، فلم يطق الكلام ، ومنهم من أنكر موته بالكلِّيَّة[(١٠٢٧)].

قال القرطبيُّ مبيِّناً عظم هذه المصيبة ، وما ترتَّب عليها من أمور:

من أعظم المصائب: المصيبةُ في الدِّين. قال رسول الله (ص) : «إذا أصاب أحدَكم مصيبةٌ؛ فليذكر مصابه بي ، فإنَّها أعظم المصائب» [الطبراني في الكبير (٦٧١٨) ، والبيهقي في شُعَب الإيمان (١٠١٥٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٢)].

وصدق رسولُ الله (ص) ؛ لأنَّ المصيبة به أعظمُ من كلِّ مصيبةٍ يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي ، وماتت النُّبوَّة ، وكان أوَّل ظهور الشَّرِّ بارتداد العرب ، وغير ذلك ، وكان أوَّل انقطاع الخير ، وأول نقصانه[(١٠٢٨)].

لقد أذهل نبأُ الوفاة عمرَ رضي الله عنه ، فصار يتوعَّد ، وينذر مَنْ يزعُم: أنَّ النَّبيَّ (ص) مات ، ويقول: ما مات ، ولكنَّه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً ، ثمَّ رجع إليهم. والله! ليرجعنَّ رسولُ الله كما رجع موسى ، فليقطِّعنَّ أيدي رجالٍ ، وأرجلهم زعموا: أنه مات[(١٠٢٩)].

ولما سمع أبو بكرٍ الخبر؛ أقبل على فرسٍ من مسكنه بالسُّنْح؛ حتَّى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلِّم النَّاس ، حتَّى دخل على عائشة فتيمَّم رسولَ الله (ص) وهو مُغشًّى بثوبٍ حَبرةٍ ، فكشف عن وجهه ، ثمَّ أكبَّ عليه ، فقبَّله ، وبكى ، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين ، أمَّا الموتة الَّتي عليك فقد متَّها. [البخاري (٤٤٥٢ ، ٤٤٥٣)]. وخرج أبو بكرٍ؛ وعمر يتكلَّم ، فقال: اجلسْ يا عمر! وهو ماضٍ في كلامه ، وفي ثورة غضبه ، فقام أبو بكر في النَّاس خطيباً بعد أن حمِد الله ، وأثنى عليه ، قال:

أمَّا بعد: فإنَّ مَنْ كان يعبد محمَّداً؛ فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت ، ثمَّ تلا هذه الاية: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: فو الله! ما إن سمعت أبا بكر تلاها ، فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي ، وعلمتُ: أنَّ رسول الله (ص) قد مات. [البخاري (٤٤٥٤)].

قال القرطبيُّ: هذه الاية أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصِّدِّيق ، وجراءته؛ فإنَّ الشَّجاعة ، والجرأة حدُّهما: ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النَّبِيِّ (ص) ، فظهرت عنده شجاعتُه ، وعلمه ، قال النَّاس: لم يمت رسول الله (ص) ، منهم عمر ، وخرِسَ عثمان ، واستخفى عليٌّ ، واضطرب الأمر ، فكشفه الصِّدِّيق بهذه الاية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح[(١٠٣٠)].

فرحم الله الصِّدِّيق الأكبر! كم من مصيبةٍ درأها عن الأمَّة! وكم من فتنةٍ كان المخرج على يديه! وكم من مشكلةٍ ، ومعضلةٍ كشفها بشهب الأدلَّة من القران ، والسُّنَّة ، التي خفيت على مثل عمر رضي الله عنه! فاعرِفوا للصِّدِّيق حقه ، واقدروا له قدره ، وأحبُّوا حبيب رسول الله (ص) ، فحبُّه إيمانٌ ، وبغضه نفاقٌ[(١٠٣١)].

٥ ـ بيعة أبي بكر بالخلافة:

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة ، في سقيفة بني ساعدة ، حتَّى لا يجد الشَّيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم ، وتمزيق شملهم ، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم ، وليفارق رسولُ الله (ص) هذه الدُّنيا؛ وكلمة المسلمين واحدةٌ ، وشملُهم منتظمٌ ، وعليهم أميرٌ يتولَّى أمورهم ، ومنها تجهيز رسول الله (ص) ، ودفنه[(١٠٣٢)].

والحديث عن بيعة أبي بكر سنتكلم عنه بالتفصيل عند الدُّخول في عصر الخلفاء الرَّاشدين إن شاء الله تعالى.

٦ ـ غَسْلُ رسول الله (ص) ، وكَفنُه ، والصَّلاة عليه:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما أرادوا غَسْلَ النَّبِيِّ (ص) قالوا: ما ندري: أنجرِّده من ثيابه كما نجرِّد موتانا ، أو نغسله؛ وعليه ثيابه؟! فلمَّا اختلفوا؛ ألقى الله عليهم النَّوم حتَّى ما منهم رجلٌ إلا

وذقنه في صدره فكلَّمهم مكلِّمٌ من ناحية البيت ، لا يدرون من هو: أن اغسِلوا رسول الله (ص) وعليه ثيابُه ، فغسَّلوه؛ وعليه قميصُه ، يصبُّون الماء فوق القميص ، ويدلكون بالقميص دون أيديهم. قالت

عائشة: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسَّله إلا نساؤُه. [أبو داود (٣١٤١) ، وابن ماجه (١٤٦٤) ، والحاكم (٣/٥٩ ـ ٦٠)].

وكُفِّنَ (ص) في ثلاثة أثواب سَحُوليَّةٍ ، من ثياب سَحُول ـ بلدة باليمن ـ ليس فيها قميصٌ ، ولا عمامةٌ. [البخاري (١٢٧١) ومسلم (٩٤١)][(١٠٣٣)]. وقد صلَّى عليه المسلمون. قال ابن عباس: لما مات رسولُ الله (ص) أُدخل الرِّجال ، فصلُّوا عليه بغير إمامٍ أرسالاً ، حتَّى فرَغوا ، ثمَّ أُدخل النِّساء فصلَّين عليه ، ثمَّ أُدخل الصِّبيان فصلُّوا عليه ، ثمَّ أدخل العبيد ، فصلُّوا عليه أرسالاً ، لم يؤمَّهم على رسول الله (ص) أحدٌ. [ابن ماجه (١٦٢٨)].

قال ابن كثير: وهذا الصَّنيع ، وهو صلاتُهم عليه فرادى لم يؤمَّهم أحدٌ عليه أمرٌ مجمعٌ عليه ، لا خلاف فيه[(١٠٣٤)].

٧ ـ موقع دفنِه ، وصفة قبرِه ، ومَنْ باشر دفنَه؟ ومتى دُفن؟

اختلف المسلمون في موقع دفنه ، فقال بعضهم: يدفن عند المنبر ، وقال اخرون: بالبقيع ، وقال قائل: في مصلاَّه. [الموطأ (٥٤٥) ، وابن سعد (٢/٢٩٣)]. فجاء أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فحسم مادَّة هذا الخلاف أيضاً بما سمعه من رسول الله (ص) ، قالت عائشة ، وابن عباسٍ: لما قُبض رسول الله (ص) ، وغُسِّل؛ اختلفوا في دفنه ، فقال أبو بكر: ما نسيتُ ما سمعت من رسول الله (ص) يقول: «ما قبض الله نبيّاً إلا في الموضع الَّذي يحب أن يدفن فيه» ، ادفنوه في موضع فراشه[(١٠٣٥)].

وهذا الحديث وإن كان هناك خلافٌ في صحَّته إلا أنَّ دفن النَّبيِّ (ص) في موضعه الَّذي توفِّي فيه أمرٌ مجمعٌ عليه[(١٠٣٦)].

وقال ابن كثيرٍ: قد عُلِمَ بالتَّواتر: أنَّه (ص) دفن في حجرة عائشة الَّتي كانت تختصُّ بها ، شرقيَّ مسجده في الزَّاوية الغربيَّة القبلية من الحجرة ، ثمَّ دُفن فيها أبو بكرٍ ، ثمَّ عمر رضي الله عنهما[(١٠٣٧)].

وقد لُحِدَ[(١٠٣٨)] قبر رسول الله (ص) ، وقد أجمع العلماء على أن اللَّحد ، والشَّق[(١٠٣٩)] جائزان ، لكن إذا كانت الأرض صلبةً لا ينهار ترابُها؛ فاللَّحد أفضل ، وإن كانت رِخْوَةً تنهار؛ فالشَّقُّ أفضل[(١٠٤٠)].

وقد قال الألبانيُّ ـ رحمه الله! ـ: ويجوز في القبر اللَّحد ، والشَّقُّ لجريان العمل عليهما في عهد النَّبيِّ (ص) ، ولكنَّ الأوَّل أفضل[(١٠٤١)]؛ لأنَّ الله تعالى لا يختار لنبيه إلا الأفضل[(١٠٤٢)]. وأمَّا صفة قبره ، فقد كان مُسَنَّماً. [البخاري (١٣٩٠)] ، أي: مرتفعاً.

وذهب جمهور العلماء إلى أنَّ المستحب في بناء القبور هو التَّسنيم ، وأنَّه أفضل من التَّسطيح[(١٠٤٣)] وفي المسألة خلافٌ طويلٌ ليس هذا محلُّه ، وقد قرَّب ابن القيِّم رحمه الله بين المذهبين ، فقال: وكانت قبور أصحابه لا مشرفةً ، ولا لاطئةً ، وهكذا كان قبرُه الكريم ، وقبر صاحبيه ، فقبرُه (ص) مُسَنَّم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء ، لا مبنيٌّ ولا مطيَّنٌ ، وهكذا قبر صاحبيه[(١٠٤٤)] ، وقد كان قبره (ص) مرتفعاً قليلاً عن سطح الأرض[(١٠٤٥)].

وأمَّا الذين باشروا دفنه (ص) ؛ فقد قال ابن إسحاق: وكان الَّذين نزلوا في قبر رسول الله (ص) : عليُّ بن أبي طالبٍ ، والفضل بن عباس ، وقُثَم بن عبَّاس ، وشُقْران مولى رسول الله (ص)[(١٠٤٦)] ، وزاد النَّوويُّ[(١٠٤٧)] ، والمقدسيُّ[(١٠٤٨)]: العباس. قال النَّوويُّ: ويقال: كان أسامة بن زيد ، وأوس بن خَوْلِيّ[(١٠٤٩)] معهم. ودفن في اللَّحد ، وبُني عليه (ص) في لحده اللَّبِن ، يقال: إنَّها تسع لَبِنَاتٍ ، ثمَّ أهالوا التُّراب[(١٠٥٠)]. وأمَّا وقت دفنه؛ فقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّه دفن ليلة الأربعاء. قال ابن كثير: والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنَّه (ص) توفي يوم الإثنين ، ودفن ليلة الأربعاء[(١٠٥١)].

لقد كان لوفاة رسول الله (ص) أثرٌ على الصَّحابة الكرام ، فقد قال أنسٌ رضي الله عنه: «وما نفضنا عن النَّبيِّ (ص) الأيدي . وإنَّا لفي دفنه . حتَّى أَنْكَرْنَا قلوبنا». [الترمذي (٣٦١٨) ، وابن ماجه (١٦٣١)][(١٠٥٢)].

سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرَّسول (ص):

١ . ما قاله حسَّانُ رضي الله عنه في موت رسول الله (ص):

لقد نافح حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن رسول الله (ص) في حياته ، ودافع عن الإسلام والمسلمين بقصائده الرَّائعة؛ الَّتي هزَّت عرب الجزيرة ، وفعلت فيهم الأفاعيل ، ولقد تأثَّر بموت حبيبنا (ص) ، فرثاه بقصائدَ مبكيةٍ حزينةٍ ، حفظها لنا التَّاريخ ، ولم تهمِلْها اللَّيالي ، ولم تفصِلْها عنَّا حواجزُ الزَّمن ، ولا أسوارُ القرون ، فَمِمَّا قاله يبكي رسولَ الله (ص) :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لاَ تَنَامُ كَأَنَّهَا كُحِلَتْ ماقيها[(١٠٥٣)] بكُحْلِ الأَرْمَدِ[(١٠٥٤)]
جَزَعاً عَلَى المهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِياً يَا خَيْرَ مَنْ وَطِأَىَ الحَصَى لا تَبْعُدِ
وَجْهِيْ يَقِيْكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِيْ غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيْعِ الغَرْقَدِ[(١٠٥٥)]
بَأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ فِي يَوْم الاثْنَيْنِ النَّبِيُّ المهْتَدِى

فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّداً مُتَلَدِّداً[(١٠٥٦)] يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْلَدِ
أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بالْمَدِيْنَةِ بَيْنَهُمْ يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ[(١٠٥٧)] سُمَّ الأَسْوَدِ[(١٠٥٨)]
أَوْ حلَّ أَمْرُ اللهِ فِيْنَا عَاجِلاً فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ
فَتَقُوْمُ سَاعَتُنَا فَنَلْقَى طيِّباً مَحْضاً ضَرَائِبُهُ[(١٠٥٩)] كَرِيْمُ المحْتِدِ[(١٠٦٠)]
يَا بِكْرَ امِنَةَ المبَارَكُ بِكْرُها ولَدَتْهُ مُحْصنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعَدِ

نُوْراً أضَاءَ عَلَى البَرِيَّةِ كُلِّهَا مَنْ يُهْدَ للنُّورِ المبَارَكِ يَهْتَدِي
يا رَبُّ فَاجْمَعْنَا مَعاً ونَبِيَّنَا فِي جَنَّةٍ تَثْنِي[(١٠٦١)] عُيُونَ الحُسَّدِ
فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ فَاكْتُبْهَا لَنَا يَا ذَا الجَلاَلِ وَذَا العُلاَ والسُّؤْدَدِ
وَاللهِ أَسْمَعُ مَا بَقِيْتُ بِهَالِكٍ إلاَّ بَكَيْتُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِه بَعْدَ المغَيَّبِ فِي سَوَاءِ المُلْحَدِ[(١٠٦٢)]
ضَاقَتْ بِالانْصَارِ البِلاَدُ فَأَصْبَحُوا سُوداً وجوهُهُمُ كَلَوْنِ الإِثْمِدِ[(١٠٦٣)]
وَلَقَدْ وَلَدْنَاهُ[(١٠٦٤)] وَفِينَا قَبْرُهُ وَفَضُولُ نِعْمَتِه بنا لَمْ تُجْحَدِ
واللهُ أَكْرمَنَا بِهِ وهَدَى بِهِ أنصَارَهُ فِي كُلِّ سَاعَةِ مَشْهَدِ
صلَّى الإلهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُوْنَ عَلَى المبَارَكِ أَحْمَدِ[(١٠٦٥)]

وقال أيضاً:

تَاللهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلاَ وَضَعَتْ مِثْلَ الرَّسُوْلِ نَبِيِّ الأُمَّةِ الهَادِي
وَلاَ بَرَى اللهُ خَلْقاً مِنْ بَرِيَّته أوْفى بذِمَّةِ جَارٍ أَوْ بِمِيْعَادِ
مِنَ الَّذِي كَانَ فِيْنَا يُسْتَضَاءُ بِهِ مُبَارَكُ الأَمْرِ ذَا عَدْلٍ وَإِرْشَادِ

إلى أنْ قَال:

يَا أَفْضَلَ النَّاسِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهَرٍ أَصْبَحْتُ مِنْه كمثْلِ المفْرَدِ الصَّادِي[(١٠٦٦)]

٢ ـ وممَّا قاله أبو بكرٍ الصِّدِّيق يبكي النَّبيَّ (ص):

لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَجَنْدِلاً ضَاقَتْ عَلَيَّ بِعَرْضِهِنَّ الدُّورُ
فَارْتَاعَ قَلْبِي عِنْدَ ذَاكَ لِمَوْتِهِ وَالعَظْمُ مِنِّي مَا حَيِيْتُ كَسِيْرُ
أَعتِيْقُ! وَيْحَكَ! إِنَّ خِلَّكَ قَدْ ثَوَى وَالصَّبْرُ عِنْدَكَ مَا بَقِيْتَ يَسِيْرُ
يَا لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ مَهْلِكَ صَاحِبِيْ غُيِّبْتُ فِي لَحْدٍ عَلَيْهِ صُخُورُ

فلَتَحْدُثَنَّ بَدَائِعٌ مِنْ بَعْدِهِ تَعْيَا لَهُنَّ جَوَانِحٌ وَصُدُوْرُ[(١٠٦٧)]

٣ ـ وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب بن هاشم ـ رضي الله عنه ـ يبكي رسولَ الله (ص):

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لاَ يَزُوْلُ وَلَيْلُ أَخِي المصِيْبَةِ فِيْهِ طُوْلُ
وَأَسْعَدَنِي البُكَاءُ وَذَاكَ فِيْمَا أُصِيْبَ المسْلِمُوْنَ بِهِ قَلِيْلُ
لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيْبَتُنَا وَجَلَّتْ عَشِيَّةَ قِيْلَ: قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ
وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيْلُ
فَقَدْنَا الْوَحْيَ والتَّنْزِيْلَ فِيْنَا يَرُوْحُ بِهِ وَيَغْدُو جِبْرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيهِ نُفُوْسُ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيلُ
نبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا يَقُوْلُ
ويَهْدِيْنَا فَلاَ نَخْشَى مَلاَماً عَلَيْنَا والرَّسُولُ لَنَا دَلِيْلُ
أَفَاطِمُ! إنْ جَزِعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي فَهُوَ السَّبِيْلُ
فَقَبْرُ أَبِيْكِ سَيِّدُ كلِّ قَبْرٍ وَفِيْهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ[(١٠٦٨)]

٤ ـ وقالت صفيَّة بنتُ عبد المطَّلب تبكي رسولَ الله (ص):

أَلاَ يَا رَسُولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنا وَكُنْتَ بِنَا بَرّاً وَلَمْ تَكُ جَافِيَا
وَكُنْتَ رَحِيْماً هَادِياً وَمُعَلِّماً لِيَبْكِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا
لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ وَلَكِنْ لِمَا أَخْشَى مِنَ الْهَرْجِ[(١٠٦٩)] اتِيَا
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي لِذِكْرِ مُحَمَّدٍ وَمَا خَفَتْ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ المكَاوِيَا
أَفَاطِمُ! صَلّى اللهُ ربُّ مُحَمَّدٍ عَلَى جَدَثٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا
فِدَىً لِرَسُولِ اللهِ أُمِّي وَخَالَتِي وَعَمِّي وَابَائِي وَنَفْسِي وَمَالِيَا
صَدَقْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ صَادِقاً وَمُتَّ صَلِيْبَ العُوْدِ أَبْلَجَ صَافِيَا
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبْقَى نَبِيَّنَا سَعِدْنَا وَلكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا
عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلاَمُ تَحِيَّةً وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيَا[(١٠٧٠)]

* * *

وبعد: فهذا ما يسَّره الله لي مِنْ جمعٍ ، وترتيبٍ ، وتحليلٍ تضمَّنتها فصول هذا الكتاب ، فيما يتعلَّق (بالسِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ في تربية الأمَّة وبناء الدَّولة) فما كان فيه من صوابٍ فهو محض فضل الله عليَّ ، فله الحمد ، والمنَّة ، وما كان فيه من خطأ؛ فأستغفر الله تعالى ، وأتوب إليه ، واللهُ ورسولُه بريءٌ منه ، وحسبي أنِّي كنت حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ ، وعسى ألا أُحرَم مِنَ الأجر.

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين ، وأن يذكرَني مَنْ يقرؤه في دعائه؛ فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى ، وأختمُ هذا الكتاب بقول الله تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [الحشر: ١٠].

وبقول الشَّاعر:

إلهي أَنْتَ للإحسَانِ أَهْلٌ وَمِنْكَ الجُوْدُ وَالفَضْلُ الجَزِيْلُ
إلهي بَاتَ قَلْبِي فِيْ هُمُومٍ وَحَالِي لا يُسَرُّ بِهِ خَلِيْلُ
إلهي تُبْ وجُدْ وَارْحَمْ عُبَيْداً مِنَ الأوزار مَدْمَعُهُ يَسِيْلُ
إلهي ثَوْبُ جِسْمِي دنَّسَتْهُ ذُنُوبٌ حَمْلُها أبداً ثَقِيْلُ
إلهي جُدْ بِعَفْوِكَ لِي فَإِنِّي عَلَى الأَبْوَابِ مَنْكَسِرٌ ذَلِيْلُ
إلهي خَانَنِي جَلَدي وَصَبْرِي وجَاءَ الشَّيْبُ وَاقْتَرَبَ الرَّحِيْلُ
إلهي دَاوِني بِدَوَاءِ عَفوٍ بِهِ يُشْفَى فُؤَادِي والغَلِيْلُ
إلهي ذَابَ قَلْبِي مِنْ ذُنُوبِي وَمِنْ فِعْلِ القَبِيْحِ أَنَا القَتِيْلُ
إلهي قُلْتَ أُدْعُونِي أجبْكُمْ فَهَاكَ العَبْدُ يَدْعُو يَا وَكِيْلُ
إلهي هَذِهِ الأَوْقَاتُ تَمْضِي بِأَعْمَارٍ لَنَا وَبِهَا تَزُوْلُ

وبقول الشَّاعر:

اطْلُب العِلْمَ وَلاَ تَكْسَلْ فَمَا أَبْعَدَ الخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الكَسَلْ

احْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلاَ   تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَحَوَلْ
واهْجُرِ النَّوْمَ وحَصِّلْهُ فَمَنْ   يَعْرِف المِطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ
لاَ تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ   كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك.

* * *

المصادر والمراجع

(أ)

١ . اثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، د. وهبة الزُّحيلي ، دراسةٌ مقارنةٌ ، دار الفكر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

٢ . اثار تطبيق الشَّريعة ، د. محمد عبد الله الزَّاحم ، دار المنار ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.

٣ . افاتٌ على الطَّريق لمحمد سيد نوح ، دار الوفاء ، المنصورة . مصر ، ط: الخامسة ، ١٤٠٠ هـ ١٩٩٠ م.

٤ . أُسْدُ الغابة في معرفة الصَّحابة لعلي بن أبي الكرم (ابن الأثير).

٥ . الأمُّ لمحمَّد بن إدريس الشَّافعي سنة ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م ، طبعة دار الفكر ، بيروت . لبنان.

٦ . الإتقان في علوم القران لعبد الرَّحمن السُّيوطيِّ ، المكتبة الثَّقافية ، بيروت . لبنان ، بدون تاريخ.

٧ . الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب ، د. فاروق مجدلاوي ، دار مجدلاوي . عمَّان ، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٨ . الإصابة في تمييز الصَّحابة لأحمد بن عليٍّ بن حجر العسقلانيِّ ، تحقيق عليٍّ محمَّد البجاويِّ ، دار النَّهضة . مصر.

٩ ـ الاعتصام للإمام الشَّاطبي ، دار الفكر ، الناشر مكتبة الرِّياض الحديثة بالرِّياض.
١٠ ـ الإعلام في صدر الإسلام ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، دار الفكر.
١١ ـ إمتاع الأسماع بما للرَّسول من الأبناء ، والأموال ، والحفدة ، والمتاع للشَّيخ أحمد بن عليٍّ المقريزي ، صحَّحه وشرحه محمود محمَّد شاكر ، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة بالقاهرة ، ١٩٤١ م.
١٢ ـ الأحاديث الواردة في فضائل المدينة لصالح الرِّفاعي ، دار الخضيري ـ المدينة ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤١٨ هـ.
١٣ ـ أحكام الجنائز وبدعها للألباني ، المكتب الإسلاميُّ ـ بيروت.

١٤ ـ أحكام السُّوق في الإسلام لأحمد الدَّرويش ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.
١٥ ـ أحكام القران لأبي بكرٍ محمَّد بن عبد الله المعروف بابن العربي المعافريِّ الأندلسيِّ ، تحقيق: محمَّد عبد القادر عطا ، ط١/١٤٠٨ هـ. دار الكتب العلميَّة ـ بيروت.
١٦ ـ الأخلاق الإسلاميَّة وأسُسها لعبد الرَّحمن حبنكة الميداني ، دار القلم ـ دمشق.
١٧ ـ الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرانيَّة ، لمحمود محمَّد الجوهريِّ.
١٨ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، محمد ناصر الدين الألباني ، إشراف زهير الشاويش.
١٩ ـ الأساس في السُّنَّة ، وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة لسعيد حوَّى ، دار السَّلام بمصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.
٢٠ ـ الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى ، دار السلام ـ مصر.
٢١ ـ أساليب التَّشويق والتَّعزيز في القران الكريم ، د. الحسين جرنو محمود جلو ، مؤسِّسة الرِّسالة ، دار العلوم الإنسانيَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م. ٢٢ ـ أسباب النُّزول ، لأبي الحسن عليِّ بن أحمد الواحديِّ النيسابوريِّ ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
٢٣ ـ أسباب هلاك الأمم السَّالفة لسعيد محمَّد بابا سيلا ، سلسلة الحكمة البريطانيَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.
٢٤ ـ الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام لعبد الله عليِّ السَّلامة مناصرة ، مؤسسة الرِّسالة ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.

٢٥ ـ الإسلام في خندق ، لمصطفى محمود ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ـ مصر ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
٢٦ ـ أصول الفكر السِّياسيّ في القران المكِّي للتجاني عبد القادر حامد ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م ، عمَّان ـ الأردن ، دار البشير.
٢٧ ـ أضواء على الهجرة لتوفيق محمَّد سبع ، مطبعة الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م.
٢٨ ـ أعلام النُّبوة ، للماورديِّ ، الكلِّيات الأزهريَّة.
٢٩ ـ إغاثة اللَّهفان عن مصائد الشَّيطان لابن قيِّم الجوزيَّة ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٨ هـ ١٩٩٨ م.
٣٠ ـ الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي الرَّسول والثَّلاثة الخلفاء ، تأليف أبي الرَّبيع سليمان بن موسى الكلاعيِّ الأندلسيِّ ، عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.

٣١ ـ الأموال ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، مؤسَّسة ناصر الثَّقافية ـ بيروت.
٣٢ ـ الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، عليُّ بن نجيب الزَّهرانيُّ ، دار طيبة ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.
٣٣ ـ أنساب الأشراف ، للبلاذُريِّ ، تحقيق: محمَّد حميد الله ، دار المعارف.
٣٤ ـ الأنساب للسَّمعاني ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة ، حيدر اباد ، الهند ، ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م.
٣٥ ـ الأنساب لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد السَّمعاني ، تحقيق عبد الرَّحمن المعلمي اليمانيِّ ، نشر مجلس دائرة المعارف ـ الهند.
٣٦ ـ أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، د. عليٌّ العليانيُّ ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

(ب)
٣٧ ـ البحر الرَّائق في الزُّهد والرَّقائق ، لأحمد فريد ، دار البخاريِّ ـ القصيم بالسُّعودية ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.

٣٨ . بدائع السَّالك في طبائع الممالك ، لأبي عبد الله بن الأزرق ، تحقيق ، وتعليق علي سامي النَّشار ، منشورات وزارة الإعلام . الجمهوريَّة العراقيَّة.

٣٩ . البداية والنِّهاية لأبي الفداء ابن كثيرٍ الدِّمشقيِّ ، الطَّبعة الأولى . ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ، دار الرَّيان للتُّراث.

٤٠ . بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، لمحمود شكري الالوسي ، تحقيق محمَّد بهجة الأثري ، دار الكتب العلميَّة . بيروت ، الطَّبعة الثَّانية.

٤١ . بناء المجتمع الإسلاميّ في عصر النَّبوَّة ، لمحمَّد توفيق رمضان ، دار ابن كثيرٍ ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

٤٢ . بهجة المحافل ، وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات ، والسِّير ، والشَّمائل ، شرح جمال الدِّين محمَّد الأشخر اليمنيِّ ، دار صادر . بيروت.

(ت)

٤٣ . تأمُّلات في سورة الكهف للشَّيخ أبي الحسن النَّدويِّ ، دار القلم.

٤٤ . تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، د. محمد السَّيد الوكيل ، دار المجتمع ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.

٤٥ . تاريخ الإسلام للذَّهبي ، المغازي ، تحقيق عمر عبد السَّلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

٤٦ . التَّاريخ الإسلاميُّ . مواقف وعبرٌ ، د. عبد العزيز الحميديُّ ، دار الدَّعوة . الإسكندريَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٤٧ . التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، د. السَّيد عبد العزيز سالم.

٤٨ . التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة في عهد الرَّسول (ص) ، استراتيجيَّة الرسول السِّياسيَّة والعسكريَّة ، د. علي معطي ، مؤسَّسة المعارف . بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

٤٩ . تاريخ الطَّبري ، لأبي جعفر محمَّد بن جرير ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان . بيروت.

٥٠ . تاريخ اليهود في بلاد العرب لولفنسون ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٧ م.

٥١ . تاريخ خليفة بن خيَّاط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، النَّجف . ١٩٦٧ م.
٥٢ . تاريخ دولة الإسلام الأولى ، فايد حمَّاد عاشور ، سليمان أبو عزب ، دار قطريٍّ بن الفجاءة . الدَّوحة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.
٥٣ . تاريخ صدر الإسلام ، لعبد الرَّحمن عبد الولي شجاع ، دار الفكر المعاصر ، صنعاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.
٥٤ . التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام لمنير محمَّد الغضبان ، دار السَّلام ، الطبعة الثَّانية ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
٥٥ . التَّحرير والتَّنوير للشَّيخ محمَّد الطَّاهر ابن عاشور، دار الكتب الشَّرقيَّة ، تونس.
٥٦ . تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي لمحمَّد بن عبد الرَّحمن المباركفوري ، مطبعة الاعتماد ، نشر محمَّد عبد المحسن الكتبي ، تصحيح عبد الرَّحمن محمَّد عثمان.
٥٧ . تحفة الأشراف لجمال الدِّين أبو الحجَّاج يوسف بن الزكي عبد الرَّحمن المزِّي ، الدَّار القيِّمة ، سنة الطَّبع: ١٣٨٤ هـ.
٥٨ . التَّربية القياديَّة لمنير الغضبان ، دار الوفاء . المنصورة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.
٥٩ . تفسير أبي السُّعود ، المسمَّى إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لقاضي القضاة أبي السُّعود محمَّد العماديِّ الحنفيِّ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، النَّاشر: مكتبة الرِّياض الحديثة . الرِّياض ، مطبعة السَّعادة ، القاهرة.
٦٠ . تفسير القران العظيم ، لابن كثيرٍ القرشيِّ ، دار الفكر ، ودار القلم ، بيروت . لبنان ، الطَّبعة الثانية.
٦١ . تفسير الالوسي ، المسمَّى روح المعاني في تفسير القران العظيم والسَّبع المثاني ، للالوسي (محمود الالوسي البغدادي) ، إدارة الطِّباعة المصطفائية بالهند ، بدون ذكر سنة الطَّبع.
٦٢ . تفسير البغويِّ المسمَّى معالم التَّنزيل ، للإمام أبي محمَّد الحسين الفرَّاء البغويِّ الشَّافعي ، دار المعرفة ، بيروت . لبنان.
٦٣ . تفسير البيضاويِّ المسمَّى أنوار التنزيل وأسرار التَّأويل ، تأليف الإمام ناصر الدِّين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي ، سنة الطَّبع: ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م . دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
٦٤ . تفسير الرَّازي ، دار إحياء التُّراث العربي . بيروت ، الطَّبعة الثالثة.

٦٥ . تفسير الزمخشري المسمَّى بالكشَّاف ، سنة الطبع: ١٩٦٧ م ، دار المعرفة.
٦٦ . تفسير السَّعدي المسمَّى تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان لعبد الرَّحمن ناصر السَّعدي ، المؤسَّسة السَّعدية بالرِّياض ، ١٩٧٧ م.
٦٧ . تفسير القرطبيّ لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ ، دار إحياء التُّراث العربيّ ، بيروت . لبنان ، ١٩٦٥ م.
٦٨ . تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي ، طبع دار الفكر . بيروت ، الطَّبعة الثالثة ، ١٣٩٤ هـ.
٦٩ . تفسير المنار لمحمَّد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت . لبنان.
٧٠ . التَّفسير المنير ، د. وهبة الزُّحيلي ، دار الفكر المعاصر . بيروت ، دار الفكر . دمشق ، ١٤١١هـ ١٩٩١م ، الطَّبعة الأولى.
٧١ . تفسير النَّسفي المسمَّى بمدارك التنزيل وحقائق التَّأويل ، تأليف الإمام عبد الله أحمد بن محمَّد النَّسفي ، المتوفى سنة ٧١٠هـ ، النَّاشر: دار الكتاب العربيّ . بيروت.
٧٢ . تفسير ابن عطيَّة المسمَّى المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمَّد عبد الحقّ بن عطيَّة الأندلسيّ ، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشَّرعية والشؤون الدِّينيَّة بدولة قطر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
٧٣ . تفسير سورة فصِّلت ، د. محمد صالح علي مصطفى ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
٧٤ . تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ، مكتبة الاداب . القاهرة ، دون ذكر الطَّبعة.
٧٥ . التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة في ضوء القران الكريم ، لمحمَّد السيد حمد يوسف ، دار السَّلام . مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
٧٦ . تنظيمات الرَّسول الإدارية في المدينة ، لصالح أحمد العلي ، مجلَّة المجمَّع العلمي العراقي ، المجلَّد السَّابع عشر ، بغداد ، ١٩٦٩م.
٧٧ . تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ، لجلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ السُّيوطي ، دار إحياء الكتب.

٧٨ . تهذيب مدارج السَّالكين ، لابن القيِّم ، هذَّبه عبد المنعم صالح العلي العزِّي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

(ج)
٧٩ ـ جامع الأصول لابن الأثير (أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد الجزري) المتوفى سنة ٦٠٦هـ ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ، طبع مكتبة الحلواني/سورية ، عام ١٣٩٢هـ.
٨٠ ـ جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب الحنبليِّ ، دار الفكر ، بيروت.
٨١ ـ الجامع لأخلاق الرَّاوي واداب السَّامع للخطيب البغدادي ، مكتبة المعارف بالرِّياض ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٨٢ ـ الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية لمحمد خير هيكل ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م ، دار البيارق ـ عمَّان ـ بيروت.
٨٣ ـ الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح لأبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم ، مطابع المجد.
٨٤ ـ جوامع السِّير لابن حزمٍ عليِّ بن أحمد بن سعيد ، المتوفَّى ٤٥٦هـ ، تحقيق الدُّكتور إحسان عبَّاس ، والدُّكتور ناصر الدِّين الأسد ، طبع دار إحياء السُّنَّة ـ باكستان ، ١٣٦٨هـ.
٨٥ ـ جيل النَّصر المنشود ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة. القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة السَّادسة ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(ح)
٨٦ ـ حاشية ابن عابدين ، مطابع مصطفى البابي ، وأولاده.
٨٧ ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لعبد الرَّحمن بن عليِّ بن محمَّد الشَّيبانيِّ بن الرَّبيع ، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ.
٨٨ ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الدَّيبع الشَّيبانيّ ، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ.
٨٩ ـ حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) ، د. محمَّد بكر ال عابد ، دار الغرب الإسلاميِّ ، الطَّبعة الأولى.
٩٠ ـ الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام في عهد الرَّسول (ص) في مكَّة ، د. عبد الوهاب كحيل ، عالم الكتب ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
٩١ ـ الحركة السَّنوسيَّة في ليبية ، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ـ عمَّان ، طبعة أولى ، ١٩٩٩م.

٩٢ ـ حقوق النَّبيِّ (ص) على أمَّته ، د. محمَّد بن خليفة التَّميميُّ ، دار أضواء السَّلف ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٩٣ ـ الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي ، لعبد العزيز مصطفى كامل ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
٩٤ ـ الحكومة الإسلاميَّة لأبي الأعلى المودودي ، ترجمة أحمد إدريس ، المختار الإسلامي للطِّباعة والنَّشر ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
٩٥ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم: أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، مطبعة السَّعادة ـ مصر ، ١٣٥١ ـ ١٣٧٥م.
٩٦ ـ حوار الرَّسول (ص) مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، دار الوفاء.

(خ)
٩٧ ـ خاتم النَّبيِّين (ص) للشَّيخ محمَّد أبي زهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٧٢م ، دار الفكر ـ بيروت.
٩٨ ـ الخصائص العامَّة للإسلام ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، مصر ، ط: الرَّابعة ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
٩٩ ـ الخصائص الكُبرى ، لعبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت.

(د)
١٠٠ ـ دائرة المعارف الكاثوليكيَّة ، مقال التثليث.
١٠١ ـ الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور للإمام السُّيوطي ، النَّاشر محمَّد أمين دمج ، بيروت ـ لبنان.
١٠٢ ـ دراساتٌ في السِّيرة النَّبويَّة ، د. عماد الدِّين خليل ، الطَّبعة الحادية عشرة ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ، دار النفائس ـ بيروت.
١٠٣ ـ دراساتٌ في عهد النُّبوَّة ، د. عبد الرَّحمن الشُّجاع ، دار الفكر المعاصر ـ صنعاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
١٠٤ ـ دراساتٌ قرانيَّة لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١٠٥ ـ دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصية الرَّسول (ص) ، د. محمد قلعجي ، الطَّبعة الأولى ، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، دار النَّفائس.
١٠٦ ـ الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ليوسف بن عبد البرِّ ، وزارة الأوقاف بمصر ، لجنة إحياء التراث ، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ، القاهرة.
١٠٧ ـ دروسٌ في الكتمان لمحمود شيت خطَّاب ، مكتبة النَّهضة ـ بغداد ، الطَّبعة العاشرة ، ١٩٨٨م.

١٠٨ ـ دستورٌ للأمَّة من القران والسُّنَّة ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، مؤسَّسة علوم القران ، الشَّارقة ـ عجمان ، دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.
١٠٩ ـ الدَّعوة الإسلاميَّة ، لعبد الغفار عزيز.
١١٠ ـ دعوة الله بين التكوين والتَّمكين ، د. علي جريشة ، مكتبة وهبة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
١١١ ـ دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشَّريعة للحافظ أبي بكر أحمد البيهقيِّ ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت.
١١٢ ـ دور المرأة في خدمة الحديث لامال قرداش ، كتاب الأمَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ، الدَّوحة ـ قطر.
١١٣ ـ دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، لكامل سلامة الدقس ، دار عمَّار ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
١١٤ ـ الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور الحرابي ، الطَّبعة الثانية ، ١٩٨٣م ، منشورات جمعية الدَّعوة الإسلاميَّة بليبيا.
١١٥ ـ ديوان أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، حقَّقه وشرحه راجي الأسمر ، دار صادر ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٧م.
١١٦ ـ ديوان شوقي ، الأعمال الشِّعرية الكاملة ، دار العودة ـ بيروت ، طبعة ١٩٨٦م.
١١٧ ـ ديوان عنترة لفاروق الطَّباع ، دار القلم ، بيروت ـ لبنان.

(ر)
١١٨ ـ الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعيَّة ، لأسامة عبد القادر.

١١٩ . الرُّؤيا ضوابطها وتفسيرها ، لهشام الحمصي ، دار الكلم الطَّيب ، دمشق . بيروت ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
١٢٠ . رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة ، د. حسين محمَّد سليمان ، دار الإصلاح . الدَّمام بالسعودية.
١٢١ . الرَّحيق المختوم ، لصفيِّ الرَّحمن المباركفوري ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م ، مؤسَّسة الرِّسالة . لبنان.
١٢٢ . رسالة الأنبياء لعمر أحمد عمر ، دار الحكمة . دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
١٢٣ . الرَّسول القائد (ص) ، محمود شيت خطَّاب ، الطَّبعة الثَّانية ، سنة الطَّبع ١٩٦٠م ، دار مكتبة الحياة ، ومكتبة النَّهضة . بغداد.

١٢٤ . الرَّسول (ص) المبلِّغ ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار القلم . دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
١٢٥ . الرَّسول المعلِّم (ص) وأساليبه في التعليم للشيخ عبد الفتاح أبي غدَّة ، دار مكتب المطبوعات الإسلاميَّة . حلب ، الأولى ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
١٢٦ . روح المعاني (تفسير الالوسي) ، لمحمود الالوسي البغدادي ، دار الفكر ، طبعة ١٤٠٢هـ.
١٢٧ . الرَّوض الأنف في شرح السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام لأبي القاسم السُّهيلي ، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، طبعة ١٣٨٧هـ.

(ز)
١٢٨ . زاد المسير في علم التَّفسير ، لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرحمن بن عليٍّ الجوزيِّ القرشيِّ البغداديِّ، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.
١٢٩ . زاد المعاد في هدي خير العباد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجوزية ، حقَّقه: شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ ، دار الرِّسالة.
١٣٠ . زاد اليقين للاشين أبو شنب ، دار البشير ، طنطا . مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

١٣١ . الزُّهد ، لأحمد بن حنبل ، دار الرَّيان للتُّراث ، القاهرة ـ مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
١٣٢ . زيد بن ثابت ، كاتب الوحي ، وجامع القران لصفوان داودي ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

(س)
١٣٣ . سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصَّالحي ، تحقيق: مصطفى عبد الواحد ، لجنة إحياء التُّراث الإسلاميِّ ، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
١٣٤ . السَّرايا والبعوث النَّبويَّة حول المدينة ومكَّة ، د. بريكك محمَّد بريكك ، دار ابن الجوزي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
١٣٥ . السَّفارات النَّبويَّة ، د. محمد العقيلي ، دار إحياء العلوم ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
١٣٦ . سفراء الرَّسول (ص) ، لمحمود شيت خطاب ، مؤسسة الرَّيان ، دار الأندلس الخضراء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

١٣٧ . سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان السِّجستانيّ ، تحقيق وتعليق عزَّت الدَّعاس ، ١٣٩١هـ ، سورية.
١٣٨ . سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمَّد بن زيد القزوينيِّ ، دار الفكر.
١٣٩ . سنن التِّرمذي للإمام أبي عيسى محمَّد بن عيسى التِّرمذيِّ ، دار الفكر ، ١٣٩٨هـ.
١٤٠ . سنن الدارقطني ، علي بن عمر الدار قطني ، وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم ابادي ، عالم الكتب ، لبنان.
١٤١ . سنن النَّسائي ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النَّسائيِّ ، مطبعة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ، ١٩٦٤م.
١٤٢ . سير أعلام النُّبلاء ، لشمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ.
١٤٣ . السِّير والمغازي لابن إسحاق ، تحقيق سهيل زكَّار ، دار الفكر ، طبعة أولى ١٩٧٨م.

١٤٤ ـ السِّيرة الحلبيَّة في سيرة الأمين المأمون ، علي بن برهان الدِّين الحلبي ، دار المعرفة.
١٤٥ ـ سيرة الرَّسول (ص) ، صورٌ مقتبسةٌ من القران الكريم ، تأليف الأستاذ محمد عزَّة دروزة ، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري ، طبعه على نفقته خليفة ابن حمد ال ثاني . حاكم قطر ، المؤتمر العالمي للسِّيرة النَّبويَّة، ١٤٠٠هـ الدَّوحة.
١٤٦ ـ السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدويِّ ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة ـ القاهرة.
١٤٧ ـ السِّيرة النَّبويَّة دراسةٌ وتحليل لمحمَّد أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م ، عمَّان.
١٤٨ ـ السِّيرة النَّبويَّة، للذَّهبي، تحقيق حسام الدِّين القدسي ، مكتبة هلال ـ بيروت.
١٤٩ ـ السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، د. أكرم العمري ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م مكتبة المعارف والحِكَم بالمدينة المنوَّرة.
١٥٠ ـ السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ ، وبناء دولةٍ ، لصالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م
١٥١ ـ السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ ، د. مصطفى السِّباعي ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، لبنان ، الطبعة التَّاسعة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
١٥٢ ـ السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة لمحمد أبو شهبة ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
١٥٣ ـ السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د. مهدي رزق الله أحمد ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة ـ الرِّياض.

١٥٤ ـ السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستي ، مؤسَّسة الكتب الثَّقافية ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
١٥٥ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام ، دار الفكر ، بدون تاريخ.
١٥٦ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير ، للإمام أبي الفداء إسماعيل ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الطَّبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ ، دار الفكر بيروت ـ لبنان.
١٥٧ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد الصَّوياني ، مؤسَّسة الرَّيان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

(ش)
١٥٨ ـ شذرات الذّهب لعبد الحيّ بن العماد الحنبليّ ، دار إحياء التُّراث العربيّ ـ بيروت.
١٥٩ ـ شرح السُّنّة لأبي محمَّد الحسين بن مسعود البغويّ ، تحقيق: علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلميَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٦٥م ـ القاهرة.
١٦٠ ـ شرح العقيدة الطَّحاويَّة لابن أبي العزّ الحنفي ، تحقيق ، وتعليق ، وتخريج أحاديث ، وتقديم د. عبد الله بن عبد المحسن التُّركي ، وشعيب الأرناؤوط ، ط٤ ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت.
١٦١ ـ شرح المعلَّقات للحسين الزُّوزني ، تحقيق يوسف علي بديوي ، دار ابن كثير ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.
١٦٢ ـ شرح المواهب اللَّدنية ، للقسطلانيّ ، لمحمَّد بن عبد الباقي الزُّرقاني ، دار المعرفة ، بيروت.
١٦٣ ـ شرح النَّووي على صحيح مسلمٍ للإمام النَّوويّ ـ أبو زكريا محيي الدِّين يحيى ابن شرف ، المتوفى ٦٧٦هـ طبع المطبعة المصريَّة ومكتبتها ـ القاهرة ، عام ١٣٤٩هـ.
١٦٤ ـ شرح رسالة التَّعاليم لمحمَّد عبد الله الخطيب ، دار الوفاء.
١٦٥ ـ الشِّفا في التَّعريف بحقوق المصطفى ، للإمام القاضي عياض ، إستانبول ، عثمانيَّة.

(ص)
١٦٦ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشنديّ ، تحقيق محمَّد حسين شمس الدِّين ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
١٦٧ ـ الصَّحابيُّ الشَّاعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، تأليف محمَّد علي كاتبي ، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
١٦٨ ـ صحيح البخاريّ لمحمَّد بن إسماعيل البُخاريّ ، دار الفكر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

١٦٩ ـ صحيح الجامع الصَّغير وزياداته ، لمحمَّد ناصر الدِّين الألباني ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، المكتب الإسلامي ، بيروت ـ لبنان.

١٧٠ . صحيح السِّيرة النَّبويَّة للطَّرهوي ، لمحمَّد رزق ، مكتبة ابن تيميَّة . القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ.
١٧١ . صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، دار النفائس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م.
١٧٢ . صحيح سنن ابن ماجه لناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج . الرِّياض ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
١٧٣ . صحيح مسلمٍ بشرح النَّوويّ ، المطبعة المصريَّة بالأزهر ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٤٧هـ ١٩٢٩م.
١٧٤ . صحيح مسلمٍ ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت . لبنان ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٧٢م.
١٧٥ . الصِّراع مع الصَّليبيِّين لمحمد عبد القادر أبو فارس ، دار البشير . طنطا ، طبعة عام ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
١٧٦ . الصِّراع مع اليهود لمحمد أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
١٧٧ . صفة الصفَّوة لابن الجوزيِّ ، تحقيق: محمود خوري ، ومحمَّد روَّاس قلعجي ، دار المعرفة . بيروت ، الطَّبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ.
١٧٨ . صفة الغرباء ، سلمان العودة ، دار ابن الجوزيِّ ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
١٧٩ . صفوة التَّفاسير للصَّابوني ، دار القران الكريم . بيروت ، الطَّبعة الأولى . عام ١٤٠١هـ.
١٨٠ . صلاح الدِّين الأيوبي لعبد الله علوان.
١٨١ . صلح الحديبية لمحمد أحمد باشميل ، دار الفكر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٧٣م . ١٣٩٣هـ.
١٨٢ . صورٌ من حياة الرَّسول (ص) لأمين دويدار ، الطَّبعة الرَّابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ.
١٨٣ . صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، تأليف: د. محمَّد فوزي فيض الله، دار القلم . دمشق ، الدَّار الشَّاميَّة . بيروت ، الطَّبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(ض)

١٨٤ . ضوابط المصلحة ، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي ، ط٤ ، سنة ١٤٠٢هـ ، مؤسسة الرِّسالة.

(ط)
١٨٥ . الطَّاعة ، والمعصية ، وأثرهما في المجتمع ، غزوة أحد ، لمحمَّد بن صالح العثيمين.
١٨٦ . طبقات الشُّعراء الجاهليِّين ، والإسلاميِّين ، بدون معلومات نشر ، لأبي عبد الله محمَّد بن سلام بن عبد الله الجمحي.
١٨٧ . طبقات ابن سعدٍ الكبرى ، لمحمَّد بن سعد الزُّهري ، دار صادر ، ودار بيروت للطِّباعة والنشر ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.
١٨٨ . طريق النُّبوَّة والرِّسالة ، د. حسين مؤنس ، دار الرَّشاد ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
١٨٩ . الطَّريق إلى المدائن ، لعادل كمال ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، بيروت . لبنان.
١٩٠ . الطَّريق إلى المدينة لمحمد العبده ، دار الجوهرة . عمَّان ، الطَّبعة الثانية ، طبعة ١٩٩٩م.
١٩١ . الطَّريق إلى جماعة المسلمين لحسين بن محسن بن علي جابر ، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ، دار الوفاء بالمنصورة . مصر.

(ظ)
١٩٢ . ظاهرة الإرجاء لسفر الحوالي ، مكتبة الطَّيب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، القاهرة . مصر.

(ع)
١٩٣ . العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي ، مؤسَّسة الرِّسالة . بيروت ، الطَّبعة الثانية عشرة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
١٩٤ . عبد الله بن مسعودٍ ، لعبد الستَّار الشَّيخ ، دار القلم . دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
١٩٥ . العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول (ص) ، لمحمَّد فرج ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٩٧٧م ، دار الفكر العربيِّ . القاهرة.
١٩٦ . عقيدة أهل السُّنة في الصَّحابة ، د. ناصر حسن الشِّيخ ، مكتبة الرُّشد ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

١٩٧ ـ علاج القران الكريم للجريمة ، د. عبد الله الشَّنقيطي ، مكتبة ابن تيميَّة ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣هـ.

١٩٨ ـ العلاقات الخارجية للدَّولة الإسلاميَّة ، د. سعيد عبد الله حارب المهيري ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

١٩٩ ـ علاقة الاباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلامية ، د. سعاد الصَّالح ، الناشر تهامة ـ جدَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠١هـ.

٢٠٠ ـ عمدة القاري ، شرح صحيح البخاريِّ لبدر الدين العيني.

٢٠١ ـ العهد ، والميثاق في القران الكريم ، د. ناصر العمري ، دار العاصمة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٢٠٢ ـ عون المعبود ، شرح سنن أبي داود ، تحقيق عبد الرَّحمن محمد عثمان ، دار الفكر ـ بيروت.

٢٠٣ ـ عيون الأثر في فنون المغازي ، والشَّمائل ، والسير ، لابن سيِّد النَّاس ، دار المعرفة ـ بيروت.

(غ)

٢٠٤ ـ الغرباء الأوَّلون ، سلمان العودة ، الطَّبعة الثَّالثة ، عام ١٤١٢هـ ١٩٩١م ، دار ابن الجوزي ، الدَّمام السُّعودية.

٢٠٥ ـ غزوة أحدٍ لأحمد عزِّ الدين.

٢٠٦ ـ غزوة أحد دراسةٌ دعويَّةٌ لمحمَّد عيظة بن سعيد من مذحج ، دار إشبيليا ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٢٠٧ ـ غزوة أحدٍ ، لمحمد عبد القادر أبو فارس ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ، دار الفرقان ، عمَّان ـ الأردن.

٢٠٨ ـ غزوة الأحزاب لمحمَّد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٢٠٩ ـ غزوة الأحزاب لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفكر ، الطَّبعة الخامسة ، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

٢١٠ ـ غزوة بدر الكبرى الحاسمة لمحمود شيت خطَّاب.

٢١١ ـ غزوة بدر الكبرى ، لمحمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

٢١٢ ـ غزوة بدر الكبرى لمحمد أحمد باشميل ، طبع دار الفكر ، الطَّبعة السادسة ، سنة ١٣٩٤هـ.
٢١٣ ـ غزوة تبوك لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفكر ـ بيروت.

(ف)
٢١٤ ـ فتح الباري لابن حجر العسقلاَّني ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان.
٢١٥ ـ الفتح الرَّبَّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار الشِّهاب ، القاهرة ، بدون تاريخ.
٢١٦ ـ الفتح الرَّبَّاني لأحمد عبد الرحمن السَّاعاتي ، في ترتيب مسند الإمام أحمد: أحمد عبد الرحمن الساعاتي ، مطبعة الفتح الرَّبَّاني بالقاهرة ، الطَّبعة الأولى.
٢١٧ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير: محمد بن علي الشَّوكاني ، دار الفكر.
٢١٨ ـ الفصل في الملل ، والنِّحل ، والأهواء ، لابن حزم ، مكتبة السَّلام العالميَّة.
٢١٩ ـ فصول في السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد المنعم السَّيِّد.
٢٢٠ ـ فقه الإسلام ، شرح بلوغ المرام لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ، مطابع الرَّشيد ـ المدينة المنوَّرة ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٤٠٣ هـ.
٢٢١ ـ فقه الابتلاء لمحمَّد أبو صعيليك ، دار البيارق ، عمَّان ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
٢٢٢ ـ فقه التَّمكين في القران الكريم لعليٍّ محمَّد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ١٩٩٩م.
٢٢٣ ـ فقه الدَّعوة إلى الله لعبد الحليم محمود ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.
٢٢٤ ـ فقه الدَّعوة الفرديَّة ، د. سيد محمَّد نوح ، دار اقرأ ، صنعاء.
٢٢٥ ـ فقه الزَّكاة للقرضاوي ، مكتبة وهبة ، الطَّبعة الحادية والعشرون ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.
٢٢٦ ـ الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، خالد الفهداوي ، دار عمَّار ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.
٢٢٧ ـ فقه السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، معهد البحوث العلميَّة ، وإحياء التراث ـ مكَّة المكرَّمة.

٢٢٨ ـ فقه السيرة ، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي ، الطَّبعة الحادية عشرة ، ١٩٩١ م ، دار الفكر ، دمشق ـ سورية.
٢٢٩ ـ فقه السِّيرة للغزالي ، الطَّبعة الرابعة ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م ، دار القلم ، دمشق ـ سورية.
٢٣٠ ـ فلسفة التَّربية الإسلاميَّة لماجد عرسان الكيلاني ، مكتبة هادي ، مكَّة المكرَّمة ، طبعة عام ١٤٠٩ هـ.

٢٣١ ـ الفوائد لابن القيِّم لمحمَّد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية ، ودار الرَّيان للتُّراث ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
٢٣٢ ـ في السِّيرة النَّبويَّة جوانب الحذر والحماية ، الدُّكتور إبراهيم علي محمَّد أحمد ، الطَّبعة الأولى رجب ١٤١٧ هـ ، وزارة الأوقاف ـ بدولة قطر.
٢٣٣ ـ في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ، الهجرة النَّبويَّة ، الدُّكتور محمَّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمَّان ـ الأردن، الطَّبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
٢٣٤ ـ في ظلال القران لسيِّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة التَّاسعة ، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.

(ق)
٢٣٥ ـ القاموس المحيط لمجد الدِّين محمد الفيروز ابادي ، مطبعة مصطفى البابي وأولاده ـ بمصر ، الطَّبعة الثانية ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.
٢٣٦ ـ قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية ، لمحمد قلعجي ، دار النفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م ، بيروت ـ لبنان.
٢٣٧ ـ قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير، وأثرها في التُّراث العربيِّ، تأليف د. السيد إبراهيم محمَّد، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.
٢٣٨ ـ قضايا في المنهج ، سلمان العودة ، دار مكتبة القدس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
٢٣٩ ـ قضايا نساء النَّبي (ص) والمؤمنات ، حفصة بنت عثمان الخليفي ، دار المسلم الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
٢٤٠ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام: لأبي محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام السلمي (ت٦٦٠ هـ) ، المكتبة الحسينية المصريَّة ، بجوار الأزهر ، الطبَّعة الأولى ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م.

٢٤١ . القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين ، د. محمَّد الطيب النَّجار ، دار اللِّواء ، الرِّياض ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
٢٤٢ . قيادة الرسول السِّياسيَّة ، والعسكريَّة لأحمد راتب عرموش ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٨٩ م.
٢٤٣ . القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، دار القلم ، الطَّبعة الأولى، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

(ك)
٢٤٤ . الكامل في التَّاريخ لابن الأثير ، لأبي الحسن علي بن محمَّد ، دار صادر . بيروت.

(ل)
٢٤٥ . لسان العرب ، محمَّد بن مكرم بن منظور ، دار صادر . بيروت.
٢٤٦ . لقاء المؤمنين ، عدنان النَّحوي ، مطابع الفرزدق التِّجارية ، الرِّياض . السُّعودية ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

(م)
٢٤٧ . ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن علي الحسني النَّدويِّ ، الطَّبعة السابعة ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ، دار المعارف.
٢٤٨ . المال في القران الكريم ، سليمان الحصين ، دار المعراج الدَّوليَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.
٢٤٩ . مباحث في إعجاز القران ، مصطفى مسلم ، دار المسلم ، الرِّياض ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.
٢٥٠ . مباحث في التَّفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق . سورية.
٢٥١ . مباحث في علوم القران ، منَّاع القطان ، مكتبة المعارف . الرِّياض ، الطَّبعة الثامنة ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

٢٥٢ . مبادأى علم الإدارة لمحمَّد نور الدِّين عبد الرزَّاق ، مكتبة الخدمات الحديثة ، جدَّة . السُّعودية ، الطَّبعة الأولى بدون تاريخ.
٢٥٣ . مبادأى نظام الحكم في الإسلام لعبد الحميد متولِّي ، الطَّبعة الأولى ، دار المعارف.
٢٥٤ . المبسوط للسَّرخسيِّ ، شمس الدِّين السَّرخسي ، مطبعة السَّعادة . مصر ، الطَّبعة الأولى.
٢٥٥ . المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوَّة ، د. أكرم العمري ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
٢٥٦ . مجلَّة المجتمع الكويتيَّة ، عدد رقم ٢٤٨ ، ١٧ صفر ١٣٩٩ هـ.
٢٥٧ . مجمع الزَّوائد ، ومنبع الفوائد ، نور الدِّين عليُّ بن أبي بكرٍ الهيثميُّ ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ، دار الكتاب العربي . بيروت.
٢٥٨ . مجموع فتاوى: شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، جمع عبد الرحمن بن محمَّد قاسم العاصمي النَّجدي ، المكتب التعليميُّ السُّعوديُّ بالمغرب.
٢٥٩ . مجموعة الوثائق السِّياسية لمحمد حميد الله ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.
٢٦٠ . محاسن التَّأويل للقاسمي لمحمَّد جمال الدِّين القاسمي، دار الفكر ، بيروت.

٢٦١ . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيَّة ، أبي محمَّد عبد الحق بن غالب الأندلسي ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ، طبعة ١٣٩٥ هـ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمغرب.
٢٦٢ . محمَّد رسول الله ، لمحمَّد الصَّادق عرجون ، دار القلم ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.
٢٦٣ . محمد رسول الله ، لمحمَّد رشيد رضا، دار الكتب العلميَّة . بيروت، ١٩٧٥ م.
٢٦٤ . محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، د. سليمان السّويكت ، مكتبة التَّوبة . الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.
٢٦٥ . المختار من كنوز السُّنَّة ، لمحمَّد عبد الله دراز ، دار الأنصار . القاهرة ، الطَّبعة الثَّانية ١٩٧٨ م.
٢٦٦ . مختصر الصَّواعق المرسلة على الجهمية المعطِّلة لابن قيِّم الجوزيَّة ، اختصره محمد الموصلي ، مكتبة الرِّياض الحديثة.
٢٦٧ . مختصر سيرة الرَّسول (ص) لمحمَّد بن عبد الوهاب ، جامعة الإمام محمَّد بن سعود.
٢٦٨ . مختصر صحيح مسلم ، للحافظ زكي عبد العظيم عبد القويِّ بن سلامة المنذري، تحقيق محمد ناصر الألباني . الطَّبعة الثالثة سنة ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م. المكتب الإسلامي . دمشق.

٢٦٩ ـ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة ، لمحمَّد جمال الدِّين علي محفوظ ، مطابع الهيئة المصريَّة للكتاب بالقاهرة.

٢٧٠ ـ مدخل لفهم السِّيرة ، د. يحي اليحيى ، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها.

٢٧١ ـ المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة ، لأبي فارس ، دار الفرقان ، عمَّان.

٢٧٢ ـ المدينة النَّبوية ، فجر الإسلام ، والعصر الرَّاشدي ، لمحمد حسن شراب ، دار القلم ـ دمشق، الدّار الشَّامية ـ بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.

٢٧٣ ـ المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدِّين كركر ، دار الغرب الإسلاميّ ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٣ م بيروت.

٢٧٤ ـ مرض النَّبيّ (ص) ووفاتُه وأثره على الأمَّة لخالد أبو صالح ، دار الوطن ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ.

٢٧٥ ـ مرويات غزوة أحدٍ ، حسين أحمد الباكري ، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلاميَّة ، إشراف د. أكرم العمري، عام ١٤٠٠ هـ ١٣٩٩ م.

٢٧٦ ـ مرويات غزوة الحديبية ، د. حافظ الحكمي ، دار ابن القيِّم ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.

٢٧٧ ـ مرويات غزوة بدرٍ لأحمد باوزير ، مكتبة طيبة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.

٢٧٨ ـ مرويات غزوة بني المصطلق ، لإبراهيم القريبي ، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلاميَّة ـ المدينة المنورة ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٤٠٢ هـ.

٢٧٩ ـ مساجد القاهرة ومدارسها ، لأحمد فكري ، طبعة الإسكندريَّة ، ١٩٦١ م.

٢٨٠ ـ المستدرك على الصَّحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النَّيسابوري ، وبذيله التَّلخيص للذَّهبي ، ط ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م ، دار النَّشر مكتب المطبوعات الإسلاميَّة.

٢٨١ ـ المستشفيات الإسلاميَّة ، د. عبد الله عبد الرزَّاق مسعود العيد ، دار الضِّياء للنَّشر والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م ، عمَّان ـ الأردن.

٢٨٢ ـ المسْتَطْرَف في كلِّ فنٍّ مُسْتَظْرَف لشهاب الدِّين الأبشيهي ، مكتبة الحياة ـ بيروت.

٢٨٣ ـ المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة لعبد الكريم زيدان ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٢٨٤ . المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة لعبد الرَّحمن أحمد سالم ، دار الفكر العربي ، طبعة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٢٨٥ . المسند لأحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي ، بيروت.

٢٨٦ . المشروع الإسلامي لنهضة الأمَّة قراءةٌ في فكر حسن البنَّا ، لمجموعة من الباحثين ، لم تطبع حتَّى كتابة هذا البحث.

٢٨٧ . مشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزي ، تحقيق: محمَّد ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي . دمشق ، ط١ ، ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م.

٢٨٨ . مصعب بن عمير ، الدَّاعية المجاهد ، لمحمَّد حسن بريغش ، دار القلم . دمشق ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

٢٨٩ . مصنَّف عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزَّاق بن همَّام الصنعاني ، تحقيق: حبيب الرَّحمن الأعظمي ، الطَّبعة الأولى.

٢٩٠ . المطالب العالية بزوائد المسانيد الثَّمانية لأحمد بن علي بن حجر العسقلاَّني ، تحقيق: حبيب الرَّحمن الأعظمي.

٢٩١ . معارك خالد بن الوليد ، د. ياسين سويد ، الطَّبعة الرابعة ١٩٨٩ م ، المؤسَّسة العربيَّة للدراسة والنَّشر.

٢٩٢ . معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، د. مصطفى مسلم محمَّد ، دار المسلم . الرِّياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.

٢٩٣ . المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي ، د. محمد الدِّيك ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م ، دار الفرقان للنَّشر والتَّوزيع.

٢٩٤ . معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر ، ودار بيروت ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

٢٩٥ . معجم الطَّبراني ، لسليمان بن أحمد الطَّبراني ، دار العربيَّة . بغداد ، ١٣٩٨ هـ.

٢٩٦ . المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبراني، ٢٦٠ هـ ٣٦٠ هـ، دار مكتبة العلوم والحكم ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م.

٢٩٧ . معركة الوجود بين القران والتُّلمود ، لعبد السَّتَّار فتح الله السَّعيد ، مكتبة المنار.

٢٩٨ ـ المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميَّة في عهد النُّبوَّة ، وموقف الإسلام منهم ، للدُّكتور سميرة محمَّد جمجوم، دار المجتمع ـ جدَّة، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
٢٩٩ ـ المغازي النبويَّة ، للزُّهري ، تحقيق سهيل زكَّار ، دار الفكر ـ دمشق ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
٣٠٠ ـ مغازي رسول الله (ص) لعروة بن الزُّبير ، تحقيق: د. محمد الأعظمي ، نشر مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.
٣٠١ ـ المغازي للواقديِّ ، المتوفى ٢٠٧ هـ ، تحقيق د. مارسدن جونس ، عالم الكتب ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.
٣٠٢ ـ مفاهيم ينبغي أن تصحَّح ، لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ـ القاهرة ، الطَّبعة الثَّامنة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.
٣٠٣ ـ المفصَّل في أحكام النِّساء ، لعبد الكريم زيدان ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.
٣٠٤ ـ مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة ، د. محمَّد سعد اليوبي ، دار الهجرة ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.
٣٠٥ ـ المقاصد العامَّة للشَّريعة الإسلاميَّة ، يوسف حامد العالم ، الدَّار العلميَّة للكتاب الإسلاميِّ ، ط٢ ، سنة ١٤١٥ هـ ١٩٩٣ م ـ الرِّياض.
٣٠٦ ـ مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقي أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصَّلاح ، طبع دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان.
٣٠٧ ـ مقدِّمة ابن خلدون ، للعلاَّمة عبد الرَّحمن بن محمَّد بن محمَّد بن خلدون ، ط المكتبة التِّجارية الكبرى ـ القاهرة ، بدون تاريخ.
٣٠٨ ـ مقومات الدَّاعية النَّاجح ، د. علي بادحدح ، دار الأندلس الخضراء ـ جدَّة الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
٣٠٩ ـ مقوِّمات السُّفراء في الإسلام ، لحسن فتح الباب ، المجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة ـ القاهرة ، ١٩٧٠ م.
٣١٠ ـ مقوِّمات النَّصر ، د. أحمد أبو الشَّباب ، المكتبة العصريَّة ـ لبنان ، ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
٣١١ ـ مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول (ص) ، للأستاذ أحمد الشَّريف.

٣١٢ ـ ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، لعدنان النَّحوي ، الطَّبعة الثانية.
٣١٣ ـ مِنْ معين السِّيرة لصالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.
٣١٤ ـ من هدي سورة الأنفال ، لمحمَّد أمين المصري ، طبع مكتبة دار الأرقم ـ الكويت.
٣١٥ ـ المنافقون ، لمحمَّد جميل غازي ، مكتبة المدني ومطبعتها ، ١٩٧٢ م ، جدَّة ـ السُّعودية.
٣١٦ ـ منامات الرَّسول (ص) ، لعبد القادر الشَّيخ إبراهيم ، دار القلم العربي بحلب ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.
٣١٧ ـ مناهج واداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم ، د. عبد الرحمن البر ، دار اليقين ـ المنصورة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
٣١٨ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد ابن الجوزي ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان.
٣١٩ ـ منهاج السُّنَّة النَّبويَّة ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة ، مؤسَّسة قرطبة للطِّباعة ، والنَّشر ، والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٨٦ م.
٣٢٠ ـ المنهاج القرانيُّ في التَّشريع لعبد السَّتار فتح الله سعيد ، مطابع دار الطِّباعة الإسلاميَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.
٣٢١ ـ منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، لسليم حجازي ، دار المنارة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.
٣٢٢ ـ منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون ، دار نور المكتبات ، دار ابن حزم ، الطَّبعة الثانية ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
٣٢٣ ـ المنهج التربويُّ للسِّيرة النَّبويَّة ـ التَّربية الجهاديَّة لمنير محمَّد الغضبان ، مكتبة المنار ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
٣٢٤ ـ منهج التَّربية الإسلاميَّة لمحمد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.
٣٢٥ ـ المنهج الحركيُّ للسِّيرة النَّبويَّة لمنير محمَّد الغضبان ، مكتبة المنار ـ الأردن ، الطَّبعة الثالثة ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.

٣٢٦ ـ منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه ، للسَّيِّد محمَّد نوح ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م ، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة المتَّحدة.

٣٢٧ ـ الموازنة بين ذوق السَّماع ، وذوق الصَّلاة ، والقران للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة ، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد.

٣٢٨ ـ الموافقات في أصول الأحكام لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشَّاطبي ، دار الفكر ، ١٣٤١ هـ.

٣٢٩ ـ الموسوعة في سماحة الإسلام لمحمَّد صادق عرجون ، ط الثَّانية ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م ، الدَّار السُّعودية للنَّشر ، والتَّوزيع ـ جدَّة.

(ن)

٣٣٠ ـ نشأة الدَّولة الإسلاميَّة ، د. عون الشَّريف قاسم ، دار الكتاب اللُّبناني ـ بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.

٣٣١ ـ نصب الرَّاية في أحاديث الهداية ـ بحاشية بغية الألمعي في تخريج الزَّيلعي ، لعبد الله بن يوسف بن محمد الزَّيلعي ، المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٣٩٣ هـ.

٣٣٢ ـ نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي ، لظافر القاسمي ، دار النفائس ، الطَّبعة السادسة ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.

٣٣٣ ـ نظام الحكومة النَّبويَّة المسمَّى: التَّراتيب الإداريَّة ، لمحمَّد عبد الحيِّ الكتَّاني ، دار الأرقم ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية.

٣٣٤ ـ النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لمحمَّد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.

٣٣٥ ـ نظراتٌ في السِّيرة ، للإمام حسن البنَّا ، مكتبة الاعتصام ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ، سجَّلها ، وأعدَّها للنشر أحمد عيسى عاشور.

٣٣٦ ـ نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم ، إعداد مجموعة من المختصِّين بإشراف صالح بن حميد ، دار الوسيلة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ

٣٣٧ ـ نفوسٌ ودروسٌ في إطار التَّصوير القرانيِّ لتوفيق محمَّد سبع ، مجمع البحوث الإسلاميَّة ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، بدون تاريخ.

٣٣٨ . النُّكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن حبيب الماورديِّ ، تحقيق خضر محمَّد خضر . نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة ، والتُّراث الإسلاميِّ . بالكويت.
٣٣٩ . النِّهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزَّاوي ، ومحمود محمَّد الطناحي.
٣٤٠ . نور اليقين ، لمحمَّد الخضري ، دار القلم ، دمشق . سورية.

٣٤١ . نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيِّد الأخيار ، لمحمَّد بن علي الشَّوكاني ، دار الحديث . القاهرة.

(هـ)
٣٤٢ . الهجرة الأولى في الإسلام ، د. سليمان العودة ، دار طيبة للنَّشر . الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ.
٣٤٣ . هجرة الرَّسول (ص) وصحابتُه في القران والسُّنَّة لأحمد عبد الغني النجولي الجمل ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.
٣٤٤ . الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، دار الكلمة ، المنصورة . مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
٣٤٥ . الهجرة في القران الكريم لأحزمي سامعون جزولي ، مكتبة الرُّشد . الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
٣٤٦ . هذا الحبيب محمَّد (ص) يا محبُّ لأبي بكر الجزائري ، مكتبة لينة.
٣٤٧ . هذا الدِّين ، لسيِّد قطب ، دار الشُّروق ، القاهرة . مصر ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.
(و)
٣٤٨ . واقعنا المعاصر لمحمَّد قطب ، مؤسَّسة المدينة للصَّحافة ، والطِّباعة ، والنَّشر . جدَّة ، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.
٣٤٩ . الوحي والرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع.
٣٥٠ . الوسطية في القران الكريم ، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي ، دار النَّفائس ، دار البيارق ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.

٣٥١ ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي ، دار المصطفى ، طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ.
٣٥٢ ـ الوفود في العهد المكّيِ ، وأثره الإعلاميِّ ، لعلي رضوان أحمد الأسطل ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م ، دار المنار ـ الأردن ، عمَّان.
٣٥٣ ـ وقفاتٌ تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة لأحمد فريد ، دار طيبة ، الرِّياض ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.
٣٥٤ ـ وقفاتٌ تربويَّةٌ من السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد الحميد البلالي ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م ، المنار ، الكويت.
٣٥٥ ـ الولاء ، والبراء في الإسلام ، لمحمَّد سعيد القحطان ، دار طيبة ـ الرِّياض ، الطَّبعة السَّادسة ١٤١٣ هـ.

٣٥٦ ـ ولاية الشُّرطة في الإسلام ، لنمر محمَّد الحميداني ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

(ى)
٣٥٧ ـ يقظةُ أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار ، لصدِّيق حسن.
٣٥٨ ـ اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، د. عبد الله الشقاري ، دار طيبة ـ الرِّياض ، طبعة أولى ، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
٣٥٩ ـ اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، د. عمر الأشقر ، مكتبة الفلاح ـ الكويت ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

.[١]ينظر الشكل (١١) في الصقحة (٧٥٥).
.[٢]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠.
.[٣]انظر: مغازي الواقديِّ (٢/٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥).

.[٤]انظر: مغازي الواقدي (٢/٦١٠).
.[٥]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢/٣٤٢).

.[٦]العيبة هنا مثلٌ: والمعنى: أنَّ بيننا صدوراً سليمةً في المحافظة على العهد؛ الَّذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره بالعيبة التي هي وعاءٌ من جلدٍ تُصان فيه الثياب. وقوله: لا إسلال ، ولا إغلال: تعني: الإسلال من السَّلَّة ، وهي السَّرقة ، والإغلال أي: الخيانة والمعنى العام: أن بعضنا يأمن بعضاً على نفسه ، وماله ، فلا يتعرَّض لدمه ، ولا لماله.
.[٧]انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي، د. محمد الدِّيك ، ص ٢٧٠، ٢٧١.

.[٨]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

.[٩]انظر: زاد المعاد ، لابن القيِّم (٣/٣٠٦).
.[١٠]المصدر السابق نفسه (٣/٣٠٦).
.[١١]انظر المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٢.
.[١٢]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٨٠.
.[١٣]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

.[١٤]انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٣.

.[١٥]انظر: السَّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٣٤٧).
.[١٦]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (٤/٢٧٥).
.[١٧]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٣٢٢ إلى ٣٢٥.

.[١٨]انظر: من معين السِّيرة ص ٣٣٣.
.[١٩]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٦٣٤).
.[٢٠]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٣٤٦).
.[٢١]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٧٠.
.[٢٢]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد رسول الله (ص) ، ص ٤٩٥.

.[٢٣]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ١٣٤ ، ١٣٥.
.[٢٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٣٤٨) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة.
.[٢٥]البَرَّة: حلقةٌ تُجعل في أنف البعير ليذلَّ ، ويرتاض.
.[٢٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٣٤٩) ، وتحفة الأحوذي، للمباركفوري (كتاب الحج).
.[٢٧]انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، ص ١٦١.

.[٢٨]انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٣.

.[٢٩]انظر: تأمُّلات في السِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد السَّيِّد الوكيل ، ص ٢١١.
.[٣٠]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص٢٤٣.

.[٣١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٤٩).

.[٣٢]انظر: حديث القران الكريم (٢/٥٤٨ إلى ٥٥٥).

.[٣٣]انظر: التربية القيادية (٤/٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢).
.[٣٤]انظر: في ظلال القران (٦/٢٦/٣٣٣٣).
.[٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٣٥١).

. المصدر السابق نفسه (٣/٣٥١ ، ٣٥٢).
. انظر: زاد المعاد (٣/٣٠٩).

.[٣٦]انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣٢٩.
.[٣٧]انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/٣٥٣).
.[٣٨]مِسْعَر: موقد حربٍ ومهيجها.
.[٣٩]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/٢٨١).

.[٤٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٥١).
.[٤١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٢٩٦.
.[٤٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٥٢).

.[٤٣]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٢٠.
.[٤٤]انظر: تفسير القرطبي (١٨/٦٣).
.[٤٥]انظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٥١).

.[٤٦]انظر: تفسير القرطبي (٦٨/١٨) ، وحديث القران الكريم (٥٤٥/٢).

.[٤٧]انظر: حديث القران الكريم (٥٤٥/٢).

.[٤٨]انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٢/٤).

.[٤٩]انظر: تفسير ابن كثير (٢٥٢/٤).

.[٥٠]انظر: تفسير أبي السعود (٢٤٠/٨).

.[٥١]انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٢/٤).

.[٥٢]المصدر السابق نفسه ، شرح الحديث السابق (٤١٥/٥).

.[٥٣]انظر: غزوة الحديبية ، ص ١٧٨.

.[٥٤]انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، لدروزة (٣٥٤/٢).

.[٥٥]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٣٦٧.

. انظر: زاد المعاد (٣٠٤/٣)، باب ما جاء في القيام.

. انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص ٢٤١.

. انظر: زاد المعاد (٣٠٥/٣).

. المصدر السابق نفسه (٣٠٥/٣).

.[٥٦]انظر: غزوة الحديبية للحكمي ، ص ٣٠٣.

.[٥٧]فتح الباري (٢٢٥/١٠).

.[٥٨]أثر سماء: المقصود: المطر.

.[٥٩]الأنواء: ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة.

.[٦٠]الأم (٢٥٢/١).

.[٦١]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٠٤.

.[٦٢]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٠٥.

.[٦٣]هو عبد الرحمن بن أبي قرد رضي الله عنه ، الترغيب والتَّرهيب (٥٨٩/٣).

.[٦٤]يتهافت: يتساقط. النهاية (٥/٢٦٦).

.[٦٥]الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش ، والمراد القمل.

.[٦٦]انسك: اذبح. النهاية (٥/٤٨).

.[٦٧]أسامة بن عمير الهذلي البصري صحابيٌّ تفرَّد ولده عنه.

.[٦٨]فتح الباري (٢/١٨٤) ، غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٢٢١.

.[٦٩]انظر: مغازي الواقدي (٢/٦١٦).

.[٧٠]انظر: الطَّبقات الكبرى (٢/٩٨).

.[٧١]انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (٢/٢١٠).

.[٧٢]انظر: غزوة الحديبية ، ص ٢٥١.

.[٧٣]يكلؤنا: يحرسنا.

.[٧٤]انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/١٨١ ـ ١٨٢) وغزوة الحديبية ، ص ٢٥٨.

.[٧٥]انظر: البداية والنهاية (٤/٢١٣).

.[٧٦]فتح الباري (١/٤٤٩) ، وشرح الزرقاني على الموطأ (١/٤٧).

.[٧٧]انظر: تنوير الحوالك (١/٣٣).

.[٧٨]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٤٢.

.[٧٩]انظر: فتح القدير (٥/٥٤٦) ، وغزوة الحديبية ، ص ٢٩٤.

.[٨٠]انظر: غزوة الحديبية ، ص ٢٩٥.

.[٨١]اثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، للدكتور وهبة الزُّحيلي ، ص ٦٨٠.

.[٨٢]انظر: اثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، للزُّحيلي ، ص ٦٧٥.

.[٨٣]انظر اثار الحرب في الفقه الإسلامي ، للزحيلي ، ص ٦٧٥.

.[٨٤]انظر: تفسير الطَّبري (٩/٢٤ ـ ٢٦).

.[٨٥]انظر: تفسير القرطبي (٥/٣٠٨).

.[٨٦]انظر: في ظلال القران (١٤٣٣/٣) وما بعدها.
.[٨٧]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٢٩٦.
.[٨٨]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٩٧ .
.[٨٩]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٣.
.[٩٠]المصدر السابق نفسه.

.[٩١]المصدر السابق نفسه.
.[٩٢]انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (٦٢٢/٢).
.[٩٣]انظر: مرويات غزوة الحديبية ، ص ٣١٥.

.[٩٤]انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٥ .
.[٩٥]انظر: العبادة في الإسلام ، للقرضاويِّ ، ص ٦٦.
.[٩٦]انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٦ ، لقد استفدت في فصل غزوة الحديبية استفادة كبيرة من كتاب مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، وصلح الحديبية ، لباشميل ، وغزوة الحديبية ، لأبي فارس ، وكانت هذه الكتب هي العمدة في هذا الفصل ، كما استفدت من غيرها كمراجع ومصادر.

.[٩٧]انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٤٥٥/٣) . معلقاً. وينظر الشكل (١٢) في الصفحة (٧٥٦).
.[٩٨]انظر: المغازي (٦٣٤/٢).
.[٩٩]انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (١٠٦/٢).
.[١٠٠]انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر (٣٣/١).
.[١٠١]انظر: الفتح (٤١/١٦) ، والسِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٠ .
.[١٠٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٠ .

.[١٠٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣١٩/١).
.[١٠٤]المصدر السابق نفسه.

.[١٠٥]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٤٩).

.[١٠٦]انظر: فتح الباري (٧/٥٣٠).

.[١٠٧]انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/٣٠).

.[١٠٨]انظر: المغازي ، للواقدي (٢/٦١٠ ـ ٦٤١).

.[١٠٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/٤٥).

.[١١٠]المساحي: جمع ، ومفردها: مسحاة ، والمسحاة: المجرفة من الحديد.

.[١١١]المكاتل: جمع مكتل ، وهو المقطف الكبير.

.[١١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٠١.

.[١١٣]المصدر السابق نفسه.

.[١١٤]انظر: الواقدي (٢/٦٥٧).

.[١١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ٥٠٢.

.[١١٦]المصدر السابق نفسه.

.[١١٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣٢٤).

.[١١٨]المصدر السابق نفسه.

.[١١٩]انظر: الواقدي (٢/٦٥٨ ـ ٦٧١).

.[١٢٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٤.

.[١٢١]المصدر السابق نفسه.

.[١٢٢]المصدر السابق نفسه.

.[١٢٣]المصدر السابق نفسه.

.[١٢٤]انظر: مغازي الواقديِّ (٢/٦٩٩).

.[١٢٥]انظر: تاريخ خليفة ، ص ٨٥ نقلاً عن ابن إسحاق.

.[١٢٦]زاد المعاد (٣/٣٥٤ ـ ٣٥٥).

.[١٢٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٠٤.
.[١٢٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣٢٧).
.[١٢٩]انظر: المغازي (٢/٧٠٠).

.[١٣٠]انظر: زاد المعاد (٣/٣٢٣، ٣٢٤) والسِّيرة الحلبيَّة (٣/٣٩)، وابن كثير في البداية والنِّهاية.
.[١٣١]الشَّاذ: الَّذي يفارق الجماعة ، الفاذُّ: الَّذي لم يختلط بالجماعة.

.[١٣٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٥٣.
.[١٣٣]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٣٥٠.

.[١٣٤]انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ٥٣٥.
.[١٣٥]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (٣/٩٦).
.[١٣٦]المصدر السابق نفسه (٣/١٤٠).

.[١٣٧]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (٣/١٤١ ـ ١٤٢).
.[١٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٤١٩).
.[١٣٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣٢٨).
.[١٤٠]الفَدَعُ: عوجٌ في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها.
.[١٤١]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩.
.[١٤٢]المِسْك: الجلد عامَّة ، أو جلد السَّخلة خاصَّة (السَّخلة: ولد الشاة).

.[١٤٣]انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (١/٣٢٦) ، ونصب الرَّاية للزَّيلعي (كتاب السِّيرَ) فصل: باب الغنائم وقسمتها.
.[١٤٤]السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ، وتاريخ الإسلام ، للذهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص٤٢٤.
.[١٤٥]الخرص: الحَزْرُ ، والحدْس ، والتَّخمين. وخرَّص العدد: أي قدَّره تقديراً بظنٍّ لا إحاطةٍ.
.[١٤٦]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص ٤٢٤.

.[١٤٧]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٥٢.
.[١٤٨]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٠١/٣).

.[١٤٩]انظر: السَّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٨٤/٢).
.[١٥٠]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٢٢/٣).
.[١٥١]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٤٥/٣).

.[١٥٢]انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٢٣٣/٢) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة (كتاب النساء).
.[١٥٣]انظر: زاد المعاد (٣٢٨/٣) ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة لابن هشام (بناء النَّبيِّ (ص) بصفيَّة ، وحراسة أبي أيوب للقُبَّة) ، وكنز العمال (للمتَّقي الهندي).
.[١٥٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٨٥/٢).
.[١٥٥]المصدر السابق نفسه.

.[١٥٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٨٥/٢).

.[١٥٧]البخاري ، كتاب الجزية والموادعة ، حديث رقم (٣١٦٩).
.[١٥٨]انظر: بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (١٢٣/٢١).
.[١٥٩]انظر: مغازي رسول الله (ص) ، لعروة بن الزبير، ص١٩٨ ، والبداية والنهاية ، وكتاب المغازي والسير (باب غزوة خيبر).
.[١٦٠]زاد المعاد (٣٣٦/٣).
.[١٦١]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٢١/٣).
.[١٦٢]أبهري: عرق مستبطن بالظَّهر متَّصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
.[١٦٣]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٥٧٧٧) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام ، وزيادة الجامع الصَّغير للسُّيوطي.

.[١٦٤]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويّة ، ص ٤٥٩.
.[١٦٥]انظر: تاريخ الذَّهبي ، والمغازي ، ص ٤٣٩.

.[١٦٦]انظر: زاد المعاد (١٢٢/٤ ـ ١٢٣).

.[١٦٧]انظر: الطبقات (١١٣/٢).

.[١٦٨]انظر: الرَّوض الأنف (٤١/٤).

.[١٦٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٣٤/٣).

.[١٧٠]المصدر السابق نفسه.

.[١٧١]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٣٢١.

.[١٧٢]انظر: خاتم النبيين (١١٠٤/٢) ، والصراع مع اليهود (١٣٦/٣).

.[١٧٣]انظر: البداية والنِّهاية (٢٠٥/٤).

.[١٧٤]انظر: فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص ٥٣٤.

.[١٧٥]انظر: نضرة النَّعيم (٣٥٣/١).

.[١٧٦]المصدر السابق نفسه.

.[١٧٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٢٢١.

.[١٧٨]ينظر الشكلان (١٣ و١٤) في الصفحتين (٧٥٧ و٧٥٨).

.[١٧٩]انظر: السَّفارات النَّبويَّة ، د. محمَّد العقيلي ، ص ١٥.

.[١٨٠]انظر: العلاقات الخارجيَّة للدَّولة الإسلاميَّة ، د. سعيد المهجر ، ص ١١٢.

.[١٨١]انظر: نضرة النَّعيم (٣٤٤/١) ، وقد اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرَّسائل.

.[١٨٢]شرح المواهب اللَّدنية (٣٤١/٣).

.[١٨٣]كانت الرسالة في محرم سنة ٧ هـ كما في زاد المعاد.

.[١٨٤]انظر: نضرة النَّعيم (٣٤٦/١).

.[١٨٥]المصدر السَّابق نفسه.

.[١٨٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٥٩).
.[١٨٧]انظر: الطَّبقات الكبرى (١/٢٦٠ ـ ٢٦١).
.[١٨٨]البداية والنِّهاية (٥/٣٤٠).
.[١٨٩]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٦٥٢).
.[١٩٠]كان صاحب اليمامة ، ومات بعد فتح مكة بقليل.
.[١٩١]انظر: صبح الأعشى ، للقلقشندي (٦/٣٦٨).

.[١٩٢]انظر: صبح الأعشى (٦/٣٧٦).
.[١٩٣]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٤٨).

.[١٩٤]انظر: سفراء الرَّسول (ص) لمحمود شيت خطاب (٢/٢٥٨).
.[١٩٥]المصدر السابق نفسه (٢/٢٧٨).
.[١٩٦]الفقه السِّياسيُّ للوثائق النَّبويَّة ، لخالد الفهداوي ، ص ١١٤.

.[١٩٧]انظر: الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، وقد نقل عن سفراء الرَّسول (ص) (٢/٣٠١).
.[١٩٨]انظر: مقوِّمات السُّفراء في الإسلام ، لحسن فتح الباب ، ص ٦٠.

.[١٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٤.
.[٢٠٠]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٠٥.
.[٢٠١]وقد ذهب إلى ما ذهب إليه العلامة النَّدويُّ الدُّكتور معروف الدَّواليبي في الأريسيين يؤيِّد ما قاله النَّدوي: أنَّ النَّبيَّ (ص) إنَّما عنى بقوله: «فإن توليت فإنَّ عليك إثم اليريسيين» أتباع أريوس الفرقة المسيحيَّة الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النَّافية لألوهيته ، وقد جاء هذا البحث القيِّم في رسالة: نظرات إسلاميَّة ، ص ٦٨ ـ ٨٣ ، وانظر: السِّيرة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٧.
.[٢٠٢]انظر: مشكل الاثار (٣/٣٩٩).

.[٢٠٣]انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للنَّدوي ، ص ٣٨ ـ ٣٩.
.[٢٠٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٢٩٠.

.[٢٠٥]انظر: تاريخ الطبَّري (٣/٩٠ ـ ٩١) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة.

.[٢٠٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٠.

.[٢٠٧]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠.

.[٢٠٨]غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٤٢ ، ونصب الراية ، للزيلعي.

.[٢٠٩]المصدر السَّابق نفسه.

.[٢١٠]انظر: زاد المعاد (٥/٩١).

.[٢١١]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٤٣.

.[٢١٢]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص ٣٥١.

.[٢١٣]ينظر الشكل (١٥) في الصفحة (٧٥٩).

.[٢١٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، ص ٤٦٤.

.[٢١٥]انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣١٠.

.[٢١٦]صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٧.

.[٢١٧]موضع قرب مكَّة على ثمانية أميالٍ منها.

.[٢١٨]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٨.

.[٢١٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧٥.

.[٢٢٠]المصدر السَّابق نفسه ، ص ٢٧٧.

.[٢٢١]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٥٣.

.[٢٢٢]انظر: صلح الحديبية ، ص ٢٧٧.

.[٢٢٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٨١.

.[٢٢٤]انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣١٤.

.[٢٢٥]أضعفتهم.

.[٢٢٦]الاضطباع: هو أن يدخل بعض ردائه تحت عضده اليمين ، ويجعل طرفه على منكبه.
.[٢٢٧]صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٤٨١.
.[٢٢٨]انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ ، ص ٣١٥.

.[٢٢٩]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص ٢٨٢.
.[٢٣٠]انظر: زاد المعاد (٣/٣٧١).
.[٢٣١]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص ٢٧٠.
.[٢٣٢]المصدر السابق نفسه ، ص٢٧٧.
.[٢٣٣]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٣٢٦.

.[٢٣٤]انظر: هذا الحبيب محمَّد (ص) يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص ٣٧٥.
.[٢٣٥]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٥٨.
.[٢٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٢١.

.[٢٣٧]انظر: زاد المعاد ، وفيه تفصيل كثير (٣/٣٧٤ ، ٣٧٥) ، وصلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧.

.[٢٣٨]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠.
.[٢٣٩]انظر: عبقرية محمَّد (ص) ، ص ٦٩.
.[٢٤٠]الأدم: الجلد.
.[٢٤١]أجزأت عنها: كفيتها.

.[٢٤٢]استقام المنسم: تبين الطَّريق ، ووضح.
.[٢٤٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٩٤.

.[٢٤٤]أي: هم قليل ، يشبعهم رأسٌ واحدٌ ، وهو جمع اكل.
.[٢٤٥]الذَّنوب: الدلو العظيمة.

.[٢٤٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٣٩ ، ٢٤٠) ، والتَّاريخ الإسلامي (٧/٩٥).
.[٢٤٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/٩٠).

.[٢٤٨]المصدر السابق نفسه.
.[٢٤٩]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٣.
.[٢٥٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/٩٥).
.[٢٥١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/٩٥).
.[٢٥٢]المصدر السابق نفسه ، (٧/٩٦).

.[٢٥٣]ينظر الشكل (١٦) في الصفحة (٧٦٠).
.[٢٥٤]انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النَّبوَّة ، لعبد الرحمن أحمد سالم ، ص ٨٧.
.[٢٥٥]انظر: تاريخ الطَّبري (٣/١٠٣) ، والإصابة ، لابن حجر ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام ، ومحمَّد (ص) ، لمحمد رضا (ما قبل سرية مؤتة من الحوادث).
.[٢٥٦]انظر: خاتم النَّبيِّين (ص) (٢/١١٣٩) نقلاً عن الصِّراع مع الصَّليبيين ، لأبي فارس ، ص ٢٠.
.[٢٥٧]انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص ٢٠.
.[٢٥٨]انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، ص ٨٩.
.[٢٥٩]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٠.
.[٢٦٠]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٧٨٧).
.[٢٦١]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢١.

.[٢٦٢]انظر: المغازي (٢/٧٥٧ ـ ٧٥٨).
.[٢٦٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٢١).
.[٢٦٤]انظر: مغازي رسول الله (ص) لعروة بن الزُّبير ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

.[٢٦٥]انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٢/٢٧١).
.[٢٦٦]انظر: زاد المعاد (٣/٣٨٢).

.[٢٦٧]انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر (٣٩٦/١).

.[٢٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٦٨/٢).

.[٢٦٩]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٥٨.

.[٢٧٠]إن أجْلبَ القوم: صاحوا ، واجتمعوا.

.[٢٧١]الرَّنة: صوت ترجيع شبه البكاء.

.[٢٧٢]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٦١.

.[٢٧٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٧/٤).

.[٢٧٤]انظر: إمتاع الأسماع (٣٤٨/١ . ٣٤٩).

.[٢٧٥]البداية والنِّهاية (٢٤٧/٤) ، والواقدي (٧٦٤/٢).

.[٢٧٦]انظر: معارك خالد بن الوليد ، د. ياسين سويد ، ص ١٧٣.

.[٢٧٧]المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٥.

.[٢٧٨]انظر: نضرة النَّعيم (٣٦٠/١).

.[٢٧٩]انظر: البداية والنِّهاية (٢٥٥/٤).

.[٢٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٢٨ ، وتاريخ الذهبي ، ص ٤٩١ ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، وقال: هذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة.

.[٢٨١]انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٣٥٨.

.[٢٨٢]انظر: الصِّراع مع الصليبيِّين ، ص ٦٤.

.[٢٨٣]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٦.

.[٢٨٤]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٦٨.

.[٢٨٥]انظر: البداية والنِّهاية (٢٥٢/٤).

.[٢٨٦]المصدر السابق نفسه.

.[٢٨٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٤٣٠/٢).

.[٢٨٨]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٥٣).
.[٢٨٩]المصدر السابق نفسه.
.[٢٩٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/١٢٤).
.[٢٩١]انظر: من معين السيرة ، للشَّامي ، ص ٣٧٦.

.[٢٩٢]مدَديٌّ أي: جاء مدداً ، وفي رواية: رجل من حمير.

.[٢٩٣]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/١٣٠).
.[٢٩٤]انظر: من معين السيرة ، ص ٣٧٨.
.[٢٩٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٢٤ ، ٢٥).

.[٢٩٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٥٩).
.[٢٩٧]أحنُّ: من الحنين ، وفي رواية: أخنُّ: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.
.[٢٩٨]أتململ: أتقلب متبرماً بمضجعي.
.[٢٩٩]يريد: أنَّه بات يرعى النُّجوم طول ليله من طول السُّهاد.
.[٣٠٠]المدخل: النافذ إلى الدَّاخل.
.[٣٠١]المسبل: الممطر.
.[٣٠٢]صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون ، ينكلوا: يرجعوا خائبين.
.[٣٠٣]فُنُق: الفحول من الإبل.
.[٣٠٤]المرْفَل: الَّذي تنجرُّ أطرافه على الأرض ، يريد أن دروعهم سابغة.
.[٣٠٥]تأفِلُ: تغيب ، انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٣٣ ، ٣٤).

.[٣٠٦]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/٤٧١).
.[٣٠٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/٤٣٣).
.[٣٠٨]جيش سريَّة ذات السَّلاسل.

.[٣٠٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (١٣٣/٧).
.[٣١٠]انظر: مغازي رسول الله (ص) لعروة ، ص ٢٠٧ ، وأسانيدها ضعيفةٌ ، والبداية والنِّهاية لابن كثير غزوة ذات السَّلاسل.
.[٣١١]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٠٩.

.[٣١٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٠٩.
.[٣١٣]المصدر السابق نفسه.
.[٣١٤]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٥٤٠.
.[٣١٥]انظر: صحيح السيرة النَّبوية ، ص ٥٠٩ ، وقال إبراهيم العلي: الحديث إسناده صحيح.

.[٣١٦]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢١٠.
.[٣١٧]القائل هو: صالح أحمد الشَّامي ، صاحب (من معين السِّيرة) ، ص ٣٨١.
.[٣١٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٨١.
.[٣١٩]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٧٠.

.[٣٢٠]الإعلام في صدر الإسلام ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، ص ١٧٣.
.[٣٢١]انظر: منهج الإعلام الإسلامي ، ص ٣٣٧.

.[٣٢٢]ينظر الشكل (١٧) في الصفحة (٧٦١).
.[٣٢٣]انظر: الواقدي (٧٨١/٢ ـ ٧٨٤).
.[٣٢٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٣٩/٤) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير.
.[٣٢٥]يريد: أنَّ أم عبد مناف ، وأمَّ قصير خزاعيتان.

.[٣٢٦]أي: تدفعوا دية قتلاهم.
.[٣٢٧]السَّبد: الشَّعر ، واللَّبد: الصُّوف ، يعني: إن فعلنا ذلك؛ لم يبق لنا شيء.
.[٣٢٨]انظر: المطالب العالية (٢٤٣/٤) رقم ٤٣٦١ ، قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.
.[٣٢٩]انظر: التَّاريخ الإسلامي (١٦٤/٧).

.[٣٣٠]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ٣٦٥.
.[٣٣١]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٤٧٩) ، والإصابة ، لابن حجر ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا (غزوة فتح مكة).

.[٣٣٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٩٥.
.[٣٣٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميَّ (٧/١٧٠ ، ١٧١).
.[٣٣٤]انظر: السِّيرة ، لأبي فارس ، ص ٤٠١.

.[٣٣٥]انظر: الكامل في التاريخ (٢/٢٤٤) ، والتَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ٣٦٦.
.[٣٣٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٨٢) ، والرَّسول القائد (ص) ، لمحمود شيت خطاب ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤.
.[٣٣٧]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦.
.[٣٣٨]بطن إضَم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان ، وقناة ، والعقيق.
.[٣٣٩]ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشَّام يبعد عن المدينة ٣٥ ميلاً.

.[٣٤٠]السُّقيا: موضع يقع في وادي القرى ، معجم البلدان (٣/٢٨٨).
.[٣٤١]انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/١٣٢).
.[٣٤٢]انظر: القيادة العسكرية ، ص ٤٩٨.
.[٣٤٣]الأنقاب: جمع نقب ، وهو كالعريف على القوم.
.[٣٤٤]التحفظ: هو الاحتراز والتَّيقُّظ ، مغازي الواقدي (٢/٧٩٦) ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا.
.[٣٤٥]انظر: القيادة العسكرية ، ص ٣٦٥.
.[٣٤٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٨٢) ، ومحمَّد (ص) (غزوة فتح مكة) ، لمحمَّد رضا.

.[٣٤٧]انظر: تفسير القرطبي (١٨/٥٢).
.[٣٤٨]انظر: تفسير ابن كثير (٤/٣٤٦).

.[٣٤٩]المصدر السابق (٤/٣٤٧).

.[٣٥٠]المصدر السابق نفسه.

.[٣٥١]المصدر السابق نفسه.

.[٣٥٢]انظر: تفسير القرطبي (١٨/٥٤).

.[٣٥٣]انظر: حديث القران الكريم (٢/٥٦٨ ، ٥٦٩).

.[٣٥٤]انظر: في ظلال القران (٦/٣٥٨).

.[٣٥٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/١٧٦).

.[٣٥٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٤٠٤.

.[٣٥٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (٧/١٧٦ ، ١٧٧).

.[٣٥٨]المستفاد من قصص القران (٢/٤٠٢).

.[٣٥٩]انظر: زاد المعاد (٣/٤٤٣).

.[٣٦٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٦٠ ، ٥٦١.

.[٣٦١]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٦١.

.[٣٦٢]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٨٦) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٤٠٦.

.[٣٦٣]انظر: تأملات في السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد السيد الوكيل ، ص ٢٥٤.

.[٣٦٤]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٥١٧.

.[٣٦٥]انظر: ابن هشام (١/٢٩٥ . ٣٠٠).

.[٣٦٦]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/١٨٢).

.[٣٦٧]مرَّ الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢ ك.م.

.[٣٦٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٨٧ ، والطَّبقات ، لابن سعد (٢/١٣٥).

.[٣٦٩]حمشتها الحرب: أحرقتها.

.[٣٧٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠.

.[٣٧١]انظر: السَّابق ، وانظر: فقه السيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٥٦٤.

.[٣٧٢]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٤٠٣).
.[٣٧٣]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد رواس ، ص ٢٤٥.
.[٣٧٤]انظر: سيرة ابن هشام (٤/٥٢).

.[٣٧٥]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٤٧.
.[٣٧٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/٥٢) ، وسبق تخريجه.
.[٣٧٧]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٧٥.
.[٣٧٨]انظر: الطبقات ، لابن سعد (٢/١٣٥).
.[٣٧٩]انظر: العبقرية العسكريَّة ، وغزوات الرَّسول (ص) ، تأليف اللِّواء محمَّد فرج ، ص ٥٦٥.

.[٣٨٠]انظر: من معين السيرة ، ص ٣٨٩.
.[٣٨١]البياذقة: الرَّجالة.
.[٣٨٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٩٠.
.[٣٨٣]االمصدر السابق نفسه.

.[٣٨٤]انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص ٣٩٧.
.[٣٨٥]انظر: قيادة الرسول (ص) السياسية والعسكرية ، ص ١٢٢ ، ١٢٣.
.[٣٨٦]الألَّة: الحربة لها سنان طويل ، وذو غرارين: سيف ذو حدين.
.[٣٨٧]المؤتمة: المرأة التي مات زوجها ، وترك لها أيتاماً ، وأبو زيد: سهيل بن عمرو.
.[٣٨٨]النَّهيت: صوت الصَّدر.
.[٣٨٩]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٩٥).

.[٣٩٠]انظر: دراسة في السِّيرة ، د. عماد الدين خليل ، ص ٢٤٥.
.[٣٩١]انظر: البداية والنهاية (٤/٢٩٠).
.[٣٩٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٢٤.
.[٣٩٣]النَّقع: موضع قرب مكَّة ، أو الغبار.

.[٣٩٤]انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٩/٤).

.[٣٩٥]مغلغلة: رسالة محمولة من بلدٍ إلى بلد.

.[٣٩٦]انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٩/٤).

.[٣٩٧]الخُمُر: جمع خمار ، مأخوذ من الخمر ، وهو السِّتر؛ وهو ما تستر به النِّساء رؤوسهنَّ.

.[٣٩٨]انظر: مغازي الواقدي (٨٣١/٢).

.[٣٩٩]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٣٩٦.

.[٤٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدوي ، ص ٣٣٧.

.[٤٠١]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠.

.[٤٠٢]انظر: قيادة الرسول (ص) السِّياسيَّة والعسكريَّة ، ص ١٩٦.

.[٤٠٣]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٣٩.

.[٤٠٤]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٨٢.

.[٤٠٥]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٣٩.

.[٤٠٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٦١/٤ ، ٦٢).

.[٤٠٧]المصدر السابق نفسه (٦١/٤) والبداية والنِّهاية ، لابن كثير.

.[٤٠٨]انظر: المغازي (٨٣٨/٢).

.[٤٠٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٦٢/٤).

.[٤١٠]انظر: المغازي (٨٣٨/٢).

.[٤١١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٠١.

.[٤١٢]انظر: فقه السِّيرة للغزاليِّ ، ص ٣٨٣.

.[٤١٣]انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٢٦٩.

.[٤١٤]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٧٩.

.[٤١٥]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٨٠.

.[٤١٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٥١/٢) ، وتأمُّلات في السيرة ، ص ٢٦٢.
.[٤١٧]فتح الباري: في شرح حديث رقم (٤٢٨٠).
.[٤١٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٥١/٢).
.[٤١٩]المصدر السابق نفسه ، وعقله: أي ديته. والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، صفة دخوله (ص) مكَّة.
.[٤٢٠]المصدر السابق نفسه (٤٥٦/٢).

.[٤٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢٥٧/٢).

.[٤٢٢]انظر: البداية والنِّهاية (٣١٩/٤) ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا (البيعة).
.[٤٢٣]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٤٨.
.[٤٢٤]انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (٤٦٤/٢).
.[٤٢٥]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٩.
.[٤٢٦]المصدر السابق نفسه.

.[٤٢٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٤٦٥/٢).
.[٤٢٨]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٩.
.[٤٢٩]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٩٤.
.[٤٣٠]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، ص ٢٨٢.
.[٤٣١]المصدر السابق نفسه.
.[٤٣٢]انظر: المغازي (٨٧٤/٢).
.[٤٣٣]انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٢.
.[٤٣٤]المصدر السابق نفسه.

.[٤٣٥]ما بين مكَّة والمدينة.
.[٤٣٦]المشَلَّل مِنْ قديد ، وبالمشلَّل كانت مناةُ.

.[٤٣٧]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٦.

.[٤٣٨]شرح النووي على مسلمٍ (٢٢/٩).

.[٤٣٩]انظر: السرايا والبعوث النَّبوية ، ص ٢٨٧.

.[٤٤٠]انظر: الطَّبقات (١٤٦/٢).

.[٤٤١]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٨ ، قال مؤلف الكتاب الدُّكتور بريكك العمري: الخبر ضعيف من الناحية الحديثية ، ويمكن الاستئناس به تاريخيّاً ، حيث ذكر أهل المغازي أنَّ رسول الله (ص) أرسل بعض السَّرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربيَّة ، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك؛ لكونها أحد أكبر الطَّواغيت في الجزيرة ، ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرِّسالة العلميَّة الَّتي أشرف عليها الدُّكتور أكرم العمري.

.[٤٤٢]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٩٢.

.[٤٤٣]انظر: سبل الرَّشاد ، للشَّامي (٣٠٣/٦).

.[٤٤٤]انظر: المغازي، للواقدي (٨٧٠/٢)، ومحمَّد (ص)، لمحمَّد رضا (سرية عمرو بن العاص إلى سُواع).

.[٤٤٥]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٣٠٢.

.[٤٤٦]انظر: تفسير القرطبي (٢٣٠/٢٠).

.[٤٤٧]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٥٧٢/٢).

.[٤٤٨]انظر: في ظلال القران (٣٩٩٦/٦).

.[٤٤٩]أي: رميت بنفسي.

.[٤٥٠]انظر: مغازي الواقدي (٨٤٦/٢ ـ ٨٤٧).

.[٤٥١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٢١٦/٧ ، ٢١٧).

.[٤٥٢]الكُرْدُوسَةُ: طائفة عظيمةٌ من الخيل أو الجيش ، (ج) كراديس.

.[٤٥٣]انظر: سير أعلام النبلاء (١٩٥/٢).

.[٤٥٤]الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكَّة ، ومرسى سفنها قبل جدَّة ، انظر: معجم البلدان (٢٧٦/٥).
.[٤٥٥]الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفَّها على رأسه ، ويردَّ طرفها على وجهه ، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. (النهاية ٦٩/٣).

.[٤٥٦]الحَبَرَةُ: ضربٌ من ثياب اليمن.
.[٤٥٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٢٢٠/٧).

.[٤٥٨]عك: مخلاف من مخاليف مكَّة التهاميَّة ، معجم ما استعجم ، ص ٢٢٣.

.[٤٥٩]يعني: يوم اليرموك.
.[٤٦٠]انظر: مغازي الواقدي (٨٥١/٢ ـ ٨٥٣).
.[٤٦١]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٢٢٣/٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥).

.[٤٦٢]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٥٤/٤ ، ٥٥).
.[٤٦٣]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٧٧.
.[٤٦٤]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٩٥/٧).
.[٤٦٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٢١٣/٧).

.[٤٦٦]انظر: من معين السيرة ، ص ٤٠٢ ، والتَّاريخ الإسلامي (٢٣٣/٧).
.[٤٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٥٩/٤ ، ٦٠) ، وصحيح السِّيرة ، ص ٥٢٧.

.[٤٦٨]انظر: البداية والنهاية (٢٩٦/٤).
.[٤٦٩]انظر: صحيح السيرة النبوية ، ص ٥٢٨.
.[٤٧٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٥٨/٤).
.[٤٧١]انظر: البداية والنِّهاية (٢٩٦/٤).

.[٤٧٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام ، وكنز العمال ، للمتقي الهندي (الأنصار رضي الله عنهم). .[٤٧٣]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٧).

.[٤٧٤]الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى ، محمَّد كاتبي ، ص ٩٢.
.[٤٧٥]المغازي (٢/٨٤٨).
.[٤٧٦]الأعلام ، للزركلي (٤/٨٧) ، والإصابة ، لابن حجر (٢/٣٠٨) نقلاً عن المرجع الذي بعده.
.[٤٧٧]انظر: الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى ، ص ٩٧.
.[٤٧٨]انظر: الاستيعاب ، لابن عبد البرِّ (٢/٣١٠).
.[٤٧٩]انظر: الإصابة (٢/٣٠٨).
.[٤٨٠]انظر: تفسير القرطبيّ (٦/٤٠٧).
.[٤٨١]البداية والنِّهاية (٤/٣٠٨).

.[٤٨٢]معتلج: ملتطم.
.[٤٨٣]الرِّواق: مقدم اللَّيل.
.[٤٨٤]بهيم: لا ضوء فيه إلى الصَّباح.
.[٤٨٥]عيرانة: راحلة.
.[٤٨٦]غشومٌ: شجاعٌ ، لا يثنيه أمرٌ عن عزمه.
.[٤٨٧]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٧ ، ٣٠٨) ، أروم: أصل.
.[٤٨٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٤.

.[٤٨٩]انظر: المجتمع المدني ، ص ١٨٥.
.[٤٩٠]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٥.
.[٤٩١]النَّوويُّ على شرح مسلم (٩/١٨١) ، وقد اعتمدت في فقه الأحكام على ما استخرجه الدُّكتور العمري في المجتمع المدني ، والدُّكتور مهدي رزق الله في السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة.
.[٤٩٢]انظر: زاد المعاد (٣/٣٤٣ . ٣٤٥ . ٤٥٩ . ٤٦٤).

.[٤٩٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٧٥.

.[٤٩٤]المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٨٦.

.[٤٩٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (٤٨٢/٢).

.[٤٩٦]المصدر السابق نفسه.

.[٤٩٧]انظر: قيادة الرسول (ص) السِّياسية والعسكريَّة ، لأحمد عرموش ، ص ١٢٩.

.[٤٩٨]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، ص ٢٦٦.

.[٤٩٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦٧.

.[٥٠٠]ينظر الشكلان (١٨ و١٩) في الصفحتين (٧٦٢ و٧٦٣).

.[٥٠١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٦٧/٢) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٨٨/٤).

.[٥٠٢]انظر: طبقات ابن سعد (١٥٠/٢).

.[٥٠٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٩٧/٢).

.[٥٠٤]أغمار: جمع غُمر ، بضم الغين ، وإسكان الميم ، وهو الذي لم يجرِّب الأمور.

.[٥٠٥]انظر: مغازي (٨٩٣/٣).

.[٥٠٦]انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله (ص) ، ص ٢٥٢.

.[٥٠٧]انظر: غزوة حنين ، للشَّيخ محمَّد أحمد باشميل ، ص ١٢٨ ـ ١٣١.

.[٥٠٨]انظر: تاريخ الطَّبري (٧٣/٣).

.[٥٠٩]انظر: القيادة العسكريَّة على عهد رسول الله (ص) ، ص ٣٦٩.

.[٥١٠]الطُّلقاء: هم الذين أطلقهم النَّبيُّ (ص) بعد فتح مكة ، وخلَّى سبيلهم.

.[٥١١]انظر: صحيح السيرة النبوية ، ص ٥٥٩.

.[٥١٢]انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله (ص) ، ص ٢٥٩.

.[٥١٣]أي: معمول بالرِّمال ، وهي حبال الحصر الَّتي تضفر بها الأسرَّة.
.[٥١٤]أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.
.[٥١٥]انظر: المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة ، للواء محمد فرج ، ص ٤٠٧ .

.[٥١٦]انظر: القيادة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٠٥ .
.[٥١٧]انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام ، للواء عبد الرؤوف عون ، ص ١٩٥ .
.[٥١٨]انظر: الطَّبقات الكبرى (٢/٢١٤).

.[٥١٩]مسجد الطَّائف: هو المسجد المعروف الان بمسجد ابن عبَّاسٍ.
.[٥٢٠]انظر: مغازي الواقدي (١/٤١٦).
.[٥٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٥١٠).
.[٥٢٢]انظر: دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، للشجاع ، ص ٢٠٦.
.[٥٢٣]انظر: زاد المعاد (٣/٤٩٧).
.[٥٢٤]المصدر السابق نفسه ، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٦٦.

.[٥٢٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٤٩.
.[٥٢٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٩٧).
.[٥٢٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٨/٦٢).

.[٥٢٨]انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة ، للعمري ، ص ١٩٩.
.[٥٢٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥.
.[٥٣٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٢١.

.[٥٣١]بالشَّاء: أي: الشِّياه ، وهي الأغنام.
.[٥٣٢]دثار: هو الثَّوب الذي يكون فوق الشِّعار.
.[٥٣٣]انظر: زاد المعاد (٣/٤٧٤).

.[٥٣٤]انظر: زاد المعاد (٤٨٦/٣).
.[٥٣٥]انظر: فقه السِّيرة ، ص ٤٢٧.

.[٥٣٦]انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة ، ص ٢١٩.
.[٥٣٧]المصدر السابق نفسه.

.[٥٣٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣٥٢/٤).
.[٥٣٩]المصدر السابق نفسه (٣٥٢/٤).
.[٥٤٠]انظر: البداية والنِّهاية (٣٦٣/٤ ، ٣٦٤).

.[٥٤١]انظر: البداية والنهاية (٣٥٢/٤ ، ٣٥٣).
.[٥٤٢]البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٣١٩.
.[٥٤٣]عرَّدت: اشتدت وضربت ، القاموس المحيط (٣١٣/١).
.[٥٤٤]الهباءة: غبار الحرب ، مختار الصحاح ، ص ٦٨٩.
.[٥٤٥]الخادر: المقيم في عرينه ، والخدر سترٌ يُمَدُّ للجارية من ناحية البيت.
.[٥٤٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٤٤/٤).

.[٥٤٧]المصدر السابق نفسه ، (١٩٢/٤).
.[٥٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٥٣/٤).

.[٥٤٩]انظر: حديث القران الكريم (٥٩٨/٢).

.[٥٥٠]انظر: تفسير القاسمي (١٥١/٨).
.[٥٥١]انظر: تفسير الطَّبري (١٠٣/١٠ ، ١٠٤).
.[٥٥٢]انظر: تفسير المراغي (٨٧/٤).
.[٥٥٣]انظر: حديث القران الكريم (٥٩٩/٢).
.[٥٥٤]انظر: في ظلال القران (١٦١٨/٣).

.[٥٥٥]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٠٢ ، ٦٠٣).

.[٥٥٦]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٤٠٩).

.[٥٥٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٤٢٣.

.[٥٥٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٥٢٠).

.[٥٥٩]متقصِّفون: متجمعون.

.[٥٦٠]انظر: زاد المعاد (٣/٥٠٤).

.[٥٦١]خلوقٌ: طِيْبٌ.

.[٥٦٢]لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله (ص) . وقوله أصيبغ: نوع من الطُّيور شبه به؛ لعجزه، وضعفه.

.[٥٦٣]يدع: يترك.

.[٥٦٤]خرافاً: أي: بستاناً أقام الثمر مقام الأصل.

.[٥٦٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٨/٢٦).

.[٥٦٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٥٣) ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (تقسيم الفيء).

.[٥٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/١٤٥).

.[٥٦٨]انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (٤/٣٨٧ ، ٣٨٨).

.[٥٦٩]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٥٠، وابن حجر ، وابن كثير ، في البداية والنِّهاية ، وابن هشام ، في السِّيرة النبويَّة.

.[٥٧٠]انظر: معين السِّيرة ، ص ٤٢٩.

.[٥٧١]انظر: محمد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/٣٦٦).

.[٥٧٢]انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١٤).

.[٥٧٣]خنجراً: سكيناً كبيرة ذات حدين.

.[٥٧٤]من بعدنا: من سوانا.
.[٥٧٥]الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.
.[٥٧٦]انهزموا بك: انهزموا عنك.
.[٥٧٧]متوركتُك: يعني: حاملتك على وركي.

.[٥٧٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣٦٣/٤) ، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٥٠٦/٢).
.[٥٧٩]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٥٨.
.[٥٨٠]متبول: مغرم ، مكبول: مقيد.
.[٥٨١]أغنُّ: صفة للغزال الَّذي في صوته غنّة.
.[٥٨٢]انظر: البداية والنِّهاية (٣٦٩/٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧١).
.[٥٨٣]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٤٨٧/٢).

.[٥٨٤]انظر: البداية والنِّهاية (٣٧٣/٤).
.[٥٨٥]المصدر السابق نفسه.
.[٥٨٦]مِقْنَب: جماعة.
.[٥٨٧]السَّمْهَريُّ: الرمح ، سوالف الهندي: حواشي السَّيف.
.[٥٨٨]القائدين: المانعين النَّاس.
.[٥٨٩]المشرفيُّ: السَّيف ، والقنا: الرِّماح جمع: قناة ، والخطَّار: المهتز.
.[٥٩٠]أماري: أجادل.
.[٥٩١]خوت النُّجوم: أي: سقطت ، الطَّارقون: الذين يأتون بالليل.
.[٥٩٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٦٧/٤ ، ١٦٨).
.[٥٩٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣.

.[٥٩٤]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها في السِّيرة النَّبويَّة (٩٦١/٢).

.[٥٩٥]انظر: نضرة النعيم (٣٨٤/١).

.[٥٩٦]انظر: الدولة العربية الإسلامية ، لمنصور الحرابي ، ص ٤٣.

.[٥٩٧]انظر: التراتيب الإدارية ، للكتاني (١/٢٦٥).

.[٥٩٨]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٨٥).

.[٥٩٩]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، المغازي ، ص ٦٢٤.

.[٦٠٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/٨١).

.[٦٠١]قومٌ لهم دين بين النَّصارى والصَّابئة ، النهاية (٢/٢٥٩).

.[٦٠٢]المرباع: هو ربع الغنيمة يأخذه سيِّد القوم قبل القسمة.

.[٦٠٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٨٠.

.[٦٠٤]أدم: هو بفتحتين: الجلد.

.[٦٠٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٢٣٦) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير (قصة عدي بن حاتم الطائي).

.[٦٠٦]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/٥٨ ، ٨٦).

.[٦٠٧]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٢١.

.[٦٠٨]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٧٤).

.[٦٠٩]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٢/٤٩٠) والكافور: نبت طيب الرَّائحة وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه ، ويجعله صلباً متماسكاً ، ويمنع إسراع الفساد إليه.

.[٦١٠]ينظر الشكل (٢٠) في الصفحة (٧٦٤).

.[٦١١]انظر: تفسير الطَّبري (١٤/٥٤٠ ـ ٥٤٢)، والسِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٤.

.[٦١٢]انظر: فتح الباري (١٦/٢٣٧).

.[٦١٣]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص ٨٣.

.[٦١٤]فتح الباري في شرح حديث رقم (٤٤١٥)، ومحمَّد (ص) (غزوة تبوك أو العسرة)، لمحمَّد رضا.

.[٦١٥]انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٣/٦٢).

.[٦١٦]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّن ، ص ٨٤.

.[٦١٧]انظر: المجتمع الإسلامي ، للعمري ، ص ٢٢٩.

.[٦١٨]البلقاء: هي كورةٌ من أعمال دمشق بين الشَّام ، ووادي القرى ، عاصمتها عمَّان.

.[٦١٩]انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (٢/١٦٥).

.[٦٢٠]انظر: البداية والنهاية (٥/٣).

.[٦٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٥.

.[٦٢٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٦.

.[٦٢٣]انظر: مغازي الواقدي (٣/٣٩١).

.[٦٢٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٤٩.

.[٦٢٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، للسِّباعي ، ص ١٦١.

.[٦٢٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٦.

.[٦٢٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٦١٧.

.[٦٢٨]وردت من طرقٍ ضعيفةٍ ، ولها شاهدٌ صحيحٌ ، وهي بالجملة تصلح للشَّاهد التَّاريخيِّ ، انظر: المجتمع المدنيّ للعمري ، ص ٢٣٥ ، والإصابة لابن حجر.

.[٦٢٩]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/٤٤٣).

.[٦٣٠]عقبة: أي: بالتعاقب.

.[٦٣١]كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سريَّة خالد بن الوليد في دومة الجندل.

.[٦٣٢]قلائص: إبل.

.[٦٣٣]انظر: جامع الأصول رقم (٦١٨٨) ، ومن معين السيرة ، ص ٤٥٣ ، يكري دابته على النِّصف ، أو السهم.

.[٦٣٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٥٣.
.[٦٣٥]انظر: المجتمع المدني ، ص ٢٣٦.
.[٦٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٨.

.[٦٣٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٦١٨.
.[٦٣٨]انظر: الصِّراع مع الصليبيين ، ص ١٢١.

.[٦٣٩]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٤٧).
.[٦٤٠]انظر: تفسير التَّنوير والتَّحرير (١٠/٢٠٩).
.[٦٤١]انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٦٠).
.[٦٤٢]انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٠/٢١٠).
.[٦٤٣]انظر: حديث القران الكريم.

.[٦٤٤]انظر: تفسير المراغي (٤/١٢٧).
.[٦٤٥]انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٦١).
.[٦٤٦]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٨٩).
.[٦٤٧]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٩٧.

.[٦٤٨]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، ص ٣٩٨.
.[٦٤٩]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٤).
.[٦٥٠]انظر: غزوة تبوك ، ص ٥٧ ، لمحمد أحمد باشميل.
.[٦٥١]انظر: القيادة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٥١٠.

.[٦٥٢]انظر: زاد المعاد (٣/٥٢٩).
.[٦٥٣]انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٥٨٩.
.[٦٥٤]انظر: زاد المعاد (٣/٥٣٠).
.[٦٥٥]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧.

.[٦٥٦]انظر: المغازي (٩٩٦/٣) ، والطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (١٦٦/٢).

.[٦٥٧]انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٦٥٢/٥) ، والصِّراع مع الصَّليبيِّن ، ص ٩٩.

.[٦٥٨]انظر: إمتاع الأسماع (٤٥١/١) ، وشرح المواهب اللَّدنيَّة (٧٢/٣).

.[٦٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٥٣٢/٢).

.[٦٦٠]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين ، ص ١٠٠.

.[٦٦١]انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله (ص) والثلاثة الخلفاء ، للكلاعي (٢٧٦/٢) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل: تخلف عبد الله بن أُبَيٍّ وأهل الريب عام تبوك.

.[٦٦٢]تلوَّم على بعيره: تمهل.

.[٦٦٣]كن أبا ذرٍّ: لفظه لفظ الأمر ومعناه الدُّعاء ، أي: أرجو الله أن تكون أبا ذر.

.[٦٦٤]انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (١٧٨/٤)، وكنز العمال ، للمتقي الهندي ، والبداية والنِّهاية لابن كثيرٍ.

.[٦٦٥]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٧٨/٤).

.[٦٦٦]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّن ، ص ١٢٩ ، والتَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديّ (١١٤/٨).

.[٦٦٧]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٢٩.

.[٦٦٨]انظر: التاريخ الإسلامي (١١٤/٨).

.[٦٦٩]حائطه: أي: بستانه.

.[٦٧٠]الضِّحُّ: أي: في الشمس.

.[٦٧١]ناضحُه: أي: جمله.

.[٦٧٢]أولى لك: أجدرُ بك.

.[٦٧٣]انظر: البداية والنِّهاية (٨/٥).

.[٦٧٤]خضيباً: مخضوبةً وهي المرأة.

.[٦٧٥]صرمة: جماعة النَّخل.

.[٦٧٦]صفايا: كثيرة الثَّمر.
.[٦٧٧]تحمماً: أخذ في الإرطاب ، فاسودَّ.
.[٦٧٨]أسمحت: انقادت.
.[٦٧٩]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٨).

.[٦٨٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/١١١ ، ١١٢).
.[٦٨١]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّن ، ص ١٣٣.
.[٦٨٢]المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٣ ، ١٣٤.

.[٦٨٣]المصدر السابق نفسه ص ١٣٤.
.[٦٨٤]انظر: الإصابة (١/٤١٢ . ٤١٥) من طريق ابن إسحاق بإسنادٍ حسن.
.[٦٨٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/١٨٠).
.[٦٨٦]المصدر السابق نفسه (٤/١٨٠) بإسنادٍ حسنٍ.
.[٦٨٧]انظر: البداية والنِّهاية (٥/١٧) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود ، وابن لهيعة ضعيف فضلاً عن إرسال عروة.
.[٦٨٨]انظر: المجتمع المدنيّ للعمريِّ ، ص ٢٤١.
.[٦٨٩]المغازي (٣/١٠٣٢).
.[٦٩٠]انظر: الوثائق السياسية في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، ص ١١٩ . ١٢٤.
.[٦٩١]انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢١٧.

.[٦٩٢]محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (٤/٤٧٩).
.[٦٩٣]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٢١.
.[٦٩٤]انظر: الفتح الرَّباني (٢١/١٩٥).
.[٦٩٥]زجر: أي: زجر ناقته ، ومعناه: ساقها سوقاً شديداً ، حتَّى خلَّفها ، أي: جاوز المساكن.

.[٦٩٦]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٨٠.

.[٦٩٧]البجاد: الكساء الغليظ الجافي.

.[٦٩٨]انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٥٩٨ ، والإصابة لابن حجر ، وقال: رواه البغويُّ بطوله من هذا الوجه ، ورجاله ثقات إلا أنَّ فيه انقطاعاً.

.[٦٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٨٢/٤).

.[٧٠٠]انظر: المدخل إلى العقيدة ، والاستراتيجية العسكرية الإسلاميَّة ، ص ٢٩٩.

.[٧٠١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٧٢.

.[٧٠٢]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين ، ص ١٦٣ ، ١٦٤.

.[٧٠٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٩٨.

.[٧٠٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٥٢.

.[٧٠٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٧٦/٤) ، وصور وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٧٣ ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل: تخلُّف عبد الله بن أبي ، وأهل الريب عام تبوك.

.[٧٠٦]انظر: إعلام النُّبوة ، للماوردي ، ص ١٠٠ ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١٧٧/٤).

.[٧٠٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١٧٧/٤).

.[٧٠٨]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤١.

.[٧٠٩]شرح النَّووي على صحيح مسلمٍ (٤٢/١٥).

.[٧١٠]الشراك: هو سير النَّعل ، ومعناه: ماءٌ قليلٌ جداً.

.[٧١١]تَبضُّ: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ، ومعناه: تسيل.

.[٧١٢]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤٢.

.[٧١٣]نواضحنا: جمع: ناضح ، وهي الإبل الَّتي يُسقى عليها.

.[٧١٤]الظَّهر: ما يحمل عليه من الإبل.

.[٧١٥]النِّطع: بساطٌ من الجلد.

.[٧١٦]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤١.

.[٧١٧]الحَقْبُ: حبلٌ يشدُّ به الرَّحل في بطن البعير.
.[٧١٨]الحجارة تنكبُه: تصيبه ، وتؤذيه.
.[٧١٩]انظر: تفسير المراغي (٤/١٥٣).
.[٧٢٠]المصدر السابق نفسه ، (٤/١٥٣).

.[٧٢١]تفسير ابن كثيرٍ (٢/٣٧٢).
.[٧٢٢]انظر: أسباب النُّزول للواحديِّ ، ص ٢٥١.
.[٧٢٣]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٦٥).

.[٧٢٤]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٦٦).

.[٧٢٥]انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٦٠٣.

.[٧٢٦]انظر: زاد المسير (٤/٤٨٥).
.[٧٢٧]انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/٢٢٦).
.[٧٢٨]انظر: تفسير الطَّبري (١٠/٢١١).
.[٧٢٩]انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/٢٢٦).
.[٧٣٠]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٧٢).
.[٧٣١]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٧٣).

.[٧٣٢]انظر: تفسير الشوكاني (٢/٣٩٩).
.[٧٣٣]أي: الَّذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة ، وأصحابه.
.[٧٣٤]انظر: تفسير الالوسي (١١/١٧).

.[٧٣٥]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٧٧).
.[٧٣٦]انظر: تفسير الشَّوكاني (٢/٣٩١).
.[٧٣٧]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٨١).

.[٧٣٨]انظر: زاد المسير (٤٧٨/٣).

.[٧٣٩]انظر: تفسير ابن كثيرٍ (٣٧٦/٢).
.[٧٤٠]انظر: حديث القران الكريم (٦٨٦/٢).
.[٧٤١]انظر: تفسير الرازي (١٥١/١٥) بتصرف يسير.

.[٧٤٢]انظر: زاد المعاد (٥٧٨/٣).

.[٧٤٣]انظر: تفسير الشَّوكاني (٤٠٣/٢).

.[٧٤٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١٨٤/٤).
.[٧٤٥]انظر: حديث القران الكريم (٦٦١/٢).
.[٧٤٦]انظر: التَّحرير والتَّنوير (٣١/١١).
.[٧٤٧]المصدر السابق نفسه.

.[٧٤٨]انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٧٩.
.[٧٤٩]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨١.
.[٧٥٠]انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٧٩.

.[٧٥١]انظر: التَّاريخ الإسلامي (١٣٠/٨).
.[٧٥٢]انظر: تفسير الزَّمخشري (٣١٠/٢).
.[٧٥٣]انظر: المستفاد من قصص القران (٥٠٤/١).
.[٧٥٤]انظر: تفسير القرطبي (٢٥٤/٨).
.[٧٥٥]انظر: في ظلال القران (١٧١٠/٣ ـ ١٧١١).

.[٧٥٦]انظر: المستفاد من قصص القران (٥٠٦/٢).
.[٧٥٧]المصدر السابق نفسه (٥٠٧/٢).

.[٧٥٨]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٥٠٦).
.[٧٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٠٨).
.[٧٦٠]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٨٢.

.[٧٦١]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٨٧.
.[٧٦٢]ليلة العقبة: الليلة الَّتي بايع رسول الله (ص) فيها الأنصار على الإسلام.

.[٧٦٣]تفارط الغزو: تقدَّم الغزاةُ ، وسبقوا ، وفاتوا.
.[٧٦٤]والنَّظر في عطفيه: أي: جانبيه ، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ، ولباسه.
.[٧٦٥]مبيِّضاً: لابس البياض.
.[٧٦٦]يزول به السَّراب: يتحرَّك ، وينهض ، والسَّراب ما يظهر للإنسان.
.[٧٦٧]لمزه المنافقون: عابوه ، واحتقروه.
.[٧٦٨]قافلاً: راجعاً.
.[٧٦٩]بثِّي: حزني.
.[٧٧٠]أظلَّ قادماً: أقبل ودنا قدومه ، كأنَّه أبقى على ظلِّه.
.[٧٧١]زاح: أزال.
.[٧٧٢]أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

.[٧٧٣]أعطيت جدلاً: فصاحةً ، وقوَّةً في الكلام ، وبراعةً.
.[٧٧٤]ليوشكن: ليسرعنَّ.
.[٧٧٥]تجد عليَّ فيه: تغضب.
.[٧٧٦]إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيراً ، ويثيبني عليه.
.[٧٧٧]يؤنبونني: يلومونني أشدَّ اللَّوم.
.[٧٧٨]استكانا: خضعا.
.[٧٧٩]أشبَّ القوم ، وأجلدهم: أي: أصغرهم سنّاً ، وأقواهم.

.[٧٨٠]أنشدك بالله: أسألك بالله.
.[٧٨١]نبط أهل الشام: فلاحو العجم.
.[٧٨٢]مضيعة: يعني أنَّك لست بأرضٍ يضيع فيها حقُّك.
.[٧٨٣]فتايممت: تيمَّمت: قصدت.
.[٧٨٤]فسجرتُها: أحرقتُها.
.[٧٨٥]استلبث الوحي: أبطأ.
.[٧٨٦]أوفى على سَلَع: صعده ، وارتفع عليه ، وسَلَع: جبلٌ بالمدينة معروفٌ.
.[٧٨٧]فاذن النَّاس: أي: أعلمهم.

.[٧٨٨]أتأمَّم: أي: أقصد.
.[٧٨٩]فوجاً ، فوجاً: الفوج: الجماعة.
.[٧٩٠]أنخلع من مالي: أتصدَّق به.
.[٧٩١]أبلاه الله: أنعم عليه.

.[٧٩٢]إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.
.[٧٩٣]انظر: التاريخ الإسلامي (١٣٧/٨).
.[٧٩٤]المصدر السَّابق نفسه.

.[٧٩٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي (١٣٩/٨).
.[٧٩٦]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٩٥ ، وسبق تخريجه.

.[٧٩٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (١٤٠/٨).
.[٧٩٨]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٩٦.
.[٧٩٩]المغازي (١٠٥١/٣ ـ ١٠٥٢).
.[٨٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥١٧/٢).
.[٨٠١]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٠٧.

.[٨٠٢]انظر: التَّاريخ الإسلامي (١٤١/٨).
.[٨٠٣]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٥١٨/٢).
.[٨٠٤]انظر: التَّاريخ الإسلامي (١٤٢/٨).
.[٨٠٥]المغازي للواقدي (١٠٥٤/٣).
.[٨٠٦]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي ، ص ٤٩٣ .
.[٨٠٧]صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٩٣ ، والصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٠٢ .

.[٨٠٨]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٩٣ .

.[٨٠٩]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٤٠٤ .
.[٨١٠]انظر: حديث القران الكريم (٧٠٢/٢).

.[٨١١]المصدر السابق نفسه (٧٠٣/٢).

.[٨١٢]انظر: غزوة تبوك ، لباشميل ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

.[٨١٣]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .
.[٨١٤]انظر: دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، للشُّجاع ، ص ٢٠٩ .
.[٨١٥]انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، لعبد الرَّحمن أحمد ، ص ١٢٠ .

.[٨١٦]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشجاع ، ص ٢٠٩ .
.[٨١٧]انظر: نضرة النَّعيم (٣٩٥/١ ، ٣٩٦).

.[٨١٨]ينظر الشكل (٢١) في الصفحة (٧٦٥).
.[٨١٩]انظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر ، ص ١٩٩ .
.[٨٢٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٩٣/٤).
.[٨٢١]انظر: رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة ، د. حسين محمد ، ص ٧٦ .

.[٨٢٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٩٣/٤).

.[٨٢٣]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقديِّ ، ص ٦٧٠.

.[٨٢٤]أي: نذهب إلى بلادٍ بعيدةٍ.

.[٨٢٥]أي: أسرعنا السَّير في السَّفر.

.[٨٢٦]انظر: المغازي ، للواقدي (٩٦٨/٣) ، والبداية والنهاية ، لابن كثير.

.[٨٢٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميديِّ (٥٠/٨) ، والمغازي ، للواقديِّ (٩٦٨/٣) ، والسِّيرة ، لابن هشام ، والمبسوط ، للسَّرخسي.

.[٨٢٨]انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣.

.[٨٢٩]انظر: السِّيرة النبوية الصحيحة (٥١٩/٢).

.[٨٣٠]المصدر السابق نفسه (٥١٩/٢ ، ٥٢٠).

.[٨٣١]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١٩٥/٤).

.[٨٣٢]انظر: دلائل النُّبوَّة ، للبيهقيِّ (٣٠٣/٥ ـ ٣٠٤).

.[٨٣٣]المغازي (٦٧١/٣).

.[٨٣٤]انظر: دلائل النُّبوَّة (٣٠٤/٥).

.[٨٣٥]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠ ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة).

.[٨٣٦]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة).

.[٨٣٧]لكاع عند العرب: العبد ، ثم استعمل في الحمق ، والذَّم.

.[٨٣٨]البداية والنِّهاية لابن كثير (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة) ، ودلائل النُّبوة (٣٠٣/٥).

.[٨٣٩]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠.

.[٨٤٠]انظر: المغازي (٩٧٢/٣) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير.

.[٨٤١]انظر: دلائل النُّبوة (٥/٣٠٣) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير.

.[٨٤٢]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١ ، والبداية والنهاية لابن كثير.

.[٨٤٣]انظر: تاريخ ابن شيبة (٢/٥٠٧) نقلاً عن السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١.

.[٨٤٤]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١.

.[٨٤٥]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص ٦٥٩.

.[٨٤٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٣٣ ، ٥٣٤).

.[٨٤٧]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٢١ ، ٦٢٢ ، والسِّيرة لأبي شهبة (٢/٥٣٤).

.[٨٤٨]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ٢٢١.

.[٨٤٩]انظر: من معين السِّيرة النبوية ، ص ٤٦٤.

.[٨٥٠]انظر: دراسات في عهد النَّبوَّة ، ص ٢١٩.

.[٨٥١]زاد المعاد (٢/٩١).

.[٨٥٢]انظر: المنافقون ، لمحمد جميل غازي ، ص ٩٢ ، ٩٣.

.[٨٥٣]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ٢٢٠.

.[٨٥٤]الإيلاء: الحلف ، قضايا نساء النَّبي (ص) والمؤمنات ، ص ٥١.

.[٨٥٥]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ (ص) والمؤمنات ، ص ٦٨.

.[٨٥٦]واجماً: هو الَّذي اشتدَّ حزنَّه حتى أمسك عن الكلام.

.[٨٥٧]بنت زيد ، امرأة عمر ، جميلة بنت ثابت ، نسبها عمر إلى أحد أجدادها.

.[٨٥٨]فوجأت عنقها: بمعنى طعنت عنقها.

.[٨٥٩]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٦٥.

.[٨٦٠]البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، فصل: (بناء الحجرات لرسول الله (ص) حول مسجده الشريف) ، وانظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء القران والسُّنَّة (٢/٣٥ ـ ٣٦).

.[٨٦١]مرققاً: رقيقاً ، ضدَّ الغليظ.

.[٨٦٢]سميط: الذي أزيل شعره بالماء المسخَّن ، وشوي.
.[٨٦٣]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ (ص) والمؤمنات في سورة الأحزاب ، ص ٧٧.

.[٨٦٤]المصدر السابق ، ص ٧٩.
.[٨٦٥]انظر: تفسير السَّعدي (١٤٨/٤).
.[٨٦٦]انظر: البداية والنِّهاية (١٣٦/٧).

.[٨٦٧]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٧٥.
.[٨٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٣٦/٢) ، ودراساتٌ في عهد النُّبوة ، ص ٢٢٢.
.[٨٦٩]انظر: نضرة النَّعيم (٣٩٨/١) ، والطبقات الكبرى (١٦٨/٢).
.[٨٧٠]انظر: فتح الباري (٨٢/٨).
.[٨٧١]البداية والنِّهاية، لابن كثير ، ذكر بعث رسول الله (ص) أبا بكرٍ الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسع، ونزول سورة براءة ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٢٥.
.[٨٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٣٧/٢).

.[٨٧٣]انظر: نضرة النَّعيم (٣٩٩/١).
.[٨٧٤]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٢٤.
.[٨٧٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٤٠/٢).
.[٨٧٦]المصدر السابق نفسه (٥٤٠/٢).

.[٨٧٧]انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٣.
.[٨٧٨]ينظر الشكل (٢٢) في الصفحة (٧٦٦).
.[٨٧٩]انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٤.
.[٨٨٠]انظر: نضرة النَّعيم (٣٩٦/١).
.[٨٨١]انظر: البداية والنِّهاية (٤٦/٥ ـ ٤٧).
.[٨٨٢]انظر: نضرة النَّعيم (٣٩٧/١).

.[٨٨٣]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/٥٤٢).
.[٨٨٤]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٤٠ . ٩٨).

.[٨٨٥]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٩٨).
.[٨٨٦]المصدر السابق نفسه.
.[٨٨٧]انظر: الأساس في السُّنَّة ، السِّيرة النَّبويَّة (٢/١٠١٤).
.[٨٨٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٥٤٤).
.[٨٨٩]انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/١٠١٤).
.[٨٩٠]انظر: المدينة النَّبويَّة ، فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي ، لمحمد شُرّاب (٢/٤٠٠).
.[٨٩١]انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ٢٢١.
.[٨٩٢]انظر: محمَّد رسول الله ، صادق عرجون (٤/٥٢٠).

.[٨٩٣]المصدر السابق نفسه (٤/٥٢١).
.[٨٩٤]مرحباً بالقوم: صادفت رحباً وسعةً.
.[٨٩٥]غير خزايا ، ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخُّرٌ عن الإسلام ، ولا عنادٌ.
.[٨٩٦]شقة بعيدة: السَّفر البعيد ، أو المسافة البعيدة.
.[٨٩٧]الأمر الفصل: البيِّن الواضح الَّذي ينفصل به المراد.
.[٨٩٨]الدَّباء: القرع اليابس.
.[٨٩٩]الحنتم: أصحُّ الأقوال فيها: الجرار الخضر؛ وهي جرار كان يحمل فيها الخمر.
.[٩٠٠]المزفَّت: الأوعية الَّتي فيها الزِّفت.
.[٩٠١]النَّقير: جذع ينقر وسطها ثمَّ ينبذ فيها الرُّطب ، والبُسْرُ.

.[٩٠٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٣١.
.[٩٠٣]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٣٥.
.[٩٠٤]تجد: تحقد ، وتحمل البغضاء.

.[٩٠٥]الضَّفيرتين من الشَّعر.

.[٩٠٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٣٠.

.[٩٠٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٥٠.

.[٩٠٨]نجران: بلد كبيرٌ على سبع مراحل من مكَّة إلى جهة اليمن.

.[٩٠٩]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٤٨) ، وهداية الحيارى في الردِّ على اليهود ، والنَّصارى.

.[٩١٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٤٧) ، والدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، للسُّيوطي ، وأبا نعيم في الدَّلائل.

.[٩١١]انظر: زاد المعاد (٣/٦٣٣) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٤٧).

.[٩١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٤٧) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل (المباهلة).

.[٩١٣]المصدر السابق نفسه (٢/٥٤٧) ، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ، قوله: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح.

.[٩١٤]المصدر السابق نفسه.

.[٩١٥]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٢٢.

.[٩١٦]انظر: السِّيرة لابن هشام (٤/٢٥٠).

.[٩١٧]انظر: الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، ص ٢٣١.

.[٩١٨]انظر: الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، رقم ١١١ ، ص ٢٣٠.

.[٩١٩]المصدِّق: اخذ الزَّكاة.

.[٩٢٠]المخلاف: الإقليم ، والكورة ، والرستاق.

.[٩٢١]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/١٨٧).

.[٩٢٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٨٦.

.[٩٢٣]انظر: صحيح السِّيرة ، ص ٦٥٤.

.[٩٢٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٥٩).

.[٩٢٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٨٦/٨).
.[٩٢٦]انظر: دراسات في عهد النُّبوة للشُّجاع ، ص ٢٢١.

.[٩٢٧]العبر وديوان المبتدأ والخبر ، لابن خلدون (٥٩/٢).
.[٩٢٨]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١٥٣/٤).
.[٩٢٩]انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور الحرابي ، ص ٤٤.
.[٩٣٠]انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص ٤٤ ، والتراتيب الإدارية ، للكتّاني (٢٢٧/١).
.[٩٣١]انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص ٤٤.

.[٩٣٢]ينظر الشكل (٢٣) في الصفحتين (٧٦٧).
.[٩٣٣]انظر: زاد المعاد (٥٩٥/٣).
.[٩٣٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٨٠ ، وزاد المعاد (٥٩٥/٣).
.[٩٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٧٥/٢).
.[٩٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٦.

.[٩٣٧]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦٤ ، والسِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٦.
.[٩٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٧.
.[٩٣٩]الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطا.
.[٩٤٠]نفذ إلى مقام إبراهيم: أي: بلغه ماضياً في زحام.
.[٩٤١]انصبت قدماه: انحدرت.
.[٩٤٢]صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي.

.[٩٤٣]صحيح السيرة النبوية ، ص ٦٥٩.
.[٩٤٤]نمرة: موضع بجنب عرفات ، وليست من عرفات.
.[٩٤٥]المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه ، ولا تقف مع العرب في عرفات ، ولكن رسول الله (ص) وقف في عرفات.

.[٩٤٦]فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها ، وإنَّما توجه إلى عرفات.
.[٩٤٧]بطن الوادي: وادي عُرَنَةَ ، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء ، إلا مالكاً قال: من عرفات.
.[٩٤٨]أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريبٍ ، أو بعيدٍ ، أو امرأة إلا مَنْ يرضى عنه زوجها.
.[٩٤٩]الضَّرب المبرح: الشَّديد الشاق.
.[٩٥٠]ينكتها: يقلبها ، ويرددها إلى النَّاس مشيراً إليهم.
.[٩٥١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦١.

.[٩٥٢]الصَّخرات: صخرات في أسفل جبل الرَّحمة ، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات.
.[٩٥٣]حبل المشاة: مجتمعهم ، وقيل: جبل المشاة: ومعناه طريقهم حيث تسلك الرَّجالة.
.[٩٥٤]حتَّى غاب قرص الشَّمس: حتَّى غابت الشَّمس ، وذهبت الصفرة.
.[٩٥٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩.
.[٩٥٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٦٢.
.[٩٥٧]الضمير في (أسفر) يعود على الفجر المذكور ، وقوله: (جدّاً) بكسر الجيم؛ أي: إسفاراً بليغاً.
.[٩٥٨]سُمِّيَ بذلك لأن قيل: أصحاب الفيل حُسِرَ فيه.

.[٩٥٩]انظر صحيح السِّيرة النَّبويّة ، ص ٦٦٢ ، والسِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩.
.[٩٦٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩.
.[٩٦١]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩٠.
.[٩٦٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٥٥٠/٢) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٧٨/٢).
.[٩٦٣]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٩٠.
.[٩٦٤]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦٣.
.[٩٦٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٩٠.

.[٩٦٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٧٩/٢) ، والمستفاد من قصص القران (٥١٥/٢).

.[٩٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٩٠.
.[٩٦٨]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٨٨.
.[٩٦٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٥٥٠/٢).
.[٩٧٠]انظر: البداية والنِّهاية (٢٠٩/٥).
.[٩٧١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٥٥١/٢).
.[٩٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٨١/٢).

.[٩٧٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٩١ نقلاً عن زاد المعاد (٢٤٩/١).
.[٩٧٤]انظر: الأساس في السُّنة (١٠٥٤/٢).
.[٩٧٥]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص٣٣١.
.[٩٧٦]قراءةٌ سياسيَّةٌ للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ٣٠٣.

.[٩٧٧]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٠٣.
.[٩٧٨]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٠٤.
.[٩٧٩]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٥٧٥.
.[٩٨٠]انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٣٣٢.
.[٩٨١]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٥٧٦.
.[٩٨٢]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٣٣.

.[٩٨٣]انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام ، لعرجون (٨٧٦/٢).
.[٩٨٤]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٣٣.
.[٩٨٥]انظر: الجانب السِّياسي في حياة الرَّسول (ص) لأحمد محمد باشميل ، ص ١٣١.
.[٩٨٦]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٥٤٩/٢).

.[٩٨٧]انظر: المستفاد من قَصص القران (٥١٨/٢).
.[٩٨٨]انظر: المستفاد من قَصص القران (٥١٧/٢ ، ٥١٨).

.[٩٨٩]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدعاة (٢/٥١٨).

.[٩٩٠]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/٥٤٩) ، وما ألفه الألباني «حجَّة النَّبي (ص) ».
.[٩٩١]الإناء الذي يحلب فيه.
.[٩٩٢]فوقصته: قتلته في الحال.
.[٩٩٣]لا تحنِّطوه: لا تضعوا عليه من الطِّيب شيئاً.
.[٩٩٤]لا تخمِّروا رأسه: لا تغطوا رأسه.
.[٩٩٥]ملبِّياً: يحشر يوم القيامة على الهيئة التي مات عليها.

.[٩٩٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٨٣.
.[٩٩٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨١.
.[٩٩٨]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/٥٧٩).

.[٩٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٨٧).
.[١٠٠٠]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، لخالد أبو صالح ، ص ٣٣.
.[١٠٠١]انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/٢٢٢).

.[١٠٠٢]انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٣).
.[١٠٠٣]انظر: البداية والنِّهاية (٥/١٨٩).

.[١٠٠٤]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ، ووفاته ، ص ٣٥.
.[١٠٠٥]انظر: شرح النَّووي على صحيح مسلم (٩/٤٥).
.[١٠٠٦]انظر: لطائف المعارف ، ص ١٠٥.

.[١٠٠٧]فتح الباري (٧/١٦).
.[١٠٠٨]تنزع إلى السَّماء: أي: تجذب ، وأصل النزع: الجذب ، والقلع.
.[١٠٠٩]بأشطان شداد: الأشطان جمع شطن ، وهو الحبل.

.[١٠١٠]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، ص ٣٧.

.[١٠١١]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨.

.[١٠١٢]ينظر الشكل (٢٤) في الصفحة (٧٦٨).

.[١٠١٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٥٥٢/٢).

.[١٠١٤]أي: الفتن الاخرة.

.[١٠١٥]قال ابن عبَّاس: الرجل الاخر هو عليٌّ بن أبي طالب.

.[١٠١٦]جمع الوكاء ، وهو ما يشدُّ به رأس القربة.

.[١٠١٧]مخضب: بكسر الميم ، وهي الإجَّانة الَّتي تغسل فيها الثياب.

.[١٠١٨]بعصابة دسماء: أي: سوداء.

.[١٠١٩]كرشي ، وعيبتي: أراد أنَّهم بطانته ، وموضع سرِّه ، وأمانته ، والَّذين يعتمد عليهم في أموره ، واستعار الكرش ، والعيبة لذلك.

.[١٠٢٠]العيبة: ما يحرز فيه الرَّجل نفيس ما عنده.

.[١٠٢١]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، ص ٦٥.

.[١٠٢٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٧١٢.

.[١٠٢٣]قمنٌ: أي: جديرٌ ، وحقيقٌ.

.[١٠٢٤]أسيف: من الأسف ، وهو شدَّة الحزن ، والمراد: أنَّه رقيق القلب.

.[١٠٢٥]والمراد أنَّهنَّ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن.

.[١٠٢٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠١.

.[١٠٢٧]السُّنح: موضع خارج المدينة كان للصدِّيق مال فيه ، وبيت.

.[١٠٢٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٩٣/٢).

.[١٠٢٩]السَّحْر: الرِّئة ، والنَّحْر: الثغرة التي في أسفل العنق.

.[١٠٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠٣.

.[١٠٣١]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٢٣).
.[١٠٣٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠٤ .

.[١٠٣٣]انظر: لطائف المعارف ، ص ١١٤.
.[١٠٣٤]انظر: تفسير القرطبيِّ (٢/١٧٦).
.[١٠٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٩٤).

.[١٠٣٦]انظر تفسير القرطبيِّ (٤/٢٢٢).
.[١٠٣٧]انظر: مرض النَّبي (ص) ووفاته ، ص ٢٤.
.[١٠٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٤٠٦ .

.[١٠٣٩]انظر: مختصر سيرة الرَّسول (ص) ، ص ٣٧ ، وتهذيب الأسماء للنَّوويِّ ، ص ٢٣.
.[١٠٤٠]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٢٣٢).
.[١٠٤١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٧٢٧.
.[١٠٤٢]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ، ووفاته ، ص ١٦٠.
.[١٠٤٣]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٢٣٨).

.[١٠٤٤]اللَّحد: الشَّقُّ الَّذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت.
.[١٠٤٥]والشق: أي: يحفر في وسط الأرض.
.[١٠٤٦]انظر: المجموع ، للنَّوويِّ (٥/٢٨٧).
.[١٠٤٧]انظر: أحكام الجنائز ، ص ١٤٤.
.[١٠٤٨]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، (ص ١٦٠) وقد استفدتُ من هذا الكتاب فائدةً كبرى في مبحث مرض ووفاة الرَّسول (ص) .
.[١٠٤٩]انظر: مرض النبي (ص) ووفاته ، ص ١٦٤.
.[١٠٥٠]انظر: زاد المعاد (١/٥٢٤).
.[١٠٥١]انظر: تهذيب السُّنن ، لابن القيِّم (٤/٣٣٨).

.[١٠٥٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٢١/٤).
.[١٠٥٣]انظر: تهذيب الأسماء ، ص ٢٣.
.[١٠٥٤]انظر: مختصر السِّيرة ، ص ٣٥.
.[١٠٥٥]انظر: مرض النَّبي (ص) ووفاته ، ص ١٧٣.
.[١٠٥٦]انظر: تهذيب الأسماء للنَّووي ، ص ٢٣.

.[١٠٥٧]انظر: البداية والنِّهاية (٢٣٧/٥) ، وصحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٧٢٨.
.[١٠٥٨]انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٧٢٩.
.[١٠٥٩]الماقي: جمع مأق ، ومؤق ، وهي مجاري الدَّمع من العين.
.[١٠٦٠]الأرمد: الَّذي يشتكي وجع العين.
.[١٠٦١]بقيع الغرقد: المكان الذي يَدْفِن فيه أهل المدينة موتاهم.
.[١٠٦٢]متلدِّد: متحيِّر.
.[١٠٦٣]صُبِّحْتُ: سُقيت صبحاً.
.[١٠٦٤]الأسود: ضرب من الحيَّات.
.[١٠٦٥]الضَّرائب: الطَّبائع.
.[١٠٦٦]المحتد: الأصل.

.[١٠٦٧]تثني عيونَ الحسَّد: تصرفها ، وتدفعها.
.[١٠٦٨]سواءُ الملحَدِ: وسطُه.
.[١٠٦٩]الإثمد: كحلٌ أسود.
.[١٠٧٠]أي: بني النَّجار أخوال النَّبيِّ (ص) من قبل ابائه.
.[١٠٧١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣٢٨/٤).
.[١٠٧٢]الصَّادي: العَطش ، السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٢٩/٤).
.[١٠٧٣]انظر: المستطرف للأبشيهي ، ص ٣٦٦ ، وديوان أبي بكرٍ الصِّديق ، طبع حديثاً حقَّقه ، وشرحه راجي الأسمر ، ص ٣٢ ، ٣٣.

.[١٠٧٤]انظر: الاكتفاء ، للكلاعي (٢/٤٥٦).

.[١٠٧٥]الهرج: الفتنة والاختلاط.

.[١٠٧٦]انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/٢١٩ ، ٢٢٠).